الإعجاز القرآني بين فصاحة الكلمة وبلاغة النظم

سورة إبراهيم نموذجاً

Salih DERŞEVİ

DUVAR



El-İ'câzü'l-Kur'anî Beyne Fesâhati'l-Kelime ve Belâğati'n-Nazm: Sûretü İbrahim Nemûzecen
Salih DERŞEVİ

Genel Yayın Yönetmeni: Berkan Balpetek
Editör: Ömer Faruk HABERGETİREN
Yayın Tarihi: Aralık 2024
Yayıncı Sertifika No: 49837
ISBN: 978-625-6183-84-1

© Duvar Yayınları
853 Sokak No:13 P.10 Kemeraltı-Konak/İzmir
Tel: 0 232 484 88 68

www.duvaryayinlari.com
duvarkitabevi@gmail.com

جدول المحتويات

المقدمة viii

جدول المحتويات ii

مدخل 1

الفصل التمهيدي 7

المبحث الأول: بين يدي سورة إبراهيم 8

أولاً – التعريف بسورة إبراهيم وبيان فضلها 8

ثانياً – سبب تسمية السورة 9

ثالثاً – أسباب نزول السورة 11

رابعاً – ما ورد في فضل سورة إبراهيم 11

خامساً – هدف السورة وموضوعاتها 14

سادساً – مناسبة السورة لسورتي الرعد والحجر 17

سابعاً – الوحدة الموضوعية في سورة إبراهيم 25

المبحث الثاني: إعجاز القرآن الكريم 30

أولاً – وجوه إعجاز القرآن الكريم 32

ثانياً – الوجه البلاغي في إعجاز القرآن الكريم 36

ثالثاً – مصدر الإعجاز البلاغي وسر تعذر الإتيان بمثل القرآن الكريم 41

الفصل الأول: سمات الكلمة القرآنية 46

المبحث الأول: صفاء الكلمة القرآنية وفصاحتها 48
أولاً – خلو السورة من الغريب الوحشي من المفردات..... 49
ثانياً – اعتدال جذر كلمات السورة من حيث عدد الحروف..... 59
ثالثاً – التناغم الصوتي بين حروف الكلمة وحركاتها 63
المبحث الثاني: اصطفاء المفردة القرآنية 77
أولاً – المفردة القرآنية صفوة كلام العرب 77
ثانياً – أمثلة من سورة إبراهيم..... 81
الفصل الثاني: بلاغة الكلمة القرآنية من حيث هيئتها 96
المبحث الأول: هيئة التعريف والتنكير 97
أولاً – التعريف بالإضمار في سورة إبراهيم..... 97
ثانياً – التعريف باسم الإشارة 112
ثالثاً – التعريف باللام 118
رابعاً – التعريف بالإضافة 126
خامساً – التعريف بالعلمية 135
سادساً – التعريف باسم الموصول..... 141
سابعاً – التنكير 148
المبحث الثاني: هيئة الإفراد والجمع 159
أولاً – كلمات لم ترد إلا جمعاً وأخرى لم ترد إلا مفردة 159

ثانياً – دلالة لفظ (السماء) مفرداً وجمعاً..... 161
ثالثاً – دلالة لفظ (السبيل) مفرداً وجمعاً..... 167
رابعاً – دلالة لفظ (النعمة) مفرداً..... 168
خامساً – التعبير بالجمع عن المفرد 170
سادساً – جمع (الظلمات) وإفراد (النور)..... 172
سابعاً – جمع (الجنات) وإفراد (النار)..... 173
ثامناً – دلالة إفراد لفظ (الطرف)..... 174
المبحث الثالث: الخروج على مقتضى الظاهر 176
أولاً – وضع الظاهر موضع المضمر 176
ثانياً – التقديم والتأخير..... 184
الفصل الثالث: البلاغة القرآنية في أسلوبي الخبر والإنشاء..... 199
المبحث الأول: بلاغة الأسلوب الخبري في القرآن الكريم 200
أولاً – الغرض من إلقاء الخبر 201
ثانياً – أضراب الخبر 214
ثالثاً – خروج الخبر على مقتضى الظاهر 225
المبحث الثاني: البلاغة القرآنية في الأساليب الإنشائية..... 232
أولاً – الاستفهام 234
ثانياً – الأمر..... 242

ثالثاً – النهي 258
رابعاً – النداء 261
الفصل الرابع: البلاغة القرآنية في نظم الجمل والمعاني..... 268
المبحث الأول: البلاغة القرآنية في نظم جملة القصر 269
أولاً_ القصر بـ (إنما) 272
ثانياً– القصر بالنفي والاستثناء 276
ثالثاً– القصر بطريق دلالات في الكلام تفهم من:..... 282
المبحث الثاني: النظم القرآني بين الإيجاز والإطناب 288
أولاً – الإيجاز:..... 289
ثانياً – الإطناب 337
المبحث الثالث: البلاغة القرآنية في الفصل والوصل بين الجمل 362
أولاً – تعريف الفصل والوصل 362
ثانياً – دواعي الفصل..... 363
ثالثاً – دواعي الوصل 374
الفصل الخامس: البلاغة القرآنية في نسج الصورة البيانية 380
المبحث الأول: التشبيه..... 385
أولاً – معنى التشبيه 385
ثانياً – شواهد التشبيه في سورة إبراهيم 386

ثالثاً – التشبيه البليغ في السورة 388
رابعاً – التشبيه التمثيلي في السورة 392
المبحث الثاني: المجاز 401
أولاً – معنى المجاز 401
ثانياً – أنواع المجاز 402
ثالثاً – المجاز اللغوي 403
المبحث الثالث: الكناية 423
أولاً – معنى الكناية..... 423
ثانياً – أقسام الكناية 424
الفصل السادس: البراعة القرآنية في توظيف المحسنات البديعية 439
المبحث الأول: المحسنات المعنوية 442
الأول – الطباق: 442
الثاني – مراعاة النظير 456
الثالث – الجمع 459
الرابع – التفريق..... 461
الخامس – حسن التقسيم 462
السادس – الإرصاد (التسهيم) 463
السابع – الاستقصاء 466

الثامن – الإدماج 467
التاسع – الاستتباع (التعليق) 469
العاشر – الاطراد 471
الحادي عشر – الاستدراج 472
المبحث الثاني: المحسنات اللفظية 474
الأول – الجناس 475
الثاني: السجع (الفواصل في السورة الكريمة) 481
الثالث – لزوم ما لا يلزم 498
الرابع – رد العجز على الصدر 500
الخامس – المشاكلة 502
الخاتمة 505
المصادر والمراجع 514

المقدمة

الحمد لله الذي جعل اللغة العربية لبوس كلامه ووعاء بيانه وأحكامه واختار من مفرداتها وتراكيبها أفصحها ومن أساليبها أرصنها وأرفعها، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على أبلغ ناطق بالضاد سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين وبعد:

فقد اصطفى الله تبارك وتعالى اللغة العربية وارتضاها وسيطاً بينه وبين عباده لما امتازت به من سعة الكلمات ومرونة القواعد وجمال الأساليب، وشاء الله تعالى أن يجعل بيانه معجزة خالدة تشهد لنبيه بالأمانة والرسالة، وتلجم أفواه المكذبين والمشككين إلى يوم الدين، فصاغ كلامه وأحكام شريعته في نظم قوامه ألفاظ كلام العرب ومألوف تراكيبهم؛ ولكن بأسلوب بديع وتأليف عجيب أبهر بلغاءهم وأدهش خطباءهم إلى الحد الذي أظهر ضعفهم وعجزهم عن معارضته رغم محاولاتهم المتكررة.

وفي هذا السياق تأتي دراستي محاولة الوقوف عند أسباب تفوق النظم الحكيم على سائر كلام العرب من خلال الغوص على الأسرار والنكت البلاغية التي اشتمل عليها البيان الإلهي، وتحليل أسلوبه العالي والمتميز ومنهج انتقائه لمفرداته وطريقة تأليفها، والتعرف على مذهبه في عرض الصورة البيانية وانتقاء عناصرها، إضافة إلى إبراز ما احتواه هذا النظم من محسنات لفظية ومعنوية خلعت عليه ملاحة وسحراً جعلته يأخذ القلوب ويأسر الألباب ويملأ النفوس طرباً ونشوة.

وقد سرت في كل ذلك على هدي من القواعد البلاغية التي وضعها أهل اللغة وارتضوها معايير احتكموا إليها في تمحيص جيد الكلام من رديئه، وانتهى بهم الأمر إلى تقعيدها وترتيبها في ثلاثة فنون: فن المعاني، وفن البيان، وفن البديع. واخترت

سورة إبراهيم حقلاً للدراسة التطبيقية آخذاً بالاعتبار حجمها المناسب لطبيعة دراسته التحليلية الاستقرائية، وكونها نموذجاً مثالياً لسور القرآن الكريم التي لا تتفاوت في درجة بلاغتها. وقد ارتأيت الولوج إلى الدراسة من خلال فصل تمهيدي عرضت في المبحث الأول منه تعريفاً شاملاً بسورة إبراهيم موضوع الدراسة، ثم اجتهدت في المبحث الثاني منه في تحديد الوجه المراد بإعجاز القرآن الكريم على ضوء من أقوال أهل العلم ومذاهبهم، ثم صغت صلب الدراسة التفصيلية في ستة فصول يقفوها خاتمة كما هو مبين في فهرس الموضوعات.

وفي هذا المقام لا يسعني إلا أن أخفض جناح الذل والرحمة مهدياً هذه الدراسة لمن جعل الله جنتي تحت قدميها، وسعادتي أو شقائي بين كفيها.. لمعلمتي الأولى وملهمتي.. (والدتي رحمها الله).

ولمن غرس فيّ حب دين الله والتفاني في خدمته.. (والدي رحمه الله).

ولما كان هذا الكتاب في الأصل أطروحة دكتوراه حملت عنوان "سورة إبراهيم دراسة بلاغية" نلت بها الدرجة العلمية من معهد العلوم الاجتماعية بجامعة يالوفا في تركيا، فإني أجد نفسي مديناً بجزيل الشكر وعظيم الامتنان والعرفان لكل من مشرفتي د. سمية حاج نايف على ما أولته للبحث من العناية والاهتمام، وللأستاذ الدكتور عبد الرحمن أوزدمير لقبوله أن يكون مشرفاً خارجياً.

ولا يفوتني أن أهدي هذا الدراسة كذلك إلى أفراد أسرتي؛ زوجتي، وأبنائي (طه ورابعة وريان) سائلاً المولى عز وجل أن يجعلهم قرة عين لي. والله تعالى أدعو أن يتقبل مني هذا العمل ويثقل به ميزان حسناتي ويلهمني الصواب والإخلاص في القول والعمل إنه خير مجيب.

مدخل

جعل الله كتابه المبين ناطقاً بنسبته إليه جل وعلا بما أودع فيه من الأسرار التي لا يحيط بها إنس ولا جان، وأقامه برهاناً على صدق نبوة رسوله عليه الصلاة والسلام، فهو المعين الذي لا ينضب، والنبع الذي لا تكدره كثرة الواردين، جمع بين دفتيه النظرة السليمة للكون والإنسان، ومجامع الحكم وفضائل الأخلاق وضمانة المجتمع من الأحكام والقوانين فكان بحقٍ دستور الحياة، من تمسك بحبله اهتدى وأفلح ومن تركه خاب وخسر وضل ضلالاً بعيداً، وما اصطفاء الله تعالى للغة العربية من بين سائر اللغات وعاءً لكلامه إلا لما اتصفت به هذه اللغة من العذوبة والحيوية والمرونة والشمول إذ فاقت كلَّ نظيراتها في جزالة ألفاظها وتنوع أساليبها وتعداد مفرداتها فاستحقت- بذلك- أن تكون مهد الوحي الإلهي ووسيلة البشر في فهمه واستنباط أحكامه.

ولا تنتهي الحكمة الإلهية في انتقاء هذه اللغة عند هذا الحد، بل تتعداها لتكون سيفاً مسلطاً على رقاب المنكرين لرسالة النبي، ودليلاً فاضحاً لمزاعمهم وكاشفاً لافتراءاتهم، فقد شاء الله تعالى أن تكون رسالته الأخيرة للبشر إلى المجتمع الذي خرجت من رحِمِهِ هذه اللغة، كونه الناطق بها والخبير بفنونها وأسرارها وأساليبها، وهو الكفيل بإبراز مفاتنها وجمالها، ولا غرو في ذلك إذ بلغ الترف اللغوي بالعرب حين نزول الوحي أن صار تأليف الكلام على وجه بليغ بضاعة الناس الرائجة وسلعتهم التي لا تعرف الكساد فأقاموا لذلك الأسواق وارتادوا النوادي يتسابقون في إلقاء أشعارهم وعرض خطبهم. إلى أن نزل الوحي الإلهي على رجل منهم ليس له فضل على غيره في هذه البضاعة، غير أنه صار يتلو عليهم من مؤلف حروف لغتهم ومفردات كلامهم بياناً لا يتناهى إليه شعر ولا يضاهيه نثر، وأنى لكلام البشر أن يبلغ كلام الله تعالى.

ولم تكن طباع العرب البدوية لتسمح لهم بالاستسلام والانقياد لما ظهر بينهم دونما إظهار مقاومة وهو الذي سفه معتقداتهم في عقر دارهم ودعاهم لتغيير دينهم الذي لم يعرفوا غيره، بل تحداهم فيما اشتهروا به من صناعة الكلام فكان أن تزاحموا على معارضته فلم يدخروا وسيلة في محاربته ولكن الله تعالى أراد للقرآن الكريم أن يكون معجزة نبيه الخالدة، والبرهان على صدق ما جاء به، فقد جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً، فكان انتصار القرآن واستسلام أعدائه.

لقد اعتنى العلماء بهذا الجانب من القرآن الكريم أيما عناية كونه يكشف عن السلاح الذي أخرس الله تعالى به أعداءه وأقام عليهم الحجة، فكان لا بد أن يظل بارزا وأن ينقل جيلاً عن جيل برهاناً صادقا على نسبة هذا القرآن لله تعالى، وإذ من الله تعالى علي بالتخصص في علم البلاغة كان من دواعي سروري أن أسهم ولو بلبنة في هذا البناء فوقع اختياري على سورة إبراهيم لأقوم بخدمتها ببيان ما انطوت عليه من بلاغة وفصاحة وبيان من خلال دراسة السورة دراسة تطبيقية وتحليلية على ضوء مما ذكره علماء هذا العلم في أبواب البلاغة من قواعد، ولا أدعي أني أطرق ببحثي هذا باباً ما ولج منه باحث، ولا أزعم أني أفتح كتاباً ظل مغلقاً مر السنين والأيام، لأن العلماء والباحثين قد حجوا إلى هذه السورة مراراً وتناولوها بالبحث ونقبوا عن أسرارها تكراراً، ولكن حسبي أني لم أجد دراسة استنبطت كل وجوه البلاغة وقواعدها واستوفت الأسرار البلاغية في السورة.

هدف الدراسة

يهدف البحث إلى دراسة وجوه البلاغة القرآنية على ضوء من قواعد علوم المعاني والبيان والبديع، من خلال دراسة تطبيقية تحليلية لسورة إبراهيم، بإظهار مطابقة البيان الإلهي التامة والدقيقة لمقتضى الحال والمقام، وتعدد طرق تعبيره عن المعنى وطرحه للأفكار إضافة إلى التوظيف الأمثل للمحسنات البديعية في إضفاء مزيد من الحسن والجمال على النص القرآني.

الدراسات السابقة:

ليس غريباً أن لا تخلو سورة من القرآن الكريم من دراسات متنوعة، تتناولها من زوايا مختلفة، فلقد شكل كتاب الله عبر العصور محور الدراسات والعلوم ، تداعى له العلماء والباحثون ينهلون من معينه الصافي ويلتذون بأساليبه وبيانه كل حسب تخصصه، فكانت الدراسات اللغوية والفقهية والعقائدية وغيرها كثير، فهو البحر الزاخر بكنوزه ولآلئه والسعيد من حظي بنصيب وافر منها، وأريد أن أقف هنا عند أهم الدراسات والأبحاث المعاصرة التي تناولت سورة إبراهيم لأبين من خلالها أصالة هذا البحث وجدته وأن ما سيبحث الكاتب هنا مختلف عما ورد في تلك الأبحاث والدراسات. وبعد البحث الطويل في قواعد بيانات الرسائل العلمية في الجامعات المختلفة لم أقف على رسالة علمية تناولت سورة إبراهيم بلاغياً. غير أني أجد نفسي مضطراً للوقوف عند كتابين اثنين تطرقا إلى الجانب البلاغي من سورة إبراهيم وهما:

- **تأملات في سورة إبراهيم**: للدكتور عادل أحمد صابر الرويني، طبع بموجب إذن طباعة من المجلس الوطني للإعلام بدولة الإمارات عام 1434هـ/2012م، سعى الكاتب من خلال كتابه إلى دراسة موضوعات سورة إبراهيم دراسة تفسيرية لغوية وربطها بالقضايا الاجتماعية فقال في مقدمة كتابه: "ومن الجديد فيه أننا ربطناه ببعض القضايا الاجتماعية المعاصرة بأسلوب سلس يصل إلى القلوب والأفهام في يسر وسهولة" ابتعد المؤلف في دراسته عن المنهج الأكاديمي الذي يقسم الدراسة إلى فصول ومباحث ليكون حراً فيما يختار غير مقيد بتقسيمات كتب البلاغة وترتيبها، فنراه قد اختار لكتابه اسم (تأملات في سورة إبراهيم) وعنون لكل آية أو مجموعة آيات بعناوين مختلفة تشير إلى غرضها أو موضوعها أو ما لاحظه الكاتب من وجوه البلاغة فيها، فجاءت الدراسة خليطاً لا يجمعه سوى اسم "تأملات"، وهذه الدراسة

تختلف لا شك عما أعتزم تناوله من حيث الشكل والمنهج وطريقة البحث والمضمون.

- **من جمال النظم القرآني في سورة إبراهيم**: للدكتور صلاح الدين محمد أحمد، طبع في دار الطباعة المحمدية في مصر سنة 1410هـ/ 1989م، تناول الكاتب في كتابه نظم القرآن وأثر ذلك في تفسيره ومعانيه محاولاً تجلية مقاصد السورة واستنباط ما فيها من عبر وعظات، فجاء في مقدمة الكتاب: "وعلى هذا ستكون رحلتنا مع سورة سيدنا إبراهيم عليه السلام وسيكون النص القرآن هو منطلقنا بإذن الله لمعرفة مقاصد السورة وما ترشد إليه من عبر وعظات " وتختلف هذه الدراسة عما نحن بصدده في كونها تناولت النظم القرآني سبيلاً لفهم النص والوقوف على مقاصده في سورة إبراهيم، في حين هدفت هذه الدراسة إلى إظهار الجانب البلاغي وفق تقسيم أبواب البلاغة في دراسة لغوية تحليلية، مع ملاحظة أن الكتاب ليس بحثاً محكماً ولا أطروحة علمية أكاديمية.

أهمية البحث

تنبع أهمية البحث من موضوع دراسته والمجال الذي سيخوض فيه، فهو بحث في كتاب الله تعالى الذي لا يحاط بأسراره وعجائبه، يهدف إلى كشف جوانب بلاغته وجمال أساليبه وروعة بيانه في وقت ابتعد فيه أهل العربية عن لغتهم، وفقدوا ذوقهم السليم في تلمس مواطن الجمال في هذا البيان الإلهي، ناهيك عن العجم الذين ليس لهم في الأصل هذه الملكة، فيأتي البحث ليميط اللثام للعربي كما للعجمي عما في القرآن من الأسرار البلاغية والدقة المتناهية في التعبير، فيزيد المؤمن إيماناً بسماوية هذا الكتاب واعتقاداً بإعجازه وعلو منزلته كما يزيد معانيه وضوحاً ويسهل على الفقيه استنباط أحكامه.

سبب اختيار البحث:

من الأسباب التي دفعت الباحث إلى اختيار هذا الموضوع ما يلي:

1- رغبة الباحث بأن يكون قريباً من كتاب الله تعالى والتفيؤ بظلاله والإسهام في خدمته.

2- إن الدراسات التي تتناول القرآن الكريم كثيرة ومتنوعة وهي في ازدياد دائم وتنوع مستمر وبخاصة ما يتعلق منها بإعجاز القرآن من الجانب اللغوي، ولدى البحث في النتاج العلمي الأكاديمي من أطاريح ورسائل جامعية تبين للباحث أن معظم السور القرآنية قد خضعت للدراسة البلاغية وشارف البناء الشامخ على الإنجاز والاكتمال لا تنقصه سوى لبنات معدودة، فعزم الباحث على الإسهام ببحثه في هذا المشروع فيشغل جهده موقعاً من بناء القرآن البلاغي.

3- إن اختيار سورة من بين سور القرآن الكريم لتكون موضوع بحث بلاغي ليس بالأمر السهل إذ لا تفاضل بين سور القرآن الكريم فكلها خرجت من مشكاة واحدة ومصدر واحد لا تفاوت بينها ولا اختلاف، غير أن الذي هداني لاختيار سورة إبراهيم أمور أهمها أني لم أجد -فيما بحثت- أطروحة علمية فصلت القول فيما انطوت عليه هذه السورة من وجوه البلاغة وأبوابها في دراسة تحليلية على ضوء من علم المعاني والبيان والبديع. كما أن توسط سورة إبراهيم من حيث الطول يمكن الباحث من التعمق أكثر في تفاصيلها وسبر أغوارها والكشف عن مكنوناتها وكنوزها البلاغية ويبعده عن السطحية في البحث التي يفرضها غالباً طول الموضوع. ولما كان كانت سورة إبراهيم تدور حول إثبات النبوة والأنبياء وتجادل المشركين وتقيم الحجج والبراهين على ذلك صيغ ذلك في قالب بلاغي يجذب الأسماع ويأسر القلوب ويأخذ بلب الخصم فيثير فيه ما يحسن تذوقه وينقاد له تحت تأثير جماله، ومن هنا تميزت السورة بغزارة مادتها البلاغية وشكلت حقلاً خصباً للدرس البلاغي.

منهج الباحث في الدراسة

اتبع الباحث في دراسته المنهج التحليلي الاستقرائي القائم على استقصاء خصائص النظم وتتبع شواهدها في آيات السورة الكريمة، ثم تحليلها على ضوء من

قواعد علم البلاغة للوصول إلى ما تؤديه من أغراض وأسرار بلاغية. ولأن الباحث اتخذ من القواعد البلاغية المتفق عليها في علم المعاني والبيان والبديع منطلقاً لدراسته ومعايير يعرض عليها نظم الآيات فقد رأى من المناسب التوطئة لكل قاعدة بلاغية بما يذكر القارئ بمعناها ويزيل عجمتها من خلال شرح مجمل لها مع بعض الأمثلة التوضيحية، ثم الشروع في البحث عن شواهدها وتطبيقاتها في سورة إبراهيم حقل الدراسة. والباحث يعتمد في دراسته على ما ذكره المفسرون من نكت وأسرار بلاغية ملتزماً الأمانة العلمية في الإشارة في الهامش إلى كتب التفسير التي يستفيد منها، غير أنه كثيراً ما يُعمل الفكر ويكدّ الذهن ويشحذ الهمة مجتهداً في البحث عن شواهد القاعدة البلاغية واستنباط وجه الاستدلال بها وما تتضمنه من دواع وأغراض بلاغية، وهو يميز رأيه أحياناً بعبارة "يظهر للباحث" وغالباً ما يكتفي بعدم الإحالة على المصدر كدليل على أن الكلام عائد له. وربما توسع الباحث قليلاً في تفسير بعض الآيات موضع الشاهد البلاغي إيمانا منه بأن البلاغة خادمة للمعنى وكاشفة له، وأن ذلك يسهم أكثر في تجلية الغرض البلاغي المنشود.

الفصل التمهيدي

المبحث الأول: بين يدي سورة إبراهيم

أولاً - التعريف بسورة إبراهيم وبيان فضلها

سورة إبراهيم هي السورة الرابعة عشرة حسب ترتيب المصحف الشريف، إذ تقع بعد سورة الرعد وتسبق سورة الحجر، وتأتي بعد سورة نوح وقبل الأنبياء في ترتيب نزول السور القرآنية[1]،وعُدَّت آيَاتهَا أَربعًا وَخمسين عنْد المدَنِيين، وخمسا وَخمسِينَ عِند أَهل الشَّام، وَإِحدى وَخمسينَ عِندَ أَهلِ البصرةِ، وَاثنتين وَخمسِينَ عِند أَهل الكوفَة وهذا الأخير هو ما نجده في مصاحفنا.

وروى القرطبي عن الحسن وعكرمة وجابر قولهم إنها مكية[2] كلها وهو مذهب الجمهور[3]، فيما روي عن ابن عباس وقتادة أنها مكية إلا آيتين منها مدنيتان هما: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (28) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾[4] نزلتا في شأن قتلى المشركين الذين حاربوا الله ورسوله في غزوة بدر، وهناك من أضاف إلى الآتين السابقتين في الاستثناء الآية التي تليهما قوله تعالى:

---

[2] ينظر: الرازي، عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين، مفاتيح الغيب للرازي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثالثة - 1420 هـ، 56/19

[3] القرطبي: الجامع لأحكام القرآن:388/9

[4] ينظر: ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر – تونس 1984 هـ، 177/13، وابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية 1420هـ - 1999م، 476/4

[5] سورة إبراهيم: الآيتان 28، 29

وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ)[1][2]، وهنا يمكن القول: إن البحث في مكية السورة أو مدنيتها لا يتعلق به غرض ما لم يكن في السورة ما يتصل بالأحكام، فنزولها بمكة والمدينة سواء، إلا أن يكون فيها ناسخ أو منسوخ فحينها تظهر فائدته. يعني أنَّ ثمرة تحديد الزمان تطلب عند ذلك للوقوف على المتأخر من الآيتين للفصل في مسألة النسخ[3]. وهذا يجرنا للتساؤل: هل في سورة إبراهيم منسوخ أم لا؟[4]

قولان: الجمهور على أن لا وجود لمنسوخ في سورة إبراهيم، وقيل: هناك منسوخ وهو قوله تعالى: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)[5] نسختها آية سورة النحل: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الله لغَفورٌ رَحِيْمٌ)[6]

ثانياً – سبب تسمية السورة

قال ابن عاشور في تفسيره: "أضيفت هذه السورة إلى اسم إبراهيم عليه السلام فكان ذلك اسماً لها لا يعرف لها غيره. ولم أقف على إطلاق هذا الاسم عليها في كلام النبي صلى الله عليه وسلم ولا في كلام أصحابه في خبر مقبول"[7].

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 30

[3] ينظر: الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله، فتح القدير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، الطبعة الأولى – 1414 هـ، 111/3، وأبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي – بيروت، 30/5، والقرطبي، أحكام القرآن:338/9

[4] ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب:56/19، والألوسي، محمود بن عبد الله الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، 1415 هـ ،169/7

[5] ينظر: الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني:169/7

[6] سورة إبراهيم: الآية 34

[7] سورة النحل: الآية 18

[8] ابن عاشور، التحرير والتنوير: 177/13

ويظهر أن السور التي افتتحت ب(ألر)[1] قد تم تمييزها عن بعض بإضافة كل سورة إلى اسم نبي ذكرت قصته فيها، أو إلى مكان بعثته كما هي سورة الحِجْر، ونلحظ خروج سورة الرعد عن القاعدة لتميزها أصلاً بفاتحتها بـ (م) المضافة إلى (ألر)[2].

ورغم أن السورة سميت باسم نبي الله إبراهيم فإنها لم تجعل منه

محوراً للسورة كما نجد في سورة يوسف عليه السلام، فهناك تناولت السورة قصة يوسف بتفاصيلها ودقائقها أما هنا فكان للسورة طريقة أخرى ومسلك مختلف، إذ جاءت تسمية السورة باسم سيدنا إبراهيم منسجمة تمام الانسجام مع الجو العام للسورة ومرتبطة مع موضوعاتها، فالسورة تبرز في طياتها حقيقتين كبيرتين تدور حولهما آيات السورة:

وحدة الرسالات السماوية وتكاملها، ونعم الله تعالى الكبيرة والكثيرة على عباده وزيادة هذه النعم وتكاثرها ودوامها بالشكر، ولا شك أن شخصية إبراهيم الخليل عليه السلام مناسبة لهاتين الحقيقتين، فهو أبو الأنبياء ودعوات الرسل بعده امتداد للحنيفية السمحة التي جاء بها، وهو العبد الشكور لربه الأواه حينما أنعم الله عليه فأقر عينيه بالذرية الصالحة وجعل فيها النبوة والصلاح.

وكذلك لما تضمنته السورة من قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام[3] وإسكانه أهله في واد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم التزاما بما أمره الله،" كما اشتملت على

---

[2] وهي: سورة يونس، وسورة هود، وسورة يوسف، وسورة إبراهيم، وسورة الحجر.

[3] ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: 177/13

[4] ينظر: الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 268/1

دعوات لإبراهيم عليه السلام تمت في هذه الملة كالحج، وجعل الكعبة قبلة الصلاة، مع الدلالة على عظمتها"[1]

ثالثاً - أسباب نزول السورة

لم تذكر كتب أسباب النزول ولا التفاسير شيئاً عن سبب نزول هذه السورة إلا ما رواه الماوردي[2] عن مِقسم عن ابن عباس قوله" **كان قوم آمنوا بعيسى ابن مريم، وقوم كفروا به، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم، وكفر الذين آمنوا بعيسى، فنزلت هذه الآية**" يعني قوله تعالى: (الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)[3]

رابعاً - ما ورد في فضل سورة إبراهيم

لم يرد شيء في فضل تلاوة سورة إبراهيم، غير أن ابن مردويه قد أورد حديثاً ضعيفاً في تفسره[4] وتابعه عليه في ذلك كثير من المفسرين كالثعلبي[5] والزمخشري[6]

---

[2] القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد، محاسن التأويل، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - 1418 هـ، 296/6

[3] الماوردي، علي بن محمد بن محمد بن حبيب، النكت والعيون، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، 121/3

[4] سورة إبراهيم: الآية 1

[5] ينظر: المناوي، عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي، الفتح السماوي بتخريج أحاديث القاضي البيضاوي، دار العاصمة – الرياض، 745/2

[6] ينظر: الثعلبي، أحمد بن محمد بن إبراهيم، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى 1422، هـ - 2002 م، 304/5

[7] ينظر: الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل:568/2

والبيضاوي[1] وأبو السعود[2] وغيرهم وهو: «**من قرأ سورة إبراهيم أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كل من عبد الأصنام وعدد من لم يعبد**» وفي لفظ: "أُعطى بعدد مَن عبد الأَصنام مدينةً في الجنَّة، لو نزل بها مثلُ يأْجوج ومأْجوج لوسِعتهم ما شاؤوا من اللِّباس، والخَدَم، والمأْكول، وسائر النِّعم، وحرم عليه سرابيل القطِران، ولا تغشى النّارُ وجهه، وكان مع إِبراهيم في قباب الجنان، وأُعْطِي بعدد أَولادِ إِبراهيم حسنات ودرجات"[3]

والحديث رواه أبو داود في كتابه فضائل القرآن[4] والشجري في ترتيب الأمالي عن أبي بن كعب، وهو جزء من حديث طويل ذكر فيه لكل سورة من سورة القرآن فضيلة ويعرف بحديث فضائل السور[5].

وهو حديث ضعيف جداً بل أقرب إلى الموضوع، عبارته ركيكة لا تليق بعالي حديث النبي صلى الله عليه وسلم ولا تداني فصاحته وبيانه، قال عنه ابن المبارك: أظن أن الزنادقة وضعته[6]. وتعقبه المناوي في تخريجه لأحاديث البيضاوي وقال عنه: موضوع[7]، وذكره ابن الجوزي في موضوعاته وفصَّل القول فيه ملقياً باللائمة على أبي داود السجستاني في رواية كلام كهذا فقال: " وَقد فرق هَذَا الحَدِيث أَبُو إِسْحَاق

---

[2] ينظر: البيضاوي، عبد الله بن عمر، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى - 1418 هـ،205/3

[3] ينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم:62/5

[4] الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز:271/1

[5] ينظر: الزيلعي، عبد الله بن يوسف بن محمد، تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، دار ابن خزيمة – الرياض، الطبعة الأولى: 1414هـ، 344/4

[6] ينظر: الشجري، يحيى بن الحسين بن إسماعيل بن زيد الحسني، ترتيب الأمالي الخميسية، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى: 1422هـ، 2001م، 130/1

[7] ينظر: ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد، الموضوعات، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، الطبعة: الأولى، 1386 هـ - 1966م، 241/1

[8] الفتح السماوي بتخريج أحاديث القاضي البيضاوي:745/2

الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره فَذكر عِنْد كل سُورَة مِنْهُ مَا يَخُصهَا وَتَبعهُ أَبُو الْحسن الواحدي فِي ذَلِك وَلَا أعجب مِنْهُمَا لانهما ليسا من أَصْحَاب الحَدِيث، وَإِنَّمَا عجبت من أبي بكر بن أبي دَاوُد كَيفَ فرقه على كِتَابه الَّذِي صنفه فِي فَضَائِل الْقُرْآن وَهُوَ يعلم أَنه حَدِيث محَال.."[1]

ومن جهة الإسناد قال فيه ابن الجوزي: " وفى إِسْنَاد الطَّرِيق الأول بديع. قَالَ الدَّارَقُطْنِيُّ: وَهُوَ مَتْرُوك، وفى الطَّرِيق الثَّانِي مخلد بن عبد الْوَاحِد قَالَ ابْنُ حِبَّانَ: مُنْكَرُ الْحَدِيثِ جِدًّا يَنْفَرِدُ بمناكير لَا تشبه أَحَادِيث الثقاة، وَقد اتّفق بديع ومخلد عَلى رِوَايَة هَذَا الحَدِيث عَن عَليّ بن زيد، وَقد قَالَ أَحْمَدُ وَيحيى: عَليّ بن زيد لَيْسَ بشيء"[2]

وإذا كان أهل العلم قد أجازوا العمل بالحديث الضعيف في مجال فضائل الأعمال فإنهم اشترطوا لذلك شروطاً منها: أن لا يكون شديد الضعف، والكلام الذي بين أيدينا غاية في الضعف والوهن؛ بل حكم عليه بعضهم بالوضع[3] ولا يهمنا رواية المفسرين له ففي تفاسيرهم الغث والسمين.

وعليه لا تصح رواية هذا الحديث وما شاكله من الأحاديث الشديدة الضعف وتغنينا عن ذلك الأحاديث الصحيحة الواردة في فضل تلاوة القرآن الكريم وجزيل ثوابها، وربما كان دافع بعض القصاصين من رواية هكذا أحاديث جلب قلوب العامة وترغيبها بالدين، وحثهم على الإقبال على كتاب الله[4]، ولا خلاف أن ذلك لا يشفع لهم ولا يبرر لهم اختلاق كلام ونسبته للنبي لما ورد في ذلك من الوعيد الشديد.

---

[2] ابن الجوزي، الموضوعات: 241/1

[3] ابن الجوزي، الموضوعات: 241/1

[4] قال الشربيني في السراج المنير: "حديث موضوع"، ينظر: السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، مطبعة بولاق (الأميرية) – القاهرة، 1285 هـ، 192/2

[1] ساق ابن الجوزي حكاية شيخ كان يروي هذا الحديث مع العلم بوضعه يقصد من ذلك ترغيب الناس بكتاب الله، فجاء في موضوعاته: " أَنْبَأَنَا إِبْرَاهِيم بن دِينَار الْفَقِيه وَالْمبَارك بن عَليّ الصَّيْرَفِي قَالَا أَنْبَأَنَا عَليّ بن

خامساً - هدف السورة وموضوعاتها

لا تختلف سورة إبراهيم كثيراً عن السور المكية عموماً في إطارها العام وأهدافها ولا في موضوعاتها كذلك، إذ تهدف إلى ترسيخ أسس العقيدة الإسلامية والاستدلال على أصول الدين من الإيمان بالله والإيمان بالرسل والأنبياء والإيمان بالبعث والنشور والحساب والجزاء.

وتبين أن من فضل الله تعالى على البشر أن شملهم كلهم بنعمه لم يفرق بين مؤمن به وكافر، ولكن تؤكد في الوقت نفسه على أن خاتمة الشاكر للنعم تختلف عن مآل الجاحد وأن الناكرين لنعم الله والظالمين سينالهم في الآخرة عقاب من الله عظيم.

وتحقيقاً لهذا الغرض وإنجازاً لهذا الهدف جُعِل محور السورة الأساس الرسالة والرسل؛ وحدتها ووظيفتَهم ووحدة دعوتهم، فالأنبياء جميعاً بعثوا لتعريف الناس بخالقهم الإله الحق الذي تعنو له الوجوه وتخضع له الرقاب. بالإضافة إلى تذكير الناس بنعم الله تعالى الكثيرة عليهم وواجبهم في شكرها، ثم تذكر السورة قصة سيدنا إبراهيم كنموذج للعبد الشاكر لربه الذي استجاب دعاءه، ثم تختم بتصوير عاقبة المجرمين وهم مقرنين في أصفادهم سرابيلهم من قطران تغشى وجوهم النار. أعاذنا الله من تلك العاقبة ورزقنا رضوانه.

مُحَمَّد ابْن العلاف قَالَ أَنْبَأَنَا أَبُو الْحسن عَليّ بن أَحْمَدَ بن عمر الحماهي قَالَ أَنْبَأَنَا الْحسن بن مُحَمَّدٍ قَالَ أَنْبَأَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَليّ بن يحيى بن سَلام الدَّامغَانِي قَالَ سَمِعت مُحَمَّد بن النَّضر النَّيْسَابُورِي يَقُول سَمِعت مَحْمُود بن غيلَان يَقُول سَمِعت مؤملا يَقُول حَدَّثَنِي شيخ بفضائل سور الْقُرْآن الَّذِي يروي عَن أبي بن كَعْب، فَقلت للشَّيْخ من حَدثَك؟ فَقَالَ حَدَّثَنِي رجل بالمداين وَهُوَ حَيّ فصرت إِلَيْهِ فَقلت من حَدثَك؟ فَقَالَ: حَدَّثَنِي شيخ بواسط وَهُوَ حَيّ فصرت إِلَيْهِ، فَقَالَ حَدَّثَنِي شيخ بِالْبَصْرَةِ فصرت إِلَيْهِ فَقَالَ حَدَّثَنِي شيخ بعبادان فصرت إِلَيْهِ، فَأخذ بيَدي فَأَدْخلنِي بَيْتا فَإِذا فِيهِ قوم من المتصوفة وَمَعَهُمْ شيخ، فَقَالَ: هَذَا الشَّيْخ حَدَّثَنِي، فَقلت يَا شيخ من حَدثَك؟ فَقَالَ لم يحدثني أحد وَلَكنَّا رَأينَا النَّاس قد رَغِبُوا من الْقُرْآن فَوَضَعْنَا لَهُم هَذَا الحَدِيث ليصرفوا وُجُوههم إِلَى الْقُرْآن" الموضوعات لابن الجوزي:241/1

ويمكننا أن نعرض بشيء من التفصيل الموضوعات التي تناولتها السورة على النحو التالي:

- بيان حقيقة الرسالة متمثلة في كتاب الله الهادي والمرشد للناس ينقلهم من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الهداية وبرد اليقين، من تمسك به اهتدى ومن تركه ضل (الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)[1]

- بيان وظيفة الرسول في نشر هذه الرسالة بين الناس بأمر وإذن من الله تعالى، كل رسول بلسان قومه، (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[2]

- الوعيد بالويل والثبور لمن فضل الدنيا على الآخرة وحاد عنها أو صد عن سبيل الله، (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)[3]

- تعرض السورة جانباً من حوار سيدنا موسى عليه السلام مع قومه، ودعوته إياهم للإيمان بالله تعالى والشكر لنعمه التي أسبغها عليهم، (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ... وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ...)[4]

- عدم انتفاع الذين كفروا بأعمالهم التي كانوا يحسبونها خيراً ويعولون عليها في الحياة الدنيا، (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ)[5]

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 1

[3] سورة إبراهيم: الآية 4

[4] سورة إبراهيم: الآية 3

[5] سورة إبراهيم: الآيتان 5، 6

[6] سورة إبراهيم: الآية 18

- صبر الرسل على الإيذاء وتحملهم المشقة في سبيل نشر دعوة الحق بين الناس، (وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)[1]

- تخاصم أهل النار وتبادل إلقاء اللوم فيما بينهم، ثم إلقاء إبليس خطبته اليائسة في أتباعه معلناً تخليه عنهم ومعترفاً بعجزه عن دفع العذاب عن نفسه فضلاً عن منعه عنهم، (... فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ... (21) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)[2]

- ذكر بعض نعم الله على سبيل المثال لا الحصر إذ لا سبيل إلى إحصائها كونها فوق العد كثرةً وتنوعاً، (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ... وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)[3]

- تعرض السورة مشهد المواجهة بين معسكر الرسل من جهة وبين معسكر الجاهليين الذين كذبوا الرسل وجحدوا دعوتهم، إذ تصور لنا السورة الرسل مجتمعين على صعيد واحد وزمان واحد في مواجهة حزب يضم هو الآخر كل الذين أشركوا بالله على اختلاف الأزمنة والأمكنة يجمعهم هدف واحد هو تكذيب الرسل، ثم تنتهي المواجهة بظهور الحق وهزيمة الباطل، (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ... وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 12

[3] سورة إبراهيم: الآيتان 21، 22

[4] سورة إبراهيم: الآيات 32 إلى 34

لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ...وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)[1]

- بيان مصير المؤمنين ومصير الذين كفروا يوم القيامة، (وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ)[2]، (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (28) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ)[3]

سادساً - مناسبة السورة لسورتي الرعد والحجر

أقوال أهل العلم في ترتيب سور القرآن الكريم

قبل الخوض في بيان مناسبة سورة إبراهيم لما قبلها وبعدها أرى من المفيد أن أورد لمحة موجزة عن اختلاف العلماء في توقيفية ترتيب سور القرآن على الشكل الذي نراه في مصاحفنا اليوم. ونعني بذلك هل كان ترتيب السور بأمر من المصطفى صلى الله عليه وسلم أم أنه صدر باجتهاد من الصحابة الذين جمعوا المصحف الشريف؟

---

[2] سورة إبراهيم: الآيات من 10 إلى 15

[3] سورة إبراهيم: الآية 23

[4] سورة إبراهيم: الآية 28، 29

اتفق أهل العلم قاصيهم ودانيهم على أن ترتيب الآيات في السورة الواحدة كان توقيفياً بأمر من النبي صلى الله عليه وسلم لا خلاف في ذلك وعليه أجماع العلماء كما نقله الزركشي[1] وجعفر بن الزبير[2]

ولكن الخلاف جارٍ بين أهل العلم حول وقفية ترتيب السور في المصحف. ففريق من العلماء يرى أن ترتيب السور كان باجتهاد من الصحابة، ويستشهد على ذلك باختلاف مصاحف الصحابة رضوان الله عليهم في ترتيب السور[3].

فيما يذهب آخرون إلى القول بتوقيفية الترتيب ويستدلون بأدلة[4] منها ما رواه أبو داود عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: "أعطيت مكان التوراة السبع الطول، وأعطيت مكان الزبور المئين، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفضلت بالمفصل"[5].

وهناك فريق من العلماء كابن عطية والبيهقي توسطوا في ذلك بين القولين السابقين فقالوا: إن ترتيب معظم السور في القرآن الكريم كان معلوماً من النبي صلى الله عليه

---

[2] ينظر: الزركشي، محمد بن عبد الله بن بهادر، البرهان في علوم القرآن، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، الطبعة: الأولى، 1376 هـ - 1957م، 256/1

[3] أبو جعفر الغرناطي، أحمد بن إبراهيم بن الزبير، البرهان في تناسب سور القرآن، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ المغرب، 1410 هـ - 1990م، 182

[4] ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 257/1، السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتقان في علوم القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1394هـ/ 1974م، 21/1

[5] للوقوف على باقي الأدلة ينظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 217/1، وابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة - بيروت، 1379هـ، 42/9، والزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة: الطبعة الثالثة، 355/1

[6] الحديث رواه أحمد في مسند الشاميين، من حديث واثلة بن الأسقع، برقم 16982، والطبراني في الأوسط عن أبي المليح بن أسامة الهذلي عن واثلة برقم 186، قال الهيتمي: " فيه عمران القطان، وثقه ابن حبان وغيره، وضعفه النسائي وغيره، وبقية رجاله ثقات " (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: 46/7)

وسلم وبأمره كالسبع الطوال والحواميم والمفصل، ثم ترك للصحابة ترتيب المتبقي منها باجتهادهم[1].

والذي يتراءى لي في هذه المسألة ضعف القول الأول لأن نظم القرآن وتأليف سوره والتناسب بينها وجه من وجوه إعجازه، وفرض ترتيب السور باجتهاد الصحابة يجعل ذلك تأولاً بشرياً يخرج عن دائرة الإعجاز ويحط عن رتبته مهما فرضنا عناية الصحابة بهذا الجانب، واجتهادهم في توخيه. واختلاف مصاحف الصحابة يشبه أن يكون ذلك قبل علمهم بالتوقيف الذي ربما تم في العرضة الأخيرة[2] أو قد يكون خاصاً بالسور التي لم يرد في ترتيبها شيء، أو أن بعض الصحابة أراد بترتيب القرآن على حسب النزول أن يحفظ ذلك تسهيلاً لتفسيره لما لأسباب النزول وتاريخه من الأهمية في معرفة الناسخ والمنسوخ وغيرها من المسائل المتعلقة بفهمه. وكذلك لا يمكن القبول بقول المتوسطين لما فيه من تخصيص لبعض السور دون البعض بغير دليل صحيح يمكن الاعتماد عليه.

وعليه فالذي يترجح عندي من هذه الأقوال وينشرح له صدري القول بتوقيفية ترتيب السور جميعها، أي إن ترتيب سور الذكر الحكيم كلها صادر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أستثني منها شيئا، وما جعلني أطمئن إليه أنا إذا نظرنا في السور رأينا أن الحواميم[3] قد توالت مرتبة وكذا الطواسين[4] في حين تفرقت

---

[2] للاطلاع على الأدلة والآثار التي ذكرها ينظر: جعفر بن الزبير، البرهان في تناسب سور القرآن:185، والزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن:356/1

[3] إذ من المعلوم أن جبريل الأمين كان يعرض القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم مرة كل عام حتى كانت السنة التي قبض فيها صلى الله عليه وسلم عرضه عليه مرتين، فيكون الترتيب الحالي هو ما استقر عليه في العرضة الأخيرة. ينظر: السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، أسرار ترتيب القرآن، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، 48

[4] الحواميم من السورة هي: سورة غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف.

[5] الطواسين هي: سورة الشعراء، النمل، القصص.

المسبحات[1] وفصل بينها، وكذلك فصل بين (طسم) الشعراء (وطسم) القصص بـ(طس) مع أنها أقصر منها، فهذا يجعل القول باجتهاد الصحابة في الترتيب بعيداً لأنه لو كان كذلك لذكرت المسبحات ولاء وأخرت طس عن القصص[2].

ثم إن الصحابة أجمعوا على المصحف الذي كتب في عهد عثمان ولم يخالف منهم أحد رضوان الله عليهم، وإجماعهم لا يكون إلا إذا كان الترتيب الذي أجمعوا عليه عن توقيف، وإلا لتمسك أصحاب المصاحف المخالفة بمخالفتهم[3].

هذا وإن ما يجده الناظر المتمعّن في كتاب الله من تناسب بين سوره وتكامل في معانيها وأهدافها ومقاصدها ليكفيه دليلاً على توقيفية ترتيبها، ويغنيه ما يظهر له من ارتباط وثيق وتناغم تام بينها عن كل دليل ويزيده إيماناً بقوله تعالى: (الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)[4]، وأسوق لك فيما يأتي أمثلة لهذا التناسب والترابط من سورة إبراهيم موضوع بحثنا مع جارتيها سورة الرعد والحجر دليلاً على ما قدمت. وقد وجدت نفسي مضطراً لوضع هذه المقدمة بين يدي البحث في وجوه مناسبة سورة إبراهيم لما قبلها وبعدها من السور لأن القول بأن ترتيب سور القرآن كان باجتهاد من الصحابة يقضي على أي بحث في أسرار التناسب بينها، ولا يشفع في ذلك ملاحظة الصحابة لهذا التناسب ومراعاتهم له في الترتيب لأن عملهم هذا مهما بلغ من الدقة ومهما حالفه التوفيق فلن يخرج عن دائرة الاجتهاد البشري الذي يجري عليه الخطأ ويعتريه النقصان، فلا يمكن أن يعد بعد ذلك من وجوه الإعجاز الذي تكلم عنه العلماء.

---

[2] المسبحات من السورة هي: سورة الحديد، الحشر، الصف، الجمعة، التغابن، الأعلى، الإسراء.

[3] ينظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن:219/1

[4] ينظر: الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن: 354/1

[1] سورة هود: الآية 1

مناسبة سورة إبراهيم لسورة الرعد

إن المتأمل في ترتيب سورة إبراهيم ومكانها بعد سورة الرعد يجد ارتباطاً وانسجاماً بينها، يظهر في المقدمة والخاتمة وكذلك المضمون، فسورة إبراهيم هي امتداد لسورة الرعد وتوضيح لما أجمل فيها أو اختصار لما فُصِّل فيها، ألا ترى أن كلاً من السورتين تكلمتا عن المواضيع نفسها: القرآن وبسط الدلالات والتذكير بعظيم الآيات وذكر نعم الله تعالى، إضافة إلى إثبات البعث، وضرب الأمثال للحق والباطل والكلام على عاقبة الكفار إلى غير ذلك ..

ففي الحين الذي تختتم فيه سورة الرعد بقوله تعالى: (وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْم الكتاب)[1] على أن المراد بـ"من" هو الله تعالى جل جلاله، تفتتح سورة إبراهيم بالكلام عن الكتاب كونه هادياً ومرشداً ومنقذاً من الضلال: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)[2].

وإذا كان قد ورد في سورة الرعد قولُه تعالى: (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ)[3] مُجمِلاً كلاً من الرسل، والمستهزئين، وصفة الاستهزاء، والأخذ، فقد جاء بيانها بالتفصيل في سورة إبراهيم، فالرسل ذكرتهم آية: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ)[4]، والمستهزئون وردوا مع صفة الاستهزاء في قوله تعالى: (فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ)، وقوله: (إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا)[5]، وقوله: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ

---

[2] سورة هود: الآية 43

[3] ينظر: السيوطي، أسرار ترتيب القرآن: 98

[4] سورة الرعد: الآية 32

[5] سورة إبراهيم: الآية 9

[6] سورة إبراهيم: الآية 10

أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا)[1]، أما أخذ الله تعالى لهم وانتقامه منهم ففي قوله: (لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ، وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ)[2][3]

ولما ذكر الله تعالى الرسل الذين مَنَّ عليهم بالأزواج والذرية قائلاً: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّة)[4]، مثل لذلك في سورة إبراهيم بسيدنا إبراهيم حين وهبه الله على الكبر إسماعيل وإسحاق وجعلهما ذرية صالحة (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ)[5]

وإذا كان المولى عز وجل قد ذكر في سورة الرعد إنزال القرآن حكماً عربياً بقوله: (وكذلك أنزلناه حكماً عربياً)[6]، دون بيان حكمة ذلك، فإنه تعالى قد صرح في سورة إبراهيم بالحكمة من ذلك فقال: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء)[7].

وعندما أخبر تعالى في سورة الرعد -بخصوص الآيات التي طلبها المشركون من رسلهم- بأنه ما كان لرسول أن يأتي بآية إلّا بإذن ربه (وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله)[8] قال ذلك من جهته، عاد ليكرر ذلك في سورة إبراهيم ولكن على لسان الرسل أنفسهم (وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله)[9]

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 13

[3] سورة إبراهيم: الآية 14

[4] السيوطي، أسرار ترتيب القرآن: 98

[5] سورة الرعد: الآية 38

[6] سورة إبراهيم: الآية 39

[7] سورة الرعد: الآية 37

[8] سورة إبراهيم: الآية 4

[9] سورة الرعد: الآية 38

[10] سورة إبراهيم: الآية 11

ولما أخبر تعالى في الرعد عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم توكله على ربه وتفويض أمره إليه (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ)[1]، أخبر في هذه السورة عن الأنبياء الآخرين قولهم أيضاً (وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون)[2]

وتشترك السورتان معاً في ضرب الأمثال للحق والباطل ففي حين مثلت سورة الرعد الباطل بالزبد الذي يعلو ماء النهر أو القدر ويذهب جفاء، والحق بما يمكث من ماء صاف وفلز المعدن الخالي من الشوائب[3]، نجد القرآن الكريم قد استخدم هنا في سورة إبراهيم تشبيهاً آخر تمثيلاً للحق والباطل في رسوخ الأول وثباته كالشجرة الطيبة وزوال الثاني كالشجرة الخبيثة (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ.. (25) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ..)[4]

مناسبة سورة إبراهيم لسورة الحجر

ذكر السيوطي لهذا المناسبة وجهاً بقوله: "ثم ظهر لي وجه اتصال أول هذه السورة بآخر سورة إبراهيم؛ فإنه تعالى لما قال هنا في وصف يوم القيامة (وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (48) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (49) سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ)[5] قال هناك في سورة الحجر: (رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا

---

[2] سورة الرعد: الآية 30

[3] سورة إبراهيم: الآية 12

[4] ينظر: سورة الرعد: الآية 17

[5] سورة إبراهيم: الآيات 24، 25، 26

[6] سورة إبراهيم: الآيات 48، 49، 50

مُسْلِمِينَ)[1] فأخبر جل وعلا أن المجرمين المذكورين إذا طال مكثهم في النار، ورأوا عصاة المؤمنين الموحدين قد أُخرجوا منها تمنوا أن لو كانوا في الدنيا مسلمين"[2]

وكذا يظهر لنا تشابه الأطراف بين قوله تعالى: (هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُواْ الْأَلْبَابِ)[3] في خاتمة سورة إبراهيم، وقوله: (الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ)[4] في افتتاح سورة الحجر، فقد فسر البلاغ المنذر للناس بآيات الكتاب والقرآن المبين.

قال البقاعي: " لما ختم التي قبلها بعنوان الكتاب، ابتدأ هذه بشرح ذلك العنوان، وأوله وصفه بأنه جامع؛ والخير كله في الجمع، والشر كله في الفرقة، فقال تعالى: (الر تلك) أي هذه الآيات العالية المقام، النفسية المرام (آيات الكتاب) أي الكامل غاية الكمال الذي لا كتاب على الحقيقة غيره"[5]

إضافة إلى التشابه بين موضوعات السورتين فكلتاهما تناولت بالحديث بيان مظاهر قدرة الله تعالى وإثبات البعث ونقاش المشركين وذكر قصص الأنبياء، ونجد أن قصة سيدنا إبراهيم قد ذكرت في السورتين ولكن مع اختلاف تكامل وبيان، ففي حين نجد نبي الله إبراهيم يتضرع بالدعاء إلى ربه ويحمده على نعمائه في سورة إبراهيم (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَام ... الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ)[6] نرى سورة الحجر تفصل في قصة نزول الملائكة وحوارهم معه حول بشارتهم له بالذرية

---

[2] سورة الحجر: الآية 2

[3] السيوطي، أسرار ترتيب القرآن:100، وينظر: أبو جعفر بن الزبير، البرهان في تناسب سور القران:240

[4] سورة إبراهيم: الآية 52

[5] سورة الحجر: الآية 1

[6] البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، 2/11

[7] سورة إبراهيم: الآيات من 35 إلى 39

من الله تعالى بعد أن مسه الكبر (وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (51) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (52) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (53) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (54) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (55) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ)

وإذا نظرنا في خاتمة سورة إبراهيم نجدها تتوعد الجاحدين الكافرين بالعذاب وتنذرهم بالعقاب (هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ ..)[1] ثم نرى إنفاذ الله تعالى وعيده وتحقق إنذاره في سورة الحجر إذ يقص علينا حكاية بعض الأقوام الظالمين الذين مسهم طائف من عذاب الله ونقمته في الدنيا كقوم لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع إذ يقول: (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (73) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ)، وفي قوله: (وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (78) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ)، وقوله في أصحاب الحجر: (وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آَمِنِينَ (82) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ) إلى غير ذلك من وجوه الارتباط والتناسب بين السورتين.

سابعاً - الوحدة الموضوعية في سورة إبراهيم

بعد بيان مناسبة سورة إبراهيم لما قبلها وما بعدها من السور، وعقب توضيح وجوه التناسب والترابط والاتصال بينها يحسن بنا دراسة هذا التناسب بين آيات السورة نفسها أيضاً كون الموضوعين ينضويان تحت علم واحد هو النظام في القرآن الكريم، ويسمي العلماء التناسب بين الآيات في السورة على وجه يبرز وحدة موضوعها وظهورها كبناء متماسك الأركان يسمونه بالوحدة الموضوعية في السورة.

ويعني العلماء بالوحدة الموضوعية في السورة المناسبةَ بين آيات السورة القرآنية وتكاملها وترابطها على وجه يحقق هدف السورة ومقصدها، فالسورة من أول آية فيها

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 52

وحتى أخر آية ينتظمها موضوع واحد تدور في فلكه وإن تنوعت مدارات الآيات وتعددت قضاياها الجزئية، فما تحتويه السورة من قضايا متشعبة وتفاصيل دقيقة وقصص وأمثال وغيرها من عناصر السورة يظلها موضوع واحد وقضية كلية تعالجها السورة[1].

وهنا إذا أردنا أن نسلط الضوء على السورة التي بين أيدينا نجد أنها لا تخرج عن عموم الموضوعات التي تتناولها السورة المكية فمحور السورة الأساس هو العقيدة في أصولها الكبيرة، إذ تتجه لترسيخ مفاهيم الرسالة والوحي والتوحيد وتهدف إلى إثبات حقائق البعث والحساب والجزاء.

ولكن إذا أمعنا النظر في جزئيات السورة وأمتعنا الفكر في سير آياتها ظهرت لنا حقيقتان تظلان جو السورة تسعى من خلالهما إلى تحقيق ما تهدف إلى تحقيقه، بحيث تتفرع عنهما مواضيعها الجزئية تفترق ثم تعود لتتجمع وتنضوي تحت هاتين الحقيقتين:[2]

الحقيقة الأولى: حقيقة الرسالة والرسول ووحدة الرسالة والرسل ووحدة دعوتهم ووقوفهم أمة واحدة في مواجهة الجاهلية المكذبة بدين الله تعالى على اختلاف الأزمنة والأمكنة.

وأهم ما ينضوي تحت هذا المحور من السورة:

---

[2] ينظر: مسلم، د. مصطفى، مباحث في التفسير الموضوعي، دار القلم، الطبعة: الرابعة 1426هـ - 2005م، 27، رفعت فوزي عبد المطلب، الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية:7

[3] ينظر: سيد قطب، إبراهيم حسين الشاربي، في ظلال القرآن، دار الشروق - بيروت- القاهرة، الطبعة السابعة عشر - 1412هـ، 2082/4

- وظيفة الرسل هي نقل الناس من الظلمات إلى النور وأن ذلك يكون بإذن من الله جل وعلا إذ ليس على الرسل إلا التبليغ (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ)[1]، (لِيُبَيِّنَ لَهُمْ)[2]

- من حكمة الله تعالى أن بعث كل رسول بلسان قومه ليقيم عليهم الحجة ويقطع عنهم كل ذريعة (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ)[3]

- حقيقة الرسول البشرية وهي التي كانت موضع اعتراض مستمر من جميع الأقوام (قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آَبَاؤُنَا..)[4]

- إرسال سيدنا موسى عليه السلام بما أرسل به نبينا محمد عليهما الصلاة والسلام، فمصدر الوحي واحد ومعين الرسالة واحد، والرسل كلهم أخوة (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)[5]

- الصراع بين الرسل وأقوامهم حيث اجتماع جميع الرسل تحت راية واحدة في وجه قوى الكفر كافة على صعيد واحد وفي وقت واحد في معركة وجود (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ.. (9) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ.. قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ .. وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ..)[6]

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 1

[3] سورة إبراهيم: الآية 4

[4] سورة إبراهيم: الآية 4

[5] سورة إبراهيم: الآية 10، 11

[6] سورة إبراهيم: الآية 5

[7] سورة إبراهيم: الآيات من 9 إلى 15

الحقيقة الثانية: وتتحدث عن نعم الله تعالى على البشر، وزيادتها بالشكر وتتناول الذين كفروا بهذه النعمة وبطروا، والذين آمنوا بها وشكروا ونموذجهم الأول هو إبراهيم، وتصور مصير الظالمين الكافرين بنعمة الله في سلسلة من أعنف مشاهد القيامة، وأحفلها بالحركة والحياة..

وتتجلى هذه الحقيقة في الموضوعات الجزئية الآتية:

- الرسالة بحد ذاتها نعمة كبيرة من الله تعالى للبشر تنقذهم من الضلال وترشدهم للخير والفلاح (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)[1]

- نعمة الله تعالى على بني إسرائيل بأن أنجاهم من ظلم فرعون وبطش زبانيته الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ..)[2]

- نعم الله على عباده تزداد بالشكر، والثبور للجاحدين المنكرين (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)[3]

- يقرر سياق الآيات أن الإنسان في عمومه لا يشكر النعمة حق الشكر (وإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)[4]

- تورد السورة عدداً من نعمة الله تعالى على سبيل المثال لا الحصر تذكر بها الناس بعظيم فضل الله عليهم وتحثهم على مقابلتها بالشكر (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 1

[3] سورة إبراهيم: الآية 6

[4] سورة إبراهيم: الآية 7

[5] سورة إبراهيم: الآية 34

لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (33) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)[1]

- ولما كان جو السورة كله مصطبغاً بالنعمة والشكر لها والكفر بها جاءت تعبيراتها وتعليقاتها متناغمة مع هذا الغرض[2] ومنسجمة مع الجو العام نذكر منها: قوله تعالى: (وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)[3]، وقوله: (إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)[4]، وقوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ)[5] وقوله: (اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)[6]، (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ)[7] وغيرها..

---

[2] سورة إبراهيم: الآيات من 32 إلى 34

[3] ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن: 2081/4

[4] سورة إبراهيم: الآية 37

[5] سورة إبراهيم: الآية 5

[6] سورة إبراهيم: الآية 28

[7] سورة إبراهيم: الآية 6

[1] سورة إبراهيم: الآية 39

المبحث الثاني: إعجاز القرآن الكريم

شاء الله تعالى أن يجعل لكل نبي من أنبيائه براهين تشهد على نبوته وآيات تدل على صدق دعوته ورسالته، وحتى تكون هذه الأدلة دامغة وجب أن تكون خاصة بهم معجزة لمن سواهم خارقة لمعتاد الناس وخارجة عن طوق البشر تنطق بنسبتها لله تعالى القادر على كل شيء، فكانت معجزات الأنبياء والرسل.

وقد جعل الله تبارك وتعالى معجزة كل نبي من جنس ما برع فيه قومه من العلوم وتفوقوا فيه من الفنون حتى إذا بلغوا الذروة في مجال وذاع صيتهم فيه وتباهوا بمهارتهم جاءهم النبي بالمعجزة ودعاهم للنزال وتحداهم في ميدانهم فكان عجزهم عن ذلك برهاناً على صدق دعواه.

فالمعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي وسالم عن المعارضة[1]، وهي إما حسّية أو أوعقليّة، ونلاحظ أن معظم المعجزات التي جاء بها أنبياء بني إسرائيل كانت حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم كمعجزة العصا وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، في حين نرى المعجزة الخالدة لهذه الأمة وهي القرآن الكريم كانت عقلية لفرط ذكائها وكمال أفهامها وسلامة ذوقها وحدة ذهنها.

وقد نزل القرآن الكريم والعرب يومئذ في أوج الفصاحة وذروة البلاغة والبيان، يتبارون في الشعر والنثر والخطب ويتفنّون في ضروب الكلام وأساليبه ويقيمون لذلك الأسواق يعرضون فيها ما استجد من بضاعتهم، فجاءهم النبي صلى الله عليه وسلم بما أبهرهم وأدخلهم في دهشة من عالي البيان وكمال النظم بكلام من جنس كلامهم غير أنه ليس من كلامهم ومن معهود ألفاظهم وتراكيبهم غير أنه ليس من معهود

---

[2] ينظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 3/4

أساليبهم ونظومهم، ثم بدأ القرآن الكريم ينازلهم في ما برعوا فيه وسلك معهم مسلك التدرج في التحدي ليظهر لهم كمال عجزهم فشرع يتحداهم أن يأتوا بمثل هذا الحديث وهم يومها أساطين البلاغة وفرسانها قال تعالى: (**فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين**)[1] ولما ظهر عليهم العجز وانقطعوا دونه أرخى لهم الحبل فطالبهم بعشر سور مثله (**أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين**)[2] وعندما بان عليهم العجز تحداهم أن يأتوا ولو بسورة واحدة شبيهة بسور القرآن الكريم فقال تعالى لهم: (**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**)[3] والقرآن الكريم طوال هذه الفترة رافع راية التحدي والنزال يقرعهم ويسفه أحلامهم تارة، وينعتهم بالجهل والكفر تارة أخرى وهم لا يألون جهداً ولا يوفرون وسيلة أو طريقة في محاولة للوقوف في وجه هذا الشيء الذي دخل عليهم فأفسد معتقداتهم وكشف زيفها وهزمهم وأظهر عجزهم. وهنا وبعد هذه الأشواط والمراحل من التحدي سجل القرآن الكريم عليهم وعلى سائر البشر وكذلك الجن إلى يوم القيامة عجزهم التام وقصور وسعهم وقدرتهم عن مجاراة نظمه وأسلوبه فقال: (**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً**)[4]

وما كان ترك العرب معارضة القرآن بمثله من القول إلى قتال النبي بالفعل إلا مظهراً من مظاهر استسلامهم لليأس وقنوطهم عن أي أمل في معارضته، ومعلوم ما بذلته قريش من جهد كبير وما أراقته من مُهَج في سبيل الوقوف في وجه القرآن الكريم، من خلال المعارك التي هدفت من ورائها كسر شوكة المسلمين ومنع نور

---

[2] سورة الطور: الآية 34

[3] سورة هود: الآية 13

[4] سورة البقرة: الآية 23

[1] سورة الإسراء: الآية 88

القرآن من الانتشار، وقد كان أولى بها – لو كان في وسعها وداخل طاقتها وقدرتها- أن تنازل القرآن بالسلاح الذي أشهره وتحداها به، فهو الأوفر تكلفة والأسهل مراماً.

أولاً - وجوه إعجاز القرآن الكريم

العلماء متفقون على كون القرآن الكريم هو معجزة الله الخالدة أظهرها على يد نبيه محمد صلى الله عليه وسلم فكانت آية صدقه في دعواه وبرهاناً ساطعاً على سماوية هذا الدين الحنيف، لا ينازعهم في ذلك أحد ولا يراودهم فيه شك، ولكنهم اختلفوا في الوجه أو الوجوه التي يتجلى فيها هذا الإعجاز ونعني بذلك الجوانب التي تحدى بها القرآن الكريم العرب وغيرهم وسجل العجز فيها على الإنس والجن مجتمعين قائلاً: (**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً**)[1]

وإذا تصفحنا هذا الموضوع في كتب التراث عند الذين تناولوا الإعجاز بالبحث وكتبوا فيه نجد أن كل عالم منهم قد أفرغ جهده في استنباط ما تراءى له في القرآن من وجوه عدَّها إعجازاً، فمنهم من اكتفى بوجه ومنهم من عدد وجوهاً كثيرة حتى أوصلها للمائة، ويبدو لي أن بعضهم قد توسع في ذلك حتى عد منها فضائل القرآن وخصائصه.

فالإمام **الخطابي** (388هـ) ساق جملة من الوجوه ثم مال إلى الوجه البلاغي[2]، إضافة إلى تأثير القرآن الكريم في النفس وسلطانه على القلوب، وهو وجه من الإعجاز غفل عنه الناس وذكره الخطابي مؤكداً عليه ومبيناً إياه، أما **الرماني** (384هـ)

---

[2] سورة الإسراء: الآية 88

[3] الخطابي، محمد بن الخطاب البستي، بيان إعجاز القرآن، (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة، 1976م، 25

فقد أورد سبعة أوجه قال إنها محل الإعجاز وموضوع التحدي في القرآن وهي[1] : ترك المعارضة مع توفر الداعي، والتحدي للكافة، والصرفة، والأخبار الصادقة عن المستقبل، ونقض العادة، وقياسه بكل معجزة، ثم البلاغة التي جعلها موضوع رسالته مبيناً أقسامها بالشرح والتفصيل في إشارة واضحة إلى ما ترجح عنده. أما الإمام **الباقلاني** (403هـ) فقد أرجع الإعجاز إلى ثلاثة أوجه هي: إنباء القرآن عن الغيب، وأمية الرسول صلى الله عليه وسلم، وبداعة النظم، وردَّ الإعجاز في النظم إلى أربعة أمور تفرد بها القرآن في نظمه: فصاحته وبلاغته التي ظلت على مستوى واحد في جميع السور والآيات دون تخلف أو تفاوت، وأحرف فواتح السورة التي تحمل من معاني الإعجاز الكثير، وابتعاد القرآن عن استخدام الوحشي والغريب المستكره من المفردات واعتماده السهل الواضح منها، وأخيراً مخالفته لمعهود العرب في الأسلوب فهو ليس بالشعر ولا بالنثر ولا بالسجع وغيرها مما ألفه العرب في خطابهم.[2]

ثم جاء **عبد القاهر الجرجاني** (471هـ) فجعل الإعجاز في نظم القرآن لا غير، وبرهن على قوله هذا بإبطال سائر الوجوه الأخرى حاملاً على من عدَّ اللفظ أو المقاطع والفواصل موضوعاً للإعجاز[3]، ثم **القاضي عياض** (544هـ) الذي حصر الوجوه في أربعة[4]: أولها حسن تأليفه والتئام كلمه وفصاحته وبلاغته الخارقة لما عند العرب، وثانيها صورة نظمه الفريد وأسلوبه الغريب المخالف لأساليب العرب في الكلام، وثالثها ما انطوى عليه من أخبار الغيب، ورابعها ما جاء به من أخبار

---

[2] ينظر: الرماني، علي بن عيسى بن علي بن عبد الله، النكت في إعجاز القرآن، (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، دار المعارف بمصر، الطبعة: الثالثة، 1976م، 2

[3] ينظر: الباقلاني، إعجاز القرآن الكريم: 48، 50، 51

[4] ينظر: الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، دلائل الإعجاز في علم المعاني، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة 1413هـ - 1992م، 322

[1] ينظر: القاضي عياض، عياض بن موسى بن عياض بن عمرون، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، دار الفيحاء – عمان، الطبعة: الثانية - 1407 هـ، 511/1، 518

القرون والأمم البائدة، ثم جاء **القرطبي** (671هـ) ليزيد عليها فيجعلها عشرة، ثم **الفيروزآبادي** (817هـ) الذي ساق اثني عشر وجهاً لإعجاز القرآن الكريم فقال: "ومذهب أَهل السُّنة أَنَّ القرآن معجز من جميع الوجوه: نظماً، ومعنى، ولفظا، لا يشبهه شيء من كلام المخلوقين أَصلاً، مميَّز عن خُطَب الخطباءِ، وشعر الشعراء، باثني عشر معنى، لو لم يكن للقرآن غير معنى واحد من تلك المعاني لكان معجِزاً، فكيف إِذا اجتمعت فيه جميعاً، ومجملها: إِيجاز اللفظ، وتشبيه الشيءِ بالشيءِ، واستعارة المعاني البديعة؛ وتلاؤم الحروف، والكلمات، والفواصل، والمقاطع في الآيات، وتجانس الصِّيغ، والأَلفاظ، وتعريف القِصَص، والأَحوال، وتضمين الحِكَم، والأَسرار، والمبالغةُ في الأَمر، والنهى، وحسن بيان المقاصد، والأَغراض، وتمهيد المصالح، والأَسباب، والإِخبار عما كان، وعما يكون"[1]

ثم كان **السيوطي** (911هـ) الذي أوصلها في كتابه "معترك الأقران" إلى خمسة وثلاثين وجهاً معظمها إن لم نقل كلها تتعلق باللغة والبيان[2].

هذا ما كان من السلف أما المهتمون بالإعجاز من المتأخرين فنذكر منهم **الزرقاني** (1367هـ) الذي سلك مسلك السلف فعدد أربعة عشر وجهاً على رأسها بلاغته وأسلوبه وطريقة تأليفه[3]، والشيخ **أبو زهرة** (1394هـ) الذي ذكر إلى جانب اللغة والبيان اشتماله على أخبار السابقين وعلى حقائق كونية لم تكن معروفة في عصر

---

[2] الفيروزأبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز:68/1

[3] ينظر: السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، معترك الأقران في إعجاز القرآن، دار الكتب العلمية - بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى 1408 هـ - 1988م، 14/1

[4] ينظر: الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن: 332/2-405

النبي صلى الله عليه وسلم آنذاك[1]، وأما **سيد قطب والرافعي** فقد كان تركيزهما على نظم القرآن والجانب اللغوي والبلاغي فيه[2].

وبالنظر إلى ما ذكره السابقون واللاحقون نجد أن ما ذكروه من الوجوه تتداخل وتتقاطع فكثير من الوجوه التي ذكروها ما هي إلا أقسام للوجه البياني، إذ جعلوا وجهاً منه خاصاً بالفصاحة، ووجهاً يتعلق بالأسلوب، وآخر بالنظم، وغيره بالجزالة، وقسماً للتصرف في القول وهكذا..

وهذه الوجوه التي ذكرها العلماء تصلح كلها لتكون مواضع إعجاز للقرآن الكريم، بل هي بلا شك خصائص تفرد بها القرآن وامتاز بها عن غيره من الكلام ما جعلته يسمو على سائر كلام العرب والعجم، ولكنا نعني بوجه الإعجاز هنا السرَّ الذي تحدى به القرآن العرب وقت نزوله وسجل عليهم العجز في ذلك. أي أن علينا أن نفرق بين أمرين:

أولاً- إعجاز القرآن في ذاته.

ثانياً- تَحَدّيه.

أي أن نميز بين كون القرآن كله معجزاً بوجوهه التي لا يحيط بها علم وتتجدد على مر الأيام وتقلُّب العصور ولا تزداد إلا جدَّةً وجلاء فأسراره لا تنتهي وعلومه لا تنقضي، وبين إعجازه في تحديه أي بيان سبب عجز من أنزل عليهم عن الإتيان بمثله أو معارضته.

فإذا نظرنا في الوجوه السابقة نجد أن إخباره عن المغيبات لم يكن موضع تحدٍّ سواء منها ما يتعلق بالماضي أو المستقبل رغم أنها وقعت على وفق ما أخبر وحدثت

---

[2] ينظر: أبو زهرة، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد، المعجزة الكبرى القرآن، دار الفكر العربي،65

[3] ينظر: الرافعي، مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثامنة - 1425 هـ - 2005 م،110، سيد قطب، في ظلال القرآن:2250/4

على حسب ما أنبأ، فالقرآن يصرح في تحديه مخاطباً العرب (وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)[1] فالإعجاز موجود في كل سورة من سوره حتى في أقصرها ومعلوم الإعجاز الغيبي ليس أمراً عاماً موجوداً في كل سورة. وكذلك الإعجاز العلمي فذاك مجال ظهر حديثاً ولا يمكن أن نقول إن الله تحدى به العرب قبل ألف وأربعمائة عام وظهر عجزهم واستسلامهم آنذاك رغم إقرارنا بسلامة هذا الوجه.

ولما كان الكلام صنعة العرب وحلبة نزالهم وكانوا يتذوقون الألفاظ الفخمة القوية في رنينها والمصورة للمعاني في أحوالها الصوتية، ولا يجدون مشقة في تمييز عالي النظم وإدراك جزالة الألفاظ ورصانة الأسلوب فقد جعل القرآن يملأ نفوسهم ويأخذ بألبابهم ويلقي بظلاله على أرواحهم فتخالجها السكينة ويبث فيها الطمأنية فتتأثر به أيما تأثير، وينقادون إلى روعة بيانه تزجيهم إلى ذلك ملكتهم في تلمس مواطن الجمال في الكلام ومعرفتهم بطعومه، ولعل هذا السرَّ هو الذي يكمن وراء تأثر العرب الكبير عند سماع تلاوة القرآن والذي كان له دور كبير في تحول كثير منهم ودخولهم الإسلام، وهو كما ترى مصدره المنهج البياني أو الوجه اللغوي البلاغي لإعجاز القرآن الكريم، وهو الوجه الذي يخص بحثنا ويدور حوله موضوع هذه الأطروحة.

ثانياً - الوجه البلاغي في إعجاز القرآن الكريم

ويقصد به سمو القرآن الكريم في بديع لفظه وعجيب تأليفه وبلاغته إلى الحد الذي يعجز الطوق البشري عن الإتيان بمثله، ونعني بالبلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال والدقة المتناهية في انطباق ألفاظه على معانيه.

---

[1] سورة البقرة: الآية 23

وقد اختلف القائلون بهذا الوجه وتفرقت آراؤهم عند تحديد الجانب الدقيق المقصود من الفصاحة والبلاغة الذي يعود إليه الإعجاز وبه يكون التحدي، وانقسموا فريقين:

الفريق الأول:

يرى أنه النظم والتأليف والترصيف، ورائداه الراغب الأصفهاني وعبد القاهر الجرجاني[1] الذي فسر النظم بأنه توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم، فهو الذي يجمع شمل الكلمات ويؤاخي بينها ويؤلفها بحيث يجعل بعضهما بسبب من بعض، ففصاحة القرآن الكريم وبلاغته لا تتعلقان بعنصريه (اللفظ والمعنى)-حسب رأيهم- لأن ألفاظ القرآن هي ذاتها ألفاظ العرب، قال تعالى:(قرآناً عربياً)[2] ولا كذلك بمعانيه لأن كثيراً منها قد ذكر في الكتب السماوية السابقة كما قال تعالى: (وإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأولين)[3]، فلم يبق إلا أن تكون صورة النظم المخصوص هي موطن الإعجاز والتحدي.

ويستشهد هؤلاء لقولهم كذلك[4] بأن الحكم على الأشياء يختلف باختلاف صورها وإن اتحدت مادتها وتماثلت، كالقُرط والخاتم والسوار، فإنه باختلاف صورها اختلفت أسماؤها، لا بعنصرها الذي هو الذهب والفضة والحديد، فإن الخاتم المتخذ من الذهب ومن الفضة ومن الحديد يسمى خاتماً، وإن كان العنصر مختلفاً. وإن اتّخذ

---

[2] ينظر: الراغب، الحسين بن محمد، تفسير الراغب الأصفهاني، كلية الآداب - جامعة طنطا، الطبعة الأولى: 1420 هـ - 1999م، 45/1، الجرجاني، دلائل الإعجاز:391

[3] سورة يوسف: الآية 2

[4] سورة الشعراء: الآية 196

[5] للاطلاع على المزيد من أدلة هذا الفريق ينظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز:391

خاتم وقرْط وسوار من ذهب اختلفت أسماؤها باختلاف صورها وإن كان العنصر واحداً، فيظهر من هذا أن الإعجاز المختص بالقرآن يتعلق بالنظم المخصوص[1].

وإلى هذا الرأي مال الزرقاني من المعاصرين إذ ميز بين الأسلوب من جهة وبين المفردات والتراكيب من جهة أخرى، فالقرآن انفرد بأسلوبه الخاص به ومنهجه الفريد في اصطفاء الكلمات وانتقاء التراكيب إذ لكل كلام بشري أو إلهي طريقته الخاصة وأساليب المتكلمين والمؤلفين تتعدد وتختلف في عرض كلامهم شعراً كان أم نثراً أم غير ذلك، ويؤكد الزرقاني على أن وجه إعجاز القرآن الكريم يتجلى في الأسلوب لا في المفردات أو التراكيب، وأن ما بهر العرب وأدهشهم وأدخلهم في الحيرة أن القرآن الكريم يستخدم ألفاظهم وتراكيبهم نفسها وفق قواعدهم هم التي كانوا يوظفونها في صوغ المفردات وتكوين الجمل ثم يأتي بنظم لا تطاله أيديهم وتعجز عنه ألسنتهم[2].

ويبرهن الزرقاني على مذهبه بمثال محسوس من صنعة الخياطة، وهو التفاوت الذي نجده بين عمل الخياطين من حيث جودة الإنتاج، والتنوع في أشكاله والتباين في أنماطه وطرازه رغم استخدامهم نفس الخيوط والأدوات والآلات واعتمادهم عين القواعد العامة لمهنة الخياطة، وليس السبب في الاختلاف والتنوع مردُّهُ المواد المستخدمة بقدر ما يعود إلى الأسلوب الذي يختص به كل خياط والطريقة التي ينتهجها في اخياره للخيوط والألوان والأشكال وسائر المواد المستخدمة[3].

وهذا نفسه ينطبق على البيان اللغوي باعتباره صناعة للمواد وفق قواعد وقوانين مشتركة في المفردات والكلمات، ولكنا نجد البيان يختلف ويتفاوت جودة ورداءة، حسناً ودمامة باختلاف الأذواق والمواهب والملكات التي اصطفت هذه المفردات

---

[2] ينظر: تفسير الراغب الأصفهاني: 45/1

[3] الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن: 303/2

[4] ينظر: الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن: 303/2

اللغوية وارتضت تلك الجمل التركيبية ورجحتها على غيرها. ومن هنا جاء تفوق القرآن على سائر كلام العرب في أسلوبه ونظمه وطريقته في تخير المفردات واصطفاء التراكيب[1].

الفريق الثاني

يرى في اللفظة القرآنية وحروفها مزية وفصاحة لا تتوفر في غيرها فهي متلائمة الحروف تتجافى مخارجها ولا تنطوي على التكرار. يمثل هذا الفريق من العلماء الخطابي[2] والجاحظ[3] وابن الأثير[4] وكذلك الباقلاني الذي يبدو من كلامه أنه ينتصر لفصاحة اللفظ ولا يغض من شأنه بل يجعل له دخلاً في إعجاز النظم[5]

فالمفردات حسب هذا الاتجاه منها ما هو فصيح سلس حسن ومنها ما هو مستهجن قبيح عسير النطق فلا فصاحة في مثل ما رواه الجاحظ من قول الشاعر[6]:

وقبر حرب بمكان قفر ... وليس قرب قبر حرب قبر[7]

---

[2] المرجع السابق، الموضع نفسه.

[3] ينظر: الخطابي، بيان إعجاز القرآن: 25

[4] ينظر: الجاحظ، الحيوان: 423/6

[5] ابن الأثير، المثل السائر في أدب الشاعر والكاتب: 171/1

[6] يقول الباقلاني: " وأنت ترى جمال الكلمة من القرآن يتمثّل في تضاعيف كلام كثير، وهي غرة جبينه، وواسطة عقده، والمنادى على نفسه بتميزه وتخصصه برونقه وجماله، واعراضه في حسنه ومائه "، إعجاز القرآن الكريم: 63-63

[7] ينظر: الجاحظ، الحيوان: 423/6

[8] لا يعرف قائله. قال الجاحظ: " وقد ظن البعض لجهلهم بعلم البلاغة أن هذا البيت من أشعار الجن؛ لأن المرء لا يستطيع إنشاده ثلاث مرات في نسق واحد دون أن يتعتع أو يتلجلج " ينظر: الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت عام النشر: 1423 هـ، 16/1، واستشهد به ابن سنان الخفاجي في سر الفصاحة: 98، وابن الأثير في المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ـ القاهرة، 309/1

فإن تكرار الحروف جعل ألفاظها عسيرة في النطق ثقيلة على اللسان غير متوائمة ولا متناسبة. وكذلك يبرز جمال الكلمة أو قبحها في رنينها وتآخي حروفها كما قال ابن الأثير: **ومن له أدنى بصيرة يعلم أن للألفاظ في الأذن نغمة لذيذة كنغمة أوتار، وصوتًا منكرًا كصوت حمار، وأن لها في الفم أيضًا حلاوة كحلاوة العسل، ومرارة كمرارة الحنظل، وهي على ذلك تجري مجرى النغمات والطعوم** "[1] ثم ضرب لغير الفصيح منها أمثلة كأحد أسماء أو صفات السيف وهو (الخنشليل) إذ يعتبره غير فصيح لتنافر حروفه وسقم نغمته الصوتية، وكذلك مرادف كلمة الغصن (عسلوج) يرى فيها ما في سابقتها من التنافر والثقل في اللسان والقبح في النغمة والرنين.

ومن المعاصرين الذين أيدوا هذا الرأي ودافعوا عنه الرافعي الذي يرى أن العرب عندما قرئ عليهم القرآن لاحظوا في حروفه وكلماته ألحاناً لغوية رائعة حتى أن مسيلمة الكذاب الذي حاول معارضة القرآن قد فطن إلى أن الصدمة الأولى للنفس العربية إنما هي في أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ما عداها فجنح في خرافاته إلى ما ظنه نظماً موسيقياً وطوى ما وراء ذلك من وجوه التصرف في اللغة وأساليبها ومحاسنها ودقائق التركيب البياني[2].

والذي يظهر لي أن عناصر كثيرة تشترك في نسج موضوع الإعجاز القرآني فتناسق الكلمات وما تبثه من معان وأخيلة بيانية وسط أسلوب مكتمل البنيان يلتقي بفواصله وأنغامه وصوره البيانية مع الألفاظ المحكمة والمعاني السليمة ليشكل الصورة القرآنية الفريدة المعجزة التي لا يماثلها شيء من كلام البشر، وما أجمل ما قاله الخطابي: "واعلم أنَّ القرآن إنما صار معجزًا؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف، متضمنًا أصح المعاني"[3]، وأميل إلى الاتجاه القائل بأن الكلمة المفردة قد تحمل في

---

[2] ابن الأثير، المثل السائر في أدب الشاعر والكاتب: 171/1

[3] ينظر: الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: 148

[1] الخطابي، بيان إعجاز القرآن: 25

ذاتها فصاحة وجمالاً يسمو بها وقد تكون بشعة قبيحة وهذا الأمر لا يستبينه إلا العربي الذي تمرّن سمعه على الفصاحة حتى صار التمييز عنده بين ضروب الكلام ملكة، وقد ذكرت بعضاً من الأمثلة عن الألفاظ التي عدها أهل العلم خارجة عن الفصاحة.

ثالثاً - مصدر الإعجاز البلاغي وسر تعذر الإتيان بمثل القرآن الكريم

ذكرنا ان البلاغة تعني التطابق التام بين الكلام والمعنى الذي يحمله أو موافقة اللفظ لمقتضى الحال، ورغم أن معظم أهل النظر متفقون على أن إعجاز القرآن الكريم من جهة البلاغة والفصاحة لكنك تجدهم يعجزون عن تفسير كيفية حصول هذه البلاغة[1]، وسبب عجز البشر عن مجاراتها.

يبدو أن مصدر هذا السر يعود إلى **الأسلوب والمفردات معاً**. وقد فسر الخطابي تفوق أسلوب القرآن بأن للكلام الفصيح الفاضل أجناساً ثلاثة متفاوتة في درجة البلاغة والبيان هي: **الجزل الرصين والفصيح القريب السهل والجائز الطلق الرَّسْل**. فالقسم الأول هو أعلى طبقات الكلام وأرفعه والثاني أوسطه وأقصده، وأما الثالث فهو أدنى أنواع الكلام وأقربه، وقد حازت بلاغة القرآن من كل نوع من هذه الأجناس على حصة، وانتظم لها نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة الناجمة عن الجزالة والرصانة والعذوبة الناتجة عن السهولة لتظهر عظمة بلاغة القرآن وتميزها[2].

وأما ما يعود إلى ألفاظه ويتعلق باختيار مفرداته وكلماته فيحتاج منا فهم هذا السر أولاً التأمل في حدود الطاقة التعبيرية للإنسان عن المعاني والأفكار لنتبين من ورائه الصعوبات التي تواجهه والثغرات والنقائص التي تتلبس بقدرته وتقف حاجزاً يمنعه

---

[2] قال الخطابي واصفاً حالهم: ولذلك صاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي اختص بها القرآن، جعلوه ضرباً من المعرفة لا يمكن تحديده بأمر ظاهر منضبط، وإنما يعرفه العالمون عند سماعه وقالوا: قد يخفى سببه عند البحث ويظهر أَثره في النفس حتى لا يلتبس على ذوي العلم والمعرفة به. ينظر: بيان إعجاز القرآن: 27

[1] الخطابي، بيان إعجاز القرآن: 28

من التعبير عما يريد، فإذا تبينت لنا هذه العيوب وتكشفت وجوه القصور في كلام البشر، كانت براءة القرآن من هذه النقائص هي سر الإعجاز فيه.

من المعلوم أنه بمقدار ما تتناهى الدقة في مطابقة اللفظ للمعنى القائم في الذهن يتسامى الكلام في درجات البلاغة والبيان، ولا شك أن تحقيق هذا التوافق بمعناه الكلي المتناهي في الدقة أمر بعيد المنال عن الإنسان مهما علا كعبه في الفصاحة وسما في درجات البلاغة والبيان، وهو مهما كدَّ واجتهد وحاول فلن يقوى على خلع رداء العجز الذي يرتديه بحكم ضعفه البشري وحدود طاقته وقدرته. ويعود ذلك إلى سببين[1]:

السبب الأول:

إن الألفاظ والتعابير وتراكيب اللغة محصورة ومتناهية تقبل على الإنسان من الخارج في حين أن المعاني والأفكار والتصورات غير متناهية تنبعث من داخل النفس الإنسانية، ولا يمكن للغة مهما اتسعت أن تحيط بكل ما يصدر عن النفس من مشاعر وأحاسيس متنوعة، فأنت لا تجد للتعبير عن الألم الذي يعصف بك أحياناً إلا مفردة واحدة هي (الألم) رغم اختلاف الشعور بالألم تنوعاً وشدةً، وكذلك فإن لفظة (الجمال) تستعمل للتعبير عن عالم واسع ومتنوع من المشاعر والصور والمعاني ونحن نعلم ما بين هذه المعاني من التفاوت والاختلاف ولكن ضيق اللغة أمام غزارة المعاني يجعل التعبير الدقيق بغير هذه الكلمة أو أحد مشتقاتها عسيراً بل محالاً في كثير من الأحيان.

السبب الثاني:

---

[2] البوطي، محّمد سَعيد رَمضان، من روائع القرآن - تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل، مؤسسة الرسالة – بيروت، 1420 هـ - 1999م، 136

إن اللغة العربية -على ما فيها كغيرها من القصور الذي ذكرنا- تزخر بكم هائل من المفردات والتراكيب والتعابير الأمر الذي جعلها من أوسع لغات العالم وأغزرها ألفاظاً، وإن المتكلم حين يزور في نفسه مقالة أو يجري قلمه ليدون ما يجول في فكره يجد نفسه أمام بحر متلاطم من مفردات اللغة التي تعرف بالمرادفات، والإنسان مهما بلغت به ذاكرته من الحدة ومهما تمكن من حفظ متون اللغة وألفاظها فلا يمكن أن تنتصب كل هذه المرادفات مكشوفة واضحة أمام خياله[1] فينتقي منها ما يوافق التصور الذي يود التعبير عنه، ومنتهى ما يستطيعه والحالة هذه أن يلقي بشباك خياله وحبال تفكيره إلى هذا اليم المتلاطم من الألفاظ ومفرداتها ليلتقط منها ما يتسارع إلى ذهنه ويسهل على لسانه، وهو إن وفق في صيد المفردة المطابقة لفكره مرة فإنه يخيب في ذلك مرات كثيرة.

وعليه يكون أساس البلاغة القرآنية الفريدة والمتميزة هو وضع كل لفظة في المكان الذي يناسبها بحيث إذا أبدلت بها غيرها نتج عن ذلك إما فساد الكلام بتبدل المعنى المراد أو سقوط البلاغة بذهاب رونق الكلام وبريقه، ذلك أن في اللغة الكثير من المفردات التي تشترك في إفادة أصل المعنى وتختلف فيما بينها في الخصائص كالعلم والمعرفة، والحمد والشكر، والبخل والشح، وكالنعت والصفة[2]

وهكذا وقفنا على موضع العجز عن التعبير في الإنسان فما من بليغ أو فصيح من الكتاب أو الأدباء أو الشعراء إلا ويجد نفسه مكبلاً بهاتين الظاهرتين متلبساً بهذه النقائص والعيوب، وهنا تتجلى لنا حقيقة الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم وهي التحرر من هاتين الظاهرتين اللتين يتجسد فيهما عجز الإنسان "اقرأ ما شئت من سور القرآن وآياته، تجد أن كلّا من جانبي اللفظ والمعنى فيه متوافقان متطابقان أتمّ ما يكون الوفاق والتطابق، لا تشعر أن حرفاً واحداً يفيض في جانب اللفظ عن المعنى؛

---

[2] ينظر: الخطابي، بيان إعجاز القرآن: 27

[3] ينظر: الخطابي، بيان إعجاز القرآن: 29، الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 27/3

ولا تشعر أن أيّ جانب في المعنى- مهما دقّ ولطف- قد تقاصر اللفظ أو التعبير عن الدلالة عليه"[1]

والبرهان العملي والتطبيقي لهذا الكلام يحتاج منا دراسة واعية للوجوه البلاغية في القرآن الكريم للوقوف على مواطن الإعجاز فيه وإدراك هذا السرّ والاطلاع على خفاياه وهو لا يكون إلا بالتضلع في علوم المعاني والبيان[2] الكفيلة بإبراز مظاهر بلاغة القرآن ودقائق نظمه وعجيب أسلوبه، وهو الأمر الذي تسعى هذه الأطروحة للتدليل عليه وتجليته من خلال دراسة تفصيلية لسورة إبراهيم على ضوء من هذه العلوم البلاغية.

---

[2] البوطي، من روائع القرآن: 139

[1] ينظر: السكاكي، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، 1407 هـ - 1987م، 416

الفصل الأول: سمات الكلمة القرآنية

عند حديثنا عن موضوع الإعجاز في البيان الإلهي، وبعد عرض خلاف أهل العلم في تحديد الوجه البلاغي انتهى بنا الأمر إلى أن للمفردة القرآنية دوراً مهماً في إبراز جمالية النظم القرآني بما تتصف به من جزالة ورصانة أو رقة وعذوبة، إذ هي مادته وقوامه؛ منها يتكون الكلام، وبتراصفها يتألف النظم، فهناك الكلمة التي يجد لها السمع لذة وتحدث للنفس هشاشة، تكسوها حلاوة، وتغشاها طلاوة يشعر بها من له قدرة في التمييز ودربة على تذوق طعوم الكلام تذوّق أصناف الطعام، وهناك في المقابل مفردات تثقل على اللسان لما تتصف به من الفظاظة والبشاعة والقبح كأن وقعها على السمع صوت الغراب أو الحمار.

ولا يحتاج هذا الكلام إلى دليل أفصح من المقارنة بين لفظة (المزنة) أو (الديمة) ومرادفتهما في المعنى لفظة (البعاق) فكلها تحمل المعنى نفسه، غير أن الأوليين مألوفتان يستلذهما السمع، بينما نشعر به يغص بالأخيرة ويستهجنها، وتأمل لفظ (الودق) في قوله تعالى: (فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ)[1] ثم قارن بينها وبين لفظ (البعاع) الوارد في قول امرئ القيس: "فألقى بصحراء العبيط بعاعه"[2] لتدرك ما بينهما من الفرق؛ إذ الأول يشعرك باللطف والرقة والثاني بالغلظة والبشاعة، رغم أنهما مرادفان ويعنيان المطر[3]، والحَكَم في ذلك التمييز- على رأي ابن الأثير[4] - هو السمع وسلامة الذوق.

---

[2] سورة النور: الآية 43

[3] ينظر: ديوان امرِئ القيس، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة – بيروت، الطبعة: الثانية، 1425 هـ - 2004م، 68

[4] ينظر: العلوي، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: 71/1

[5] ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 170/1

وما قيل فيما سبق يقال في (السيف) و(الخنشليل)، و(المدامة) ومرادفتها (الإسفنط)، و(الغصن) ومرادفه (العسلوج)، و(الأسد) و(الفدوكس) وغيرها ذلك كثير[1].

المبحث الأول: صفاء الكلمة القرآنية وفصاحتها

ونقصد بصفاء الكلمة نقاءها وخلوها من كل عيب أو شائبة تكدر صفوها وتخل بفصاحتها وتقلل من دلالتها على المعنى المراد مع عذوبتها. وأما فصاحة المفردة فهي قريبة من هذا المعنى وتعني لغة الظهور والإبانة، وأصل الكلمة يدل على خلوص في شيء ونقاء من عيب[2]. وأما اصطلاحاً فقد عرفها القزويني بقوله: "وهي في المفرد خلوصه من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس"[3] وقال الرازي: "الفصاحة خلوص الكلام من التعقيد"[4] وقال الهاشمي: "الفصاحة عبارة عن الألفاظ البينة الظاهرة، المتبادرة إلى الفهم والمأنوسة في الاستعمال بين الكتاب والشعراء لمكان حسنها .."[5] وقال العلوي في تعريفها: "هي خلوص اللفظ عن التعقيد في تركيب الأحرف والألفاظ جميعاً"[6] وهكذا نرى أن تعريف الفصاحة يختلف باختلاف الضوابط التي وضعها العلماء لخلوص اللفظ من العيوب التي توجب له القبح، والثقل في النطق، أو الكراهة في السمع.

---

[2] ينظر: المرجع السابق، الموضع نفسه.

[3] ابن فارس، أحمد بن زكريا القزويني، معجم مقاييس اللغة، الرازي، دار الفكر، 1399هـ - 1979م، 50

[4] القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 21/1، وكذا ينظر: الشريف الجرجاني، التعريفات: 167

[5] الرازي، محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1424هـ، 2004م، 36

[6] الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: 19

[7] العلوي، الطراز لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز: 57/1

والراجح عند أهل الفن أن الفصاحة صفة للفظ لا للمعنى، فـ "لا يقال في كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة، وإن قيل فيها إنها فصيحة. وكل كلام بليغ فصيح وليس كل فصيح بليغاً كالذي يقع فيه الإسهاب في غير موضعه" [1]

وقد ذكر أهل اللغة شروطاً وأوصافاً للّفظ المتصف بالفصاحة، سيجعلها الباحث معايير وضوابط يبرز على ضوئها خصائص اللفظة القرآنية وميزاتها وفصاحتها من خلال أمثلة من سورة إبراهيم.

أولاً - خلو السورة من الغريب الوحشي من المفردات

فقد اشترط أهل البيان لفصاحة المفردة أن لا تكون متوعرة وحشية[2]، ويضرب ابن الأثير[3] للوحشي من الكلمات مثلاً كلمة (كهل) التي وردت في قول أبي تمام:

لَقَد طَلَعَتْ في وَجهِ مِصْرَ بوَجهِهِ بلا طَائِرٍ سعدٍ ولا طَائِرٍ كَهلِ[4]

فإنها من الألفاظ الموغلة في الغرابة والوحشية لدرجة أن الأصمعي نفسه لم يعرف معناها، ولا وجود لها إلا في شعر بعض الهذليين. فرغم أنها لا توصف باللفظة البشعة فإنها ليست فصيحة لغرابتها وخفاء معناها. ويستشهد كذلك بما روي عن أبي علقمة

---

[2] ابن سنان الخفاجي، محمد بن سنان الخفاجي الحلبي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، الطبعة الطبعة الأولى 1402هـ_1982م، 59

[3] ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين: 301/1

[4] ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة: 66

[5] البيت ذكره ابن سنان الخفاجي في سر الفصاحة: 66، وكذا الحسن بن بشر الآمدي في كتابه "الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري" دار المعارف - الطبعة الرابعة، مكتبة الخانجي - الطبعة الأولى، 1994م 301/1

النحوي[1] قوله: مالكم تكأكأتم عليَّ كتكأكئكم على ذي جنة افرنقعوا عني[2]. فهو قد جمع إلى غرابة الألفاظ تنافر الحروف وقبح التأليف. وإذا كانت العرب قد استعملت الوحشي والغليظ من اللفظ في كلامها فإن ذلك ليس بحجة علينا ولا بدليل على حسنه، فما استحسنه أهل الصناعة والنقاد هو ما كانت العرب تستحسنه، لأن غلظ الطبع غلب على العرب فجعل بعضهم يستخدم الوعر من الألفاظ، وما ورود بعض الألفاظ في القرآن الكريم دون بعض إلا شاهد على حسن ما أورد وقبح ما ترك. قال ابن الأثير: "فإن استحسان الألفاظ واستقباحها لا يؤخذ بالتقليد من العرب؛ لأنه شيء ليس للتقليد فيه مجال، وإنما هو شيء له خصائص وهيئات وعلامات إذا وجدت علم حسنه من قبحه"[3]

ونحن إذا تصفحنا سورة إبراهيم نلحظ خلوها من المفردات الغريبة، فأنت تقرؤها من أولها إلى آخرها دون أن تستوقفك كلمة تحتاج في فهمها إلى معجم أو تجد نفسك مضطراً للبحث عنها في كتب اللغة، بل على العكس تجد مفرداتها قريبة مألوفة ودارجة على ألسنة العرب ومستعملة في حواراتهم وشعرهم ونثرهم.

ونحن لا نقصد بالغريب هنا ما يرد في كتب غريب القرآن، لأن أهل اللغة يقسمون الغريب إلى حسن وقبيح، فالقبيح منه ما شق على الفهم وبعد عن الإدراك وكد الذهن بحيث لا يتوصل إلى معناه إلا بعد إجهاد فكر وعناء طويل، فهو يعدُّ لذلك مكروهاً ومستهجناً يعل الفصاحة ويحط من قدرها. أما القسم الحسن من الغريب فهو ما ارتفع عن المبتذل من كلام العامة وسما عن سفسفها، أو هو كلام من بعدت بهم الديار من

---

[2] أَبُو عَلْقَمَة النَّحْوِيّ النميري، من أهل وَاسِط. وَقَالَ القفطي: قديم الْعَهْد، يعرف اللُّغَة معرفة جيدة؛ مشهور بكنيته، كَانَ يتقعر فِي كَلَامه، ويعتمد الوحشي من الْكَلَام والغريب. ينظر: القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة: 152/4، والسيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: 139/2

[3] ينظر: ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ، 179/2، العسكري، الصناعتين: الكتابة والشعر: 27

[4] ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 157/1

القبائل العربية، فإذا ما وقعت إلينا كلمة من لغاتهم استغربناها. وهذا القسم الثاني هو المراد بغريب القرآن، فما أبعد ألفاظ القرآن عن الغريب المستوحش من الكلام والمتوعر من الألفاظ وهو البيان الذي سحر بلغاء العرب ولامس شغاف قلوبهم.

ومعلوم أن البيان الإلهي قد اشتمل على ألفاظ من لهجات مختلف قبائل العرب كقريش وهذيل وكنانة والأوس والخزرج وخثعم وجرهم وقيس وكندة وحمير ومدين وغيرها[1].. وهذا النوع من الغريب لا يعاب استعماله على العرب ولا يسمى وحشياً ولا متوعراً، وقد ذكر صاحب كتاب اللغات في القرآن الكريم ثلاثة مواضع من هذا القبيل في سورة إبراهيم هي[2]:

- في قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ)[3]، دار البوار: يعني دار الهلاك بلغة عُمان. وأصل ذلك من البوار وهو الكساد، لأنه لما كان فرط الكساد يؤدي للفساد عبر به عنه، فيقال: بار السوق أي كسد، وأرض بور أي لم تزرع بعد، وأرض بائرة، ورجل بائر[4]، كما في قول الشاعر

يا رسول المليك إنَّ لساني راتِقٌ ما فتقْتُ إذ أنا بُورُ [5]

- في قوله تعالى: (رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ

---

[2] ينظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 169/1

[3] ينظر: السامرائي، عبد الله بن الحسين بن حسنون، اللغات في القرآن الكريم، مطبعة الرسالة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1365 هـ - 1946م، 33

[4] سورة إبراهيم: الآية 28

[5] ينظر: السمين الحلبي، أحمد بن يوسف المعروف، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1417 هـ - 1996م، 243/1

[6] البيت لعبد الله أبن الزعبرى، أحد شعراء قريش المعدودين، أسلم يوم فتح مكة واعتذر بهذا البيت عما كان قد صدر عنه قبل إسلامه. ينظر: أبو على القالي، إسماعيل بن القاسم، الأمالي، دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية، 1344 هـ - 1926م، 213/2، والسيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، شرح شواهد المغني، لجنة التراث العربي، 1386 هـ - 1966م، 551/2

لَعَلَّهُمْ يَشكُرُونَ)[1]، أفئدة من الناس: يعني ركباناً من الناس بلغة قريش، و(تهوي إليهم): تقصدهم وتحن عليهم وتميل وتنزع إليهم، وقيل: تحبهم وتهواهم[2].

- في قوله تعالى: (مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ)[3]، مقنعي رؤوسهم: يعني ناكسي رؤوسهم بلغة قريش، وقيل المقنع من رفع رأسه وأقبل بطرفه على ما بين يديه لا يلتفت ببصره يميناً ولا شمالاً[4]، وأصل القنع[5] اسم مشترك بين الرضا والاكتفاء وبين السؤال فيقال: قنِع بالكسر أي رضي باليسير، ويقال قنَع بالفتح يقنع قنوعاً إذا سأل، قال الشاعر:

لَمَالُ الْمَرْءِ يُصْلِحُهُ فَيُغْنِي مَفَاقِرَهُ أَعَفُّ مِنَ الْقُنُوعِ[6]

ومناسبتها للآية القرآنية تظهر في أصلها فقيل هي مأخوذة من القناع وهو ما يغطى به الرأس، وقنعَ: إذا رفع قناعه كاشفاً رأسه بالسؤال، وإذا تخيلنا حركة السائل وهو يرفع رأسه نحو الأعلى يمدّه مصوباً عينين نحو من يتوقع منه التصدق عليه ويستمر في مد رأسه مزيلاً قناعه وكاشفاً عن وجهه لا يحيد ببصره عن أمامه، أقول إذا تكاملت عناصر هذا المشهد في أذهاننا أمكننا تصور المشهد الذي تعرضه الآية الكريمة.

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 37

[3] ينظر: ابن قتيبة، محمد بن محمد البستي، غريب القرآن، دار الفكر – دمشق، 1402 هـ - 1982م، 233، وابن الهائم، أحمد بن محمد بن عماد الدين بن علي، التبيان في تفسير غريب القرآن، دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة الأولى - 1423هـ، 203، والخضيري، محمد بن عبد العزيز بن أحمد، السراج في بيان غريب القرآن، مكتبة الملك فهد الوطنية، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1429 هـ - 2008 م، 108

[4] سورة إبراهيم: الآية 43

[5] ينظر: ابن قتيبة، غريب القرآن: 233، ابن الهائم، التبيان في تفسير غريب القرآن:203

[6] ينظر: السمين الحلبي، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ:342/3

[7] البيت للشماخ بن ضرار، من قصيدة رد بها على امرأته التي لامته يوماً لإمساكه. ينظر: الجاحظ، عمرو بن بحر، البخلاء، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الثانية، 1419 هـ، 238، وعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المعاني الكبير في أبيات المعاني: 429/1

وبالنظر فيما تضمنته مصنفات غريب القرآن نجد أنها توسعت كثيراً في مفهوم الغريب وأوردت معظم مفردات القرآن حتى المألوف منها، غرضها من ذلك على ما يبدو تسهيل فهم القرآن على الأجيال التي تلت عصر نزول الوحي وخالطت العجمة لسانها وإلا فإن معظم مفردات القرآن الكريم كانت في متناول فهم الصحابة ظاهرة الدلالة واضحة المعنى.

ولا يمنعنا ذلك أن نسوق بعضاً من ألفاظ سورة إبراهيم مما عدت في غريب القرآن ونكتفي بما ذكر عند ابن قتيبة[1]:

في قوله تعالى: (وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)[2] استفتحوا: استنصروا أي طلبوا الفتح والنصر.

في قوله تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)[3]، قوله: "تأذَّن": أي أعْلَمَ، وهو من آذنتك بالأمر، أي أخبرتك وأعلمتك.

وفي قوله تعالى: (مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ)[4] "صديد": هو القيح والدم، أي يسقى الصديد مكان الماء، ويجوز أن يكون على التشبيه أي يسقى ماء كأنه صديد.

وفي قوله تعالى: (سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ)[5] قوله: "محيص" معدل، يقال: حاصَ عن الحق يحيصُ؛ إذا زاغ وعَدَل.

---

[2] ينظر: ابن قتيبة، غريب القرآن: 230-234

[3] سورة إبراهيم: الآية 15

[4] سورة إبراهيم: الآية 7

[5] سورة إبراهيم: الآية 16

[6] سورة إبراهيم: الآية 21

وفي قوله تعالى: (مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ)[1] "مهطعين": مسرعين، من قولهم أهطع البعير في سيره إذا أسرع.

وفي قوله تعالى: (سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ)[2] "سرابيلهم" مفردها سربال، وهو القميص.

كلمات أبدعها القرآن الكريم وأخرى أضفى عليها دلالة جديدة

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نذكر أن القرآن الكريم قد صنع بعض الألفاظ فكانت جديدة في لغة العرب لا علم لهم بها من قبل، مثل: الترتيل، والنفاق، والفسوق، وجهنم. كما أضفى على بعضها الآخر دلالة جديدة غير ما كانت تحمله في عرف العرب مثل مفردات: الصلاة، والجحيم، والتهجد، والقارعة، والفلاح والفوز وغيرها..

ونقف في سورة إبراهيم من **النوع الأول** على كلمة "جَهَنَّم" التي تعد جديدة لم يستعملها العرب في كلامهم بل صنعها القرآن الكريم وأوردها سبعاً وسبعين مرة، وفي سورة إبراهيم ورد اللفظ مرتين في قوله تعالى: (مِنْ وَرَائِهِ **جَهَنَّمُ** وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ)[3] وقول: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (28) **جَهَنَّمَ** يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ)[4].

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 43

[3] سورة إبراهيم: الآية 50

[4] سورة إبراهيم: الآية 16

[5] سورة إبراهيم: الآيتان 28، 29

وقد زعم قوم على رأسهم يونس بن حبيب[1] حسب ما نقل عنه الجواليقي أن هذا الاسم أعجمي ويعني النار التي يعذب الله بها يوم القيامة، ودليلهم على ذلك عدم قبوله الجر، قالوا: لاجتماع علتي التعريف والعجمية[2]، فيما ذهب آخرون إلى اعتبارها عربية وجعلوا العلة في عدم انصرافها ثقل التأنيث إلى جانب ثقل التعريف، قال الجوهري:" جَهَنَّمُ من أَسماءِ النارِ الّتِي يُعَذِّبُ بهَا اللهُ عِبادَه، وَهُوَ مُلْحَقٌ بالخُماسِيّ بِتَشْدِيد الحَرْفِ الثالِث، وَلَا يُجْرَى للمَعْرِفة والتأنيث"[3]، وأصل مادة جهنم ذكره ابن خالويه قائلاً: بئر جهنام للبعيدة القعر، ومنه سميت جهنم، قال: وهذا يدل أنها عربية[4].

إذن فالكلمة عربية وأصل معناها بُعدُ قعر الشيء وعمق تجوفه مع اضطمامه[5] على هذه التجويف[6]، ويؤيد ذلك أن أحاديث كثيرة وردت تصف جهنم بالعمق السحيق مثل (يهوي بها في نار جهنم سبعين خريفاً)[7]، وكذلك وصفت في القرآن

---

[2] هو أبو عبد الرحمن الضبي، إمام نحاة البصرة في عصره، أخذ الأدب عن أبي عمرو بن العلاء، وأخذ عنه سيبويه وروى عنه في كتابه، كان له في العربية مذاهب وأقيسة يتفرد بها، توفي سنة 182هـ. ينظر: ابن قتيبة، المعارف: 541، وياقوت الحموي، معجم الأدباء: 2850/6

[3] ينظر: الجواليقي، موهوب بن أحمد بن منصور، المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، الجواليقي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1410هـ، 1990م، 249

[4] الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: مادة (جهنم)

[5] ابن منظور، لسان العرب، الزبيدي، محمد بن محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، مادة (جهنم)

[6] أصل الفعل (اضطمَّ) على وزن افتعل من الضمّ، قلبت التاء طاء لأجل مناسبة حرف الضاد، ومعناه: ضمَّ، واضطمَّ الشيء أي جمعه إلى نفسه. الزبيدي، تاج العروس، مادة (ض م م)

[7] ينظر: جبل، محمد حسن حسن، المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، 2010م، 353

[8] الحديث بتمامه رواه الترمذي في باب الزهد، باب فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس، برقم:2314 بلفظ: " إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لَا يَرَى بِهَا بَأْسًا يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا فِي النَّارِ" وقال عنه: هَذَا حَدِيثٌ

نحو (فَأُمّهُ هَاوِيَةٌ)[1] فقد سماها البيان الإلهي "هاوية" والهاوية "كل مهواة لا يدرك قعرها"[2]. وهي من الألفاظ التي تفرد القرآن في ابداعها ولا يخفى ما تنطوي عليه الكلمة من الجزالة والدقة في التعبير إضافة إلى مناسبة حروفها لمعناها، فالجيم تعبر عن هيكل غير مصمت، والهاء عن فراغ جوفه، والنون عن امتداد ذلك الفراغ في الباطن، والميم عن تضامها واستوائها على ذلك بقيام هيكلها هكذا، أو بأن عمقها الشديد جداً يبرز تضام ظاهرها على جوفها أو على ما يلقى فيها. ويمكن أن نضيف دليلاً آخر على أصالتها العربية من خلال تشابهها مع كلمة "الجحيم" من الناحية الصوتية، والجحيم تعني "كل نار عظيمة في مهواة"[3]، وتظهر الصلة الصوتية بينهما في أن الحاء والهاء أختان والنون تزيد الامتداد العمقي، فهي تجمع في معناها بين النار والعمق[4].

ومن **النوع الثاني** من الألفاظ وهي التي أضفى عليها البيان الإلهي معاني أخرى ودلالات دينية نقف منها في سور إبراهيم عند لفظة "الصلاة"، أصل مادتها من "صلو" ومن "صلا" وتجمع على صلوات، وقد قيل: إن الصلا: العظم الذي عليه الإليتان، وقيل: هو وسط الظهر لكل ذي أربع وللناس، وقيل: التعظيم، وقيل: اللزوم[5]، وقيل:

حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وكذا رواه ابن ماجة في أبواب الفتن، باب كف اللسان في الفتن، برقم: 3970 واللفظ له.

[2] سورة القارعة: الآية 9

[3] الأزهري، تهذيب اللغة، باب الهاء والميم، مادة هوي

[4] النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - 1416هـ، 563/2

[5] جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم: 353

[6] الفراهيدي، الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم، العين، دار ومكتبة الهلال، والزبيدي، تاج العروس، مادة (صلو)، وابن منظور، لسان العرب، والجوهري، نصر إسماعيل بن حماد الفارابي، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الرابعة 1407 هـ - 1987م، ابن دريد، جمهرة اللغة، مادة (صلا)

هي من "صلَّيتَ العصا تصلية، إذا أدرتها على النار لتقويمها"[1]، "صلّى عصاه على النار: ليّنها وقوّمها"[2] وعليه يكون المعنى الأصلي للفظة لين أثناء الشيء أو رخاوته من الداخل مع تماسك يسمح للتصرف بها كما في تليين العصا على النار لثنيها أو تقويس طرفها[3]، ومن هذا المعنى – لين الأثناء ورخاوة الداخل- استعملت الصلاة للدعاء الذي يعني التضرع لاستنزال الرضا أو الفضل، لما يتضمنه الدعاء من خشوع في الباطن ولين في القلب وراحة في النفس. "قال ابن الأثير: تكرر في الحديث ذكر الصلاة وهي العبادة المخصوصة وأصلها الدعاء في اللغة، فسميت ببعض أجزائها"[4]، وقال صاحب الصحاح: "الصلاة الدعاء"[5] قال الأعشى:

علَيكِ مثلُ الذي صَلّيتِ، فاغتَمضي نَوماً، فإنّ لجَنبِ الحَيّ مُضطجعَا[6]

إذن من الدعاء جاءت تسمية الصلاة الاصطلاحية المشتملة على الركوع والسجود لأن الدعاء أحد أجزائها وقوامها، فالصلاة حقيقة شرعية لا دلالة لكلام العرب عليها إلا من حيث اشتمالها على الدعاء الذي هو أصل معناها، ونجد القرآن الكريم يستعمل هذا اللفظ في معناه الأصلي وفي المعنى الشرعي قال تعالى مخاطباً نبيّه: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ

---

[2] تهذيب اللغة، مادة (صلا)

[3] أبو منصور الأزهري، محمد بن محمد تهذيب اللغة، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى، 2001م، والجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، مادة: صلا

[4] ينظر: محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم: باب الصاد، مادة (صلو، صلى)

[5] ابن منظور، لسان العرب، مادة: صلا، وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: 50/3

[6] والجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، مادة: صلا

[7] قاله يمدح هوذة بن علي، ينظر: ديوان الأعشى: 101، وأبو الخطاب، أبو زيد محمد بن القرشي، جمهرة أشعار العرب، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 18، وابن طباطا، عيار الشعر: 111

وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[1] "أي: ادع لهم واستغفر لهم، كما رواه مسلم في صحيحه، عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتي بصدقة قوم صلى عليهم، فأتاه أُبَي بصدقته فقال: "اللهم صل على آل أبي أوفى"[2]) [3]

وفي الآيات الثلاثة التي ورد فيها لفظ الصلاة في سورة إبراهيم استعملت اللفظة بالمعنى الجديد الذي أضافه القرآن لها وهو المعنى الشرعي الذي يراد به: عبادة مخصوصة لها هيئة معروفة، وهي عبادة "لم تنفك شريعة منها، وإن اختلفت صورها بحسب شرع فشرع، لذلك قال تعالى: (إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا)[4]"[5] والآيات هي:

- (رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا **الصَّلَاةَ** فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)[6] فقد كانت العبادة والصلاة خاصة الغاية التي ترك من أجلها سيدنا إبراهيم ذريته عند بيت الله المحرم في تلك الأرض الخالية من مقومات الحياة من زرع وماء وجعل يتضرع إلى الله تعالى أن يهدي بعض القوافل والركبان إليهم عسى أن يكونوا لهم عوناً وسكناً، والمراد بالصلاة هنا الصلاة ذات المفهوم الديني وإن كنا نجهل كيفيتها قال

---

[2] سورة التوبة: الآية 103

[3] الحديث أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة، برقم: 1497، ومسلم كذلك في كتاب الزكاة، باب الدعاء لمن أتى بصدقة، برقم: 1078

[4] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم:207/4

[5] سورة النساء: الآية 103

[6] الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، دار القلم، الدار الشامية، دمشق بيروت، الطبعة الأولى - 1412هـ، 491

[7] سورة إبراهيم: الآية 37

القرطبي: " خَصَّهَا مِنْ جُمْلَةِ الدِّينِ لِفَضْلِهَا فِيهِ، وَمَكَانِهَا مِنْهُ، وَهِيَ عَهْدُ اللَّهِ عِنْدَ الْعِبَادِ، قَالَ صلى الله عليه وسلم: "خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ اللَّهُ عَلَى الْعِبَادِ"[1].

- (قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا يُقِيمُوا **الصَّلَاةَ** وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ)[2] يأمر الله تعالى نبيه بتبليغ المؤمنين خطاب الله القاضي بالتزام شريعته المتمثلة في أداء الصلوات المفروضة وإخراج الزكاة والتزام سائر أركان الإسلام قبل نفاذ مدة الامتحان والرحيل من هذه الدنيا إلى الدار الآخرة دار الحساب حيث لا تنفع مقايضة ولا تجدي صداقة، قال القرطبي: " أَنْ (يُقِيمُوا الصَّلاةَ) يَعْنِي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ"[3].

- (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ **الصَّلَاةِ** وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ)[4] دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام اللهَ أن يوفقه لأداء الصلاة معدلاً إياها ومواظباً عليها.[5]

ثانياً – اعتدال جذر كلمات السورة من حيث عدد الحروف

اشترط ابن سنان الخفاجي لفصاحة الكلمة اعتدال عدد حروفها، واستدل على ذلك بأن الكلمة الطويلة تكون عسيرة في النطق ثقيلة على السمع ما يجعلها قبيحة وخاصة في الشعر واستشهد[6] بلفظة (سويداواتها) في قول المتنبي:

إن الكريم بلا كرام منهم مثل القلوب بلا سويداواتها[7]

---

[2] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 371/9

[3] سورة إبراهيم: الآية 31

[4] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 366/9

[5] سورة إبراهيم: الآية 40

[6] البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 202/2

[7] ينظر: ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة: 88

[8] ينظر: ديوان المتنبي: 186

فالمتنبي قد خرج إلى الشاذ النادر في تركيب هذا اللفظ من حروف كثيرة فجاءت الكلمة ثقيلة ودميمة.

ولكن لابن الأثير رأياً آخر إذ يرى هذا الضابط غير دقيق، فالعلة التي جعلت كلمة (سويداواتها) نابية غير فصيحة ليست طولها ولا عدد حروفها، وإنما في إيرادها بصيغة الجمع لأن مفردها مقبول حسن، ودليله أن في القرآن الكريم كلمات طويلة ما زادهن طولهن إلا فصاحة وحسناً، مثل (ليستخلفنكم)، و(فسيكفيكهم)، ثم ينتهي من ذلك إلى تعديل شرط ابن سنان الخفاجي ليكون كالتالي: "أن تكون مؤلفة من أقل الأوزان تركيبا"[1]، ويفسر كلامه بأن المعتبر في الثقل هو أصل اللفظ لا ما هو عليه مع الزيادات الصرفية، فهناك الثلاثي الأصل والرباعي والخماسي، واللفظ لا يستحسن إلا في الثلاثي وفي بعض الرباعي كما في (عذب)، و(عسجد)، قال سيبويه رحمه الله : " وأمّا ما جاء على ثلاثة أحرف فهو أكثر الكلام في كل شيء من الأسماء والأفعال"[2]، أما الخماسي من الأصول فهو قبيح نافر لا يحسن منه شيء .

وهذه لفتة تحسب لابن الأثير ويحمد عليها، فبالنظر في القرآن الكريم معين الفصاحة ودستور البلاغة نرى أن جل الألفاظ الواردة فيه من الثلاثي المجرد أو المزيد أفعالاً وأسماء، ونلحظ أنه نادراً ما استعمل الرباعي في بيانه، حتى أمكن حصر مفرداته **رباعية** الأصل من **الأفعال** في ثمانية: "بعثر، وسوس، دمدم، عسعس، زحزح، زلزلوا، حصحص، كبكبوا" ومن **الأسماء** ستة هي: "برزخ، سرمد، زخرف، سندس، سلسلة، شرذمة"، ومن الاسم الرباعي المزيد بحرفين جاء منه في القرآن الكريم ثلاثة ألفاظ هي: "العنكبوت، زمهريرا، قمطريرا" ومن **الاسم الخماسي المزيد بحرف** لم يقع منه إلا لفظان هما: "زنجبيلا، سلسبيلا" أما **الخماسي المجرد** فلم يستعمله القرآن الكريم

---

[2] ينظر: ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 191/1

[3] سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1408 هـ - 1988م، 229/4

لا من الأفعال ولا من الأسماء، لما يحمله من عسر في النطق وثقل على السمع قال ابن جني: "ذوات الأربعة مستثقلة غير متمكنة تمكن الثلاثي . . . ثم لا شك فيما بعد من ثقل الخماسي وقوة الكلفة به"[1] والقرآن الكريم حريص على أن تكون ألفاظه خفيفة على اللسان عذبة رقيقة تأخذ موقعها من قلب السامع.

ولما كان الرباعي والخماسي من الأفعال والأسماء قليلاً نادر الورود في القرآن الكريم فإن من المتوقع ألّا نجد له أثراً في سورة قصيرة كسورة إبراهيم، وكانت جميع الأفعال الواردة فيها من الثلاثي إما المجرد أو المزيد. وسعياً من الباحث للتدليل على هذه الحقيقة وتقريرها، أجرى دراسة للسورة الكريمة (موضوع البحث) أحصى فيها الكلمات الواردة ثم صنفها صرفياً حسب عدد حروف جذرها فكانت النتيجة كالآتي:

الفعل الثلاثي المزيد بحرف واحد

الوزن (أفعل): ورد منه 19 فعلاً هي: (أخرج، أنزل، أرسل، أضلَّ، أنجى، أراد، أوحى، أهلك، أسكن، أذهب، أخلف، أشرك، أحلَّ، أدخل، أقام، أنفق، أنذر، أجاب، أقسم)

الوزن (فعَّل) ورد منه 7 أفعال هي: (ثبَّتَ، بدَّل، سخَّر، أخَّر، بيَّن، ذكَّر، ذبَّح)

الوزن (فاعل) ورد منه 3 أفعال هي (آمن، آذى، آتى)

الفعل الثلاثي المزيد بحرفين:

الوزن (تفَعَّلَ) ورد من 8 أفعال هي: (تأذَّن، توكَّل، تجرَّع، تذكَّر، تمتَّع، تقبَّل، تبيَّن، تبدَّل)

---

[1] ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الرابعة، 62/1

الوزن (افتَعَل) ورد منه 4 أفعال هي: (اشتَدَّ، اجتَثَّ، ارتَدَّ، اتَّبعَ)

الفعل الثلاثي المزيد بثلاثة أحرف:

الوزن (استَفعَل) ورد من 5 أفعال هي: (استحبَّ، استحيا، استفتح، استكبر، استجاب)

أما باقي الأفعال التي استعملت في السورة والتي بلغ عددها 80 فعلاً فكانت من نصيب الثلاثي المجرد، **ونستنتج من ذلك** أن القرآن الكريم حين ينتقي كلماته يتوخى فيها الخفة والحسن والجمال فكلما كانت اللفظة أقصر كانت أسهل على النطق وأطيب على السمع، ولما كان الثلاثي المجرد هو الأصل في اللغة فصاحة وحسناً وخفةً كان الأكثر وروداً واستعمالاً في السورة الكريمة فبلغ ضعف استعمال أنواع مزيده مجتمعةً، ثم تلاه المزيد بحرف واحد، ومن أوزانه كانت الصدارة لـ (أفعل) كونه الأخف في أسرته، ثم جاء الثلاثي المزيد بحرفين.

وكذلك الأمر بالنسبة **للأسماء** التي اشتملت عليها السورة نجد أنها ذات أصول ثلاثية تجري على أسلات اللسان طرية دون مشقة، وطيبة على سمع المتلقي، وما زاد على الثلاثي إلا أسماء أعجمية كأسماء بعض الأنبياء التي وردت في السورة مثل (إبراهيم، إسماعيل)، ورغم طول هذه الكلمات وكثرة حروفها فإنها لم تخرج عن الفصاحة ولم توجب ثقلاً في الكلام؛ لأن الحروف التي تألفت منها هذه الكلمات قد ليَّنتها وجلبت لها السلاسة والخفة، فكلمة "إبراهيم" قد حوت على ثلاثة حروف عدها أهل اللغة مليّنات للكلمة وهي (الباء والراء والميم) كونها تنتمي لأسرة الأحرف الشفوية والذّلقية التي لا تخلوا منها كلمة عربية فصيحة زاد أصلها على ثلاثة أحرف، إضافة إلى أثر حرف المد. وكذلك كلمة "إسماعيل" نجد أن تأليفها من حروف

متباعدة المخارج إضافة إلى المد قد أبعد عنها الثقل ومشقة النطق وأوجب لها الحسن.

ثم نجد أن الكلمتين تنقسمان إلى مقاطع صوتية تجعلهما في النطق بمثابة ألفاظٍ متعددة منفصلة، فكلمة إبراهيم قد قُسمِّت إلى أربع مقاطع صوتية (إب/ را/ هي /م)، وكذلك كلمة إسماعيل: (إس/ ما/ عي/ ل) الأمر الذي هوّن مهمة أعضاء النطق ومنحها فُسحة وراحةٍ عند أداء الأصوات. وبذلك يظهر لنا تميّز جميع ما ورد في السورة الكريمة من ألفاظ أسماء كانت أو أفعالاً، وحرص القرآن الكريم على اختيار ما خف من الألفاظ عند النطق، وسهل عند جريانه على الألسن، وهو بلا شك وجه من وجوه الإعجاز التي انفرد بها كتاب الله، إذ ليس بمقدور إنسان أن يسير في كلامه كله مراعياً جذور المفردات المستخدمة وملاحظاً نوع حروفها.

ثالثاً - التناغم الصوتي بين حروف الكلمة وحركاتها

اضطراب أقوال أهل البيان في تحديد هذا الضابط

ابن سنان الخفاجي

اشترط ابن سنان الخفاجي للكلمة الفصيحة أن تكون مخارج حروفها متجافية غير متقاربة[1]، وعلل ذلك بأن الحروف تجري من السمع مجرى الألوان من البصر، ومعلوم أن الجمع بين الألوان المتباينة أجمل منظراً من المتقاربة، وكذلك الأصوات التي تصدرها الأحرف كلما تجافت مخارجها كانت أحسن وأظرف للسمع، وأضاف بأن تأليف الكلمة من الحروف المتقاربة المخارج يجعل النطق بها عسيراً وثقيلاً مستشهداً على رأيه بلفظتي (الهعخع) و (مستشزرات)، إذ لا يخفى ما يسببه تقارب مخارج حروفهما من عسر في النطق وصعوبة في التلفظ.

---

[1] ينظر: ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة: 64

وهذا يعني أن لمخارج الحروف دوراً في حسن تأليف الكلمة وقبحها، فما أقبح الكلمة إذا تركبت من حروف الحلق فقط، في حين نجد سلاسة في الكلمة التي تدخلها حروف الشفة لما تتصف به من الخفة والرقة.

ابن الأثير

استدرك ابن الأثير هذا الشرط على ابن سنان، وعدَّه قاصراً وحدَهُ عن تفسير فصاحة المفردة، فتباعد مخارج الحروف عنده لا يصلح بمفرده ضابطاً للحسن والقبح لورود كلمات كثيرة حروفها متقاربة المخرج وهي مع ذلك فصيحة لا تستوجب ثقلاً على السمع ولا عسراً في النطق كقولنا (جيش) فهي لفظة حسنة محمودة رغم أن حروفها كلها متقاربة المخرج تخرج من وسط اللسان بينه وبين الحنك وتسمى بالحروف الشجرية، وتبقى كذلك جميلة إذا بدلنا بين حروفها فقلنا (شجي)[1]. وكذلك الأمر مع حروف (الفاء والباء والواو) مخرجها الشفة وتسمى بالحروف الشفوية، فإذا نظمنا منها كلمة جاءت حسنة كقولنا: ذقتُهُ بفمي، فأنت تلاحظ سلامتها في كلمة (بفمي) رغم تألفها من حروف مخارجها متقاربه.

وفي المقابل فإن تجافي مخارج حروف بعض الألفاظ لم ينف عنها القبح والدمامة كلفظة (مَلَعَ) وتعني عَدا، أو أسرع، فالميم مخرجها الشفة والعين تخرج من الحلق واللام من وسط اللسان ومع ذلك فهي مكروهة في الاستعمال، في حين لو حاولت أن تغير من ترتيب الحروف نفسها لوجدت كلمة (علم) الفصيحة. يقول ابن الأثير: "وما ندري كيف صار القبح حسنا؛ لأنه لم يتغير من مخارجها شيء، وذاك أن اللام لم تزل وسطا والميم والعين يكتنفانها من جانبيها، ولو كان مخارج الحروف معتبراً في الحسن والقبح لما تغيرت هذه اللفظة في (ملع) و(علم)"[2]

---

[2] ينظر: ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 159/1

[3] ينظر: المرجع السابق: 160/1

وابن الأثير بنفيه هذا الضابط يمهد لضابطين يرى لهما دورا كبيراً في جعل اللفظ خفيفاً عذباً إن لم يكونا الأصل في فصاحة الكلمة أو قبحها هما[1]:

- أن تكون اللفظة مؤلفة من **حروف خفيفة** يسهل نطقها ويرتاح لها السمع، فالحروف منها ما هو شديد ثقيل كالضاد والجيم والقاف ومنها ما هو سلس لين كالأحرف الشفوية والذلقية تنساب على اللسان كالماء العذب يجري في الساقية.

- أن تكون **حركات الحروف** المكوّنة للكلمة كذلك **خفيفة** سهلة متناسبة لا تشق على النطق ولا ينبو عنها السمع، فتوالي حركتين خفيفتين في الكلمة يرققها ويلطفها بعكس توالي الحركات الثقيلة، ولذلك تستثقل الضمة على الواو والكسرة على الياء لأن الضمة من جنس الواو والكسرة من جنس الياء فتوجبان العسر في النطق.

العلوي

ثم جاء **العلوي** في كتابه الطراز فاقتفى أثر ابن الأثير وسار على نهجه في صياغة معيار الفصاحة من صفات الحروف المؤلفة لبنية الكلمة وحركاتها، فنظر في فصاحة المفرد باعتبارين: **مخارج حروفه وصفاتها** "فالأحرف الشفوية أخف الأحرف موقعاً، وألذها سماعاً، وأسلسها جرياً على الألسنة وحروف الذلاقة منها وهي (الراء، واللام، والنون)، لأن مخرجها من ذولق اللسان وهو طرفه، ويكثر استعمالها في الكلام، وما ذاك إلا من أجل خفة مجراها وطيب نغمتها، وسهولتها على النطق"[2]، والواضع حسب رأيه قد تصرف بحكمة حين لم يجمع بين العين والحاء، وبين الغين والخاء، وبين الجيم والصاد، وبين الذال والزاي، لما يوجبه اجتماعها من البشاعة والثقل على الألسنة في النطق.

---

[2] ينظر: المرجع السابق: 191/1-193

[3] العلوي، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الطراز لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز، المكتبة العنصرية – بيروت، الطبعة الأولى، 1423هـ، 58/1

والعلوي يعيد مؤكداً ما قاله ابن الأثير عن فعالية حركات الحروف خفيفها وثقيلها وأثرها في سلاسة اللفظ أو وعورته غير أنه يرى أن **حصول السكون في وسط الكلمة** أعدل من توالي الحركات وإن كانت خفيفة، وكأنه يريد بذلك **كثرة المقاطع الصوتية،** فكلما كثرت كانت الكلمة ألين وأسهل على النطق، ويرى أن توالي الفتحات أخف من توالي الضمات، ولهذا كانت كلمة (فَرَساً) أخف من (عضُدٌ)[1]

ولكن يبدو لي أنه شعر بعدم اضطراد ضابطه حين اصطدم بعشرات الكلمات وردت في القرآن الكريم وتوالت فيما الضمتان كما في (الزُّبُر، النُّذُر، سُعُر ..) فعاد ليلوذ بالمعيار الذي ما فتئ ابن الأثير يذكره ويحيل عليه في كتابه وهو تحكيم الذوق السليم، فقال: ".. أن مستند الحسن والقبح والإعجاب والنفور في تأليف الكلام إنما هو سلامة الطبع وتحكيم الذوق"[2].

الرافعي

وهنا حاول الرافعي أن يسعف العلوي ويسند ضابطه الذي هوى أمام ما ذكرنا من كلمات القرآن، فصار يبحث عن سر الفصاحة في هذه الكلمات التي حافظت على رونقها وخفتها رغم توال الضمات على حروفها، فرأى أن الألفاظ التي سبقت هذه الكلمة قد مهدت لها بحركاتها وصفاتها حتى إذا وصل القارئ للكلمة المقصودة جرت على لسانه خفيفة دون أن يشعر بشيء من الوعورة أو الثقل فقال: " قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ)[3]. فتأمل هذا التركيب، وأنعم ثم أنعم على تأمله، وتذوق مواقع الحروف وأجر حركاتها في حس السمع وتأمل مواضع القلقلة في دال (لقد)، وفي الطاء من (بطشتنا) وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى

---

[2] ينظر: العلوي، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: 60/1

[3] العلوي، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: 59/1

[4] سورة القمر: الآية 36

واو (تماروا)، مع الفصل بالمد، كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات إذا هي جرت على اللسان، ليكون ثقل الضمة عليه مستخَفاً بعد"[1].

واضح أن الرافعي يجعل تتابع الفتحات سبيلاً لتخفيف وطأة توالي الضمتين لكن ما ذكره الرافعي ودافع عنه لا ينطبق على المفردة المذكورة نفسها في موضع آخر من سورة القمر (فذوقوا عَذَابِي ونُذُر)[2] وغيرها من المفردات التي توالت على حروفها حركة الضم الثقيلة وكانت لازمة موسيقية للسورة دون أن تسبقها تشكيلة صوتية واحدة من الحركات التي ذكرها.

رأي الباحث

مما سبق يظهر لي أن ما جاء به الرافعي من تعليل غير منضبط ولا مطرد في مفردات القرآن، إذ غاب عنه أن يشير إلى طبيعة الحروف وما لها من تأثير في جعل الضمة ثقيلة أو خفيفة، فالفتحة وكذلك الضمة والكسرة تختلف شدتها وثقلها باختلاف الحرف الذي تظهر عليه، فهي مفخمة مع حروف الإطباق (ص، ض، ط، ظ) وهي ذاتها تكون في حالة وسط بين الترقيق والتفخيم عند ظهورها على حروف (ق، ع، غ، ح)، وترقق مع باقي المواقع الصوتية الأخرى. وبما أن حرفي النون والذال ليسا من حروف الإطباق وإنما من حروف الانفتاح تكون الضمة بناء عليه مرققة بنفسها بعيدة عن الثقل والوعورة.

وبعد تقديمي لأقوال أهل العلم في هذه المسألة وبالنظر فيما قدمه كل من ابن الأثير والعلوي يبدو لي أنهما قد اقتربا من وضع ضوابط دقيقة لفصاحة الكلمة عندما تعرضا للجانب الصوتي للكلمة بحديثهما عن صفات الحروف وحركاتها، وكذلك الرافعي بما أولاه للجانب الموسيقي للكلمة من اهتمام غير أنهم لم يوفقوا في تفسير

---

[2] الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية:157

[3] سورة القمر: الآية 39

عدم اطراد ما ذكروه في مفردات القرآن الكريم وتخلف ضابطهم بعض الأحيان، ولذلك نجد ابن الأثير والعلوي من **بعده يلجآن عندئذ إلى تحكيم الذوق السليم**، كما يقول العلوي " والمعيار في ذلك هو عرضه على ما قلنا من تحكيم الذوق، ولهذا فإنه قد تتوالى ضمتان وهو غير ثقيل كقوله تعالى ضَلالٍ وَسُعُرٍ"[1] وهذا ينم عن قصور في الضابط الذي جاؤوا به. **ورغم ذلك فإن الضوابط التي قدمها هؤلاء تقدم لنا تصوراً واضحاً عن صفات الكلمة العذبة الفصيحة**، فهم قد أحسوا بأن السمع والذوق يميلان إلى تفضيل ما لا يجهد أعضاء النطق من الكلمات والتراكيب، ولما كان تجافي مخارج الحروف وحده غير كاف ضموا إليه صفات الحروف وحركاتها المختارة في تأليف الكلمة. ولا يبعد أن تكون مجتمعة المعيار الذي تعتمد عليه اللغة في تنقية مفرداتها إذ لا يغيب عنا أن اللغات تعمل باستمرار على تشذيب نفسها بتنقية مفرداتها فيما يشبه عملية التصفية، فتبقي على السلس الحسن ليصير مع الزمن وكثرة الاستعمال والتداول مألوفاً على الأسماع مقبولاً في الطباع وتنفي ما عداه من الألفاظ فيصير وحشياً غريباً، وشذوذ بعض المفردات عما ذكروا من القواعد يعيدنا مضطرين إلى نظرية عبد القاهر الجرجاني في النظم كونها الوحيدة التي يمكنها أن تحوش ما شرد من المفردات إلى حظيرة القاعدة، وتقدم لنا التفسير الدقيق لفصاحة الكلمة بالنظر إلى موقعها من النظم واحتياج موضعها لها.

الانسجام بين مخارج حروف الكلمة القرآنية

مع ما قدَّمنا من أقوال أهل العلم في مخارج الحروف وأثرها في الفصاحة أجد ما جاء به السبكي جديراً بالذكر حول بنية الكلمة وتأليفها وترتيب حروفها والانتقال

---

[2] العلوي، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: 60/1

بينها حسب مخارجها، فقد ذكر اثني عشر وجهاً لتأليف الكلمة ثم رجح بينها من حيث الفصاحة وهي[1]:

الأول – الانحدارُ من المخرج الأعلى إلى الأوْسط إلى الأدنى نحو (ع د ب).

الثاني – الانتقالُ من الأعلى إلى الأدنى إلى الأوْسط نحو (ع ر د).

الثالث – من الأعلى إلى الأدنى إلى الأعلى نحو (ع م هـ).

الرابع – من الأعلى إلى الأوْسط إلى الأعلى نحو (ع ل ن).

الخامس – من الأدنى إلى الأوْسط إلى الأعلى نحو (ب د ع).

السادس – من الأدنى إلى الأعلى إلى الأوسط نحو (ب ع د).

السابع – من الأدنى إلى الأعلى إلى الأدنى نحو (ف ع م).

الثامن – من الأدنى إلى الأوسط إلى الأدنى نحو (ف د م).

التاسع – من الأوسط إلى الأعلى إلى الأدنى نحو (د ع م).

العاشر – من الأوسط إلى الأدنى إلى الأعلى نحو (د م ع).

الحادي عشر – من الأوسط إلى الأعلى إلى الأوسط نحو (ن ع ل).

الثاني عشر – من الأوسط إلى الأدنى إلى الأوسط نحو (ن م ل).

قال السبكي بعد ذكرها: " إذا تقرر هذا فاعلم أن أحسنَ هذه التراكيب وأكثرَها استعمالا ما انحدر فيه من **الأعلى إلى الأوسط إلى الأدنى**، ثم ما انتقل فيه من **الأوسط إلى الأدنى إلى الأعلى**، ثم من **الأعلى إلى الأدنى إلى الأوسط**. وأما ما انتقل فيه من **الأدنى إلى الأوسط إلى الأعلى** وما انْتُقل فيه من **الأوسط إلى الأعلى إلى الأدنى** فهما سِيَّان في الاستعمال وإن كان القياس يقتضي أن يكون أرجَحَهما ما انتُقل فيه من

---

[2] السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: 73/1

الأوسط إلى الأعلى إلى الأدنى، وأقل الجميع استعمالا ما انتُقل فيه من الأدنى إلى الأعلى إلى الأوسط."[1]

وقد أجرى الباحث دراسة على عينة شملت (43) فعلاً من الأفعال الثلاثية المجردة الواردة في سورة إبراهيم فكانت النتائج كالآتي:

(11) فعلاً كان تأليفها وفق الوجه التاسع.

(9) أفعال وفق الوجه السادس.

(9) أفعال وفق الوجه العاشر.

(6) أفعال وفق الوجه الثاني.

(4) أفعال وفق الوجه الأول.

(2) فعلان وفق الوجه الخامس.

(1) فعل واحد وفق الوجه السابع.

(1) فعل واحد وفق الوجه الرابع.

وبذلك نلاحظ أن معظم الكلمات المستخدمة في السورة تتألف حروفها وفق خمسة من الوجوه التي ذكرها السبكي وهي:

- الوجه التاسع: من الأوسط إلى الأعلى إلى الأدنى
- الوجه العاشر: من الأوسط إلى الأدنى إلى الأعلى
- الوجه السادس: من الأدنى إلى الأعلى إلى الأوسط
- الوجه الأول: الانحدارُ من المخرج الأعلى إلى الأوْسط إلى الأدنى
- الوجه الثاني: الانتقالُ من الأعلى إلى الأدنى إلى الأوْسط

---

[1] السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: 74/1

وهذا يعني أن القرآن الكريم يستعمل الكلمات التي يتم التنقل بين مخارج حروفها وفق أحسن الوجوه وأكثرها استعمالاً مما يجعل التنقل سلساً لا يسبب إجهاداً لأعضاء النطق.

تجافي مخارج حروف الكلمة القرآنية

القرآن الكريم يسير في تأليف كلماته على سنن المقاييس الصوتية للغة العربية يراعي قواعدها ويتوخى قوانينها، فلا يجمع بين حروف الحلق في كلمة واحدة لما تسببه من عسر في النطق[1]، ولا بين الجيم والقاف، أو الكاف أو الصاد، ولا تلي فيه الراء حرف النون، ولا الزاي حرف الدال، ولا الراء حرف اللام، ولا الشين حرف اللام، ويرى الخفاجي أن (الزاي، الذال، السين) لا تجتمع في كلمة عربية الأصل لقرب مخارجها[2]، وقد سبق وأن ذكرنا انقسام الحركات والحروف إلى شديدة ثقيلة ولينة خفيفة، والملاحظ أن القرآن الكريم لا يجمع بين الشديد منها إلا إذا كان في السياق ما يستدعي العنف والشدة موظفاً صفات الحروف وحركاتها في التعبير عن المعنى.

ودعونا نستعرض تطبيق ما ذكرنا في بعض من آيات سورة إبراهيم، يقول تعالى:

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (9) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (10) قَالَتْ لَهُمْ

---

[2] ينظر: السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ-1998م،153/1

[1] ابن دريد، جمهرة اللغة: 44/1

رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (11) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (12) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (13) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (14) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (15) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (16) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ)[1]

نلحظ أن المفردات مؤلفة من حروف متباعدة المخارج تجنباً لتنافرها مثل (نَبَأُ) النون من الحروف الذلقية التي تخرج من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا، والباء تخرج من الشفتين من مقدم الفم والهمزة من أقصى الحلق.

(قَبْلِكُمْ) القاف من أقصى اللسان قريباً من الحلق والباء من الشفتين، واللام من حافة اللسان الأمامية مع التصاقها بما يحاذيها من الأسنان، ثم الكاف من أقصى اللسان قريباً من جهة الفم ثم الميم من الشفتين.

(أَيْدِيَهُم) الهمزة من أقصى الحق، والياء من وسط اللسان، ثم الدال من ظهر اللسان مع أصول الثنايا العليا، ثم الياء مجدداً ثم الميم من الشفتين.

(مُرِيْب) الميم من الشفة، والراء من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا قريباً من الظهر، ثم الياء من وسط اللسان ثم الباء من الشفة.

(الأرض) تبدأ بالهمزة من أقصى الحلق ثم يأتي الراء من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا ثم تنتهي الكلمة بحرف الضاد من وسط اللسان.

---

[1] سورة إبراهيم: الآيات من 9 إلى 16

(ذُنوبِكُمْ) الذال من ظهر اللسان مع رؤوس الثنايا العليا، ثم النون من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا، ثم الباء من الشفتين، والكاف من أقصى اللسان قريباً من جهة الفم، ثم الميم الشفوية.

(بِسُلْطان) الباء شفوية، والسين من رأس اللسان مع أصول الثنايا، واللام من حافة اللسان الأمامية مع التصاقها بما يحاذيها من الأسنان، والطاء من ظهر اللسان مع أصول الثنايا العليا، ثم الألف من الجوف والنون من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا.

(قوم) القاف من أقصى اللسان قريباً من الحلق، وأما توالي حرفين قريبي المخرج الواو والميم فمغتفر لأن اجتماع حرفين من أسرة مخرج واحد لا يعد قدحاً في فصاحة الكلمة عند أهل اللغة ونظيره في اللغة كثير مثل: أحد، أهل، عهد، نخع، قال ابن دريد في الجمهرة: " وَاعْلَم أَنه لَا يكَاد يَجِيء فِي الْكَلَام ثَلَاثَة أحرف من جنس وَاحِد فِي كلمة وَاحِدَة لصعوبة ذَلِك عَلَيْهِم، وأصعبها حُرُوف الْحلق، فَأَما حرفان فقد اجْتمعَا فِي كلمة مثل أخر "[1] وكونهما من الأحرف الشفوية يجعلهما أكثر قبولاً لأنها أخف الحروف وأرقها، ثم إن مجيء وسط الكلمة ساكناً كان له أيضاً أثر في تيسير الانتقال بين الحروف.

أورد الباحث ما سبق كنموذج للكلمات الوارد في النص القرآني ليستدل من خلاله على خفة الكلمة القرآنية بتناغم وانسجام حروفها وتلاؤم حركاتها وخلوصها من التنافر الحاصل عن تقارب المخارج، وذلك أن الكلمة المتباعدة المخارج تسمح للناطق بها عند أدائها الصوتي أن يأخذ مهلة وأناة لما بين المخرج والمخرج التالي من الفسحة والبعد، فتستقر الحروف في مواضعها، بخلاف الكلمة المتقاربة المخارج فإن اللسان عند نطقها لا يكاد يتخلص من مخرج إلا ووقع في الآخر الذي يليه لقرب

---

[1] ابن دريد، جمهرة اللغة: 46/1

ما بينهما، فتأتي حروف الكلمة قلقة غير مستقرة في أماكنها، **والملاحظ في المفردات التي يزيد عدد حروفها على أربع دخول أحد حروف الذلاقة أو الشفة في تركيبها لما تحمله هذه الحروف للكلمة من العذوبة والرشاقة**، ولك أن تنتقي من مفردات النص السابق ما تشاء دليلاً على ذلك من مثل: (يَعْلَمُهُم) التي تضمنت حرفي اللام والميم، و(البيِّنات) التي دخلها الباء والنون، وفي كلمة (أفواههم) نجد الفاء والميم، كذلك النون المكررة في (تَدْعونَنا)، والفاء واللام في (ليغفر) والنون والباء واللام في (ولنَصبِرَنَّ) وهكذا (هدانا، تريدون، مثلنا، يعبد، مسمّى، المؤمنون ..) وسائر الألفاظ الأخرى.

وإذا ندر وخلت المفردة من هذه الحروف دخلها أحد حروف المد أو حرف السين ذو الجرس اللين كما في مفردة (يسيغه) فإنها حين بنيت من حروف مصمتة جيء بالسين لتليين نطقها وكذلك (يأتيه) كان لحرف المد دورٌ في رقتها وخفتها.

دور الحركات في فصاحة الكلمة القرآنية

وإذا انتقلنا إلى أثر الحركات في فصاحة الكلمة نجد أن أهل اللغة قد قسموا الحركات إلى خفيفة وثقيلة فالضمة أثقلها تليها الكسرة ثم الفتحة، وقد مر بنا أنهم عدوا توالي الحركات الشديدة معسراً في النطق وثقيلاً على السمع، وبالنظر في كلمات سورة إبراهيم كنموذج نجد أن حركات الحروف تشكل بأدائها وتناغمها موجة صوتية تريح اللسان وتطرب الأذن، فلا يكاد القارئ يشعر بوقع الانتقال بين حروف الكلمة أثناء ركوبه الموجة الموسيقية التي تصعد به حيناً وتنزل به أخرى في خفة وسلالة.

فنرى توالي حركة الفتحة الخفيفة في (خَلَقَ)، (ضَرَبَ)، (القَمَرَ)، (البَلَدَ)، (وَهَبَ)، (السَّمَاوات) و(فلْيَتَوَكَّل)، (وَلَنَصْبِرَنَّ)، (يَتَجَرَّعُه)، (بَشَر)، (كَرَمَاد)، (يَشَاء)، (أَجَل) .. وغيرها

ونجد أثر السكون في تخفيف وقع توالي الحركات الثقيلة من خلال المقاطع الصوتية، فالسكون يقسم الكلمة إلى مقاطع تسهل على القارئ تلفّظ الكلمة حيث تغدو كأكثر من كلمة عند النطق بها. فرغم طول كلمات (آذيتمونا، لنخرجنهم، ولنسكننكم، واستفتحوا) نلمس خفَّة جريانها على أسلات اللسان لانقسامها بالسكون إلى مقاطع صوتية، فكلمة (آذيتمونا) تُقرَأ على أربع دفعات (أَأْ/ ذَيْ/تُمُو/نَا)، وكلمة (لنخرجنكم) تقرأ على ثلاثة دفعات (لَنُخْ/رِجَنْ/نَكُم)، وكذلك الأمر بالنسبة لكلمة (ولنسكننكم) تقسم في التلاوة إلى (وَلَنُسْ/كِنَنْ/نَكُم)، وكلمة (واستفتحوا) تقرأ (وَاسْ/تَفْ/تَحُو).

إذ يوفِّر التقطيع الجهد العضلي الذي تبذله أعضاء النطق لما يمنحه السكون من مهلة ترتاح فيها هذه الأعضاء ثم تعاود العمل منتقلة إلى المقطع التالي، أضف إلى ذلك ما يؤديه السكون من دور في تخفيف وقع الانتقال بين الحروف المختلفة الحركات ولذا تكره العرب الخروج والانتقال من الكسر إلى الضم، ولكننا لا نجد هذا الثقل مع وجود فاصل السكون كما في كلمة (أُرْسِلْتُم) حيث نرى السكون قد مهدت للّسان الخروج من الضمة الثقيلة والتّدرّج إلى الكسرة الأقل ثقلاً ثم عادت لتمهد له كذلك التدرج نحو الأثقل فيما يشبه الموجه في ارتفاعها وانخفاضها، وكذلك في كلمة (البَحْرِ) كان الانتقال من الفتحة الخفيفة إلى الكسرة الثقيلة سلساً لتخلل الكلمة بالسكون الممهدة للانتقال. والأمر نفسه نجده في المفردات الآتية من سورة إبراهيم (المَوْتُ)، (مَاْءٍ)، (يَوْمٍ)، (خَلْقٍ)، (شَيْءٍ)، (قَبْلُ)، (فَوْقِ)، (بَيْعٌ)، (رِزْقاً)، (البَحْرِ)، (غَيْرِ)، (زَرْعٍ)، (عِنْدَ)، (وَعْدِه) وغيرها..

ويلاحظ عدم ورود الحركات الثقيلة متتابعة في النص القرآني إلا عندما يستدعي السياق الشدة والعنف أو التعنيف أو التأكيد، وعندها تؤدي هذه الشدة دوراً في التعبير عن المعنى على سبيل الإيحاء وتكون ضرورة ملحة لا يستغنى عنها كما في كلمة

(رُسُلُهُم) التي وردت بثلاث ضمات متتالية أحد عشر مرّة في القرآن الكريم ثلاث منها في سورة إبراهيم وكانت سياقاتها كالآتي:

- (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)[1]

- قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ)[2]

- قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)[3]

يلاحظ أن المحور الذي تدور حوله الآيات الثلاثة هو الحوار الذي دار بين الرسل والكافرين من أقوامهم بسبب اعتراض هؤلاء المعاندين على نبوة الرسل ووقوفهم في وجه الدعوة إلى دين الله، والجهد الذي بذله هؤلاء الرسل في سبيل إقناعهم وردهم إلى الحق. وأنت ترى أن السياق يستدعي التأكيد والتقرير حيناً والتعنيف والتوبيخ والشدة حيناً آخر لذا كانت الضمة الثقيلة المتوالية على أربعة أحرف مناسبة لهذا المقام لأنها تزيد معنى الآيات بياناً.

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 9

[3] سورة إبراهيم: الآية 10

[4] سورة إبراهيم: الآية 11

المبحث الثاني: اصطفاء المفردة القرآنية

أولاً - المفردة القرآنية صفوة كلام العرب

لما كانت اللغة العربية من أوسع اللغات وأغناها بالمفردات والأساليب فقد كانت العرب تتخير من ألفاظها ما يكون مطابقاً للمعنى معبراً عما يجول في الذهن تعبيراً دقيقاً، وكلما كانت الكلمة أنسب للموضوع كان الكلام أبلغ وأجمل. فقد روي أن رجلا أنشد ابن هرمة قوله[1]:

بالله ربك إن دخلت فقل لها هذا ابن هرمة قائما بالباب

"فقال: ما كذا قلت؛ أكنت أتصدق؟ قال: فقاعدا. قال: كنت أبول؟ قال: فماذا؟ قال: واقفا. ليتك علمت ما بين هذين من قدر اللفظ والمعنى". ولعلّ ابن هرمة يعني من ذلك أن القيام يقتضي الدوام والثبوت بخلاف الوقوف، تقول: وقف الحاج بعرفة، ولا تقول: قام.

وعندما نزل القرآن الكريم بلغة العرب سبقهم في هذا المضمار، وأظهر عجزهم في اللحاق به في موضوع الحذاقة في انتقاء الكلم والمهارة في التعبير عن المراد، بل أعطاهم دروساً بهذا الخصوص حين أمرهم بتوخي الحذر والدّقة في التعبير، ونبههم إلى ضرورة استعمال اللفظة المناسبة في محلها المناسب وتجنب إيراد لفظ مكان آخر فتضل المعاني بين الاحتمالات وتتوه الأغراض والمقاصد في ظلال الشك والتمويه.

فحين قدمت بنو أسد من الأعراب إلى المدينة المنورة في سنة جدبة، وأظهروا الشهادة، يريدون الصدقة ويمنون على النبي صلى الله عليه وسلم بقولهم "آمنا" نبههم

---

[2] ينظر: أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل، الصناعتين، المكتبة العنصرية - بيروت 1419هـ،68

القرآن الكريم إلى التزام الدقة في التعبير، ووجههم إلى استعمال "أسلمنا" بدلاً من "آمنا" فقال تعالى: (**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**)[1] فإن بين الكلمتين فرقاً كبيراً لأن "ما يَكُونُ مِنَ الإِقْرارِ بِاللِسانِ، مِن غَيْرِ مُواطَأَةِ القَلْبِ، فَهو إسْلامٌ، وما واطَأَ فِيهِ القَلْبُ اللِسانَ فَهو إيمانٌ"[2] وكلمة "إسلام" هي التي تناسب حال هؤلاء الأعراب. ولك أن تتلمس عالي أسلوب القرآن الكريم في إتيانه بأداة الاستدراك (لكن) التي هونت من وطأة نفي الإيمان على قلوب هؤلاء القوم، ولطفت العبارة وسترت قسوة التعنيف الذي بدأت به الآية فبينت سبب ذلك وأوضحت بقوله: (**وَلٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**) ثم رغَّبَتْهم بالإيمان وطاعة الرسول والعمل الصالح لأنها سبيل رحمة الله ومغفرته.

وقد بلغ إعجاز القرآن في اصطفاء ألفاظه حداً جعل القبائل العربية تتفاخر بما في ألفاظها من شبه بألفاظ القرآن الكريم، وتتباهى باستعماله لكلمات من لهجاتها لما في ذلك من إشارة إلى فصاحة هذه الكلمات وتميز المتكلمين بها. "قال أهل مكة لمحمد بن المناذر الشاعر: ليست لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة، إنما الفصاحة لنا أهل مكة. فقال ابن المناذر: أما ألفاظنا فأحكى الألفاظ للقرآن، وأكثرها له موافقة، فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم، أنتم تسمون (القدر) (برمة) وتجمعون البرمة على (برام)، ونحن نقول (قدر) ونجمعها على (قدور)، وقال الله عز وجل: (وَجِفانٍ كَالْجَوابِ وَقُدُورٍ راسِياتٍ)[3]، وأنتم تسمون البيت إذا كان فوق البيت (عُلَيَّة)، وتجمعون هذا الاسم على (علالي)، ونحن نسميه (غرفة) ونجمعها على (غرفات)

---

[2] سورة الحجرات: الآية 14

[3] النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة الأولى، 1419 هـ - 1998م، 358/3

[4] سورة سبأ: الآية 13

و(غرف)، وقال الله تبارك وتعالى: (غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ)[1]، وقال: (وَهُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ)[2]، وأنتم تسمون الطلع (الكافور) و(الإغريض) ونحن نسميه (الطلع). وقال الله تبارك وتعالى: (وَنَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ)[3]. فعدّ عشر كلمات لم أحفظ أنا منها إلا هذا"[4]

ألفاظ القرآن الكريم هي زبدة ما في كلام العرب فالله تعالى قد مخّض اللغة العربية وألقى زبدتها في كتابه العزيز، فاللفظة القرآنية هي "لب كلام العرب وواسطته وكرائمه.. وما عداها من الألفاظ المتفرعات عنها والمشتقات منها، هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة، وكالحثالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة"[5]

والكلمة في القرآن الكريم متمكنة في مكانها تؤدي كامل ما يطلب منها لإفادة المعنى بجرسها وإيحائها وصفات حروفها وحركاتها ولا يمكن الاستعاضة عنها بغيرها مهما اتسعت دلالة البديل "لو نزعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب أن يوجد أحسن منها لم يوجد"[6]، وإن اللفظ القرآني كما يقول الخطابي: "إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة، وذلك أن في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني يحسب أكثر الناس

---

[2] سورة الزمر: الآية 20

[3] سورة سبأ: الآية 37

[4] سورة الشعراء: الآية 148

[5] الجاحظ، البيان والتبيين: 40/1

[6] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن: 54

[7] ابن عطية، عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى - 1422 هـ، 52/1

أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب كالعلم والمعرفة، والحمد والشكر، والبخل والشح.. والأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك"[1]

وقد روى أن قارئاً قرأ قوله تعالى: (فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)[2] فقال: "غفور رحيم" فسمعه أعرابي فأنكره، ولم يكن هذا الأعرابي قد قرأ القرآن، وقال: إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا، الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل لأنه إغراء عليه[3].

فالأعرابي أدرك -بحسه اللغوي المرهف السليم- أن البلاغة الرفيعة تقتضي أن يكون اللفظ القرآني كما ورد، فحين أخطأ القارئ أحدث في الكلام خللاً فطنت إليه الأذن المدربة، فالناس قد يجيزون استعمال لفظ مكان آخر دون أن يعبؤوا بالفروق اللغوية، لكن هذا الأمر محال في حق كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يقول الجاحظ: " قد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السّغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة، وكذلك ذكر المطر، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث"[4]

---

[2] الخطابي، بيان إعجاز القرآن: 27

[3] سورة البقرة: الآية 209

[4] ينظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 347/3

[5] الجاحظ، البيان والتبيين: 41/1

ثانياً – أمثلة من سورة إبراهيم

وفيما يلي بعض الأمثلة من سورة إبراهيم نتبين من خلالها إعجاز القرآن الكريم ودقته في اختيار مفرداته:

- **قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ)**[1]

نريد أن نقف من هذه الآية على وجه اختيار أربع كلمات هي "أنجاكم" و "يذبحون"، و"يسومونكم" و"نساءكم".

(أَنْجَاكُم)

عبر البيان الإلهي عن نعمته على بني إسرائيل حين أنقذهم من ظلم فرعون وتسلط مَلَئِهِ وانتشلهم من واقع الذل الذي كانوا غارقين فيه، فاستعمل كلمة "أنجاكم" من الفعل الثلاثي المزيد بحرف (أفعل)، وهذا الفعل نفسه قد تكرر في آية أخرى ولكن بصيغة أخرى هي "نجَّيناكم" من الفعل الثلاثي المزيد (فعَّل) في قوله تعالى في سورة البقرة: (وَإِذْ **نَجَّيْنَاكُم** مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ)[2] فما السر في هذا الاختلاف رغم اتحاد القصة وتشابه الآيتين؟

إن ما تؤديه صيغة الفعل (فعَّل) يختلف عما يفيده (أفعل)، إذ الأولى تعني المبالغة والتكثير غالباً[3] وهو ما يستغرق وقتاً ويستدعي التلبث والتمهل مثل (كسَّر، قطَّعَ، علَّمَ)، فالفعل (علَّم) مثلاً يتطلب التريث والتلبث مع طول الفترة الزمنية التي يحتاجها

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 6

[3] سورة البقرة: الآية 49

[1] ينظر: رضي الدين الاستراباذي، شرح شافية ابن الحاجب: 92/1

إذا ما قارناه بصيغة الفعل (أعلم) التي تعني الإخبار الذي لا يكون معه تمهل ولا لبث.

والله سبحانه وتعالى استعمل الفعل (أنجى) الدال على المبادرة والسرعة في آية سورة إبراهيم لأن حالة العذاب التي كان يعيشها بنو إسرائيل لم تكن تحتمل التأخير أو التريث، فأصناف العذاب كانت متعددة ومتنوعة دلَّ على ذلك الفصل بين (يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ) و (يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ) بـ(الواو) التي تعني المغايرة بين الأمرين، فسوء العذاب عذاب آخر أضيف إلى ذبح الأبناء واستحياء النساء، فالآية تصور مشهداً مروعاً ومفزعاً من العنف والتعذيب يستدعي تدخلاً سريعاً عبَّر عنه بالفعل (أنجى)[1].

أما في سورة البقرة فتصوير المشهد مختلف رغم اتحاد القصة والشخصيات، والتعبير يكون وفق المنظار الذي يشاهد به، فقد فسر قوله (يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) على أنه بدل من (سوء العذاب)، فأصناف التعذيب وأنواعه أقل مما هو في مشهد سورة إبراهيم، لذا لزم الأمر التريث والتَّمهل في الإنجاء ليكون ذلك سبيلاً لاستئصال شر فرعون من جذوره وإنهاء معاناة بني إسرائيل بشكل كلي، فكان الأنسب التعبير بلفظة (نَجَّينَاكم).

(يُذَبِّحون)

والمفردة الثانية التي أود الوقوف عندها في الآية هي قوله تعالى: (يُذَبِّحون) التي جاءت هي الأخرى بصيغة (فعَّل)، وهناك قراءة بـ "يذبَحون" دون تشديد الباء لكنها شاذة، والقراءة المجمع عليها بالتشديد وهي الأقرب لأنها للتكثير والمبالغة بخلاف الأخرى التي تصلح للقليل والكثير[2]، وفرعون قد أكثر من القتل والفتك في بني

---

[2] ينظر: السامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: 71

[3] ينظر: البناء، أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الغني الدمياطيّ، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، دار الكتب العلمية – لبنان، الطبعة: الثالثة، 2006م - 1427هـ، 177

إسرائيل فكانت القراءة المتواترة أولى وأنسب فالبيان الإلهي دقيق في انتقاء ألفاظه، وبمقارنة هذه الآية بمثيلتها في سورة البقرة[1] نلاحظ أن واواً زيدت في هذه الآية في قوله تعالى (ويذبحون أبناءكم) عطفاً على (سوء العذاب) مما جعل ذبح الأبناء نوعاً آخر من العذاب الذي كان يلقاه بنو إسرائيل على يد زبانية فرعون، فيما خلت آية سورة البقرة من هذه الواو مما جعل سوء العذاب مفسراً بذبح الأبناء، فما وجه إضافة هذه الواو وماذا تزيد في المعنى وماذا تفيد؟

إن النظرة المتأنية في سياق الآتين تكشف لنا هذا السر وتزيدنا إيماناً بسمو بيان القرآن الكريم وعلو بلاغته، فالآية هنا في سورة إبراهيم سبقها أمر من الله تعالى لنبيه موسى أن يُذكِّر بني إسرائيل بـ(أيام الله) في قوله تعالى (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم **بِأَيَّامِ اللَّهِ** ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)[2] والتذكير بأيام الله لا يحصل إلا بتعداد النعم، فجاءت الواو لتجعل سوء العذاب نوعاً آخر من العذاب الذي أنقذ الله تعالى بني إسرائيل منه، ولذا تعددت نعم الله بتعدد أصناف العذاب الذي خلصهم منه.

أما في سورة البقرة فلَم يرِد الْأمر إِلَّا بتذكِيرِ جنسِ النِّعمة وهي قَوْلُهُ: (**اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ**)[3] فسواء كان المراد من سوء العذاب هو الذبح أو غيره كان تذكير جنس النعمة حاصلاً.[4]

---

[2] وهي قوله تعالى: (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ) (سورة البقرة: الآية 49)

[3] سورة إبراهيم: الآية 5

[4] سورة البقرة: الآية 47

[5] ينظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 507/3

و(الذّبح) لغة هو "قطع الحلقوم من باطن"[1] وهذا يعني أن القتل كان بقطع الشرايين وإراقة الدم، دون غيره من وسائل إزهاق الروح، غير أنه قد ورد في سورة الأعراف بلفظ (القتل) في قوله تعالى (**وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ**)[2] والقتل عام يشمل إراقة الدم بالذبح وغيره كالخنق والإغراق وغيره من الوسائل.

والسبب في الاختلاف أن فرعون قد انتقم من بني إسرائيل مرتين[3] **الأولى**: عند انتصاره على الهكسوس فصب جام غضبه على بني إسرائيل وقتلهم بشتى الوسائل وهدم بيوتهم وأحرقها فكان التعبير بـ (يقتلون) سببه تعدد أشكال القتل. أما مسألة الذبح فكان سببها أن فرعون رأى في منامه ناراً تخرج من بيت المقدس تحرق المصريين وتستثني بين إسرائيل، وعندما طلب من كهانه تفسير الرؤيا قالوا له: إن نهاية ملكه ستكون على يد ولد من ذرية بني إسرائيل، فأمر فرعون القوابل بذبح كل مولود ذكر من ذرية بني إسرائيل ذبحاً، إذن عندما تعلق الأمر بزوال الملك طلب فرعون من زبانيته إزهاق أرواح الأطفال بالذبح الذي تنعدم معه فرص النجاة بخلاف الوسائل الأخرى التي قد تخطئ ضحيتها أو قد لا تكون مميتة على الفور.

(يَسومونكم)

ونعود من جديد للآية نفسها وكلمة (يسومونكم) التي اختارها البيان الإلهي بعناية كونها تعبّر عن معنى يعجز عنه غيرها من الألفاظ. فأصل كلمة (سام) (يسوم) (سَوماً)

---

[2] ابن سيده، علي بن إسماعيل المرسي، المخصص، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، 1417هـ 1996م، مادة (ذبح)، وينظر: الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: مادة (ذبح)

[3] سورة الأعراف: الآية 141

[4] ينظر: متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي- الخواطر: 327/1

هو الذهاب في طلب الشيء[1]، واستعملها العرب في قولهم "سامَه خُطَّةَ خَسفٍ" بمعنى أولاه ظلماً[2]، ومنه قول الشاعر عمرو بن كلثوم:

إِذَا مَا المَلْكُ سَامَ النَّاسَ خَسْفَاً أَبَيْنَـــا أَنْ نُقِـــرَّ الــذُّلَّ فِينـــَا[3]

أي إذا أذاق الملك الناس العذاب والهوان والذل. وقيل: إن (السوم) مأخوذ من سائمة الغنم أي إدامتها، من سام الغنم يعنى أدام رعيها في المرعى[4]، وهذا يعني أن الكلمة تحمل معنيين متكاملين وكلاهما مقصود: إيراد العذاب وإدامته.

ولما كان العذاب الذي يتعرض له بنو إسرائيل على يد آل فرعون عذاباً شديداً ومستمراً لا يعرف الانقطاع ولا الانتهاء رجّح البيان الإلهي كلمة (السوم) على غيرها، فكان معنى (يسومونكم سوء العذاب): يذيقونكم ويولونكم سوء العذاب ويديمونه عليكم، فهو عذاب شديد ومستمر غير منقطع، وكأن الله تعالى يقول لهم: " واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون حالة ما كانوا يديمون عذابكم، من سام الماشية أي جعلها سائمة ترعى دائماً، وكأن العذاب كان هو الغذاء الدائم الذي يطعمونهم إياه"[5] وهنا يبرز تميُّزُ اللفظ (سام) على غيره مما قد يجعل مرادفاً له، إذ لو وضعنا محلها (يوردونكم)، أو (يذيقونكم) لفقدت الآية معنى استمرارية التعذيب وديمومته التي يؤديها لفظ (السوم).

"**نِسَاءَكم**"

---

[2] الأزهري، تهذيب اللغة، باب السين والميم، مادة (سوم)

[3] ينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 79/1، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 258/1،

[4] البيت ذكره أبو زيد الخطاب في "جمهرة أشعار العرب": 298، وكذا العوتبي في "الإبانة في اللغة العربية" وزارة التراث القومي والثقافة – مسقط – سلطنة عمان، الطبعة: الأولى، 1420 هـ – 1999م، 41/3

[5] الزمخشري، أساس البلاغة: 485/1، الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، مادة (س و م)

[6] سيد قطب، في ظلال القرآن: 70/1

نلاحظ أن البيان الإلهي عبر عن الأطفال الإناث بـــ(النساء) خلاف المألوف من أساليب الكلام التي يأتي فيها بلفظ (البنات) في مقابل لفظ (الأبناء)، أو يؤتى بلفظ (الرجال) في مقابل (النساء) فما وجه ذلك؟ وما السر في اختيار البيان الإلهي لهاتين اللفظتين؟

قال أهل العلم[1]: إن الثابت أن فرعون كان يذبح مواليد بني إسرائيل الذكور أي أطفالهم فور ولادتهم للسبب الذي ذكرناه آنفاً، فكان التعبير بـ (أبنائكم) مطابقاً للمعنى كونه يشير إلى معنى البنوة الذي يشعر بحالة الطفولة والصغر وإن كان يدل على الكبير أيضاً، ولو خصصناه بالبالغين " لَمْ يَكُنْ لِإِلْقَاءِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي التَّابُوتِ حَالَ صِغَرِهِ مَعْنًى"[2] وأما تسمية المواليد الإناث بـ (النساء) فهو باعتبار ما سيؤلن إليه بعد نجاتهن من الذبح الذي نال الذكور على يد فرعون وعصبته، أما الذكور فلم يتجاوزا مرحلة الطفولة كي يطلق عليهم اسم الرجال. وفي استعمال البيان الإلهي للفظ النساء إشارة إلى نعمة الله تعالى على بني إسرائيل حين أنقذ بناتهم الصغار مما كان ينتظرهن من مهانة وإذلال وهتك عرض، ففرعون قد استحياهن لذلك.

- **في قوله تعالى: (رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)**[3]

ويريد الباحث أن يقف من هذه الآية الكريمة عند كلمتين ظهر له إعجاز القرآن الكريم في اصطفائه لهما دون مرادفاتهما.

---

[2] ينظر: البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، 1417 هـ - 1997م، 91/1، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 34/5

[3] الفخر الرازي، مفاتيح الغيب:506/3

[1] سورة إبراهيم: الآية 37

(أَفئِدة)

تتضمن الآية الكريمة تضرع سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى ربه بالدعاء لذريته التي تركها عند بيت الله المحرم للعبادة وإقامة شعائر الدين، وكان من دعائه (فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم) فاختار البيان الإلهي التعبير ب(أفئدة) وهي جمع (فؤاد) وللمفسرين فيه قولان: قال الماوردي: "في (أفئدة) وجهان: **أحدهما**: أن الأفئدة جمع فؤاد وهي القلوب، وقد يعبر عن القلب بالفؤاد، قال الشاعر:

وإنّ فؤاداً قادَني بصبابةٍ إليك على طُولِ الهوَى لصَبورُ[1]

الثاني: أن الأفئدة جمع وفد، فكأنه قال: فاجعل وفوداً من الأمم تهوي إليهم"[2] ورغم ترادف مفردتي (الفؤاد) و(القلب) في عرف الناس فأن بينهما فرقاً دقيقاً في الاستعمال القرآني، يدل على ذلك اجتماعهما في آية واحدة بمعنيين مختلفين في قوله تعالى: (**وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**)[3]، فأم موسى قد انفطر قلبها وتصدَّع وجدانها حين سمعت بوقوع فلذة كبدها بيد فرعون، فنالت الصدمة من أحاسيسها وفزعت وخافت خوفاً شديداً جعلها تنسى وعد الله لها بإعادته إلى صدرها وفق الخطة المرسومة، فكان تعبير القرآن عن مركز ذلك الشعور بـ (الفؤاد)، ولكن ما لبث أن ربط الله تعالى على قلبها بتقويته وإيناسه فألهمها الصبر ورباطة الجأش ومنع أحاسيسها ومشاعرها كأم

---

[2] ذكره الماوردي في تفسيره، ومنه أخذ ابن الجوزي، ولم أجده في كتب الأدب والمعاجم. ينظر: النكت والعيون: 138/3، وابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد، زاد المسير في علم التفسير، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الأولى - 1422هـ، 516/2، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 373/9

[3] الماوردي، النكت والعيون – تفسير الماوردي: 138/3، ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير: 516/2، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 373/9

[4] سورة القصص: الآية 10

من إفساد ما أراده الله تعالى، فكان التعبير بـ (القلب) وهذا يعني أن للفؤاد استخداماً مختلفاً عن القلب.

قال الراغب الأصفهاني: " ويعبر بالقلب عن المعاني التي تختص به من الروح والعلم والشجاعة "[1]، وأما الفؤاد فهو من (التَّفؤُّد)[2]، وهو التَّوقُّد، قال الراغب: " الفؤاد كالقلب لكن يقال له فؤاد إذا اعتبر فيه معنى التَّفؤُّد، أي: التَّوقُّد"[3]، ومعنى التوقد أقرب للأحاسيس وأميل للوجدان والشعور.

ولما كان مراد إبراهيم من دعائه أن يوجه الله تعالى عناية أناس ومشاعرهم بالحنان والعطف تجاه ذريته وقع الاختيار على كلمة (فؤاد)، قال ابن عاشور: " والمراد فاجعل أناسا يهوون إليهم، فأقحم لفظ الأفئدة لإرادة أن يكون مسير الناس إليهم عن شوق ومحبة حتى كأن المسرع هو الفؤاد لا الجسد"[4]

(تهوي)

وتتجلى دقة البيان الإلهي في هذه الآية كذلك في اصطفاء كلمة (تهوي) للدلالة على الميل والنزوع إلى الشيء شوقاً وتوداً وتحنناً[5]، ومعنى الفعل (هوى) لغة السقوط والهبوط، فتقول: "هَوَيتُ أَهْوِي هُوِيّاً، إِذا سقطت من عُلْوٍ إِلَى أَسْفَل، وَكَذَلِكَ الهَوِيُّ فِي السَّير إِذا مضى"[6]

---

[2] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن: 681/1

[3] ابن منظور، لسان العرب، مادة (فأد)

[4] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن: 646

[5] ابن عاشور، التحرير والتنوير: 241/13

[6] ينظر: البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن: 44/3

[7] الأزهري، تهذيب اللغة، باب (الهاء والميم): 258/6

لكن المفردة تحمل معاني وإشارات أخرى تجعلها أولى بالمقام من غيرها؛ منها إفادتها (الإسراع في السعي)[1] وهو مأخوذ من قولهم: النَّاقَةُ تَهْوِي هَوْيًا فَهِيَ هَاوِيَةٌ إِذَا عَدَتْ عَدْوًا شَدِيدًا، كَأَنَّهَا تَهْوِي فِي بِئْرٍ، أو أن المَعنَى: تَجِيءُ إِلَيْهِمْ أَوْ تُسْرِعُ إِلَيْهِمْ[2]، قال ابن عاشور: " وتهوي مضارع هوى: سقط. وأطلق هنا على الإسراع في المشي استعارة، كقول امرئ القيس:

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعاً كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ[3]

ولذلك عدي باللام دون على، والإسراع: جعل كناية عن المحبة والشوق إلى زيارتهم"[4]

إذن فالمراد بكلمة (تهوي) تقصدهم مسرعة بشوق ومحبة، ولو قدرنا محلها غيرها مما يُظَنُّ مرادفاً لها كـ (تَحِنُّ) مثلاً لما أدت المعنى المنشود؛ لأن الحنين قد يوصف به من هو مقيم في مكانه، أما الهويّ فـ "يفيد انزعاج الهاوي من مستقره"[5] وانبعاثه نحو مكان آخر.

والهويّ كذلك يختلف عن (الميل) وإن أفاد معناه، إذ يعني الهويّ السقوط دون إرادة فلا يملك الشيء الذي يهوي لنفسه تحكماً ولا اختياراً، وهذه الدعوة من سيدنا إبراهيم عليه السلام بهذه الصيغة هي التي جعلت الناس مذ ذاك الزمن وحتى اليوم تنجذب إلى زيارة البيت الحرام وتندفع نحوه يشدُّها إليه حنين وشوق لا تملك له دفعاً ولا منعاً، يصور لنا سيد قطب جمالية هذا التعبير بقوله " وفي التعبير رقة ورفرفة،

---

[2] ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب: 104/19

[3] ينظر: الشوكاني، فتح القدير:135/3

[4] البيت من معلقة امرئ القيس المشهورة. ينظر: ديوان امرئ القيس: 12
وينظر كذا: الجاحظ، الحيوان: 5/3

[5] ابن عاشور، التحرير والتنوير: 241/13

[6] الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن: 183/2

تصور القلوب رفافة مجنحة، وهي تهوي إلى ذلك البيت وأهله في ذلك الوادي الجديب. إنه تعبير نديّ يندِّي الجدب برقة القلوب"[1]

- **قوله تعالى: (يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ)**[2]

يقف الباحث من هذه الآية عند كلمات ليبرز دقة اختيارها وقوتها في تصوير المشهد وإفادة المعنى الذي يعبر عنه البيان الإلهي.

كلمة (**يتجرَّع**): أصلها (جَرَع) تقول: جرع الدواء تريد بذلك بلعه دفعة واحدة، قال الخليل الفراهيدي: "وكلّ شيء يبلعه الحلق فهو اجتراع"[3] وهو من الثلاثي المزيد بحرفين (تفعَّل - يتفعَّل)، ومن المعاني التي تؤديها هذه الصيغة: أولاً- **المطاوعة**، فتقول جرعته فتجرَّعه أي طاوع الفعل وانصاع له، والمعنى الثاني- **التكلف** أي يتكلف بلع هذا الماء وجرعه رغم ما هو عليه من النتانة والقذارة والحرارة وهو ما ذهب إليه الزمخشري والبيضاوي وأبو حيان وابن عاشور[4]، والثالث- **التدرج** الذي يستدعي مهلة بين كل جرعة أي احتساء المشروب جرعة جرعة بشكل مستمر وهو قول الفخر الرازي والألوسي[5]. والقول الثاني هو الذي يبدو للباحث أقرب إلى سياق الآية وصورة المشهد، وأكثر انسجاماً مع نفي الإساغة في قوله تعالى: (ولا يكاد يسبغة)

---

[2] سيد قطب، في ظلال القرآن: 2110/4

[3] سورة إبراهيم: الآية 17

[4] الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين: باب العين والجيم والراء معهما.

[5] ينظر: الكشاف: 546/2، وأنوار التنزيل واسرار التأويل: 195/3، والبحر المحيط في التفسير: 419/6، والتحرير والتنوير: 211/13

[6] ينظر: مفاتيح الغيب: 80/19، روح المعاني: 191/7

فالكافر يحرص على محاولة الشرب من ذلك الصديد ويكررها علّه يجد فيه رواياً أو مسداً لظمئه ولكن هيهات له ذلك.

وقوله (**يسيغه**) من "ساغَ الشرابُ يَسوغُ سَوْغاً، أي سهُل مدخَلُه في الحَلْق"[1] بمعنى جرى في الحلق وانحدر دون عائق مع قبول نفس واستطابة المشروب، ولكن البيان الإلهي جاء بفعل المقاربة المنفي (لا يكاد) للمبالغة في نفي الإساغة عن هذا الكافر فهو لا يقارب أن يسيغة فضلاً عن الإساغة على رأي بعض المفسرين[2] واستدلوا بنظيرها في قوله تعالى: (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ)[3] فالرؤية هنا منتفية لكونه لم يقرب من الرؤية لأنها بعيدة عنه فكيف له رؤيتها، فتكون إساغة الشراب هنا كذلك غير ممكنة.

ونقل الرازي قولاً آخر في تفسير ذلك جعل نفي الفعل (كاد) إثباتاً وإثباته نفياً، فقوله تعالى: (ولا يكاد يسيغة) "أي ويسيغه بعد إبطاء؛ لأن العرب تقول: ما كِدْتُ أقوم، أي قمت بعد إبطاء قال تعالى: (فذبحوها وما كادوا يفعلون)[4] يعني فعلوا بعد إبطاء "[5] وكذلك في قوله تعالى: (يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ)[6] دليل على أنه يدخل بطونهم.

ومما سبق يظهر لنا الدور الذي لعبته كلمات (**يتجرعه**)، و(**لا يكاد**)، و(**يسيغه**) ودلالتها القوية في تصوير مشهد ذلك الكافر الذي تلفح النار الملتهبة وجهه ولا يجد

---

[2] ابن حماد الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، باب سوغ

[3] ينظر: النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 182/4، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 39/5، والخلوتي، روح البيان: 407/4، والألوسي، روح المعاني: 191/7

[4] سورة النور: الآية 40

[5] سورة البقرة: الآية 71

[6] الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 80/19

[7] سورة الحج: الآية 20

ما يتقي به لظاها فيظمأ ويستغيث، فيعرض عليه الصديد والغساق وهو القيح الذي سال من جلود أهل النار فيحاول شربه ويتكلف احتساءه جرعة إثر جرعة حال من يستجير من الرمضاء بالنار فيغص به رغم تكلفه، كما ورد في الحديث: "يُقرّب إليه فيتكرهه، فإذا أدني منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره"[1]

وهنا يلحظ الباحث ميزة أخرى للفظة (يتجرعه) فيرى أنها تؤدي معناها في تصوير المشهد حتى بجرس حروفها؛ فالتاء الشديدة ثم الجيم الجهرية الشديدة تصف قسوة ذلك الصديد ووقعه الشديد المؤلم على حلق محتسيه، ثم تأتي الراء المشددة بصفتها التكريرية لتوحي بتكرر محاولة الكافر بلع الشراب المقدم له رغم مرارته وحرارته فيغص به كل مرة وهو يتكلفه وربما نزل شيء منه إلى الجوف عبر البلعوم الذي يشير إليه حرف العين مع مخرجه من وسط الحلق، ليستقر في البطن مع حرف الهاء الذي يلي العين جهة الجوف فـ (يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ)، وبه نلاحظ أن ترتيب مخارج حروف الكلمة متناسبة تماماً مع انحدار الصديد وتدرجه في الفم ثم إلى الجوف مروراً بالحلق إذ تبدأ الكلمة بالتاء من رؤوس الثنايا العلوية، ثم الجيم من وسط اللسان، ثم تصور الراء المشددة المكررة حالة الغصَّة وتكلف الجرع وتردد الصديد في الفم قبل أن يتابع نزوله إلى الحلق عند العين، ثم حرف الهاء الذي يلي العين جهة الجوف.

ويرى الباحث أن الفعل (**احتسى**) وإن كان يحمل الدلالة المعجمية نفسها لكلمة (**تجرع**) في إفادة تناول الشراب فإنه لا يسد مسدَّ الفعل (تجرع) في سياق الآية الكريمة، فصيغة (احتسى) من الثلاثي المزيد بحرفين على وزن (افتعل)، وهذه الصيغة تفيد المشاركة والمطاوعة ولا تفيد التكلف الذي يشكل محور المعاني التي أفادها

---

[1] الحديث أخرجه الترمذي في أبواب صفة جهنم، باب ما جاء في صفة شراب أهل النار، برقم: 2583، وقال عنه: هذا حديث غريب.

الفعل (تجرع)، إضافة إلى جرس لفظة (احتسى) وحروفها اللينة التي لا تطابق مقتضى حال الكافر وعذابه، لأن الحاء من الحروف الاحتكاكية الرخوة التي تسمح بجريان الهواء عند النطق بها، وكذلك حرف السين اللين المهموس والألف، فالكلمة أقرب إلى استساغة الشراب وجريانه في الحلق بيسر وسهولة منها إلى معنى العذاب والغصة التي تنتاب الكافر.

ويظهر إعجاز البيان القرآني كذلك في انتقائه كلمة (**الموت**) للتعبير عن العذاب المطبق الذي ما بعده عذاب، والوجع الذي لا يضاهيه وجع، فلو بحثنا في معاجم اللغة عن كلمة أقسى وأعنف في الدلالة على هذا اللون من العذاب لتعذر علينا ذلك، إذ لو استُعمل لفظ (العذاب) محلها لكان نوعاً مألوفاً من العذاب، أما كلمة (الموت) فقد خرجت بالعذاب عن المألوف وجعلته يحمل صفات الموت نفسه وشدته ولكن من غير انتهاء، ومن غير أن يختص بعضو دون آخر وإنما يأتيه (مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ).

دلالة (النعمة) و(النعيم) في الاستعمال القرآني

يلحظ الباحث أن البيان الإلهي يميز في استعماله بين لفظتي (نعمة) و(نعيم)، فيأتي بالأولى للدلالة على ما يمن به في الحياة الدنيا على عباده من وجوه الإحسان المادي والمعنوي، وأما الثانية فقد اطرد استعماله لها فيما أنعم الله به على عباده المقربين في الآخرة على وجه الخصوص دون غيرها، فالنعمة للدنيا والنعيم للآخرة، نجد النعمة في قوله تعالى:

(اذكُرُواْ نعْمَتِىَ التِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ)[1]

(رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التِى أَنْعَمْتَ عَلَيَّ)[2]

---

[2] سورة البقرة: الآية 47

[3] سورة النمل: الآية 19

(وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا)[1]

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نعَمَهُ ظاهِرَةً وَبَاطِنَةً)[2]

في حين نجد تعلق النعيم بالأخرة في قوله تعالى:

(وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ)[3]

(أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ)[4]

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)[5]

وفي سورة إبراهيم تكرر ورود لفظ (نعمة) ثلاث مرات كلها للدلالة على إحسان الله تعالى وعطائه في الدنيا، ففي قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)[6] فُسِّرَت النعمة بما تلاها في قوله تعالى: (إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ)[7] إذ تجلت نعمة الله على بني إسرائيل في الدنيا بإنجائهم من تعذيب آل فرعون لهم المتمثل بذبح أبنائهم وإذلالهم واستباحة أعراض نسائهم. وجاء لفظ النعمة في قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ)[8] وكان المراد بهؤلاء كفار قريش، لمَّا أنعم الله عليهم برسوله وكتابه ليخرجهم من كفرهم وضلالهم إلى نور الهداية

---

[2] سورة المزمل: الآية 11

[3] سورة لقمان: الآية 20

[4] سورة التوبة: الآية 21

[5] سورة المعارج: الآية 38

[6] سورة الانفطار: الآية 13

[7] سورة إبراهيم: الآية 6

[8] سورة إبراهيم: الآية 6

[9] سورة إبراهيم: الآية 28

والإيمان اختاروا الكفر على الإيمان فبدلوا هذه النعمة جحوداً بها وإعراضاً عنها وكانوا السبب في هلاك قومهم[1].

وأما الموضع الثالث الذي وردت فيه النعمة فقوله تعالى: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)[2] جاءت بعد أن عدد الباري عز وجل في الآية السابقة عليها بعضاً من نعمه على خلقه في الدنيا كخلق السماوات والأرض، وإنزال الماء من السماء وإخراج الثمار وتسخير الشمس والقمر والليل والنهار وغيرها، فكان المراد بالنعمة في الآية الكريمة النِّعم التي أسبغها الله على عباده في الدنيا لا الآخرة جرياً على عرف البيان الإلهي في استعمالها.

---

[2] ينظر: وتفسير العز بن عبد السلام: 165/2، والنسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 173/2، والخازن، علي بن محمد بن إبراهيم، لباب التأويل في معاني التنزيل، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، 1415هـ، 37/3، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 464/1، ،

[1] سورة إبراهيم: الآية 34

الفصل الثاني

بلاغة الكلمة القرآنية من حيث هيئتها

ونحن نقصد بالهيئة في هذا البحث الشكل أو الصورة التي تكتسيها المفردة في سياق الكلام؛ إذ تتغير حالة الكلمة حسب ما يراد منها من معنى، فتارة تكون معرفة وتارة نكرة، ومرة اسماً ظاهراً ومرة ضميراً، وقل مثل ذلك عن هيئة التذكير والتأنيث والإفراد والتثنية والجمع وغير ذلك.

وهي في كل مرة تؤدي معاني بلاغية سنحاول الكشف عنها في سورة إبراهيم في البحث الآتي.

المبحث الأول: هيئة التعريف والتنكير

هيئة التعريف:

تناول علماء البلاغة أسرار تعريف المفردة وتنكيرها في الدرس البلاغي عند حديثهم عن أحوال المسند إليه، فذكروا الأغراض التي يأتي لأجلها المسند إليه نكرة أو معرفة، ثم فصّلوا في أنواع المعرفة (الضمير، العلم، اسم الموصول، اسم الإشارة، لام التعريف) من حيث الأغراض والنكت البلاغية التي يؤديها اللفظ عند مجيئه بهذه الهيئة.

أولاً - التعريف بالإضمار في سورة إبراهيم

بالعودة إلى ما كتب في أمَّات كتب البلاغة[1] عن الأغراض التي لأجلها جيء بالمفردة معرفة بالضمير دون غيره نجد أنها تكتفي بذكر مناسبة الضمير لمقام المسند إليه، أي كونه متكلماً أو مخاطباً أو غائباً، فإن كان المقام مقام متكلم جيء بضمير المتكلم وإن كان مقام مخاطب استعمل ضمير المخاطب، ويؤتى بضمير الغائب إن

---

[1] ينظر: القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 10/2، والسبكي، عروس الأفراح: 166/1، والصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح: 76/1، عوني، المنهاج الواضح للبلاغة: 27/2

كان المسند إليه في مقام الغيبة لكونه مذكوراً أو في حكم المذكور، ولا يخفى أن ما ذكروه لا علاقة له بعلم البلاغة وإنما هو من المعاني النحوية التي يكون محلها الدرس النحوي.

غير أنه يمكننا ملاحظة أغراض وأسرار بلاغية لاستعمال الضمائر من خلال ما كتبه المفسرون، إذ لم تخل تفاسيرهم من إشارات وإيحاءات تكشف للباحث عن نكت بلاغية تتعلق بهيئة تعريف المفردة بالضمير.

وقد حاولت في هذه الدراسة الوقوف على بعض الأسرار البلاغية لورود المسند إليه معرفاً بالضمير في سورة إبراهيم فكان منها:

التعظيم:

وهو كثيراً ما يصاحب نون العظمة التي ترد في حق الله تعالى مصورة عظمة الإله وقدرته وقوته ومؤكدة للخبر أو الفعل المنسوب إليه تعالى وملقية في الوقت نفسه هيبته والخشية منه في قلوب المخاطبين مثاله: قوله تعالى: (الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) فموضوع الآية إنزال الله تعالى كتابه الكريم على نبيه ليكون الواسطة لنشر تعاليم دين الله بين الناس فيهدي به من شاء الله، ويخرج الناس من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان والهداية، وقد كان لضمير (نا) في قوله (أَنزَلْنَاهُ) كبير الأثر في تعظيم شأن الكتاب لأن أهمية المنزَل نابعة من عظمة المنزِل، ولما كان المنزِل هو الله خالق كل شيء ومدبر كل شيء اتصف كتابه بالهداية والمنقذ من الضلال.

وقد تعدى أثر التفخيم الذي بثته نون العظمة ليصل إلى النبي المخاطب في الآية مع ملاحظة كاف الخطاب في قوله تعالى (إليك) وإسناد الإخراج إليه في قوله (لتخرج) يقول أبو حيان: " وإسْنادِ الإنْزالِ إلى نُونِ العَظَمَةِ ومُخاطَبَتِهِ تَعالى بِقَوْلِهِ: (إلَيْكَ)، وإسْنادِ الإخْراجِ إلَيْهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ تَنْوِيهٌ عَظِيمٌ وتَشْرِيفٌ لَهُ مِن حَيْثُ

المُشارَكَةُ في تَحْصِيلِ الهِدايَةِ بِإنْزالِهِ تَعالى، وبِإخْراجِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ إذْ هو الدّاعِي والمُنْذِرُ، وإنْ كانَ في الحَقِيقَةِ مُخْتَرِعُ الهِدايَةِ هو اللَّهُ تَعالى"[1]

- ومنه قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[2] فقد ورد المسند إليه في (أرسلنا) معرفة بصورة ضمير المتكلم الدال على العظمة تفخيماً لشأن المرسِل والإرسال قال البقاعي: "(وما أرْسَلْنا) أيْ بِما لَنا من العَظَمَةِ"[3] فلمرسِل الرسل من القدرة والعظمة ما يجعل هداية البشر وضلالهم في يده، يهدي من يشاء ويضل من يشاء ولا معقب لحكمه.

- ومنه نون العظمة التي تكررت مرتين في قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)[4] فالله سبحانه وتعالى بعث سيدنا موسى إلى قومه وأيده بالمعجزات الباهرة على صدق نبوته ودعوته، فأبرز فعل الإرسال في ثوب العظمة حين أسنده إلى نون العظمة (أرسلنا) ليشير بذلك إلى باهر معجزاته وساطع أدلته، وبراهينه على صحة دعوة سيدنا موسى عليه السلام، كما لا يخفى ما لنوني العظمة من أثر في إعلاء شأن سيدنا موسى عليه السلام وإكرامه، وإيحاء بتكفل الباري بحمايته وحفظه مما قد يتعرض له من مخاطر في دعوته، نلمح ذلك في ورود اسمه متخللاً قوله تعالى: (أرسلنا) وقوله: (آياتنا) اللذين اتصفا بالإجلال والعظمة مما يجعل سيدنا موسى عليه السلام محفوفاً بعناية صاحب العظمة ومسيجاً بحمايته.

---

[2] أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف، البحر المحيط في التفسير، دار الفكر – بيروت، الطبعة: 1420هـ، 405/6، وينظر: الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: 171/7

[3] سورة إبراهيم: الآية 4

[4] البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 374/10

[5] سورة إبراهيم: الآية 5

- وفي قوله تعالى (وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ)[1] نجد ما يضفيه ضمير العظمة في قوله (فعلنا) وقوله (ضربنا) على المشهد من المهابة والعظمة والجبروت، حين يطلب الظالمون مستحقو العذاب من الله تعالى عند ورودهم العذاب مهلة تأخير يعودون فيها إلى رشدهم ويتبعون الرسل ويصدقون بدعوتهم قائلين (رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ)[2]، فيأتيهم الجواب في صورة تقريع وتوبيخ شديدين تعيد إلى ذاكرتهم الأيام التي قضوها مطمئنين طيبي النفس في مساكن وديار الأمم التي نالها عذاب الله شاهدين على آثارهم الناطقة بما فعله الله بهم دون أن تأخذهم عبرة أو عظة من تلك العاقبة. ولما كان الحديث عن الانتقام والإهلاك تجلت قدرة الله تعالى وعظمته في التعبير بـ (فعلنا) المسند إلى نون العظمة التي تختزل في داخلها صفات القدرة والقوة والهيمنة والبأس، فمن أسند إليه الفعل جدير به وفعال له بما لديه من العظمة.

وكذلك الأمر في (ضربنا) التي تحمل الجدية في الخطاب والتحذير من العواقب لما ذكرنا من اتصاف المسند إليه بالعظمة والشدة والبأس، لذا كان حريا بالظالمين الاتعاظ بالمثلات التي جرت على الأمم البائدة لأن " الظّالِمِينَ كَما جَمَعَهُمُ اسْمُ الظُّلْمِ يَجْمَعُهم مِيسَمُ الهَلاكِ"[3]

الوعد والوعيد:

نلحظ أن ضمير المتكلم العائد على الله تعالى يحقق أغراضاً أخرى في سياق النص القرآني، فيتوعد المشركين به المعاندين لدينه بالخزي وسوء العذاب والمصير، ويبشر المؤمنين به في مقابل ذلك ويعدهم بالتمكين والنصر والنعيم، ومن أمثلة ورود المسند إليه معرفاً بالضمير لغرض الوعيد قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 45

[3] سورة إبراهيم: الآية 44

[4] البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 436/10

لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ **لَنُهْلِكَنَّ** الظَّالِمِينَ)[1] نجد الآية تبدأ بذكر وعيد الذين كفروا للرسل بالنفي وإخراجهم من أوطانهم ولكنها تنتهي بقوله تعالى: (**لَنُهْلِكَنَّ الظالمين**) الذي يحمل الوعيد الشديد لأولئك الكفرة بالهلاك والثبور، بما يحققه ضمير الجمع المتكلم من عظمة قوة وما يبثه من تهديد ورهبة في المشهد، فالأنبياء في حصن منيع وبعيد عن متناول الظلمة لا ينالهم منهم إلا ما شاء الله وقدَّر.

ثم يشفع البيان الإلهي ذلك الوعيد الموجه للكافرين ببشرى للرسل وأتباعهم تحمل وعداً من الله تعالى مؤكداً بالنصر والظفر على أعدائهم فقال تعالى: (وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ)[2] فعندما أقسم المشركون على إخراج الرسل ومن آمن بهم أو إلزامهم العودة عن الإيمان جاء البيان الإلهي حاملاً الوعد والوعيد في آن واحد وبخطاب ذو نبرة عالية وقوية يصنعه ضمير العظمة مع نون التوكيد ولام القسم، ينشر الأمن والطمأنينة في نفوس الرسل وأتباعهم بقوة المنجد والمغيث الذي سيهلك أعدائهم ويمنحهم أرضهم وديارهم، إذ أظهر الله تعالى بضمير المتكلم عظمته في وجه تجبّر أولئك الطغاة وقسمهم على ما عزموا. قال أبو حيان: "ولَمّا أَقْسَمُوا بِهِمْ عَلى إخْراجِ الرُّسُلِ والعَوْدَةِ في مِلَّتِهِمْ، أَقْسَمَ تَعالى عَلى إهْلاكِهِمْ. وأيُّ إخْراجٍ أعْظَمُ مِنَ الإهْلاكِ، بِحَيْثُ لا يَكُونُ لَهم عَوْدَةٌ إلَيْها أبَدًا، وعَلى إسْكانِ الرُّسُلِ ومَن آمَنَ بِهِمْ وذُرِّيّاتِهِمْ أرْضَ أُولَئِكَ المُقْسِمِينَ عَلى إخْراجِ الرُّسُلِ"[3]

والبيان الإلهي ينوع في استخدام ضمير المتكلم العائد على الباري عز وجل فمرة يكون بصيغة المفرد ومرة بالجمع ولا يمكن أن يكون ذلك عبثاً من القول- حاشا-،

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 13

[3] سورة إبراهيم: الآية 14

[1] أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير: 417/6

أو تزييناً للحديث، أو زخرفة للكلام فكتاب الله منزه عن العبث ومبرَّأ من الخلل والعيوب، وإنما لذلك أسرار بلاغية.

إذ يلحظ الناظر في كتاب الله تعالى مجيء الضمير مفرداً في المقام الذي يستوجب إبراز وحدانية الله تعالى، ودفع شبهة الإشراك والتعدد عن الذهن في حقه، كما هو الحال في الأمر بالدعاء، أو الأمر بالذكر، أو الأمر بالعبادة، أو الأمر بالتقوى، أو الأمر بالخشية، أو الأمر بالخوف، أو الأمر بالرهبة أو ابتغاء وجهه، أو ارادة الوجه أو ابتغاء مرضاته؛ فإنه دائماً يأتي بصيغة المفرد ولم يرد ولا مرة واحدة في هذه الموضوعات بصيغة الجمع أو مشيرا الى الجمع؛ وما ذاك إلا لأهمية هذه الأمور في ترسيخ عقيدة التوحيد، فلا تجد في القرآن الكريم نحو: اذكرونا، أو اعبدونا، أو اخشونا أو خافونا أو يبتغون وجهنا ، أو اتقونا أو نحو ذلك، وإنما نجد البيان الإلهي يسند الأفعال في هذه الموضوعات الحساسة إلى ضمير المتكلم المفرد لتأكيد وحدانيته، وإزالة ما قد يشوبها في الأذهان مما لا يجوز في حقه تعالى، وتأمل مِصدَاق ما ذكرتُ في الآيات الآتية:

- (فَلَا تَخْشَوْهُمْ **وَاخْشَوْنِي** وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)[1]
- (إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ **وَخَافُونِ** إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)[2]
- (إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً **وَأَنَا** رَبُّكُمْ **فَاعْبُدُونِ**)[3]
- (**فَاذْكُرُونِي** أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ)[4]
- (وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً **وَأَنَا** رَبُّكُمْ **فَاتَّقُونِ**)[5]

---

[2] سورة البقرة: الآية 150

[3] سورة آل عمران: الآية 175

[4] سورة الأنبياء: الآية 92

[5] سورة البقرة: الآية 152

[6] سورة المؤمنون: الآية 52

- (وَقَالَ رَبُّكُمُ **ادْعُونِي** أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ **عِبَادَتِي** سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)[1]

وفي سورة إبراهيم في قوله تعالى: (وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ)[2] تكرَّر ضمير المتكلم العائد على الله تعالى مرتين مرة بصيغة الجمع في قوله: (وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ) ثم بصيغة المفرد في قوله (مَقَامِي) وذلك مراعاة للمقام كما ذكرنا، فحينما استدعى مقام الخطاب إظهار القوة والعظمة جاء بالجمع، وعندما تعلق بالخوف من الله تعالى جاء مفرداً.

وكذا في قوله تعالى: (قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ)[3] فقد أضاف البيان الإلهي العباد إلى ضمير المتكلم بصيغة المفرد دون الجمع للدلالة على عائدية العباد لله تعالى دون غيره، فهو خالقهم وهو مالكهم والمتصرف في شؤونهم لا ينازعه في ذلك أحد في إشارة إلى وحدانيته وانفراده بالألوهية.

ومنها كذلك قوله تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ **لَأَزِيدَنَّكُمْ** وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ **عَذَابِي** لَشَدِيدٌ)[4] تنبيه واضح للمخاطبين أن المنعم الحقيقي والقادر على زيادة النعم هو الله وحده لا شريك له في ذلك.

وعليه فإن ما ذكرناه من التعبير بصيغة المفرد لا يمنع من إيراد الضمير بصيغة الجمع في مظان أخرى حين يؤمن اللبس ويتطلب المقام إظهار العزة والعظمة والقدرة، وذلك أسلوب معهود في لغة العرب، فالعربي إذا أراد التفاخر والتباهي بالعظمة رأيته يستعمل ضمير الجمع وإن كان في الواقع مفرداً، ولتعظيم المتكلم نفسه

---

[2] سورة غافر: الآية 60

[3] سورة إبراهيم: الآية 14

[4] سورة إبراهيم: الآية 31

[1] سورة إبراهيم: الآية 7

دواع تدعو إليه، فقد يكون ذا منصب وجاه أو حسب ونسب فيتحدث عن نفسه بأسلوب الجمع للتباهي والمفاخرة، وقد يكون بقصد إدخال الرهبة والخوف في قلوب المخاطبين بإيهامهم أنه يمثِّل أكثر من نفسه أو قد يعبر عن نفسه بضمير (نحن) للإشارة إلى تعدد مواهبه وتنوع مآثره وكأنه عدة أشخاص في شخص.

وإذا ما نظرنا في القرآن الكريم ألفيناه يورد صيغة الجمع عندما يستدعي المقام إظهار عظمة الخالق وهيبته وإلقاء الرهبة والخشية منه في قلوب المخاطبين أو الإيحاء بقوة المجير للمؤمنين المستغيثين به بغية إشعارهم بالأمن والطمأنينة. وقد سبق أن استشهدنا على ذلك من سورة إبراهيم.

تصوير الحالة النفسية:

إن أصدق ما يعبر عما في النفس الإنسانية من مشاعر وأحاسيس، وأكثر ما يعرب عن خلجات النفس واضطراباتها هو ضمير المتكلم نفسه، إذ يصور الحالة النفسية التي يعيشها المتكلم لحظة التكلم معترفاً اعتراف ثقة وأمين على ما يجول في خاطره وما يدور في خَلَدِه، نجد ذلك في قوله تعالى: (وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ محيص)[1] فالآية تصور لنا مشهد اليأس والقنوط وهو يخيم على فريقين متخاصمين في النار، فريق يلقي باللائمة على الآخر والثاني يحاول دفعها، جدال وخصام طرفاه: الأتباع العوام من جهة وكبراؤهم وساداتهم من جهة أخرى، إذ يصور لنا ضمير المتكلم في قولهم: (**إِنَّا كُنَّا** لَكُمْ تَبَعًا) ثم قولهم: (فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ **عَنَّا** مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) يصور لنا الحرقة التي تملأ قلوب الأتباع والحسرة التي تأخذهم والندم الشديد على ما كان منهم في الدنيا حين استجابوا لإغواء ساداتهم وخضعوا لأفكارهم فصدوهم عن الإيمان بالرسل واتِّباعِ

---

[1] سورة إبراهيم: الآية 21

الحق، ثم يفاجأ الأتباع بوجود الرؤساء إلى جانبهم في النار ليس بوسعهم دفع العذاب عن أنفسهم فضلاً عن أتباعهم.

وحين يستنجد الأتباع بالسادة يأتيهم الجواب منهم: (لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ محيض)[1] فيعبر ضمير المتكلم في قولهم: (هدانا، علينا، أجزعنا، صبرنا، لنا) عن خلجات النفس الحائرة بين الصبر والجزع، لينتهي بها الأمر إلى اليأس والقنوط والاستسلام حين يستوي عندها الصبر والجزع وتفقد كل أمل بالخروج.

والمشهد نفسه يتكرر في الآية التالية ولكن هذه المرة بين الشيطان وأوليائه حين يتبرأ منهم ملقياً باللائمة عليهم، ومقرًّاً بعجزه التام عن نصرة حزبه وشيعته بين يدي الله في ذلك الموقف المهيب قائلاً: (إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)[2] فلا الشيطان يملك أن ينجد أتباعه، ولا هم مالكون ذلك، فيعود ضمير المتكلم في (ووعدتكم، فأخلفتكم، لي، دعوتكم، فلا تلوموني، ما أنا بمصرخكم، وما أنتم بمصرخي..) فيصور لنا حالة الخيبة والإحباط التي يعيشها الفريقان في النار بعد انقطاع الرجاء والأمل.

وفي قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا)[3] يسفر الظالمون عن عنادهم ويكشّرون عن عنجهيتهم في تعاملهم مع الرسل، فلا يكتفون بالإعراض عن دعوتهم أو الجحود بها؛ بل يتمادون في طغيانهم إلى الحد الذي يهددونهم بالكف عن التبليغ أو إخراجهم من أرضهم، وهنا يكشف لنا ضمير

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 21

[3] سورة إبراهيم: الآية 22

[1] سورة إبراهيم: الآية 13

المتكلم في قولهم: (لَنُخْرِجَنَّكُمْ) و (أَرْضِنَا) و (ملّتنا) عن حجم الغطرسة والتكبر والمكابرة في نفوسهم إلى الحد الذي لا يرون فيه حقاً لغيرهم في هذه الأرض.

وعلى الضفة الأخرى يأتي ضمير المتكلم ليصور لنا مشاعر نفوس مؤمنة بقضاء الله تعالى راجية رحمته، تُظهر عبوديتها الخالصة له تعالى، وافتقارها إليه، وذلها له، تدعوه بإخلاص عميق، وتلجأ إليه عند كل نائبة نحو ما ورد في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (36) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)[1] فَلَكَ أن تتلمّس في ضمير المتكلم في (ربِّ، واجنبني، ربّنا، بنيَّ، نعبد، أسكنت، ذريتي، نخفي، نعلن ..) صدق التّضرع، ونبل المشاعر التي يحملها الخليلُ فيما يظهره من الافتقار إلى رحمة الله ولطفه، والاحتماء بسلطانه، والتطلع إلى آلائه ونعمه، وهو ما جعله يكرر نداء ربه عند ابتداء كل ابتهال ودعاء يُظهِر به عجزه وضعفه وحاجته.

التكريم:

وقد يرد المسند إليه معرفاً بضمير المخاطب لغرض التكريم كما في خطاب الله تعالى لنبيه موسى عليه السلام بقوله: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا أَنْ **أَخْرِجْ قَوْمَكَ** مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ **وَذَكِّرْهُمْ** بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)[2] فلا شك أن قوله تعالى لسيدنا موسى عليه السلام (**أَخْرِجْ قَوْمَكَ** مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) فيه تشريف له وتكريم؛ لأنَّ من يخرج الناس من الظلمات إلى النور أو العكس إنما هو الله تعالى، والرسل ما هم إلا أسباب في هذه المعادلة، ومثل ذلك قوله تعالى: (الر

---

[2] سورة إبراهيم: الآيات من 35 إلى 38

[3] سورة إبراهيم: الآية 5

كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) قال ابن عطية في تفسيره: " وَقَوْلُهُ تَعالى: (لِتُخْرِجَ) أَسْنَدَ الإِخْراجَ إلى النَبِيّ صلى الله عليه وسلم مِن حَيْثُ لَهُ فِيهِ المُشارِكَةُ بِالدُعاءِ والإنْذارِ، وحَقِيقَتُهُ إنَّما هي لِلَّهِ تَعالى بِالِاخْتِراعِ والهِدايَةِ، وفي هَذِهِ اللَفْظَةِ تَشْرِيفٌ لِلنَّبِيّ صلى الله عليه وسلم"[1]

التنبيه والتذكير وإيقاظ النفس وتحريكها:

كما في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (6) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)[2] فسيدنا موسى عليه السلام وقف موقف الناصح الأمين لقومه، يذكرهم بفضل الله تعالى عليهم ونعمه عندما أنجدهم من آل فرعون وخلصهم من تلك المعاناة والعذاب، وهو في خطابه يحاول استمالتهم مرة بالترغيب وأخرى بالترهيب من خلال تحريك المشاعر وإيقاظ الجذوة في النفوس، فالله تعالى قد أنعم عليكم، وبالشكر تدوم نعمه وتستمر، وبالكفر تزول ويحل العقاب، وهنا يظهر لك الدور الذي يلعبه ضمير الخطاب في (اذْكُرُوا، عَلَيْكُمْ، أَنْجَاكُمْ ، رَبُّكُمْ، شَكَرْتُمْ، كَفَرْتُمْ) في دلالته على التذكير والتنبيه وإيقاظ المشاعر، بما يوحيه من تعلق الأمر بهم فالنجاة كانت لهم، والنعمة كانت عليهم، والله ربهم ومالك أمرهم، وشكره واجب عليهم، وصدور الجحود منهم موجب العقاب لهم.

وجدير بالذكر أن الأصل في الخطاب أن يوجه لمعين لأن الضمير معرفة والمعارف تستعمل لمعين، بخلاف النكرات إذ الأصل فيها عدم التعيين، ولكن هذا

---

[2] ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 321/3، وينظر: الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن: 374/3

[3] سورة إبراهيم: الآية 6، 7

الأصل في المخاطب قد يترك فيخاطب غير المعين، والغرض البلاغي من ذلك أن يعم الخطاب كل مخاطب ولا يقتصر على معين كقول الشاعر:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا[1]

فواضح أن الشاعر لم يرد مخاطبة شخص معين بذاته، وإنما أراد تعميم خطابه لكل من يصلح له، فهو يقصد أن الكريم إن أُكرم حفظ المعروف لأهله، وأن اللئيم إن أُكرم ضاع فيه المعروف، وأن هذا الأمر لا يختص بأحد دون أحد وإنما يَعُمُّ[2].

ومثاله في القرآن الكريم كثير كقوله تعالى: (**وَلَوْ تَرَىٰ** إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)[3] وقوله: (**وَلَوْ تَرَىٰ** إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا ۙ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)[4] وقوله: (**وَلَوْ تَرَىٰ** إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ)[5] فإن الخطاب في قوله: (**ولو ترى**) من هذه الآيات لم يتناول شخصاً معيناً هو فلان مثلاً؛ بل عام لكل من يصلح له ويفقهه، لأن حال أولئك المجرمين قد تناهت بالظهور لكل من يمكن أن يراهم من أهل المحشر.

---

[2] البيت لأبي الطيب المتنبي، من قصيدة مدح بها سيف الدولة وهو يهنئه بالعيد مطلعها:

لكل امرئ من دهره ما تعودا وعادات سيف الدولة الطعن في العدا

ينظر: العكبري، شرح ديوان المتنبي: 166/1، والنويري، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة: الأولى، 1423هـ، 106/3

[3] ينظر: السبكي، عروس الأفراح شرح تلخيص المفتاح (ضمن شروح تلخيص المفتاح)، نشر أدب الحوزة، تصوير: دار الكتب العلمية، لبنان -بيروت، 290/1، وابن يعقوب المغربي، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح ضمن (شروح التلخيص): 290/1

[4] سورة الأنعام: الآية: 27

[5] سورة الأنفال: الآية 50

[6] سورة السجدة: الآية 12

ونقف منها في سورة إبراهيم على قوله تعالى: (وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (49) سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ)[1] فإن مشهد تعذيب هؤلاء المجرمين وفظاعة ما يصلونه من عذاب ليس بالخافي على أحد في ذلك اليوم الفاضح والكاشف، وعليه فالخطاب في قوله: (**وترى**..) "لِكُلِّ أحَدٍ مِن أهْلِ المُشاهَدَةِ والعِيانِ، قَصْدًا إلى بَيانِ كَمالِ سُوءِ حالِهِمْ، وبُلُوغِها مِنَ الشَّناعَةِ والفَظاعَةِ إلى حَيْثُ لا يَخْتَصُّ اسْتِغْرابُها بِراءٍ دُونَ راءٍ مِمَّنِ اعْتادَ مُشاهَدَةَ الأُمُورِ العَجِيبَةِ، بَلْ كُلُّ مَن يَتَأتّى مِنهُ الرُّؤْيَةُ يَتَعَجَّبُ مِن هَوْلِها وفَظاعَتِها"[2]

ضمير الغائب:

ولا بدَّ أن يتقدم عليه ذكر اسم معاد إليه إما لفظاً تحقيقاً نحو قوله تعالى: (فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[3] فإن الضمير (هو) يعود إلى لفظ الجلالة (الله) المتقدم عليه، وإما أن يتقدم المعاد إليه تقديراً، ونقول تقديراً لأن رتبته التقديم حتى وإن تأخر كما في قولك: "في داره زيدٌ" فكون الضمير عائداً على زيد المتأخر في الكلام لا يضر؛ لأنه مبتدأ والمبتدأ متقدم رتبة وإن تأخر ذكراً، وإما أن يتقدم على الضمير لفظ يدل على الاسم العائد إليه معنى، كما في قوله تعالى: (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ)[4] فإن الضمير (هو) عائد إلى (العدل) المستفاد من الفعل (اعدلوا) الذي تضمن معنى العدل، وتلك قرينة دالة على العائد إليه[5].

---

[2] سورة إبراهيم: الآيتان 49، 50

[3] ينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 123/3

[4] سورة إبراهيم: الآية 4

[5] سورة المائدة: الآية 8

[1] ينظر: ابن يعقوب المغربي، مواهب الفتاح لشرح تلخيص المفتاح، ضمن (شروح المفتاح): 289/1

الأغراض البلاغية لضمير الغائب

أهم غرض يؤديه ضمير الغائب اختصار الكلام وإيجاز الجمل؛ إذ لا تبقى معه حاجة إلى تكرار اللفظ أو الجملة طالما أن هناك من يعود عليها وينوب عنها، حيث تستبدل الضمائر بالكلمات والجمل، ومعلوم أن الإيجاز مطلب بلاغي لا يستغنى عنه في الكلام.

ففي قوله تعالى في سورة إبراهيم: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)[1] نجد ضمير الغائب يختصر الكلام حينما يشير إلى عبارات طويلة، فضمائر الغائب في قوله: (جَاءَتْهُمْ)، (رُسُلُهُمْ)، (فَرَدُّوا)، (أَيْدِيَهُمْ)، (أَفْوَاهِهِمْ)، (وَقَالُوا) كلها تعود إلى عبارة طويلة هي: (قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ)

وتأمل وصف الجنة في قوله تعالى: (وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِـهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيـهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيـهَا سَلَامٌ)[2] ترى أن هاء الضمير العائد على (الجنات) قد تكررت ثلاث مرات، فأغنت بذلك عن تكرار لفظ (الجنات) في كل مرة استدعى المقام ذكرها، مع إفادتها المعنى المراد كاملاً دون نقصان. وغيره من الأمثلة كثير..

وإضافة إلى هذا الغرض فإن التعريف بضمير الغائب قد يحقق أغراضاً بلاغية أخرى فنجد مثلاً في قوله تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ **أَعْمَالُهُمْ** كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا **كَسَبُوا** عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ)[3] وصفاً وتمثيلاً لمآل أعمال المشركين التي توصف في الدنيا بالمعروف والخير، وهي

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 9

[3] سورة إبراهيم: الآية 23

[4] سورة إبراهيم: الآية 18

المكارم التي كانت منهم في دار الدنيا من إطعام الفقراء وقرى الضيف وفداء الأسرى ورفادة الحجيج وغيرها[1]، يلمس الباحث لضمير الغائب في (**أَعْمَالُهُمْ**) (**كَسَبُوا**) ما يدل على **اختصاصهم** بهذه الأعمال وهذا الكسب، وإشارة إلى تعويل الكفار عليها والتطلع إلى الانتفاع بها يوم القيامة باعتبارها عائدة إليهم وخاصة بهم، ولكنها لما كانت مبنية على غير أساس من الإيمان وابتغاء رضاء الله تعالى جعل البيان الإلهي الانتفاع بها وبمسحوق الرماد المتطاير في جو عاصف وريح شديدة سواء، فكما يستحيل جمع ذرات ذلك الرماد المتناثر على سبيل الانتفاع بها يستحيل على المشركين الانتفاع بأعمالهم تلك.

ونجد غرض **التخصيص** كذلك في ضمير الغائب المنفصل (هو) الذي خصص الضلال بهؤلاء الذين لم ينتفعوا بأعمالهم، فهم قد بلغوا في الضلال مبلغاً لا ضلال بعده وكأن الخسران والضلال قد خصص لهم.

ومن أمثلته كذلك قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ **قَوْمِهِ** لِيُبَيِّنَ **لَهُمْ** فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[2] إذ تبين الآية أن من رحمة الله تعالى بعباده أن خص كل قوم منهم برسول منهم، يتكلم بلغتهم التي يتكلمون بها ويفهمونها، فيعون ما يقول، ويدركون ما يبلغ، حتى لا يكون لهم بعد ذلك ما يتذرعون به. وفي إضافة القوم إلى هاء الضمير العائد على الرسول في (**قَوْمِهِ**) وفي قوله (**لَهُمْ**) إشارة إلى كون الرسول واحداً من أفراد هذا القوم لا يتميز عنهم إلا بما فضله الله تعالى من النبوة، وكذلك إيحاء إلى أنه مبعوث إلى ذلك القوم خاصة دون غيرهم،

---

[2] ينظر: مكي بن طالب، حَمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني، الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة، الطبعة: الأولى، 1429 هـ - 2008م، 3793/5، والنسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 167/2

[3] سورة إبراهيم: الآية 4

وهو شأن الرسل قبل نبينا محمد صلوات ربي عليهم وسلامه، يشهد له ما روي في الصحيحين: (كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة)[1]

ثانياً - التعريف باسم الإشارة

يعرّف النحويون اسم الإشارة بأنه: " ما دل على مسمى، وإشارته إلى ذلك المسمى"[2] فهو ما يدل على معين بواسطة إشارةٍ حِسّيَّةٍ باليدِ ونحوها، إن كان المشارُ إليه حاضراً، أو إشارة معنويَّة إذا كان المشارُ اليه معنى، أو ذاتاً غيرَ حاضرة[3]، وهذا هو المعنى الأصلي الذي يؤديه اسم الإشارة غير أن أهل البلاغة قد وقفوا على المعاني والأغراض التي يخرج إليها الاسم عند تعريفه باسم الإشارة.

وهذه الأغراض نظمها الأخضري[4] من تلخيص مفتاح العلوم بقوله[5]:

وَبِإِشَارَةٍ لِكَشْفِ الحَالِ مِنْ قُرْبٍ أوْ بُعْدٍ أَوِ اسْتِجْهَالِ
أو غَايَةِ التَّمْيِيزِ والتَّعْظِيمِ والحَطِّ والتَّنْبِيهِ والتَّفْخِيمِ

---

[2] ما ورد جزء من حديث متفق عليه رواه البخاري في كتاب التيمم برقم: 335، ولفظه: " " أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي المَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً "، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة من كتاب الصلاة برقم: 521

[3] ابن هشام، عبد الله بن يوسف، شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، الشركة المتحدة للتوزيع – سوريا،157

[4] ينظر: الغلاييني، مصطفى بن محمد سليم، جامع الدروس العربية، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، الطبعة: الثامنة والعشرون، 1414 هـ - 1993م، 127/1

[5] هو عبد الرحمن بن محمد الأخضري، منطقي وحكيم، من أهل بسكرة في الجزائر، له مصنفات منها: متن السلم وشرحه في المنطق، وشرح السراج في علم المنطق، ومختصر الأخضري في الفقه المالكي، توفي سنة983هـ. ينظر: الزركلي، الأعلام: 331/3، كحالة، معجم المؤلفين: 187/5

[6] ينظر: الأخضري، عبد الرحمن، الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون: 27، وأحمد الدمنهوري، حلية اللب المصون على الجوهر المكنون: 57

فالغرض الأول هو تمييز المشار إليه عند تعيُّنِه طريقاً لإحضار المشار إليه في ذهن السامع[1]، كأن يكون حاضراً محسوساً ولا معيّنَ آخر له كقولك: أتبيعني هذا؟ وتشير إلى ما هو حاضر أمامك.

وواضح أن هذا معنى أصلي لاسم الإشارة، ولا يصلح أن يعد من وجوه البلاغة إلا أن يراد به تمييز المشار إليه أكمل تمييز تمهيداً لمدحه باعتبار أن كمال التمييز يكون أعون على كمال المدح وأبعد عن التقصير في الاعتناء بأمر الممدوح.

ومن أغراضه التعريض بغباء السامع وأن الأشياء لا تتميز عنده إلا بالإشارة إليها حساً، وهناك غرض بيان حال المشار إليه من حيث القرب والبعد وما يتعلق بهما من أغراض أخرى كالتعظيم والتحقير[2]، وقد يجيء لغرض التنبيه " إذا ذكر قبل المسند إليه مذكور وعقب بأوصاف- على أن ما يرد بعد اسم الإشارة فالمذكور جدير باكتسابه من أجل تلك الأوصاف"[3]

وقد ورد التعريف باسم الإشارة في سورة إبراهيم ثماني مرات، والأسماء التي وردت هي (أولئك) مرة واحده، (ذلك) أربع مرات، (ذلكم) مرة واحدة، (هذا) مرتين. وستقف الدراسة في الأسطر التالية على المعاني البلاغية التي جاءت بها.

- في قوله تعالى: (**الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ**)[4] الآية الكريمة تتحدث عن فئة ضالة

---

[2] ينظر: السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ضمن (شروح المفتاح): 313/1

[3] ينظر: الدمنهوري، حلية اللب المصون شرح الجوهر المكنون: 48

[4] نحو ما ورد في قوله تعالى: (الم (1) ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ(4) أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (البقرة: 1-5) ينظر: الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 20/2

[1] سورة إبراهيم: الآية 3

ومضلة في الوقت نفسه، بالغت في حب الحياة الدنيا فانغمست في شهواتها وملذاتها إلى حد الإفراط كما يشير فعل: (**يستحبون**)، إذ يرى الباحث الفرق جلياً بين الفعل (أحبَّ) والفعل (استَحبَّ) في استخدام السين والتاء الدالتين على الطلب، مما يعني أن هذا الفريق لم يكتف بالقدر الطبيعي من التعلق بالدنيا الذي يحمله كل إنسان وإنما تجاوزه وأوغل في شهواتها، ثم يأتي قوله تعالى: (وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) ليبين أن هؤلاء القوم لم يكتفوا بما هم عليه من الانحراف بل تمادوا في طغيانهم وضلالهم محاولين إغواء غيرهم وإضلالهم وصدهم عن سبيل الله، ثم يذكر الله تعالى صفتهم الثالثة بقوله تعالى: (وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا) أي: يبغون شريعة الله معوجة لتحقق لهم نزواتهم، أو تطلبون لمنهج الله " اعْوِجاجًا بِأَنْ تَلْبِسُوا عَلى النّاسِ وتُوهِمُوا أنَّ فِيهِ عِوَجًا عَنِ الحَقِّ، بِمَنعِ النَّسْخِ وتَغْيِيرِ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ونَحْوِهِما، أوْ بِأنْ تُحَرِّشُوا بَيْنَ المُؤْمِنِينَ لِتَخْتَلِفَ كَلِمَتُهم ويَخْتَلَّ أمْرُ دِينِهِمْ"[1].

ولما تحققت لهم هذه الصفات الثلاثة التي تعد غاية في البعد عن دين الله جيء باسم الإشارة (أولئك) المستعمل للبعيد ليشار به إلى تناهي بعدهم عن الحق، وكمال انحطاطهم في الباطل، وتمام انغماسهم في الكفر، بحيث لا يرجى لهم رجوع بعد ذلك فـ (أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ) كل البعد عن مسالك العودة إلى طريق الحق، كونهم قد "ساروا إلى أبعد منطقة في الضلال"[2] إضافة الى غرض التحقير، فبقدر ما هم بعيدون في غيّهم فهم صغار وهوان في ميزان الله تعالى. أو ربما يفهم الغرض من اسم الإشارة التنبيه على أنهم أحرياء بما وصفوا به من الضلال بسبب صدهم عن سبيل الحق وابتغائهم سبيل الباطل.

---

[2] البيضاوي، أنوار التنزيل واسرار التأويل: 30/2، والشوكاني، فتح القدير:420/1

[3] الشعراوي، تفسير الشعراوي- الخواطر: 7432/12

- في قوله تعالى: (**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**)[1] يأمر الله تعالى نبيه موسى عليه السلام أن يذكِّر قومه على سبيل التنبيه والإنذار بعظيم أيام الله، وقد اختلف في المقصود بهذا التعبير فقيل: هي وقائع الله تعالى التي نزلت على الأمم الأقوام الكافرة الماضية كقوم نوح وعاد وثمود حين أهلكهم الله بطرق مختلفة، قال الزمخشري: " منه أيام العرب لحروبها وملاحمها، كيوم ذي قار، ويوم الفجار، ويوم قضة وغيرها، وهو الظاهر"[2] ويبدو أن استظهار الزمخشري لهذا القول سببه الغلبة العرفية، فالعرب قد استعملت (أيام) للدلالة على الوقائع التي ألمت بها نحو قول عمرو بن كلثوم:

أيّامٌ لَنا غُرَرٌ طِوالٌ عَصَيْنا المَلِكَ فِيها أنْ نَدِينا[3]

وقيل: المراد بـ (أيام الله) ما أجراه الله تعالى على بني إسرائيل خاصة من الابتلاءات والمحن أيام كانوا تحت قهر فرعون وأعوانه، وما أسبغ عليهم من النعم أيام الراحة من إنزال المن والسلوى وتظليل الغمام وفلق البحر على سبيل الترغيب والترهيب[4]. ولما كانت هذه الوقائع -أياً كانت -عظيمة جاء التذكير بها أيضاً عظيماً، فكان اسم الإشارة في قوله: (إِنَّ فِي **ذَلِكَ** لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) متضمناً التهويل والتعظيم والتفخيم للتذكير بالوقائع نفسها كما قال ابن عطية في تفسيره: "وفي هذه العبارة تعظيم هذه الكوائن المذكَّر بها"[5] سواء في ذلك النعم والمحن. أو أن الإشارة

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 5

[3] الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: 540/2، وينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 193/3

[4] ديوان عمرو بن كلثوم: 71 ، والزوزني، حسين بن أحمد بن حسين، شرح المعلقات السبع، دار احياء التراث العربي، الطبعة: الأولى 1423هـ - 2002م، 221

[5] ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 478/4، والطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 190/13،

[6] ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 324/3

بالتهويل والتعظيم للأيام مباشرة، قال أبو السعود: " (إن في ذلك) أي: في التَّذْكِيرِ بِها، أوْ في مَجْمُوعِ تِلْكَ النَّعْماءِ، والبَلاءِ، أوْ في أيّامِها"[1] لآيات ودلائل لكل من اتصف بالصبر والشكر، يَصْبِرُ عَلى ابتلاءات الله ويَشْكُرُ عَلى نَعْمائِهِ، فَإنَّهُ إذا سَمِعَ بِما أُنْزِلَ عَلى مَن قَبْلُ مِنَ البَلاءِ وأُفِيضَ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّعْماءِ اعْتَبَرَ وتَنَبَّهَ لِما يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ الصَّبْرِ والشُّكْرِ.

- ومثل ذلك استعمال اسم الإشارة في قوله تعالى في الآية التالية: (**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ**)[2] إذ يظهر فيها انقياد موسى لأمر ربه والبدء بتنفيذ ما طلب منه في الآية السابقة، فيتوجه إلى قومه مذكراً إياهم بأصناف العذاب وأنواع البلاء الذي لاقوه على يد فرعون قبل أن يمن الله عليهم بالخلاص، فالنجاة كانت من قهر وظلم عظيمين، ثم تختم الآية بقوله: (وَفِي **ذَلِكُمْ** بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ) في إشارة إلى التذبيح والاستحياء أو الإنجاء، وأصل البلاء الاختبار والمراد اختبار الله تعالى لعباده وهو تارة يكون بالمسارّ ليشكروا وتارة بالمضارّ ليصبروا، فيكون المراد بالبلاء الإنجاء إن حملنا اسم الإشارة على المعنى الأول، أو المحنة إن حملناه على الثاني، أو يكون المشار إليه جملة الأمر، وأيًّا منها كان المشار إليه فهو يستدعي التفخيم والتعظيم وهو ما يحققه اسم الإشارة (**ذَلِكُمْ**).

وكذلك كان **التعظيم والتفخيم** الغرض الذي لأجله جيء باسم الإشارة في قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (19) وَمَا **ذَلِكَ** عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ)[3] فإن خلق السماوات والأرض على عظمتها،

---

[2] أبو السعود العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 33/5

[3] سورة إبراهيم: الآية 6

[4] سورة إبراهيم: الآيتان 19، 20

وكذلك إهلاك جميع البشر والاستبدال بهم أمر هيّن داخل في قدرة الله تعالى، وغير ممتنع عليه رغم استعظام الناس لها.

- في قوله تعالى: (**مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ**)[1] تمثيل لأعمال الكافرين ووزنها يوم القيامة، إذ يظهر فيه للباحث الأثر الجلي لاسم الإشارة (ذلك) في تصوير حقارتها وكسادها وانحطاطها وخِسَّتها في ميزان الحق يوم لا ينفع مال ولا بنون، مع فداحة الخيبة وبشاعة الخسارة التي مني بها أصحابها، إضافة إلى المعنى الأصلي الذي يؤديه اسم الإشارة حين يجسد الضلال الذي يتخبط فيه أولئك الكافرون وكأنه كائن يدرك بالحس فيشار إليه، في مشهد ينسجم تماماً مع المثل الحسي الذي سبقه عند تشبيه الأعمال بالرماد المتناثر وهي لطيفة لم يهتد إليه أحد من المفسرين.

- في قوله تعالى: (**فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (13) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ**)[2] يشير اسم الإشارة إلى الموحى به وهو إهلاك الظالمين وتوطين المؤمنين ديارهم، وهو وعد من الله سبحانه وتعالى للمؤمنين، وقد جيء باسم الإشارة ليحقق غرض التنبيه على أن الذين يخافون مقام الله تعالى ووعيده هم الجديرون بهذا الاستحقاق، والمراد بقوله: (خَافَ مَقَامِي): "موقفي، وهو المَوْقِفُ الَّذِي يَقِفُ فِيهِ العِبادُ يَوْمَ يَقُومُ النّاسُ لِرَبِّ العالَمِينَ، أوْ قِيامِي عَلَيْهِ، وحِفْظِي لِأعْمالِهِ"[3] فاسم الإشارة قد أفاد تخصيص المشار إليه بمن تحلّى بالصفات التي ذُكِرت بعده.

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 18

[3] سورة إبراهيم: الآيتان 13، 14

[4] أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم:39/5، وينظر: الرازي، مفاتيح الغيب: 77/19، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 195/3، أبو حيان، البحر المحيط في التفسير: 417/6

- قوله تعالى: (**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ**)[1] دعاء من سيدنا إبراهيم عليه السلام يطلب فيه من ربه الأمن والأمان لمكة المكرمة حيث سبق وأن وصفها بالوادي غير ذي الزرع حين دعا (رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ)[2] ويبدو أن اسم الإشارة (هذا) قد استخدم لغرض تمييز البلد وتعيينه إذ لم يكن له اسم خاص بَعْدُ إثر تحوله من واد مقفر خال من الناس إلى بلد بفضل استجابة الله دعاء خليله بأن يجعل أفئدة من الناس تقصدهم وتقيم عندهم ليجدوا عندهم الأنس والأمن، إضافة إلى غرض التعظيم بتفخيم شأن المكان الذي تبارك بوجود بيت الله الحرام فيه.

ثالثاً - التعريف باللام

قسم البلاغيون اللام بحسب ما يؤديه مدخولها من معاني بلاغية **إلى لام العهد الخارجي ولام الحقيقة** أو الجنس[3]، ثم جعلوا للام العهد ثلاثة أقسام، ومثلها للام الحقيقة.

فأقسام لام العهد الخارجي هي: **لام العهد الصريح**، عندما يتقدم ذكر مدخولها صراحة في الكلام نحو اللام الداخلة على (المصباح) و(الزّجاجة)في قوله تعالى: (**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ**

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 35

[3] سورة إبراهيم: الآية 37

[4] الفرق بين لام العهد ولام الجنس هو أن الأولى تتعلق بشيء واحد معين في الذهن سبق الحديث عنه، كأن تكون في سيرة شخص غائب ثم يقبل على المجلس فتقول: حضر الرجل، تريد به الذي كنا نتكلم عنه كونه قريب عهد بذهن المخاطب. أما لام الجنس فهي اللام الدالة على العموم والكثرة، دون أن يكون المراد بها الإحاطة بجميع أفراد الجنس، نحو قوله تعالى: (إِنَّ الإِنْسانَ لَفي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) (سورة العصر: الآيتان 2،3)، فإن صحة الاستثناء من لفظ (الإنسان) دليل على أن المراد به العموم والجماعة وليس الإحاطة. ينظر: ابن يعيش، شرح المفصل: 57/1

كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ)[1] ، **ولام العهد الكنائي** بأن يتقدم ذكره تلويحاً كقوله تعالى: (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ)[2] فإنه قد أُشير إليه تلمحياً بـ (ما) في قوله: (إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا)[3] وقد استفيد الذَّكرُ من قوله: (مُحَرَّرًا) لأنهم كانوا لا يحررون لخدمة بيت المقدس إلا الذكور فكان المعنى المراد: وليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وهبت. والثالث: **لام العهد الحضوري** ويكون بحضور المعهود ذاته نحو قوله تعالى: (اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُ نِعْمَتِي)[4] أو بمعرفة السامع له نحو: (إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ)[5] فإن الشجرة معلومة للمخاطبين وإن لم يتقدم ذكرها صراحة أو كناية[6].

وأما أقسام لام الحقيقة فأولها **الجنسية**، وتكون الإشارة إلى حقيقة المدخول إليه بصرف النظر عن عمومها وخصوصها وتسمى لام الجنس، مثل (الماء) في قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ)[7] وثانيها: **لام العهد الذهني**، عندما تشير إلى الحقيقة ضمن فرد مبهم إذا قامت القرينة على ذلك؛ أي أن يأتي المعرّف باللام لواحد باعتبار عهديته في الذهن لمطابقته الحقيقة كما في قوله تعالى: (وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ)[8]، والثالث **لام الاستغراق** حين لا يصح أن يراد به غير أفراده أو بعضهم دون بعض، والاستغراق قد يشمل كل الأفراد التي يتناولها اللفظ

---

[2] سورة النور: الآية 35

[3] سورة آل عمران: الآية 36

[4] سورة آل عمران: الآية 35

[5] سورة المائدة: الآية 3

[6] سورة الفتح: الآية 18

[7] ينظر: القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 21/2، الصعيدي، عبد المتعال، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب، الطبعة: السابعة عشر: 1426هـ-2005م ،86/1، والهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: 116، المراغي، علوم البلاغة البيان، المعاني، البديع: 118

[8] سورة الأنبياء: الآية 30

[9] سورة يوسف: الآية 13

لغة فيسمى حقيقياً، كما في قوله تعالى: (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)[1] وقد يشير إلى كل الأفراد لكن مقيداً بالعرف كقولك: " جمع الأمير الصاغة " تعني جميع صاغة بلده[2].

وفي سورة إبراهيم تنوعت المعاني التي جاء لأجلها التعريف باللام نقف على أمثلة منها الأول:

لام (الناس) في قوله تعالى: (الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)[3] فإن الله تعالى أرسل رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بالكتاب الهادي وجعل رسالته عامة إلى كل البشر فـ "المُرادُ مِنَ النّاسِ جَمِيعُهم أيْ أنْزَلْناهُ إلَيْكَ لِتُخْرِجَهم كافَّةً بِما في تَضاعِيفِهِ – أي الكتاب - مِنَ البَيِّناتِ الواضِحَةِ المُفْصِحَةِ عَنْ كَوْنِهِ مِن عِنْدِ اللَّهِ تَعالى الكاشِفَةِ عَنِ العَقائِدِ الحَقَّةِ مِن عَقائِدِ الكُفْرِ والضَّلالِ"[4] والعموم في الدعوة مستفاد من لام الجنس في (الناس)[5] التي تفيد العموم والاستغراق لجميع أفراد مدخولها.

ومن الأمثلة التي ورد فيها التعريف بلام الجنس في السورة ما نجده في قوله تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ **الْفُلْكَ** لِتَجْرِيَ فِي **الْبَحْرِ** بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ **الْأَنْهَارَ** (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ **الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ** دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ **اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**)[6] وذلك في معرض تعداد بعض

---

[2] سورة الأنعام: الآية 73

[3] ينظر: القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 24/2، عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح: 88/1، الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: 116، المراغي، علوم البلاغة البيان، المعاني، البديع: 119

[4] سورة إبراهيم: الآية 1

[5] الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني: 172/7، وينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 478/4، والبقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 370/10

[6] ينظر: الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية: 111/3

[7] سورة إبراهيم: الآيتان 32، 33

النعم والمخلوقات التي جعلها الباري عز وجل في خدمة الإنسان، وكان المناسب للمقام تعريفها بلام الجنس لتكون شاملة لجميع أفراد جنسها كـ(الفلك والبحار والأنهار) أو أن يكون المراد جنسها دون ملاحظة العموم أو الخصوص كـ(الليل، النهار، الشمس، القمر) ، والتعريف في قوله (الثمرات) تعريف استغراق وهو عرفي، أي من جميع الثمرات المعروفة للناس ودليل كون اللام للاستغراق مجيء (من) التبعيضية[1].

وفي الآية التالية من السورة نجد لام التعريف تفيد الجنس من غير استغراق وعموم كما في قوله تعالى: (وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ **الْإِنْسَانَ** لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)[2] فالبيان الإلهي بعد أن خص بالذكر بعض النعم عمَّم في هذه الآية بقوله: (وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ) أي؛ هَيَّأَ لَكُمْ كُلَّ مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِكُمْ مِمَّا تَسْأَلُونَهُ بِحَالِكُمْ وَقَالِكُم[3] بحيث يعجز الإنسان عن حصرها، ولا يطيق عدها لكونها بلغت من الكثرة والعظمة والتنوع حداً جعلها غير متناهية، ورغم ذلك كله فإن (الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) وهنا جاء المسند إليه (الإنسان) معرفاً باللام ليشير إلى جنس الإنسان[4] وما جبل عليه، لما له من الأنس بنفسه والنسيان لما ينفعه ويضره، والاضطراب بسبب ما يغمه، غير أن المقصود هنا "صنف منه، وهو المتصف بمضمون الجملة المؤكدة وتأكيدها"[5] فالإنسان هو المشرك، ونظير ذلك كثير في الاستعمال

---

[2] ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: 339/3، وأبو حيان، البحر المحيط في التفسير: 439/6، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 715/1

[3] سورة إبراهيم: الآية 34

[4] ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب: 99/19، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 200/3، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 511/4

[5] ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز:340/3، البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور:423/10

[6] الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 237/13

القرآني كما في قوله تعالى: (ويَقُولُ الإنْسانُ أإذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا)[1]، أو أنه العاصي الذي بدل نعمة الله كفراً فاستحق أن يطلق عليه في الحكم ظلوم وكفَّار لجحوده بالنعمة ونكرانه عطاء الخالق المنعم[2].

وأما لام (**الأبصار**) في قوله تعالى: (إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ **الْأَبْصَارُ**)[3] فيمكن عدها للعموم والاستغراق رغم أن ظاهرها للعهد كونه المناسب لما بعدها من الحديث عن عذاب الكافرين، لأن جعلها للعموم أدخل في باب التهديد، فهو اليوم الذي لا تطرف فيه العيون من شدة ما ترى من الأهوال، فإغماض العين قد يكون علامة للاطمئنان، وهو ما لا سبيل له في يوم الحساب، فجميع الأعين مفتوحة متسعة الأحداق تنتظر ما سيحل بها، ولا شك أن هذا الوصف للأبصار يشمل جميع أهل الموقف ويدخل الظالمون في هذا العموم من باب أولى.

وكذلك لام العهد نجدها حاضرة في السورة بأنواعها فنجد العهد الذكري أو الصريح في قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (28) **جَهَنَّمَ** يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (29) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى **النَّارِ**)[4] إذ يدعو الله تبارك وتعالى إلى التعجب من أمر كفار قريش وأمثالهم الذين استحقوا العذاب وكانوا السبب في إنزال من شايعهم من قومهم دار الهلاك جهنم، حين بدلوا شكر نعمة الله كفراً وجحوداً واتخذوا مع الله شركاء عبدوهم معه، فكان مصيرهم جميعاً النار، فكانت لام التعريف في قوله: (النار) للعهد الذكري كون مدخولها قد تقدم ذكره بلفظ (جهنم) باعتباره اسماً أو صفة للنار التي يعذب بها الله الكافرين يوم القيامة. وقد تكون اللام للعهد الذهني باعتبار أن (النار)

---

[2] سورة مريم: الآية 66

[3] ينظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي: 7559/12

[4] سورة إبراهيم: الآية 42

[5] سورة إبراهيم: الآيات 28، 29، 30

صارت معهودة لدى المخاطبين لكثرة الحديث عنها في القرآن الكريم وعن صفاتها والتعذيب بها.

ومثله في قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ **أَرْضِنَا** أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (13) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ **الْأَرْضَ** مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ)[1] فحين أقسم الكافرون على إخراج الرسل وأتباعهم من ديارهم ونفيهم من أوطانهم توعدهم الله بعقوبة من جنس ما أقسموا عليه على سبيل المشاكلة بالوعيد، فعبر بالأرض عن الوطن والديار وجاء بها معرفة بلام العهد[2] الصريح لتقدم ذكر الأرض في تهديد الكافرين في الآية السابقة، فكان المعنى: (وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ) أيْ: أرْضَهم ودِيارَهم[3] التي سبق ذكرها عُقُوبَةً لَهم بِقَوْلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكم مِن أرْضِنا، ونظير ذلك قَوْلِهِ تَعالى :(وَأَوْرَثْنا القَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الأرْضِ ومَغارِبَها)[4]

وكذلك في قوله تعالى: (وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ **الْعَذَابُ** فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ)[5] فإن التعريف باللام في كلمة (العذاب) جاء للعهد الذكري[6]، إذ تقدم ذكره مفصلاً ومصوراً بهيئته في قوله تعالى في الآية السابقة: (إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ

---

[2] سورة إبراهيم: الآيتان 13، 14

[3] ينظر: الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: 189/7

[4] ينظر: الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن: 313/5، والزمخشري، الكشاف: 545/2، وابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير: 510/2، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 197/3، والنسفي، مدارك التنزيل: 169/2، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 38/5

[5] سورة الأعراف: الآية 137

[6] سورة إبراهيم: الآية 44

[7] ينظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب:109/19

تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ)[1]

أما التعريف بلام العهد الكنائي فقد جاء في قوله تعالى: (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ **الْأَمْرُ** إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)[2] فالمقصود بقوله تعالى (قُضِيَ **الْأَمْرُ**) حسب ما أفاد أهل العلم من المفسرين[3]: قُطِعَ الأمر وفُرِغ منه وهو الحساب والخصومة بين يدي الله، وتم أمر الله بتمييز الفريقين أهل الضلالة وأهل الهداية، وتوجه كل فريق إلى مقره؛ فريق إلى الجنة وفريق إلى النار، ولما كان هذا (الأمر) مستفاداً ومفهوماً من الآية التي سبق وأن مهدت له بحديثها عن بعث الخلق وبروزهم للمحاكمة وتخاصم المضلين وأشياعهم في قوله: (وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ..)[4] جاء (الأمر) معرفاً بلام العهد الكنائي اكتفاء بما توحي به هذه الكناية. وكأنه قال بعد الفراغ مما أشير إليه من المحاكمة، وبعد استسلام الكافرين المضلين وأتباعهم وتمكن اليأس من نفوسهم، يقف إبليس خطيباً في محفل الأشقياء من الثقلين.

وأما التعريف باللام لغرض العهد الحضوري فنجده في قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ

---

[2] سورة إبراهيم: الآيتان 42، 43

[3] سورة إبراهيم: الآية 22

[4] ينظر: الزمخشري، الكشاف: 550/2

[5] سورة إبراهيم: الآية 21

الْأَصْنَامَ)[1] و(البلد) المكان المعين من الأرض ويطلق على القرية، والمراد به في الآية الكريمة مكة المكرمة[2]، والسبب في تعريف (البلد) باللام تواجد سيدنا إبراهيم في فيه، فالبلد شاهد وحاضر ولا يحتاج إلى تعريف أوضح من هذا، وقد وردت هذه الجملة في سورة البقرة ولكن بأسلوب مختلف وهو قول الحق تبارك وتعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجعل هذا بَلَداً آمِناً)[3] فما سبب تنكير (بلد) في البقرة وتعريفه في سورة إبراهيم؟

للمفسرين أجوبة منها[4]: أن المسؤول في البقرة جعل البلد في زمرة البلاد الآمنة، وهنا إزالة الخوف عنه وتصييره آمناً، وقيل: إن سيدنا إبراهيم قد سأل الله أولاً أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون، وهنا أن يخرج البلد من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن كأنه قال: هو بلد مخوَّف فاجعله آمناً ، والذي يظهر لي أن دعاء سيدنا إبراهيم في سورة البقرة كان وقت نزوله هذا المكان مع أهله، وكان آنذاك وادياً قفراً خالياً غير ذي زرع ليس للحياة فيه مقومات، فتوجه إلى ربه متضرعاً أن يعمّر هذا المكان ويجعله بلداً يقصده الناس ويستوطنون فيه، وقد استجاب الحق دعاء خليله وكان ما أراد.

أما دعاؤه في سورة إبراهيم فكان بعد تحول المكان إلى بلد، فكان دعاؤه الثاني الذي تضمن الأمن ثانية، ولكنه أراد أمناً خاصاً يختلف عن الأول، يراد به جعل البلد حرماً يأمن فيه الإنسان والنبات والحيوان، فلا يقطع شجر ولا يصطاد حيوان ولا يُمَسُّ أحد احتمى به بسوء كائناً من كان.

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 35

[3] ابن عاشور، التحرير والتنوير: 238/13

[4] سورة البقرة: الآية 126

[5] ينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 200/3، الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني:220/7، الشعراوي، تفسير الشعراوي: 7563/12

رابعاً – التعريف بالإضافة

ومن أقسام التعريف الإضافة إلى بعض المعارف، فتكون مرتبة المضاف هي مرتبة المضاف إليه، وقد ذكر علماء البلاغة مزايا ولطائف بلاغية لتعريف المسند إليه بطريق الإضافة هي[1]:

- يعد أخصر طريق لإحضاره إلى ذهن السامع نحو قول الشاعر:

" هواي مَعَ الركب اليمانين مصعد جنيب وجثماني بِمَكَّة موثق[2]

فالإضافة في (هواي) أخصر من قوله (الذي أهواه)، والاختصار مطلوب لضيق المقام وفرط السآمة لكون الشاعر في السجن والحبيب على الرحيل"[3]

- يغني عن تفصيل متعذر نحو قولنا: "أجمع أهل الحق على كذا"، إذ من المتعذر ذكر كل أسمائهم، أو أن يكون التفصيل متعسراً إما باعتبار الكثرة كقولك: "أهل القاهرة فعلوا كذا"، أو باعتبار أنه يؤدي إلى تقديم بعض على بعض دون مرجح نحو: "اتفق علماء البلد على كذا"، إذا لم يرغب المتكلم الترجيح بينهم.

- تعظيم شأن المضاف إليه كقولك معظماً لشأنك: "حضر طالبي"، أو تشريف المضاف كقولك: "سائق الوزير هنا"، تريد بذلك رفع شأن السائق، وقد يكون التشريف لغيرهما كقولك: "خادم السلطان عند زيد"، تشريفاً لزيد.

---

[2] ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم:187/1، التفتازاني، مسعود بن عمر، المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، لبنان بيروت، الطبعة الثالثة، 233، وابن يعقوب المغربي، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، ضمن (شروح المفتاح):345/1، عبد الرحمن حبنكة، البلاغة القرآنية: 445/1، عوني، حامد، المنهاج الواضح للبلاغة، المكتبة الأزهرية للتراث، 124/4

[3] البيت لجعفر بن علبة الحارثي، وقد قاله لمحبوبته التي زارته مع ركب من قومها عند فراغها من الزيارة ورحيلها وكان حينها مسجوناً بمكة بسبب جناية. ينظر: أبو تمام الأوسي، شرح ديوان الحماسة: 11/1، وأبو الفتح العباسي، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص: 120

[4] أبو يعقوب المغربي، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح (ضمن شروح تلخيص المفتاح): 345/1

- تحقير المضاف إليه نحو: "مهين زيد حضَر"، أو تحقير المضاف مثل: "ولد الحجام حضر"، أو غيرهما نحو: "ولد الحجام جليس زيد".

إضافة إلى لطائف بلاغية أخرى كالاستعطاف أو الحض على الإكرام أو التحريض على الإذلال أو الاستهزاء، وقد جمعها الأخضري في منظومته بقوله:

وبالإضافة لحصر واختصار تشريف أول وثاني واحتقار
تكافؤ سآمة إخفاء أو حث أو مجاز استهزاء[1]

وإذا أنعمنا النظر في أسلوب الإضافة في سورة إبراهيم نجد أنه جاء في الغالب **ليحقق غرض التعظيم والتشريف**، منها على سبيل المثال:

- قوله تعالى: (**الر كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (1)**)[2] إضافة الصراط إلى اسم الله تعالى العزيز تعظيم وتشريف لهذا الصراط، والمراد به: دين الإسلام أي دين الله الذي أمر به عباده[3]، فلا أقوم ولا أحق من هذا الطريق وهذا الدين بالاتباع والانقياد، لأنه المضاف إلى العزيز، والعزيز هو الغالب الذي لا يُغلب، والمتصف بالحميد المحمود على كل حال المستحق لجميع المحامد[4]، فالمضاف (صراط) قد حاز الشرف من المضاف إليه (العزيز).

وتتجلى دقة التعبير القرآني وسلامة اختياره للمفردات في انتقاء صفتي العزيز والحميد من بين كل الصفات العلى، فإنزال الكتاب برهان على أحقية ما يريده الباري

---

[2] عبد الرحمن الأخضري، الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون: 27، أحمد الدمنهوري، حلية اللب المصون شرح الجوهر المكنون: 61

[3] سورة إبراهيم: الآية 1

[4] ينظر: البغوي: 334/4، ومعالم التنزيل في تفسير القرآن، والخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 27/3

[5] ينظر: المراغي، أحمد بن مصطفى، تفسير المراغي، مطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولى، 1365 هـ - 1946م، 123/13

عز وجل من خلقه وهو به قاهر للمخالفين وغالب لهم بإقامته الحجة عليهم، فكان العزيز مناسباً للمقام[1]، ولما كان إخراج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان فضلاً من الله ونعمة تستحق الشكر وصف الحق نفسه بالحميد.

- وفي قوله تعالى: (**قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ**)[2] نلحظ تَحبُّبَ الله تعالى إلى عباده المؤمنين وهو الغني عن العالمين، يبدو ذلك في ترجيح استعمال (عباد) على (عبيد) جمعاً لـ (عبد)، لما يحمله هذا الجمع من معاني القرب إلى الله تعالى والانقياد والطاعة له[3]، فالعبدُ الشكورُ لربه المحسنُ لعبادته يُجمَع على (عباد) وهو المراد بقوله تعالى: (وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا)[4] وقوله: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)[5]، بخلاف (عبيد) الذي يشمل كل مملوك لله؛ عبَدَه وأطاعَه أو كفَر به وعصاه، التقي المحسن منهم والشقي المسيء سواء في استحقاق هذا الجمع، كما في قوله تعالى: (وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ)[6].

فيكون قوله: (قل لعبادي) وصفاً للمؤمنين بأشرف أوصافهم وأكرمها[7] ثم تأتي إضافة العباد إلى ياء العظمة العائدة على الله تعالى **تكريماً لهم وتشريفاً** ورفعاً لشأنهم

---

[2] ابن عاشور، التحرير والتنوير:181/13

[3] سورة إبراهيم: الآية 31

[4] ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز في شرح الكتاب العزيز:338/3

[5] سورة الفرقان: الآية 63

[6] سورة البقرة: الآية 186

[7] سورة آل عمران: الآية 182

[8] ينظر: البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور:418/10، الهروي، محمد الأمين بن عبد الله الأرمي، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، دار طوق النجاة، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2001م، 440/14

ومنزلتهم، فهم خاصة الله وأحباؤه، وقيل[1]: إن الإضافة جاءت لأجل تنبيه هؤلاء المؤمنين وحثهم على الالتزام بما يليها في قوله: (يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً) كونهم هم " المُقِيمُونَ لِوَظائِفِ العُبُودِيَّةِ المُوفُونَ بِحُقُوقِها"[2].

- ومن المواضع التي جاءت الإضافة فيها للتشريف قوله تعالى: (**رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ**)[3] عند إضافة البيت إلى ذاته العلية لما في ذلك من التشريف والتعظيم للبيت، فهو البيت الذي لا يملكه إلا الله ولذا اختص بوصف (المحرم) والذي كثرت الأقوال في تفسيره حتى أوصلها الرازي إلى سبعة منها[4]: أن الله حرم التعرض له والتهاون به وجعل ما حوله حرماً لمكانه، ومنها أن المراد أنه كان ولا يزال ممتنعاً عزيزاً يهابه كل جبار كالشيء المحرَّم الذي حقه أو يجتنب، وقيل: لأنه حَرُم على الطوفان أي امتنع منه، وغير ذلك..

ومن **التعظيم والتشريف** الذي تحققه الإضافة كذلك إضافة النعمة إلى الله تعالى والتي تكررت في السورة ثلاث مرات، وكان الغرض البلاغي منها الارتقاء بمرتبة هذه النعم تشريفاً وتفخيماً كما في قوله تعالى[5]: (**وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**)[6] وقد مر معنا أن القرآن الكريم يقصد بالنعمة ما كان في الدنيا دون الآخرة، أما ما أعدّه الله للمؤمنين في الآخرة فيعبر

---

[2] ينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 199/3، أبو السعود العمادي، إرشاد العقل السليم: 46/5

[3] أبو السعود العمادي، إرشاد العقل السليم: 46/5

[4] سورة إبراهيم: الآية 37

[5] ينظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب:104/19

[6] الموضعان الآخران اللذان ورد فيهما لفظ (نعمة) مضافاً إلى لفظ الجلالة لأجل التشريف والتعظيم هما: في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ) سورة إبراهيم: الآية 6، وفي قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ) سورة إبراهيم: الآية 28

[7] سورة إبراهيم: الآية 34

عنه البيان الإلهي بـ(النعيم)، وقد اتفق المفسرون[1] على أن المراد بـ (نعمة) هنا جميع ما يحيط بالإنسان من آلاء الله تعالى ونعمه وإحسانه، ولهم في ذلك توجيهات واستدلالات هي[2]:

- أن كلمة (نعمة) في الآية اسم أقيم مقام المصدر فيقال: أنعم نعمة وإنعاماً، نظير قولنا: أنفقت نفقة وإنفاقاً، فجاءت النعمة بمعنى الإنعام ولذلك لم تجمع.
- أنها اسم جنس بمعنى المنعَمِ به، وهو يعم جميع أفراده فيكون كالجمع، كأنه قيل: وإن تعدّوا نِعَمَ الله لا تحصوها.
- وقيل إن المفرد إذا أضيف إلى معرفة فإنه يفيد الاستغراق والعموم كما هو الحال هنا بإضافة النعمة إلى اسم الجلالة.

وهذه التوجيهات الثلاثة وإن اختلفت في التكييف الصرفي لكلمة (نعمة) ووجه دلالتها على الجمع فإنها ثلاثتها تؤكد أن المراد بكلمة (نعمة) كل ما يحيط بالإنسان من آلاء الله وإحسانه، ولا يمكن أن يراد بها نعمة معينة، خاصة وأن السياق صريح في إفادة الجمع في قوله: (وإن تعدوا) وكذا قوله: (لا تحصوها) إذ معلوم أن العد والإحصاء لا يتعلقان بالمفرد.

وقد جاءت الآية الكريمة كتذييل أعقب تعداد بعض من نعم الله تعالى على خلقه تنبيهاً على أن ما آتاهم الله كثير منه معلوم وكثير منه لا يحيطون بعلمه أو لا يتذكرونه عند إرادة تعداد النعم، فهي قد بلغت من العظمة والكثرة ما لا يحصى، والإحصاء: ضبط العدد، مأخوذ من الحصا اسماً للعدد، وهو منقول من الحصى وهي صغار

---

[2] ينظر مثلاً: الطبري، محمد بن جرير بن يزيد، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، 1422 هـ - 2001م، 16/17، والزمخشري، الكشاف:557/2، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم:512/4

[3] ينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل:200/3، الآلوسي، روح المعاني:213/7، البروسوي، إسماعيل حقي، روح البيان، دار الفكر – بيروت، 422/4

الحجارة، لأنهم كانوا يعدون الأعداد الكثيرة بالحصى تجنباً للغلط[1]. ولك أن تتصور العظمة التي يضفيها اسم الجلالة على النعم حين تضاف إليه، ويليها تحدّ منه على الإحاطة بها عدّاً أو إحصاء.

ويظهر **التفخيم والتعظيم** كذلك في إضافة أيام إلى الله تعالى في قوله: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[2] بمعنى أيام إنعامه أو أيام ظهور قوته وبطشه، وكلاهما اتصف بالعظمة عند إضافته لله تعالى.

وإضافة إلى معنى التشريف والتعظيم كان للإضافة في سورة إبراهيم أغراض بلاغية أخرى نذكر أمثلة لها:

الاستعطاف والاسترحام

في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾[3] عندما حاق بالذين كفروا ما كانوا يوعدون، ورأوا العذاب، وتقطعت بهم أسباب النجاة، وأيقنوا أن لا مفر من الله إلا إليه، فهو الذي بيده الحكم والأمر، شرعوا بالتضرع إلى الله متذللين مظهرين الضعف والعجز والافتقار إليه قائلين ﴿**ربَّنا** أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾، وهنا يلحظ الباحث أسلوب الاستعطاف واضحاً وجلياً في إضافة (رب) إلى ضمير المتكلم (نا) متضمنة معنى أيها المحسن إلينا بالخلق والتربية والرزق، حيث لا أنسب للاسترحام والاستجداء من هذه الإضافة التي تعني كمال عبوديتهم لله، وتحمل معاني مالكية الله لهم وولايته عليهم، وتشير في الوقت نفسه إلى شعور عميق بالندم، وغرض طلب العفو والاستعطاف يدل عليه جواب الله تعالى لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ ما يعني أنها

---

[2] ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير:237/13

[3] سورة إبراهيم: الآية 5

[4] سورة إبراهيم: الآية 44

المرة الأولى التي تجري فيها هذه الإضافة على ألسنتهم، إذ طالما تبجحوا بالكفر وتكبروا على الحق في الحياة الدنيا، وتباهوا بالعناد وتكذيب الرسل كقولهم: (لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ)[1] وقولهم : (إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ)[2].

التذكير والتوبيخ

وجاءت الإضافة كذلك لغرض التذكير والتوبيخ عندما أضيف الرسل إلى أقوامهم، وهي عادة القرآن الكريم عندما يكون السياق متعلقاً بتكذيب الأقوام لرسلهم والإعراض عن دعوتهم، من ذلك قوله تعالى: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ **جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ** فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)[3] فموضوع الآية إخبار عن الأمم السابقة التي جاءتهم رسلهم بالدلائل الواضحة والمعجزات الباهرة، فما وجدوا عندهم الاستجابة؛ بل على العكس أظهروا السخرية والاستهزاء بهم[4]، لذا يرى الباحث الغرض من إضافة البيان الإلهي الرسل لهم تحميلهم المسؤولية كاملة عن موقفهم تجاه الرسل، وتوبيخاً لهم على التكذيب والإعراض الصادر منهم، لأن هؤلاء الرسل مبعوثون إليهم على وجه الخصوص ومنذرون لهم.

وقد تكررت إضافة الرسل إلى أقوامهم كثيراً في القرآن الكريم نظير ما في هذه الآية كلما كان الحديث عن تكذيب الأقوام للرسل، وأسوق لك من أمثلتها ما يأتي:

---

[2] سورة سبأ: الآية 31

[3] سورة الأعراف: الآية 76

[4] سورة إبراهيم: الآية 9

[5] ينظر: الماتريدي، محمد بن محمد بن محمود، تأويلات أهل السنة، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، 1426 هـ – 2005م، 368/6، المختصر في التفسير، جماعة من علماء التفسير، إشراف: مركز تفسير للدراسات القرآنية، الطبعة: الثالثة، 1436 هـ، 256/1

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ۙ **وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ** وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ)[1]

(تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ **وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ** فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ).[2]

(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا **وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ** ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ).[3]

(وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ **جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ** وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ).[4]

(ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت **تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ** فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا ۚ وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ ۚ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ).[5]

والملاحظ أن الذي يجمعها هو الحديث عن تكذيب الأقوام للرسل، الأمر الذي يعني أن البيان الإلهي يضيف الرسل لأقوامهم تذكيراً للأقوام وتوبيخاً على ما ذكرنا.

في حين يضيف القرآن الكريم الرسل لله تعالى في عبارة مشابهة، ولكن في سياق مختلف كما نرى في قوله تعالى في سورة المائدة: (مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ **جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ** ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ)[6] إذ الحديث هنا عن أحكام شرعية تتعلق بالقتل

---

[2] سورة يونس: الآية 13

[3] سورة الأعراف: الآية 101

[4] سورة الروم: الآية 9

[5] سورة فاطر: الآية 25

[6] سورة التغابن: الآية 6

[7] سورة المائدة: الآية 32

والقصاص، وهي بحاجة إلى تأكيد، ولا أبلغ للتأكيد من ذكر مصدرها بالإضافة إلى الحق تبارك وتعالى أحسن المشرعين، ولذا لم يكتف البيان الإلهي بذكر ما فرض في الكتب السماوية.

التحقير

ومن أغراض الإضافة كذلك **التحقير** الذي ورد في قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا **قَوْمَهُمْ** دَارَ الْبَوَارِ)[1] فالآية تنعي فئة من رؤوس الكفر والبغي من أهل مكة الذين بدلوا شكر نعم الله عليهم كفراً حين أنعم الله عليهم بالأمن في أوطانهم، وأطعمهم من جوع، وبعث فيهم رسولاً منهم، فجحدوا بهذه النعم، وأبدلوا بشكرها كفراً، فضلّوا وكانوا سبباً في ضلال قومهم أيضاً، فهلكوا وأهلكوا[2]، وكان في إضافة (قوم) إليهم تحقيراً لأشياعهم، وإهانة لمن سار خلفهم واتبع طريقهم ورضي بأن يكون تحت لوائهم، مع ما في الإضافة لهؤلاء الطغاة من التعنيف والتثريب والتأنيب لجماعتهم. فهؤلاء القوم مستحقون للتصغير والتحقير، كيف لا؟ وهم قد ألغوا عقولهم وعطلوا أذهانهم، فكانوا بحق إمَّعَةً اقتفوا أثر زعمائهم "في مُلازَمَةِ الكُفْرِ حَتّى ماتُوا كُفّارًا، فَهم أحَقُّ بِأنْ يُضافُوا إلَيْهِمْ "[3]

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 28

[3] ينظر: القاسمي، محاسن التأويل 315/6، الجزائري، جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الخامسة، 1424هـ/2003م، 57/3

[4] ابن عاشور، التحرير والتنوير:228/13

خامساً - التعريف بالعلمية

واسم العلم يشمل كلاً من: الاسم والكنية واللقب[1]، فالكنية كل مركب إضافي صدر بأبٍ أو أم مثل: أبو بكر، أم كلثوم.

واللقب كل علم أشعر برفعة المسمى أو ضعته نحو: زين العابدين، الجاحظ

والاسم ما عدا القسمين الآخرين نحو: خالد، سعيد، فاطمة..

والغرض الأصلي من الإتيان بالاسم العلم إحضار المتحدَّث عنه في ذهن المتلقي باسمه الخاص به تمييزاً له عما سواه، نحو قوله تعالى: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)[2] ، غير أنه قد ظهرت للبلاغيين عدة دواع وأسرار بلاغية أخرى لتعريف الاسم بالعلمية دون غيره من المعارف هي[3]:

- التعظيم: في الأعلام التي تشعر بمدح مثل صلاح الدين، سيف الدولة
- الإهانة في الأعلام التي تشعر بذم مثل: صخر وصفوان
- الاستلذاذ بذكره كعادة المحبين والعشاق يأنسون بذكر اسم المحبوب وتكريره مثل ما جرى للمجنون في قوله:

---

[2] ينظر: ابن هشام، عبد الله بن يوسف بن أحمد، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،133/1، والميداني، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة، البلاغة العربية، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1416 هـ - 1996م، 413/1

[3] سورة الإخلاص: الآية 1

[4] ينظر: ابن الناظم، بدر الدين بن مالك، المصباح في المعاني والبيان والبديع، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز، 14، السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، (ضمن شروح المفتاح): 296/1، علال نوريم، جديد الثلاثة الفنون في شرح الجوهر المكنون: 85/1، قاسم، محمد أحمد، ديب، محيي الدين، علوم البلاغة (البديع والبيان والمعاني)، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس - لبنان، الطبعة: الأولى، 2003م، 324

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا ليلاي منكن أم ليلى من البشر[1]

- الكناية عن معنى يصلح له العلم بحسب معناه قبل العلمية، نحو: أبو لهب كناية عن كونه جهنمياً لأن اللهب الحقيقي هو لهب جهنم فيصح أن يلاحظ فيه ذلك.

إضافة إلى معاني التفاؤل والتشاؤم والتبرك وغيرها..

وقد أحصى الباحث أسماء العلم الواردة في سورة إبراهيم موضوع دراستنا فكانت كالآتي:

(لفظ الجلالة (الله)، موسى، جهنم، الشيطان، فرعون، إسماعيل، إسحاق، نوح، عاد، ثمود)

لفظ الجلالة (الله)

لما كان اسم الله أجل هذه الأعلام وأشرفها بدأنا متبركين ومستعينين به، وهو العلم الأكثر وروداً في السورة الكريمة بـ (33) مرة، وفي كل مرة يعبر عن معانٍ عظيمة وأسرار جليلة، حسبنا أن نقف على بعضها لعله ينبه على الباقي.

في قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ **اللَّهَ** خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (19) وَمَا ذَلِكَ عَلَى **اللَّهِ** بِعَزِيزٍ (20) وَبَرَزُوا **لِلَّهِ** جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ **اللَّهِ** مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا **اللَّهُ** لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ)[2] في الآيات الثلاثة نجد أن لفظ الجلالة قد تكرر خمس مرات، وفي كل مرة يضفي على المشهد مهابة ويكسيه إجلالاً وعظمة، فهو في المرة الأولى فاطر للسموات على عظمتها وارتفاعها،

---

[2] البيت مختلف في نسبته فهو في ديوان مجنون ليلى ص 130، ومنسوب للعرجي كذلك في العمدة في محاسن الشعر وآدابه: 66/2، وتحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر: 136، وخزانة الأدب للحموي: 279/1

[3] سورة إبراهيم: الآيات 19، 20، 21

والأرض على تباعد أقطارها واتساعها، وهن بمن فيهن يُدِنَّ بالعبودية له، وهو المتصرف في هذا الكون إيجاداً وإفناء، و "من قدر على خلق مثل هاتيك الأجرام العظيمة، كان على تبديل خلق آخر بهم أقدر"[1] وما إفناء الخلق وإذهابهم والإتيان بغيرهم مكانهم في المرة الثانية بمتعذر عليه أو متعسر "فإنه قادر لذاته على جميع الممكنات لا اختصاص له بمقدور دون مقدور، ومن هذا شأنه حقيق بأن يؤمن به، ويرجى ثوابه، ويخشى عقابه"[2] فنحن نعاين في ورود لفظ الجلالة التعبير عن قدرة الله الخالق وعظمته.

وفي الورود الثالث للفظ الجلالة إبراز لوجه آخر من عظمته وقدرته باطِّلاعه على كل خافية، وكشفه لكل مستور، وإن ظن الغافلون خلاف ذلك وتستروا بفواحشهم عن العيون، ونلمح في مجيء لفظ الجلالة في قوله: (وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا) رهبة الموقف وهيبة المحاسب وسلطانه، مع وجل القلوب وخوفها.

ويضاف العذاب للفظ الجلالة في وروده الرابع تفظيعاً لهذا العذاب وتنفيراً منه، ليلقي في النفوس مشاعر الحيطة والتوجس منه، ويملأ القلوب فزعاً ورعباً. فهو العذاب الذي ما بعده عذاب، كونه يستمد عظمته ممن أضيف إليه.

ويسدل الستار على المشهد مع ذكر لفظ الجلالة على لسان أولئك الذين كانوا يكفرون به بالأمس القريب، والآن يعترفون له بالربوبية والألوهية، وأنه من بيده مفاتيح الهداية ومصير الخلائق، فهو الذي يوفق للإيمان والفلاح، وينقذ من يشاء من الضلال (قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ) فالأمر كله له وإليه.

الشيطان

---

[2] أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: 41/5، الخلواتي، روح البيان: 410/4، الألوسي، روح المعني: 194/7

[3] أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: 41/5،

والعلم الآخر الذي ورد في السورة وتكرر مرتين هو (الشيطان)، وفي أصل اشتقاقه خلاف بين أهل اللغة، فقيل: هو من (شطن يشطُنُ) بنون أصلية على معنى بعُد من البُعدِ من قولهم: دار شطون أي بعيدة[1]، يشهد له قول أمية بن أبي الصلت يصف نبي الله سليمان عليه السلام:

أَيُّمَا شَاطِنٍ عَصَاهُ عَكَاهُ[2] ثُمَّ يُلْقَى فِي السِّجْنِ وَالْأَغْلَالِ[3]

وقول النابغة:

نَأَتْ بِسُعَادَ عَنْكَ نَوًى شُطُونِ فَبَانَتْ وَالْفُؤَادُ بِهَا رَهِينُ[4]

ومنه اشتق اسم الشيطان عَلَمَاً لبُعدِه عن الخير وتمرده على الحق، ولهذا تقرن به اللعنة لأنها أيضاً تعني البعد عن الخير والرحمة، والشيطان بعيد عنهما فكانت مناسبة له.

---

[2] ينظر: الأنباري، محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، الزاهر في معاني كلمات الناس، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، 1412 هـ -1992، 56/1، ابن منظور، لسان العرب: مادة (شطن) الكجراتي، محمد طاهر، مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، الطبعة: الثالثة، 1387 هـ - 1967م، مادة (شطن)،

[3] عكاه: أوثقه. ينظر: ابن دريد، جمهرة اللغة: مادة (عكو)

[4] البيت في ديوانه أمية، وكذا نسبه له ابن منظور والأزهري والفيروز آبادي، لكن ابن منقذ الكناني نسبه للأعشى. ينظر: ديوان أمية بن الصلت: 445، لسان العرب، تهذيب اللغة، تاج العروس: مادة (حلف)، ابن منقذ، أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر، البديع في نقد الشعر، الجمهورية العربية المتحدة - وزارة الثقافة والإرشاد القومي - الإقليم الجنوبي - الإدارة العامة للثقافة: 179

[5] البيت مطلع قصيدة اسمها "أتيتك عارياً" ينظر: ديوان النابغة: 72، وكذا: الجوهري، الصحاح تاج اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة مادة (شطن)

وقيل إن النون زائدة فهو مشتق من قولهم: شاط يشيط بمعنى احترق أو هلك[1]، كما في قول النابغة:

قد نطعنُ العيرَ في مكنون فائله[2] وقد يشيطُ على أرماحِنا البَطلُ[3]

ومناسبة اسم الشيطان لأصل اشتقاقه على هذا القول أنه خلق من النار واللهب وماض كذلك إلى النار وهالك ومعذب فيها.

وبالعودة إلى سياق الآية التي ورد فيها الشيطان عَلَمَاً في قوله تعالى: (وَقَالَ **الشَّيْطَانُ** لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)[4] لا يستبعد الباحث أن يكون قد لوحظ في لفظ (الشيطان) معناه اللغوي قبل نقله إلى العَلَميّة، عندما صوَّر لنا السياق موقفاً تظله غمامة من اليأس والقنوط والإحباط، ينهض فيه الشيطان - بما يوحي به اسمه من البعد عن الخير على القول الأول أو الهلاك والاحتراق على الثاني – بين أتباعه خطيبَ نحس وشؤم يزيدهم غماً إلى غمهم وتعساً إلى شقاوتهم، ويعمق جراحهم بالتخلي عنهم، وهو يومئذ لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً، فاختيار لفظ الشيطان علماً في هذا الموقف له إيحاؤه المميز،

---

[2] ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: مادة (شيط). مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس: مادة (ش ي ط)

[3] الفائل: عرق في الفخذ وقيل: في العجر وقيل: في الورك. ينظر: الأزدي، علي بن الحسن الهُنائي، المنتخب من غريب كلام العرب، جامعة أم القرى (معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي)، الطبعة: الأولى، 1409هـ - 1989م، باب العروق: 73

[4] ينظر: ديوان الأعشى: 63، وابن يعيش، يعيش بن علي بن يعيش محمد بن علي، شرح المفصل للزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1422 هـ - 2001 م، 312/3، والزمخشري، أساس البلاغة، مادة (شيط)

[1] سورة إبراهيم: الآية 22

وتأثيره السلبي على نفسية أشياعه، كيف لا؟ وخطيبهم يومئذ يلوح من اسمه ما سيبوح به، إذ لا خير يرجى ممن هو شاطن عن الخير، ولا بشارة تنتظر ممن سمته الهلاك والاحتراق.

جهنم

ولمثل الغرض السابق جاء التعريف بالعلمية في لفظ (جهنم)، إذا اعتبرنا أن لفظ جهنم عربي الأصل مأخوذ من قول العرب: بئر جهنام أي؛ بعيدة القعر، فيكون التعبير بهذا الاسم كناية عن معناه اللغوي قبل أن ينقل للعلمية ويصبح علماً على النار العظيمة التي يعذب بها الله الكافرين والعصاة، وقد ورد اسم جهنم في سورة إبراهيم مرتين في قوله تعالى:

(مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ)[1]

(جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ)[2]

ولاختيار جهنم سر بلاغي مناسب للمقام، يتمثل في كونه علماً يحمل صفته في معناه الاشتقاقي اللغوي، فلا أدعى للتهديد ولا أرجى للتخويف من تلك النار العميقة البعيدة القعر جزاءً وعقوبة.

أما ما تبقى من الأعلام التي وردت في السورة الكريمة فهي على الأصل من تعريف الاسم بالعلمية من إحضار المتحدَّث عنه بعينه في ذهن المستمع بتمييزه باسمه الخاص.

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 16

[3] سورة إبراهيم: الآية 29

سادساً - التعريف باسم الموصول

وهو اسم معرفة يفتقر في بيان المراد منه إلى أمرين: صلة، وتكون جملة أو شبه جملة أو وصفاً صريحاً -وهذا خاص بـ ال الموصولة –، وعائد، وهو ضمير مذكور أو محذوف يربط الاسم الموصول بصلته[1].

وقد ذكر أهل الصناعة اللغوية بعض الدواعي واللطائف البلاغية التي تدفع المتكلم البليغ إلى توظيف الاسم الموصول للتعريف بعناصر الجملة واختياره من دون سائر البدائل التي تصلح لشغل موقعه، ولكن دون أن يكون ما ذكروه مستوعباً لكل الأسرار وحاصراً لكل الدواعي التي قد تجود بها قرائح الفصحاء والبلغاء، يقول الهاشمي: " واعلم انَّ التعريف بالموصوليَّة مبحث دقيق المسلك، غريب النَّزعة يُوقفكَ على دقائق من البلاغة، تؤنسُك إذا انتَ نظرتَ اليها بثاقب فكرك، وتثلجُ صدرك إذا تأمَّلتَها بصادق رأيك، فأسرارُ ولطائف التَعريف بالموصوليّة لا يمكن ضبطها، واعتبر في كل مقام ما تراه مناسباً "[2]

نذكر من هذه الدواعي البلاغية على سبيل المثال[3]:

- أن لا يكون المخاطب المتلقي يعلم من صفات المتحدث عنه وأحواله غير الصلة. مثل قولك: الذي شارك في المؤتمر أمس أستاذي.

---

[2] للاستزادة ينظر: الرضي، حسن بن شرف شاه الحسيني الإستراباذي، شرح شافية ابن الحاجب، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولي 1425 هـ- 2004م، 253/1، ابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، دار التراث - القاهرة، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه، الطبعة: العشرون 1400 هـ - 1980 م، 154/1، الغلاييني، جامع الدروس العربية: 136/1

[3] جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: 115

[4] ينظر: القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، و السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، وأبو يعقوب المغربي، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح (ضمن شروح تلخيص المفتاح): 302/1، وينظر أيضاً: حَبَنَّكَة الميداني، البلاغة العربية: 428/1، د. محمد أحمد قاسم، د.محيي الدين ديب، علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع): 327

- زيادة تقرير الحكم في الجملة نحو قوله تعالى: (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ)[1] فإن قوله: (التي هو في بيتها) أقوى في الدلالة على نزاهة سيدنا يوسف عن الفاحشة من التصريح باسمها أو صفتها، لأن ذلك يشير إلى امتناعه عن الفاحشة رغم تمكنه منها في بيتها وتوفر الدواعي والأسباب.

- أن ينزه المتكلم لسانه أو سمع المخاطب عن ذكر اسم لكونه ممجوجاً مستهجناً أو مسبباً لضيق أو حرج، فيتحاشى عن التصريح به فيأتي بالموصول كناية عنه نحو ما ورد في الحديث: " إنَّ اللهَ جَعَلَ مَا يَخْرُجُ مِنِ ابْنِ آدم مَثَلاً للدّنْيَا"[2] فلما كان التصريح بالغائط مستكرها عبَّر عنه النبي صلى الله عليه وسلم باستخدام الصلة.

- تفخيم المتحدث عنه وتهويله وتعظيم شأنه، مثل قوله تعالى: (فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ)[3]

- الإيماء إلى وجه بناء الخبر وعلته، بالإشارة إلى أن الوصف المذكور في الصلة هو علة بناء الحكم في الجملة، نحو قوله تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)[4]

- التنبيه على خطأ المخاطب، نحو: (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ)[5]

- العموم والاستغراق نحو: الذين يأتونك أكرمهم.

إضافة إلى التشويق والتحقير والتوبيخ وغيرها..

---

[2] سورة يوسف: الآية 23

[3] الحديث رواه الإمام أحمد في مسند المكيين من حديث الضحاك بن سفيان، برقم: 15747، والطبراني في المعجم الكبير كذلك برقم: 8138، قال الهيتمي: " ورجال الطبراني رجال الصحيح غير علي بن زيد بن جدعان، وقد وُثِّقَ" معجم الزوائد ومنبع الفوائد: 288/10

[4] سورة طه: الآية 78

[5] سورة البقرة: الآية 82

[6] سورة الأعراف: الآية 194

الدواعي البلاغية للاسم الموصول في سورة إبراهيم

وإذا أنعمنا النظر في سورة إبراهيم وبحثنا عن دواعي التعريف باسم الموصول ظهر لنا تنوع الأغراض البلاغية التي يحققها الموصول مع صلته، واستدعى ذلك منا الوقوف عند الآيات الكريمة الآتية:

- قوله تعالى: (**الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (1) اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**)[1] وقد ورد في لفظ الجلالة (الله) قراءتان[2]:

الأولى: قراءة نافع وابن عامر بالرفع (اللهُ الذي له ما في السماوات..) ويكون اعراب لفظ الجلالة على هذه القراءة إما خبراً لمبتدأ محذوف تقديره (هو اللهُ) وذلك على المدح، ويكون اسم الموصول صفة للخبر، أو أن لفظ الجلالة مبتدأ وخبره الموصول بعده أو محذوف تقديره: الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض العزيزُ الحميدُ، حذف لدلالة ما تقدم[3].

القراءة الثانية: للأئمة السبعة الباقين، أن لفظ الجلالة بالجر (اللهِ الذي له ما في السماوات..) على أنه بدل من (العزيز) عند ابن عطية[4] وأبي البقاء العكبري[5]،

---

[2] سورة إبراهيم: الآيات 1، 2

[3] ينظر: النسيابوري، محمد بن محمد بن يوسف، النشر في القراءات العشر، المطبعة التجارية الكبرى (تصوير دار الكتاب العلمية)، 256، ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 298/2

[4] ينظر: السمين الحلبي، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، دار القلم، دمشق، 66/7

[5] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: في تفسير الكتاب العزيز: 322/3

[6] ينظر: العكبري، عبد الله بن الحسين بن عبد الله، التبيان في إعراب القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، 762/2

وعطف البيان على قول الزمخشري "لأنه جرى مجرى الأسماء الأعلام لغلبته واختصاصه بالمعبود الذي تحق له العبادة كما غلب النجم في الثريا"[1]

وإن ملاحظة النكتة البلاغية من ورود اسم الموصول هنا يستدعي منا استبعاد رفع لفظ الجلالة للابتداء وترجيح خبريته وجعل الموصول صفة له، لما في وصفيته مع تَضمُّنِ جملة الصلة لاسم الموصول (ما) وتكريره مع السماوات والأرض من إبراز لكمال فخامة شأن الصراط[2] إضافة إلى ما فيه من تعريض بنكوب كل صراط غير صراط الله، وزيغ طريق آلهة المشركين الذي سلكوه، وتعريض كذلك بانحراف المشركين حين عبدوا من ليس له السماوات والأرض، كما تشير دلالة (ما) الموصولة على عموم ملكية الله سبحانه وسلطانه على من في السماوات والأرض ومن ثم تحتم سلوك هذا الصراط على جميع الناس.

ومن المواضع التي جاء فيها التعريف باسم الموصول كذلك لغرض إفادة العموم:

- قوله تعالى: (وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)[3] على القول باعتبار (ما) موصولة.
- وقوله تعالى: (وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ)[4]

ومن الأغراض البلاغية للاسم الموصول أيضاً ما ورد في:

- قوله تعالى: (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)[5]

---

[2] الزمخشري، الكشاف: 537/2، وينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل: 192/3، أبو حيان، البحر المحيط: 404/6

[3] ينظر: الآلوسي، روح المعاني: 174/7، الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 182/13

[4] سورة إبراهيم: الآية 34

[5] سورة إبراهيم: الآية 27

[1] سورة إبراهيم: الآية 3

فالداعي للتعريف باسم الموصول وصلته في هذه الآية- كما يظهر للباحث - هو الإشعار بأن الأوصاف التي حوتها صلة الموصول هي علة بناء الحكم في الجملة، فيكون المعنى: إن أولئك الموصوفين بالقبائح المذكورة في صلة الموصول من استحباب الحياة الدنيا وتفضيلها على الآخرة، وصد الناس عن دين الله ونعته بالزيغ والاعوجاج في ضلال عن طريق الحق بعيد بالغٍ في ذلك منتهى البعد.

وكذلك الأمر في قوله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ **الَّذِي** وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ)[1] فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه: أن سيدنا إسماعيل ولد لسيدنا إبراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة، وولد له إسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة[2]، ولهذا قيّد الهبة بقوله: (على الكبر) استعظاماً للنعمة بأن رزقه الله ولدين بعد تمكن الهرم منه وانقطاع الرجاء مع اليأس من الولادة عرفاً، وإظهاراً لشكرها بمناجاة الله الواهب وحمده والثناء عليه بأنه سميع الدعاء.

ونلاحظ أن الموصول مع صلته قد أومآ إلى علة الحكم ووجه بنائه[3] فالواهب المتصف بالعطاء، والذي رزق سيدنا إبراهيم الولدين جدير بالحمد والشكر والثناء، بمعنى أن هبة الولد علة للحمد والثناء.

- قوله تعالى: (مَثَلُ **الَّذِينَ** كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ)[4] يشبه الله تعالى أعمال الكفار في بطلانها وعدم الانتفاع بها برماد هبت عليه ريح قوية فنثرته، بجامع

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 39

[3] ينظر: السمرقندي، بحر العلوم: 246/2، والواحدي، التفسير الوسيط: 34/3، والبغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن: 357/4، والزمخشري، الكشاف: 561/2، والنسفي، مدارك التنزيل: 176/2

[4] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 13/ 243

[5] سورة إبراهيم: الآية 18

عدم الاستفادة من كل منهما[1]. وقد عرف البيان الإلهي الكافرين بالموصول بقوله: (**الَّذِينَ** كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ) إشارة إلى وجه بناء الخبر وعلة الحكم في الآية، وتنصيصاً على تأصل الكفر في نفوسهم، إذ أشعر الكلام أن علة بطلان أعمالهم وذهابها سدى هو ما ورد في جملة الصلة من كفرهم بربهم، وبناء هذه الأعمال على غير أساس من الإيمان بالله والتوجه إليه، فجملة الصلة مهدت للحكم وأشارت إليه.

- وللغرض نفسه جاء التعريف بالاسم الموصول في قوله تعالى: (وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ)[2] فحين توعد الله تعالى المكذبين بالإهلاك ووعد المؤمنين بتوطينهم في ديارهم عقَّب بقوله: (ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ) أي ذلك الوعد لمن خاف مقامي، فعدل عن ضمير المخاطب إلى استعمال اسم الموصول (من) ليشعر بأن الصفات التي تضمنتها الصلة هي العلة في استحقاق ونيل ذلك الوعد والعطية[3].

- وفي قوله تعالى: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ **الَّذِينَ** مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ **وَالَّذِينَ** مِن بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۚ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا **بِمَا أُرْسِلْتُم** بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّـمَّا **تَدْعُونَنَا** إِلَيْهِ مُرِيبٍ)[4] خطاباً من سيدنا موسى لقومه ويحتمل أن يكون من الله تعالى موجهاً لهذه الأمة[5] (أَلَمْ يَأْتِكُمْ) بهمزة تقرير وتوبيخ لأنهم قد بلغتهم أخبارهم، فأما قوم نوح فقد تواتر خبرهم بين الأمم لشهرة الطوفان، وأما عاد وثمود فهم من العرب ومساكنهم في بلادهم يمرون

---

[2] ينظر: ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، تفسير القرآن الكريم، دار ومكتبة الهلال – بيروت، الطبعة: الأولى - 1410 هـ، 339

[3] سورة إبراهيم: الآية 14

[4] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 207/13

[5] سورة إبراهيم: الآية 9

[6] ينظر: النسفي، مدار التنزيل وحقائق التأويل: 164/2، وأبو حيان، البحر المحيط: 412/6، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 480/4،

عليها ويخبر بعضهم بعضاً[1]. فيها تذكير بأيام الله في الانتقام من الأمم الكافرة، وقد ورد التعريف باسم الموصول أربع مرات لأغراض متنوعة ودواع مختلفة.

ففي قوله (الذين من قبلكم) **تفخيم لشأن لتلك الأقوام وما كانوا عليه من العظمة**، وإيحاء إلى أنهم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً، وتهويل لما حل بهم حين كذبوا الرسل فحق عليهم العذاب والهلاك. وفي الموصول الثاني في قوله (والذين من بعدهم) دلالة على كثرة الأقوام المنقرضة بعد المذكورين في الآية، (لا يعلمهم إلا الله) أي لا يحصي عدد هذه الأمم إلا الله تعالى ولا يعرف نسبهم إلا الله، وقد كذب من ادعى من النسابين القدرة على إحصاء جميع الأمم، لما روي عن عروة بن الزبير قوله: "مَا وَجَدْنَا أَحَدًا يعرف ما وراء معد بن عدنان"[2]، وعن ابن عباس: "بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أَبًا لَا يُعْرَفُونَ "[3]

ولما كان العرب يجهلون أخبار تلك الأمم الغابرة ولا يعرفون عن أحوالها شيئاً جاء تعريفها بالصلة المتضمنة ترتيبها الزمني من قوم نوح وعاد وثمود كونها الأمر الوحيد المعروف عند المخاطبين، بمعنى أن الغرض البلاغي من إيراد الصلة هو فقد علم السامع وجهله بغير الصلة.

وأما الموصولان الثالث والرابع في قوله (بـــما أرسلتم به)، (مـــــما تدعوننا إليه) فيبدو أن الداعي للتعريف بهما أحد أمرين: إما استهجان أولئك الكافرين دعوة الرسل إلى الإيمان والتوحيد ومعجزاتهم فكرهوا ذكرها وإجراءها على ألسنتهم في الكلام.

---

[2] ينظر: أبو حيان، البحر المحيط: 412/6، الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 196/13

[3] السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر – بيروت، 10/5

[1] ينظر: مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره: 3782/5، السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور: 10/5، والخطيب الشربيني، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: 171/2

وإما أن غايتهم تحقيرها والحط من شأنها، فهي في نظرهم غير جديرة بأن تذكر في الكلام.

سابعاً - التنكير

تتفق النكرة مع المعرفة في الدلالة على معين، وتفترقان في كون هذا المعين معلوماً لدى السامع في المعرفة وغير معلوم في حال التنكير، والنكرة لا تعني الإبهام المطلق؛ وإنما هي إبهام مقيد ببعض أحوالها وعوارضها، ففي النكرة دلالة واضحة على ذات الشيء وحقيقته، والإبهام إنما هو واقع في تحديد هوية الشيء وصفاته الأخرى المخصصة له[1].

فاستعمال النكرة في الكلام قد يكون أكثر تعبيراً من المعرفة نفسها، والمتكلم قد يحقق من المعاني في استعماله النكرة ما يعجز عن تحقيقه باستعمال المعارف، فهي ترد لتحقيق أغراض وأسرار بلاغية استقصاها علماء البيان وحددوا كثيراً منها، نذكر على سبيل المثال[2]:

- التكثير: وعندها يحذف المتكلم الصفة اكتفاء بدلالة القرائن على قصده، نحو قوله تعالى: (فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ)[3] فقد دلت قرينة تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم على صفة (كثيرون) للرسل.

---

[2] ينظر: المراغي، علوم البلاغة (المعاني، البيان، البديع): 112

[3] للاستزادة ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم:193/1، القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة:38/2، الطيبي، شرف الدين، لطائف التبيان في علم المعاني والبيان، 69، وأبو موسى، محمد محمد، خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، مكتبة وهبة، الطبعة: السابعة، 214، وعيسى العاكوب، المفصل في البلاغة العربية: 125

[4] سورة آل عمران: الآية 184

- التقليل: نحو قوله تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)[1] فكونه من الله مع كونه أعظم من سائر ما ذكر في الآية قرينة على أن المراد: رضوان قليل من الله يفرغه على أهل جنانه أثمن عندهم وأعظم من كل ما سواه من النعيم.

- التعظيم: مثل (ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ)[2] جاء لفظ (هدى) نكرة لتعظيم شأن الكتاب وتفخيمه.

- التحقير: نحو قوله تعالى: (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ)[3] فتنكير (متاع) لغرض تحقيره، أي متاع حقير زائل.

- قصد المتكلم من التنكير النوعية: كما في قوله تعالى: (خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)[4] أراد بتنكير (غشاوة) أنها غشاوة من نوع خاص تحجبهم عن رؤية آيات الله تعالى في الكون دون رؤية الأشياء الأخرى.

- التعميم: نحو قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)[5] دل تنكير عليم خبير على إحاطته تعالى بكل شيء علماً، وخبرته بكل ما يصلح للاختبار والتجربة.

- قصد المتكلم عدم تعيين المتحدث عنه لكونه زائداً على ما يريد بيانه، نحو تنكير (رجل) في قوله تعالى: (وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ)[6] أو لأي غرض آخر في

---

[2] سورة التوبة: الآية 72

[3] سورة البقرة: الآية 2

[4] سورة غافر: الآية 39

[5] سورة البقرة: الآية 7

[6] سورة لقمان: الآية 34

[1] سورة القصص: الآية 20

نفس المتكلم كالتعمية على المتكلم عنه خوفاً عليه أو رغبة في تشويق السامع أو غير ذلك.

أمثلة من سورة إبراهيم للمعاني البلاغية للنكرة

في سورة إبراهيم أمثلة كثيرة لكلمات وردت نكرة بغرض تأدية معان بلاغية مقصودة بطريق الإيحاء والإشارة نذكر منها ما يلي:

التعظيم والتفخيم والتهويل

- في قوله تعالى: (الر ۚ **كِتَابٌ** أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) المراد بـ (كتاب) القرآن الكريم المنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وللعلماء أوجه[1] في إعراب (كتاب) **أولها**: أنه خبر مرفوع للمبتدأ (الر) وتكون جملة (أنزلناه) صفة لكتاب، **والثاني**: أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هو كتاب)، وأما الوجه **الثالث** فيرفع (كتابٌ) على الابتداء ويجعل جملة (أنزلناه) خبراً له، ويعلل مجيء المبتدأ نكرة بكونه نكرة موصوفة تقديراً أي؛ (كتابٌ أيُّ كتاب) أو (كتابٌ عظيمٌ من بين الكتب السماوية)[2] لا تحتمل عقولكم الإخبار عن هذه العظمة بغير هذا الوصف، فيكون الغرض من تنكير (كتاب) تعظيم شأن القرآن الكريم والتنويه برفعته ومنزلته، وقد آثر البيان الإلهي طي ذكر الصفة لدلالة التنكير عليها.

---

[2] ينظر: ابن عادل الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب: 328/11، والدعاس، أحمد عبيد، حميدان، أحمد محمد، القاسم، إسماعيل، إعراب القرآن الكريم، دار المنير ودار الفارابي – دمشق، الطبعة: الأولى، 1425 هـ، 124/2، والخراط، أحمد بن محمد، المجتبى من مشكل إعراب القرآن، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، عام النشر: 1426هـ، 538/2

[3] ينظر: السمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: 65/7

- تنكير (ويلٌ) و(عذابٍ) في قوله تعالى: (وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)[1]، والويل هو الشدة والبلاء[2]، أي ما يلقونه يوم القيامة من العذاب الشديد، والمعنى: أنهم لما هجروا عبادة الله المالك لمقاليد السماوات والأرض، وتوجهوا لعبادة ما لا ينفع ولا يضر ويُخلَق ولا يَخلُق، فالويل كل الويل لمن هو كذلك، وإنما عبَّر بالويل لأنهم يومئذ يولولون من عذاب جهنم ويتصارخون: يا ويلاه نظير قوله تعالى: (دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُوراً)[3][4].

والويل عند البعض هو الهلاك نقيض (الوأل) بالهمزة ويعني النجاة[5]، وقيل: "هو اسم وادٍ في جهنم يسيل من صديد أهل النار"[6] وهو مستبعد في هذه الآية وإن أمكن في غيرها كقوله تعالى: (وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)[7]، لأنه لو كان هنا كذلك لجاء تأويل هذه الآية لقوله (مِن عَذابٍ) قلقاً غير متمكّن[8]، وإنما المستحسن في (ويل) هنا أن يكون مصدراً وأن يرفع بالابتداء على سبيل الدعاء نحو قولنا: (سلامٌ عليكم) وقوله: (للكافرين) خبر.

ويرى الباحث أن تنكير الويل هنا شبيه بما ورد في المثال السابق الغرض منه التهويل والتضخيم والتخويف، فالمصير الذي ينتظر الكافرين هو بلاء بالغ منتهى

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 2

[3] ينظر: السمرقندي، بحر العلوم: 234/2، وابن عطية، المحرر الوجيز: 321/3

[4] سورة الفرقان: الآية 13

[5] ينظر: الزمخشري، الكشاف: 537/2، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 59/19، والنيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 171/4، والشوكاني، فتح القدير: 112/3

[6] ينظر: الزمخشري، الكشاف: 537/2، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 192/3، والنسفي، مدارك التنزيل: 161/2، والآلوسي، روح المعاني: 174/7

[7] السيوطي، الدر المنثور في التفسير المأثور: 202/1

[8] سورة المطففين: الآية 1

[9] ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: 321/3

القسوة وأقصى الشدة، يعززه اختتام الآية بـ (عذاب شديد) الذي يشير تنكيره إلى نوع خاص من العذاب لم يعهدوه من قبل لفظاعته وشناعته.

ونظير ذلك تنكير العذاب ووصفه بالغلظة في قوله تعالى: (وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَائِهِ **عَذَابٌ غَلِيظٌ**)[1] إذ إن في التنكير تصويراً لهول العذاب وتضخيماً يعجز اللفظ عن تحقيقه معرّفاً.

ومجيء اللفظ نكرة لداعي التفخيم قد تكرر في مواضع أخرى من السورة نحو قوله تعالى: (وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)[2] على تقدير حذف صفة (عظيم) لشك، أي؛ إن نفوسنا مليئة بشك عظيم من الإيمان والتوحيد الذي جئتم به، وشكنا موصوف كذلك بالريبة التي تعني قلق النفس وانعدام الطمأنينة باليقين، فورود (شك) و(مريب) نكرتين أفاد التفخيم والتعظيم، أو التكثير على ما قاله ابن كثير[3]، لتضخيم القلق والحيرة التي وقع فيها الكفرة من دعوة الرسل.

وكذلك تبدو دلالة التنكير على التفخيم والتهويل واضحة في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم **بَلَاءٌ** مِّن رَّبِّكُمْ **عَظِيمٌ**)[4] والبلاء هو الاختبار والامتحان، وهو يطلق "في الخير والشر، والله يبلي العبد بلاء حسناً وبلاء سيئاً"[5]، قال النحاس إن العرب أكثر ما تستخدم (أبليته) في الخير، و(بليته) في الشر. وفي الاختبار يقولون: (ابتليته) و(بلوته)، فيما ذهب ابن كيسان إلى أن

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 17

[3] سورة إبراهيم: الآية 9

[4] ينظر: تفسير القرآن العظيم: 332/4

[5] سورة إبراهيم: الآية 6

[6] الفراهيدي، العين، مادة (بلو)

استعمال العرب لكلمتي (أبلاه)، و(بلاه) سواءٌ في الخير والشر[1]، وعليه إن أريد بالبلاء الشر كانت الإشارة إلى ما حل ببني إسرائيل من الذبح والمحنة، وإن أريد به الخير كانت الإشارة إلى النعمة العظيمة التي مَنَّ الله بها عليهم وهي الإنجاء، وحَمْلُ اللفظ على أيّ من الاحتمالين يستوجب التفخيم والتعظيم لهذا الأمر، وهو الداع لتنكير كلمتي (بلاء) و(عظيم)، فهل من محنة أعظم من ذبح الأبناء واستباحة أعراض النساء! وهل من نعمة أكبر من النجاة من هذه المحنة!

الدلالة على النوعية

في قوله تعالى: (قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ **يَوْمٌ** لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ)[2] إذ يظهر للباحث أن الغرض من تنكير (**يوم**) هو الدلالة على نوعية ذلك اليوم، فهو نوع خاص من الأيام مختلف عن الأيام التي عاشها الإنسان في الدنيا، يوم عظيم "ليس كشيء من الأيام التي تعرفونها"[3] يصاب فيه الناس بالفزع والذهول والخوف، لذا يأمر الله تبارك وتعالى رسوله بأن يعظ الناس بالاستعداد والتزود بالخير لهذا اليوم.

ويشير إلى خصوصية هذا اليوم كذلك إيراد لفظي (بيع، خلال) نكرتين في سياق النفي للتأكيد على انعدام كل أشكال المقايضة والافتداء، وانقطاع كل أنواع الصِّلاة والعلاقات بالآخرين لما تحمله من العموم، إذ ليس للإنسان المقصر أن يفتدي من العذاب بما ادخر من مال، ولا أن يستعين بمن له معه صحبة وخلة.

ومن دلالة التنكير على التنويع أيضاً ما ورد في قوله تعالى: (مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن **مَّاءٍ** صَدِيدٍ)[4]، فـ(**ماء**) هنا ليس من نوع الماء المعهود في الحياة الدنيا، بل

---

[2] السمين الحلبي، الدر المصون: 348/1، صديق حسن، فتح البيان: 165/1

[3] سورة إبراهيم: الآية 31

[4] البقاعي، نظم الدرر:419/10

[5] سورة إبراهيم: الآية 16

هو نوع كريه من الماء موصوف بالصديد ويعني: ما يسيل من جروح أجساد أهل النار المحترقة من دم وقيح، على القول بصفة (صديد) للماء إذا اعتبرنا الصديد مشتقاً من (الصد) أي المنع من الشرب، فهذا الماء قد اختلط بالصديد حتى تحمل صفاته وصار شبيهاً به. وقيل في إعراب صديد: إنه عطف بيان أو بدل من (ماء)، فيكون إطلاق الماء على الصديد ليس من الحقيقة وإنما أطلق عليه كونه بدله[1].

ونلمح لطيفة بلاغية أخرى في الآية من خلال إبهام (ماء) بتنكيره أولاً في قوله: (يُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ) حيث تتشوف نفس السامع إلى معرفة صفة الماء الذي يشربه أهل النار، ثم ببيان النكرة بقوله: (صَدِيْدٍ) ليلقي في النفس الخوف والنفور منه.

وكذلك تنكير (ماء) في قوله تعالى: (وأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاْءً) عبر به عن نوع خاص من الماء هو ماء المطر الذي يصلح للإنبات والزراعة والسقي لقوله بعدها: (فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ)

التصغير والتحقير

وأما غرض التحقير والتصغير المستفاد من التنكير فنجده في مواضع عدّة منها:

- كلمة (شيء) التي وردت نكرة في ثلاث آيات من السورة في قوله تعالى: (لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى **شَيْءٍ** ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ)[2] ذكرها بعد تشبيه أعمال الكافرين بالرماد المتناثر في يوم عاصف، بجامع عدم الانتفاع في كلٍّ، ثم أكد تعالى عدم ترتب أي ثواب على ما كسبوا في الدنيا من أعمالهم التي كانوا يظنونها من الخير، فظهر للباحث دلالة تنكير (**شيء**) على انتفاء الأجر عليها مهما كان قليلاً وحقيراً، لعموم النفي المستفاد من النكرة.

---

[2] ينظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن: 16/ 547، والزمخشري، الكشاف: 546/2، والألوسي، روح المعاني: 191/7

[3] سورة إبراهيم: الآية 18

و (شيء) الثانية جاءت في قوله تعالى: (وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ **شَيْءٍ**)[1] إذ يلمس الباحث في الآية توسل طائفة من أهل النار كانوا أتباعاً وضعفاء في الدنيا لدى طائفة أخرى كانوا زعماء في الإضلال يستجدون منهم تخفيف العذاب عنهم ولو قليلاً أو قسطاً منه. فيرى في تنكير (شيء) دلالة على رضاهم بتخفيف العذاب ولو شيئاً بسيطاً.

وتأتي (شيء) الأخيرة في قوله تعالى: (رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)[2] نكرة للدلالة على إحاطة علم الله تعالى بكل شيء مهما كان حقيراً وصغيراً (وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)[3] فهو المطلع على ظاهر النفوس وخباياها.

ومن أمثلة غرض التحقير أيضاً تنكير كلمة (بشر) في قوله تعالى على لسان الكافرين: (قالُوا إنْ أنْتُمْ إلّا بَشَرٌ مِثْلُنا تُرِيدُونَ أنْ تَصُدُّونا عَمّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا)[4] جواباً على دعوة الرسل لهم إلى الإيمان، إذ أرادوا بتنكير لفظ (رسل) – على ما يرى الباحث – الانتقاص من شأن الرسل وتحقيرهم ورفض ما اختصوا به من النبوة والرسالة منكرين تميز الرسل عنهم بشيء.

ومما ورد فيه اللفظ نكرة لغرض التقليل والتحقير كذلك ما جاء في قوله تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ)[5] إذ شبه تعالى أعمال الكافرين بـ (رماد) وأورد الرماد نكرة بغرض تحقيره وتقليله، فهو كرماد

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 21

[3] سورة إبراهيم: الآية 38

[4] سورة يونس: الآية 61

[5] سورة إبراهيم: الآية 10

[6] سورة إبراهيم: الآية 18

قليل لم يصمد أمام هبوب الريح القوية ففرقته ولم تبق منه شيئاً، ولما كان المشبه به (الرماد) حقيراً دل ذلك على اشتراك المشبه (أعمال الكافرين) في وجه الشبه، فبان أن الغرض من تنكير الرماد تحقير أعمال الكافرين.

وكذا تنكير (محيص) في قول أهل النار حين أطبق اليأس على نفوسهم (سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ)[1] فهم لا يجدون لأنفسهم أدنى فرصة للهرب، ولا بصيص أمل في النجاة (مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ) مهما بعد وصغر.

التكثير

وعلى العكس من التقليل والتحقير تأتي النكرة في السورة لغرض التكثير في قوله تعالى: (وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ **جَنَّاتٍ** تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ)[2] فقد جيء بلفظ (جنات) جمعاً ونكرة للدلالة على التكثير، فهي متعددة لتعدد رتب أعمال المؤمنين التي يطابق الجزاء ترتبها وتعددها[3]، كما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله للتي سألت عن ابنها: (إنَّها جِنانٌ وإنَّ ابْنَكِ أصابَ الفِرْدَوْسَ الأعْلى)[4]، قال أبو السعود العمادي: "وجَمْعُها مَعَ التَّنْكِيرِ لِأَنَّها سَبْعٌ؛ عَلى ما ذَكَرَهُ ابْنُ عَبّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما-: جَنَّةُ الفِرْدَوْسِ؛ وجَنَّةُ عَدْنٍ؛ وجَنَّةُ النَّعِيمِ؛ ودارُ الخُلْدِ؛ وجَنَّةُ المَأْوى؛ ودارُ السَّلامِ؛ وعِلِّيُّونَ؛ وفي كُلِّ واحِدَةٍ مِنها مَراتِبُ ودَرَجاتٌ مُتَفاوِتَةٌ؛ بِحَسَبِ تَفاوُتِ الأعْمالِ وأصْحابِها"[5] إضافة إلى دلالة النكرة هنا على التعظيم والتفخيم من أمرها لما حوته من النعيم الذي لا عين رأته ولا أذن سمعته ولا خطر على قلب بشر.

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 21

[3] سورة إبراهيم: الآية 23

[4] ينظر: البقاعي، نظم الدرر: 190/1

[5] الحديث رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب من أتاه سهم غرب فقتله، برقم: 2809

[6] إرشاد العقل السليم: 69/1

ويمكن حمل الغرض من إيراد (أنداداً) نكرة في قوله تعالى (وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ)[1] على التكثير والتحقير معاً، فالآية جاءت في سياق التوبيخ وتعنيف المشركين على إشراكهم الأوثان والأصنام مع الله تعالى في العبادة، وادعائهم أنها شفيعة لهم ومقربة إلى الله زلفى. والند في الأصل المساوي والكفء والمثل[2]، والمعنى أنهم جعلوا لله تعالى الفرد الصمد الذي ليس كمثله شيء أمثالاً كثيرة ومتنوعة حسب اعتقادهم وزعمهم الباطل، رغم أن هذه الأنداد من الضعف والحقارة بحيث لا تضر ولا تنفع؛ بل ولا تقوى حتى على دفع الضر عنها، فالله سبحانه "كما تهكَّم بهم بلفظ الندّ، شنع عليهم واستفظع شأنهم بأن جعلوا أنداداً كثيرة لمن لا يصح أن يكون له ندّ قط"[3]. وفي ذلك قال الشاعر:

أَرَبًّا واحِداً أمْ أَلْفُ رَبٍ أَدِينُ إذَا تَقَسَّمَتِ الأُمُورُ[4]

قصد عدم تعيين المتحدث عنه

ومن الدواعي التي جاء لأجلها اللفظ في السورة نكرة قصد المتكلم عدم تعيين المتحدث عنه على وجه التحديد رغبة في إخفائه عن المتلقي نحو (أجل مسمى) في قوله تعالى: (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ **أَجَلٍ مُّسَمًّى** ۚ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 30

[3] ينظر: الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، باب الدال والنون د ن، ن د يستعملان، أبو البقاء، أيوب بن موسى، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، مؤسسة الرسالة – بيروت: مادة (ند)

[4] الزمخشري، الكشاف:95/1

[5] البيت لعمرو بن نفيل قاله حين فارق دين قومه. ذكره ابن سعيد الأندلسي في "نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب"، مكتبة الأقصى، عمان – الأردن، 364، والذهبي في "تاريخ الإسلام"، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الثانية، 1413 هـ - 1993م، 91/1، وابن الأثير في "البداية والنهاية" دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى 1408هـ - 1988م، 301/2

عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ)[1] ذكر الرازي وجهين لمعنى قوله: (وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى):[2] الأول- إن أنتم آمنتم أخر الله موتكم إلى أجل مسمى وإلا عاجلكم بعذاب الاستئصال.

الثاني- ونسبه لابن عباس أن المراد: يمتعكم في الحياة الدنيا بالملذات والطيبات إلى حين موتكم.

والذي يفهم منه أن الله تعالى قد سمى وبيَّن لكل إنسان في صحيفته وقتاً ينتهي عنده عمره، فجاء بـ(أجل) نكرة في إشارة إلى انتفاء علم البشر بآجالهم فهو أجل مبين ومعلوم في علم الغيب الذي اختص به الله تعالى فقط؛ وليس للإنسان أن يطلع عليه زماناً ولا مكانا لقوله تعالى: (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)[3]

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 10

[3] ينظر: مفاتيح الغيب: 73/19، والشربيني، السراج المنير: 172/2، وتفسير المراغي: 134/13

[1] سورة لقمان: الآية 34

المبحث الثاني: هيئة الإفراد والجمع

تناولنا فيما سبق الأغراض البلاغية لإيراد البيان الإلهي المفردة القرآنية في هيئة التعريف أو هيئة التنكير، وظهر لنا أن لكل هيئة منها دواعيها ومظانها من النظم الحكيم، وأن المفردة تسهم بهيئتها في أداء قسط كبير من المعنى المراد نظير ما توحي به بحروفها وجرسها وموقعها. وهنا سنتابع البحث في الأسرار البلاغية التي تحققها الفردة في هيئتي الإفراد والجمع، حيث ستظهر بلاغة الكلمة القرآنية كذلك من خلال التوظيف السليم والدقيق لهيئتي الإفراد والجمع بما يتماشى مع مقام الكلام وسياقات الجملة ودلالة المعنى المراد، ولا تخفى على المتأمل في أسلوب القرآن والمتتبع لمنهجه في استخدام اللفظ في هيئة الجمع أو المفرد لا تخفى عليه الحذاقة - وإن شئت قل الاحترافية - في تخَيُّر الهيئة المناسبة للمفردة لتكون في أبهى صورتها وأحلى زينتها منسبكة في موضِعها من الجملة ومؤدية المعنى المطلوب على أحسن وجه وأتمِّ بيان.

وبرهان ما نقول أنك تجد البيان الإلهي يورد الكلمة في هيئة الإفراد في سياق، ثم لا يلبث أن يوظفها في سياقات أخرى بصيغة الجمع، ولكل دواعيه وأسراره البيانية التي تزيد المتأمل إيماناً بإعجازه وتصديقاً بمصدره.

أولاً - كلمات لم ترد إلا جمعاً وأخرى لم ترد إلا مفردة

إن أكثر ما يلفت النظر ويثير الدهشة والتساؤل في منهج القرآن الكريم في تعامله من صيغتي المفرد والجمع أنه يستعمل بعض المفردات في هيئتها الجمعية دوماً ويتحاشى مفردها، فلا تجدها إلا مجموعة مهما تكررت وتردد ذكرها في النص القرآني، وللإجابة عن ذلك نعود فنذكّر بما شرحناه مفصلاً في مبحث اصطفاء الكلمة القرآنية من أن القرآن الكريم قد نخل كلام العرب وغربله فاختار كرائمه من لب

ونوى وترك قشره وحثالته، فمفرداته هي الصفوة، ولذا نجده يترفع عما لا يليق ببيانه من كلمات مجموعة كانت أو مفردة، وإذا احتاج السياق إلى مفرد لفظ سبق أن ورد مجموعاً وكان في مفرده مثلبة من ثقل أو غيره من العيوب -التي سبق أن فصلنا الكلام فيها – استغنى عنه وعدل إلى أحد مرادفاته، ولنقف على أمثلة من ذلك للتوضيح:

كلمة (لب) لم ترد في القرآن الكريم إلا بصيغة الجمع، وذلك في (16) موضعاً، منها قوله تعالى في سورة إبراهيم: (هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُواْ الْأَلْبَابِ)[1]، وحينما استدعى السياق إفرادها عدل النص القرآني عن كلمة (لب) إلى مرادفه في الدلالة- فجاء بكلمة (قلب)، والداعي لذلك هو طبيعة التركيب الصوتي لكلمة (لب) فالباء حرف شديد مجتمع، ولا يفضي إلى هذه الشدة إلا مع اللام الشديدة المسترخية، فلمَّا اجتمعا دونما فصل بينهما بحرف آخر يهيئ الانتقال بسلاسة بين الشدة والرخاوة اتصفت الكلمة بالثقل الذي ينبو عنه السمع ولا يستحسنه الأمر الذي جعل القرآن الكريم يسقطها من نظمه[2].

وعلى العكس من ذلك نرى البيان الإلهي يوظف كلمات في هيئة الإفراد دون أن يعرج إلى جمعها، مثال ذلك كلمة (الأرض) التي لم ترد في القرآن الكريم إلا مفردة دائماً وذلك في كل المواضع التي ذكرت فيها، والبالغ عددها (461) موضعاً، منها عشرة في سورة إبراهيم[3] نحو قوله تعالى: (اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 52

[3] ينظر: الرافعي، مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، 153/2

[4] الآيات التي ورد فيها لفظ الأرض في سورة إبراهيم: (2، 8، 10، 14، 20، 26، 32، 38، 48)

الْأَرْضِ)[1] وقوله: (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)[2]، وقوله: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ)[3]

وحتى في المواضع التي كثيراً ما يقترن فيها بصيغة الجمع من لفظ السماء فإن لفظ الأرض يبقى على إفراده، وعندما استوجب السياق جمع الأرض فضل القرآن الكريم التعبير عنه بعبارة من ثلاث كلمات على الإتيان بها مجموعة فقال تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ)[4] فاستبدل بـ (أرضين) عبارة (وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) التي جاءت أخف رغم طولها، والسر في تفاديه ذكر صيغة الجمع من الأرض أننا إذا أردنا جمعها فإما أن يكون على السلامة (أرضون) أو على التكسير كأراضين وأراض، أو أروض كفلوس[5]، وكلها مستثقلة بعيدة عن العذوبة خالية من الحسن لا ترتقي إلى مستوى فصاحة المفردة القرآنية[6].

ثانياً - دلالة لفظ (السماء) مفرداً وجمعاً

وفي مقابل كلمة (الأرض) نجد كلمة (السماء) الرقيقة الناصعة ترد مجموعة ومفردة وذلك لا يزيدها إلى حسنها إلا حسناً وجمالاً ورقة، فنجد القرآن الكريم يستعمل السماء مفردة في سياق ومجموعة في آخر، والسياق هو الذي يعين ذلك، فإذا قارنا مجيء لفظ (السماء) في الآيتين المتشابهتين الآتيتين:

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 2

[3] سورة إبراهيم: الآية 10

[4] سورة إبراهيم: الآية 19

[5] سورة الطلاق: الآية 12

[6] ينظر: ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب، بدائع الفوائد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 114/1

[7] ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين: 41/1، ابن الأثير، المثل السائر: 299/1

قوله تعالى:(وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء)[1]، وقوله: (عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ)[2] فقد جاء بالسماء مفردة في الآية الأولى، ومجموعة في الثانية، فما سر ذلك؟

إن السر يكمن في إرادة الإطلاق في الآية الأولى للدلالة على الوصف الشامل والفوق المطلق دون تحدد سماء بعينها مخصوصة لشمول علم الله تعالى كل شيء على وجه الإحاطة، يقول السهيلي: " قد يرد لفظ السماء عبارة عن كل ما علا من السماوات فما فوقها إلى العرش وغير ذلك من المعاني العلوية المختصة بالربوبية، فتكون اللفظة بصيغة الإفراد كالوصف المعبر به عن الموصوف"[3]

أما في الآية الثانية فأن التناسب الدلالي مع ما سبقها هو الذي استدعى جمع السماوات، لأن الآية قد جاءت عقب الكلام على سعة ملك الله تعالى وعلمه، فالكون كله ملكه والأرض قبضته فناب عن هذا المعنى جمع السماوات لإرادة الشمول لهذا الملك "ولو أُفرِد لظُنَّ أن الحكم منه سبحانه وتعالى على هذه المفردة فقط -حاشاه تعالى -"[4] فيكون الانسجام مع السياق هو المسوغ لجمع المفردة هنا.

وإذا تتبعنا استخدام القرآن الكريم للفظ السماء في صيغة المفرد نلحظ أن وراء ذلك أغراضاً بلاغية متنوعة يتطلبها سياق الكلام نذكر منها[5]:

---

[2] سورة يونس: الآية 61

[3] سورة سبأ: الآية 3

[4] السهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد، نتائج الفكر في النَّحو، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى: 1412 – 1992م، 124

[5] ينظر: د. أسامة عبد العزيز جاب الله، بحث (الكلمة القرآنية بين الإفراد والجمع)

[6] ينظر: ابن القيم، بدائع الفوائد: 115/1

- إرادة إثبات صفة العلو لله سبحانه لدلالة جهة السماء مفردة على الرفعة والعلو في قوله تعالى: (أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ)[1]

- الدلالة على عموم الجنس في قوله تعالى: (فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ)[2]

- الدلالة على عموم الرزق وسعته في قوله تعالى: (وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ)[3]

وقد ورد لفظ السماء في سورة إبراهيم مفرداً ثلاث مرات، وخمس مرات بصيغة الجمع، والسر البلاغي في هذا التنوع أنه حيث كان الحديث عن العدد أتي بصيغة الجمع للدلالة على سعة العظمة كقوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ **السَّمَوَاتِ** وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ)[4] فسياق الآية إبراز عظمة الله الخالق للسماوات كلها على تعددها، للفت انتباه المخاطبين إلى دلائل قدرة الله تعالى من خلال الصفحات الكونية المشاهدة وأبرزها السماوات وما تعج به من نجوم وكواكب وأجرام، لذا كان المناسب للسياق جمع السماوات لإيقاظ الحس والوجدان وإثارة الفكر والتأمل لدى المتلقي.

وفي قوله تعالى: (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ **وَالسَّمَوَاتُ** وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)[5] نحن أمام حدث كوني رهيب، والخبر عنه يحتاج إلى تفصيل وبيان، ولا

---

[2] سورة الملك: الآية 16

[3] سورة الذاريات: الآية 23

[4] سورة الذاريات: الآية 22

[5] سورة إبراهيم: الآية 19

[6] سورة إبراهيم: الآية 48

تنفع معه الإشارة والتلميح، فيورد النص القرآني السماوات بصيغة الجمع للدلالة على أن التبديل والتغيير سيطالان السماوات كلها دون استثناء.

وكذلك جاء لفظ السماوات جمعاً حين أراد البيان الإلهي التعبير عن ملكيتها كلها لله تعالى، وأن لا مهرب للكافرين ولا ملجأ يوم القيامة: (اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي **السَّمَوَاتِ** وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)[1]

وإذا بحثنا عن الغرض من **إفراد لفظ السماء** في مواضعها من سورة إبراهيم اتضح أنه إرادة الجهة أي جهة السماء ففي قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي **السَّمَاءِ**)[2] شبه البيان الإلهي الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة ذات العروق المتجذّرة والفروع المتصاعدة في السماء بعيداً عن عفونات الأرض، فنلمس من إفراد السماء الدلالة على جهة العلو، قال الشوكاني: "(وفَرْعُها في **السَّماءِ**) أيْ أعْلاها ذاهِبٌ إلى جِهَةِ السَّماءِ مُرْتَفِعٌ في الهَواءِ."[3] وقد يراد بجهة السماء الإشارة إلى السحاب كما في قوله: (وَأَنزَلَ مِنَ **السَّمَاءِ** مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ) يقول الألوسي: "وسُمِّيَ السَّحابُ سَماءً لِعُلُوِّهِ وُكُلُّ ما عَلاكَ سَماءٌ"[4] هذا على قول، أو أن المراد من السماء جهتها لأنها الجهة التي ينزل منها الغيث.

وقيل في التوجيه البلاغي لمجيء السماوات جمعاً وإفراد الأرض عند اقترانهما ببعض في الذكر: إن كل سماء من السماوات السبع خاصة بعالم مختلف من الملائكة يغاير الآخر ويخالفه فلهذا جمعت، أما الأرض وإن كانت سبعاً كما ورد في القرآن فإن الانتفاع منها بما يلينا دون سائرها، فلهذا جرت مجرى الأرض الواحدة

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 2

[3] سورة إبراهيم: الآية 24

[4] فتح القدير: 127/3

[5] روح المعاني: 210/7

وأفردت[1]. ولا يخفى ضعف هذا التوجيه لأن تصريح القرآن الكريم بوجود أرضين سبع يوحي بوجود مخلوقات تعيش فيها نظير ما في السموات من الملائكة، أو لا يمكن على الأقل نفي احتمال وجود الحياة فيها، وعليه فإن الأرض تساوي السماء من هذه الناحية، ويمتنع ترجيح أحدهما بصيغة الجمع دون الأخرى، ثم إن انتفاع الإنسان بالسماء وأجرامها ليس أكثر من انتفاعه بالأرض لما بينهما من التكامل، فلولا الأرض التي تشكل مهاداً ومستقراً للإنسان لما انتفع بالسماء، ولولا السماء التي تظل الأرض وشمسها وسحبها وغلافها الجوي لما انتفع الإنسان بشيء من الأرض، والقرآن الكريم يذكِّر دائماً بهاتين النعمتين المسخرتين للإنسان ويقرن بينهما في الذكر ليشير إلى تكاملهما. ولنتأمل مصداق ذلك في هاتين الآتين من سورة إبراهيم: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)[2] فانتفاعنا بالأرض والسماء سواء، وما يلينا من الأرض يساوي ما يلينا من السماء.

والذي أميل إليه وأرجحه أن طلب التخفيف وتجنب الثقل الذي تكلمنا عنه في نطق الأرض مجموعة هو الذي حدا بالبيان الإلهي إلى استبعاده والاقتصار على مفرده جرياً على عادة العرب في التعبير عن الجمع بالمفرد وعن المفرد بالجمع، فقد ذكر الطبري "أن العرب تذكر الواحد بمعنى الجمع"[3] فتقول: هلك البعير والشاة، وتقصد جماعة الإبل والشاء، وتقول: فلان كثير الدرهم والدينار، وتريد: الدراهم والدنانير، وعند تفسير قوله تعالى: (وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا)[4] روى ابن المنذر عن أبي عبيدة قوله:

---

[2] ينظر: العلوي، الطراز لأسرار البلاغة: 25/3

[3] سورة إبراهيم: الآيتان 32، 33

[4] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن: 263/4

[5] سورة النساء: الآية 69

"والعرب تلفظ بلفظ الواحد والمعنى يقع على الجميع"[1] وقد استشهد السبكي لذلك بقول الشاعر[2]:

إنّ الّذي حانت بفلج دماؤهم هم القوم كلّ القوم يا أمّ خالد[3]

فقد عبر باسم الموصول الموضوع للمفرد عن الجمع بدليل قوله بعده: هم القوم كل القوم. ووصف الطبري هذا الأسلوب من الكلام بالمستفيض في كلام العرب وأشعارها وأن شواهده أكثر من أن تحصى[4].

والقرآن الكريم ما كان خارجاً عن سنن كلام العرب وأساليبها فهو المنزل (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ)[5] ولدينا في سورة إبراهيم نماذج لهذا الأسلوب منها:

- قوله تعالى: (قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً)[6] جاء لفظ الصلاة مفرداً ومعلوم أن المقصود به الجمع لأن " الصلاة المقصودة في الآية هي العبادة المخصوصة المشتملة على قيام وقراءة وركوع وسجود وتسليم"[7] وهي خمس صلوات في اليوم والليلة. وفي المراد بإقامتها ثلاثة أقوال[8]:

الأول: الإتيان بها على أكمل وجه، روي عن ابن عباس، ومجاهد.

---

[2] ابن المنذر، محمد بن إبراهيم، كتاب تفسير القرآن، دار المآثر، المدينة المنورة، الطبعة الأولى 1423هـ، 2002م، 783/2

[3] ينظر: عروس الأفراح: 295/1

[4] البيت للأشهب بن رميلة، ينظر: ابن جني، أبو الفتح عثمان الموصلي، سر صناعة الإعراب، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، الطبعة: الأولي 1421هـ- 2000م، 392، والجاحظ، البيان والتبيين: 280/3، والمبرد، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر، المقتضب، عالم الكتب – بيروت، 146/4

[5] ينظر: جامع البيان: 199/4

[6] سورة الشعراء: الآية 195

[7] سورة إبراهيم: الآية 31

[8] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 232/1

[9] ينظر: ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير: 28/1

الثاني: أداؤها في مواعيدها مع تمام وضوئها وركوعها وسجودها، قاله قتادة، ومقاتل.

والثالث: إدامتها والمواظبة عليها، والعرب تقول في الشيء الراتب: قائم، وفلان يقيم أرزاق الجند، قاله ابن كيسان.

ثالثاً - دلالة لفظ (السبيل) مفرداً وجمعاً

وقريب مما ذكرنا منهج القرآن الكريم في جمع لفظ (**سبيل**) وإفراده للدلالة على طرق الباطل وطريق الحق، وتأمل قوله تعالى: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)[1] جمع السبل لكثرة طرق الضلالة والكفر، وفي قوله تعالى:(قُلْ هَذِهِ **سَبِيلِي** أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)[2] أمر للنبي صلى الله عليه وسلم أن يفرد السبيل ويضيفه لنفسه في دلالة على الدين الحق، وفي سورة إبراهيم جاء لفظ السبيل مفرداً مرتين في قوله تعالى: (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآَخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ **سَبِيلِ اللَّهِ** وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)[3] وردت في شأن مشركي قريش، الذين يؤثرون ملذات الدنيا الفانية على نعيم الآخرة ويصرفون الناس عن ملة الإسلام أي دين الله[4]، قال ابن عطية: "و(**سَبِيلِ اللهِ**) طَرِيق هُداهُ وشَرْعُهُ الَّذِي جاءَ بِهِ رَسُولُهُ"[5]وهو المقصود بسبيل الله، ونظيره ما ورد في قوله تعالى: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ)[6]

---

[2] سورة الأنعام: الآية 153

[3] سورة يوسف: الآية 108

[4] سورة إبراهيم: الآية 3

[5] ينظر: السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم، بحر العلوم، دار الكتب العلمية، لبنان – بيروت، 234/2

[6] المحرر الوجيز: 322/3

[7] سورة إبراهيم: الآية 30

وربما ورد السبيل مضافاً إلى الله تعالى بصيغة الجمع نحو قوله تعالى: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)[1] وعندها يراد بها وجوه الخير وأنواع العبادات من صلاة وصوم وجهاد وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر وغيرها[2]، وإن أضيفت إلى الرسل كما في قوله تعالى: (وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)[3] كان المراد "أرشد كلا منا إلى سبيله ومنهاجه الذي شرع له، وأوجب عليه سلوكه في الدين"[4] وجمعها باعتبار إضافتها لكل الرسل باختصاص كل رسول بشريعة ومنهاج لقوله تعالى: (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً)[5].

رابعاً – دلالة لفظ (النعمة) مفرداً

يلحظ المتأمل في كتاب الله إفراد كلمة (**النعمة**) في سياق يقتضي جمعها في قوله: (وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا **نِعْمَتَ** اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)[6] والنعمة هنا إما اسم أقيم مقام المصدر على ما مر ذكره، أو اسم جنس بمعنى المنعم به، والمقصود بها الجمع كأنه قيل: إن تعدّوا نعم الله لا تحصوها. فما السر في عدول البيان الإلهي عن الجمع إلى المفرد؟

لعل اللطيفة البلاغية في ذلك أن النعمة الواحدة من نعم الله تتشعب إلى نعم كثيرة ومتنوعة، وتأخذ حكم الجمع، فإذا نظرت إلى أي نعمة قد يخيل إليك أنها واحدة،

---

[2] سورة العنكبوت: الآية 69

[3] ينظر: العثيمين، لقاء الباب المفتوح: 131/13

[4] سورة إبراهيم: الآية 12

[5] القاسمي، محاسن التأويل 306/6

[6] سورة المائدة: الآية 48

[7] سورة إبراهيم: الآية 34

ولكنك لو ذهبت تستقصي تفاصيلها وتقلب النظر فيها لوجدتها تتفرع وتتعدد[1] فلو تفكر الإنسان في حاسة البصر وحدها لوجد أن عناصر كثيرة قد تضافرت في أدائها، وإنَّ تخلُّفَ عنصر واحد يجعلها عديمة الجدوى، فهناك العين بسوادها وبياضها والحدقة والرموش والحاجبان إضافة إلى الأعصاب والضوء وغيرها..

وقل ذلك بالنسبة لسائر الحواس وغيرها من النعم مثل الماء والأرض والهواء..، فلو رام الإنسان عدّ نعمة واحدة فقط بما يتعلق بها وما يتشعب عنها لعجز عن الإحاطة بها وإحصائها " فهي أكبر وأكثر من أن يحصيها فريق من البشر، أو كل البشر. وكلهم محدودون بين حدين من الزمان: بدء ونهاية، وبين حدود من العلم تابعة لحدود الزمان والمكان. ونعم الله مطلقة- فوق كثرتها- فلا يحيط بها إدراك إنسان"[2]

ومما يعزز هذا الداعي البلاغي تمييز القرآن الكريم بين العد والإحصاء، فالعد يختص بما هو متعدد قابل للعد من ناحية وحدة الجنس والنوع والكل، كما في عد الإنسان فيقال: محمد، علي، حسن، خالد..، أما الإحصاء فيختص بجزئيات الأفراد فإذا أحصينا زيداً فإن الإحصاء سيتناول منه الرأس والجسد واليدين والرجلين.. أجزاء لا تتفق في الحقيقة والذات[3]، والبيان الإلهي استخدم (إنْ) مع العد للإشارة إلى أنّ إمكانية العد مشكوك فيها وإن كانت ممكنة، بمعنى أنها مستبعدة، جرياً على عادة القرآن الكريم في استخدام (إذا) في المتيقن من الأمور[4] و(إن) في المشكوك فيه[5]، ثم أورد فعل (الإحصاء) منفياً للدلالة على استحالة الإحاطة بجزئيات تلك النعم

---

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي – الخواطر: 7558/12

[3] سيد قطب، في ظلال القرآن: 2108/4

[4] ينظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي- الخواطر: 7557/12

[5] نحو قوله تعالى: (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) في إشارة إلى القطع بمجيء الفتح واليقين بالنصر ثقة بالله.

[6] ينظر: عضيمة، محمد عبد الخالق، دراسات لأسلوب القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة،169/1

وتفاصيلها، فالإنسان إن استطاع عدَّ النعم الكبيرة فإنه عاجز عن إحصاء ما ينضوي تحتها من نعم كثيرة غير قابلة للحصر.

ويتوضح لدينا الأمر أكثر إذا تتبعنا ورود فعل (أحصى) في مواضع أخرى من نصوص الشارع كما في قوله تعالى: (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)[1] والذي يعني أن الله تعالى يعلم كل تفاصيل ذنب الإنسان وليس المعنى الكلي فقط، ففي السرقة مثلاً يعرف الدافع والتفكير، ودقات القلب أثناء السرقة وحركات العين وعدد الخطوات والنية وما تخفي الصدور كل ذلك مسجل فتأمل!

وفي حديث فضل أسماء الله الحسنى ليس المطلوب في قوله: (من أحصاها دخل الجنة)[2] عد الأسماء أو حفظها، وإنما الإحاطة بمعنى الاسم وخواصه وورود في القرآن وأثره العقدي، لا أن يعددها مرتلاً: هو الله الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن....

خامساً - التعبير بالجمع عن المفرد

وتتجلى بلاغة القرآن الكريم في استخدام المفرد والجمع كذلك في التعبير عن المفرد بالجمع، وهو أسلوب كثير الورود في القرآن الكريم على ما ذكره السمعاني[3]، من أمثلته: ذكر الملائكة وإرادة واحد منها وهو جبريل في قوله تعالى: (إِذْ قَالَتِ

---

[2] سورة المجادلة: الآية 6

[3] ما ورد جزء من حديث صحيح متفق عليه رواه البخاري في كتاب الشروط، باب ما يجوز من الاشتراط والثنيا في الإقرار..، برقم: 2736، وتمامه: " إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ". وهو عند مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب في أسماء الله تعالى وفضل إحصائها، برقم: 2677

[4] ينظر: السمعاني، منصور بن محمد بن عبد الجبار، تفسير القرآن، دار الوطن، الرياض – السعودية، الطبعة: الأولى، 1418هـ- 1997م، 489/3

الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ)[1] فجبريل عليه السلام هو الذي حمل كلمة الله إلى السيدة مريم العذراء ونفخ فيها بإذن الله تعالى فأنجبت سيدنا عيسى عليه السلام[2]، ومن أمثلته في سورة إبراهيم قوله تعالى: (وقالَ **الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ** لِنُخْرِجَنَّكم مِن أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ في مِلَّتِنا فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهم لَنُهْلِكَنَّ الظّالِمِينَ)[3] المقصود بـ (**الذين كفروا**) مشركو قريش، وهم غير الكافرين الذين تقدم الكلام عنهم في الآيات السابقة عليها، وقوله: (**لرسلهم**) المراد به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، جاء به بصيغة الجمع، يدل على ذلك تغيير أسلوب الحكاية من الإضمار إلى الإظهار، فبعد أن عبر عنهم بالضمير في قوله: (وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ..) وقوله: (قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا..) أظهرهم هنا فقال: (وقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا) فهذا الإظهار والتصريح يشير إلى اختلاف هؤلاء الكافرين عمن سبقهم. ويشهد لذلك أيضاً قوله تعالى متوعداً إياهم: (وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ)[4] ولا يعرف غير النبي محمد صلى الله عليه وسلم أحد من الأنبياء مكَّنَه الله من أرض مكذبيه وديارهم كما حصل في فتح مكة[5].

وأما الداعي البلاغي لهذا الأسلوب هنا فهو مراعاة تشبيه الواحد بالجمع – على قول ابن عاشور – تعظيماً له وتفخيماً كما في قوله تعالى: (قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ)[6] على سبيل الاستعارة[7] ولكن الباحث يلحظ غرضاً بلاغياً آخر مفاده: لما كان الأنبياء والرسل إخوة، ودعوتهم واحدة، ودينهم واحداً، وكان محمد صلى الله عليه وسلم

---

[2] سورة آل عمران: الآية 45

[3] ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 478/2

[4] سورة إبراهيم: الآية 13

[5] سورة إبراهيم: الآية 14

[6] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 205/13

[7] سورة المؤمنون: الآية 99

[8] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 205/13

خاتمهم وسيدهم، كان تكذيب قومه له بمثابة التكذيب بكل الرسل، لأن مقولتهم التي وجهوها لنبيهم تشبه مقالة من سبقهم من الأقوام البائدة وتنال في الحقيقة من كل الرسل، فلذلك جاء التعبير بالجمع والله أعلم.

ومثله خطاب الله تعالى لنبيه: (فَلا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ)[1] فقوله: (رسله) جمع أُريد به النبي محمد صلى الله عليه وسلم على وجه القطع واليقين، فهو جمع مستعمل في الواحد مجازاً، لغرض تثبيت النبي وتسليته بأن الله سينجز له ما وعد من النصر على المشركين والتمكين له في الأرض وحمله كذلك على الاستئناس بوفاء الله وعده للرسل قبله، ولا يجوز أن يراد بهذا الجمع حقيقته لأن وعد الله لسائر الرسل قد مضى وتحقق[2].

سادساً - جمع (الظلمات) وإفراد (النور)

ومن الأمثلة أيضاً على بلاغة الجمع والإفراد في سورة إبراهيم ما نلحظه في أسلوب البيان الإلهي من جمع للظلمات وإفراد للنور الذي تكرر مرتين في السورة في قوله تعالى: (الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)[3] وقوله: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)[4] وهذا الأمر يطرد في القرآن كله فلا تجد الظلمات إلا مجموعة ولا تجد النور كذلك إلى بصيغة المفرد.

والسر البلاغي في ذلك كما يظهر أن الظلمات حيثما جاءت في القرآن الكريم استُعيرَت للكفر والضلال؛ فجمعت للإشارة إلى كثرة طرق الباطل وتشعبها، لأن سبل

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 47

[3] ينظر: المرجع السابق: 251/13

[4] سورة إبراهيم: الآية 1

[5] سورة إبراهيم: الآية 5

الغواية وطرق الضلال ومتاهات الشرك لا حصر لها، وهي متجددة مع تعاقب الليل والنهار، أما طريق الحق والإيمان فهو واحد لا ثاني له، وهو ما استعير له لفظ (النور).

سابعاً - جمع (الجنات) وإفراد (النار)

وإذا تأملنا بلاغة القرآن الكريم في جمع لفظ (الجنة): (وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ)[1] وإفراد لفظ (النار) و(جنهم) في قوله: (قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ)[2]، و(مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ)[3] نتبين من خلالها معاني بلاغية بديعة، فالجنة اسم لدار الثواب وهي مشتملة على أصناف النعيم ومراتب حسب استحقاق المؤمن، فحسن جمعها، وأما النار فهي مادة واحدة يحسن إفرادها باعتبار الجنس كالأرض[4].

ومن دواعي الجمع والإفراد أيضاً أن الله تعالى وعد المؤمنين بالجنات، والمؤمنون جماعة فجاء بالموعود به بصيغة الجمع أيضاً ليقابل الجمع بالجمع فيقتضي القسمة لآحاد، فيوحي باختصاص كل مؤمن بجنة.

ولما كانت الجنة رحمة والنار تعذيباً جيء بالجنات جمعاً لتناسب الرحمة، وبالنار وجهنم مفردة لتناسب الشقاء والعذاب. إضافة إلى أن الجنة دار مكافأة ومثوبة فبنيت على السعة والرحب[5] كالقصور الفارهة المخصصة في الدنيا لأصحاب الشأن،

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 23

[3] سورة إبراهيم: الآية 30

[4] سورة إبراهيم: الآية 16

[5] ينظر: السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن: 481/3

[6] قال تعالى في وصف سعة الجنة: (وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) وللعلماء اتجاهان في تفسير (عرضها السموات والأرض) الأول للجمهور: أن المراد هنا العرض الحقيقي، وفي ضمنه تنبيه على الطول، والقول الثاني أن المراد بيان سعة الجنة، دون خصوص ذكر الطول

بخلاف جهنم دار الحبس والعقاب حيث يكدس فيها المجرمون والعصاة ويكومون فوق بعض، شبيه ما يكون من حشر العدد الكبير من المساجين في زنزانة واحدة ضيقة في سجون الدنيا، ولا شك أن التعبير عن هذا الحال بالمفرد أولى وأبلغ.

ثامناً – دلالة إفراد لفظ (الطرف)

ومن شواهد بلاغة النظم الحكيم في توظيف هيئة الجمع والإفراد ما نجده في قوله تعالى: (مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ)[1] فالطرف في الأصل تحريك الجفن والمقصود به هنا إما العين التي هي آلة الطرف فيكون إسناد الرجوع إلى الطرف مجازياً[2]، أو هو الجفن نفسه، أي لا يملكون تحريك أجفانهم كما كانوا يملكون ذلك في الدنيا كل لحظة[3]، أو كما قال الفيروزآبادي: " الطرف: العين لا يجمع، لأنه مصدر في الأصل، أو اسم جامع للعين، أو لا يرجع نظرهم إلى أنفسهم فضلا عن أن يرجع إلى شيء آخر فيبقون مبهوتين"[4] والبيان الإلهي رجح المفرد على أن يأتي بالجمع نحو (أبصارهم) أو (أعينهم)، فعبّر عن حال الكافرين وذهولهم أولا بقوله (إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ) ليبين هيئة أبصارهم التي تبقى مفتوحة بسبب الفزع الذي يصيبهم، ثم أعقب ذلك ببيان استمرارهم على هذه الحال ودوام هذا الشخوص فقال: (لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ)

والعرض، وإنما جرى التعبير على عادة العرب في مثل ذلك. قال ابن عاشور: "وَذِكْرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَارٍ عَلَى طَرِيقَةِ الْعَرَبِ فِي تَمْثِيلِ شِدَّةِ الِاتِّسَاعِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ حَقِيقَةَ عَرْضِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَقِيلَ: عَرْضُهَا حَقِيقَة، وَهِيَ مَخْلُوقَةٌ الْآنَ لَكِنَّهَا أَكْبَرُ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَهِيَ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ تَحْتَ الْعَرْشِ " (التحرير والتنوير: 89/4)

[2] سورة إبراهيم: الآية 43

[3] ينظر: الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 275/5

[4] ينظر: الألوسي، روح المعاني: 232/7، أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 55/5، والخلوتي، روح البيان: 431/4، والزحيلي، التفسير المنير: 273/13

[5] الفيروزآبادي، القاموس المحيط: مادة (طرف)

للإشارة إلى الاستمرارية، فلما كان التعبير بالشخوص لا يفيد الدوام جاء بالتعبير الثاني الذي يفيد دوامه، ومنه استمرار تلك الحيرة والدهشة والفزع في قلوبهم[1] .

ويظهر لي أن الغرض البلاغي من التعبير بصيغة المفرد جعلُ أبصار الكافرين كلها بمنزلة عين واحدة لاشتراكها كلها بنفس الصفة والهيئة، واشتراك أهل العذاب كذلك بالشعور نفسه، فالموقف واحد والمشاهَد واحد والمصير مشترك، وما تنقله الأبصار إلى الأذهان حينئذ واحد، وتفسير أذهانهم لها أيضاً واحد، فجاء التعبير بالطرف مفرداً ليوحي بأنهم حين اشتركوا في الجرم اشتركوا في العقاب.

---

[1] ينظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 108/19

المبحث الثالث: الخروج على مقتضى الظاهر

من المعلوم أن البلاغة هي مجيء الكلام مطابقاً لمقتضى الحال، فكلما كان الكلام أقرب لما يقتضيه مقام الحديث ومناسبته كان أبلغ وأقوى في إفادة المعنى، إذ هدف المتكلم من التزام قواعد البلاغة الإفصاح عما يجول في خاطره وإيصاله لمخاطبه تاماً وفق ما يريد ويتصور.

وهذا هو الأصل ولكن المتكلم قد يغير من أسلوبه ويخالف الأصل فيخرج على ما يقتضيه الحال لأغراض بلاغية ولطائف دقيقة وأسرار بديعة تجعل الخروج على مقتضى الحال أبلغ في إفادة المعنى من السير وفق مقتضاه، وسياق الكلام هو الذي يكشف لنا عن دواعي الخروج وأسبابه.

ورغم أهمية هذا الأسلوب فإنه لم يحظ عند البلاغيين من الاهتمام ما لقيه عند المشتغلين بعلوم القرآن، حتى قال الزركشي: "والعجب أن البيانيين لم يذكروه في أقسام الإطناب"[1]

أولاً - وضع الظاهر موضع المضمر

تناولنا بالبحث فيما مضى الدواعي البلاغية من تعريف اللفظ، وتعرفنا حينها على أقسام المعرفة، وبينا غرض المتكلم من اختيار الضمير للتعريف دون غيره.

فالأصل في الأسماء أن تأتي ظاهرة لوضوح دلالة الظاهر على معناه، ولكن تكرار ذكر الاسم في الكلام ظاهراً يجعل الجملة طويلة ويأخذ برونقها وجمالها، لذا كان الأصل أنه إذا ذكر ثانياً أن يؤتى مضمراً للاستغناء عنه بالظاهر السابق ذكره في الكلام، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ

[2] الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 482/2

وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ)[1] ولكن داعياً بلاغياً لطيفاً قد يحمل المتكلم على مخالفة هذا الأصل بالاستغناء عن الضمير وتكرير الاسم الظاهر، وقد بسط الزركشي الكلام في هذه الدواعي التي نذكر منها هنا[2]:

- قصد التعظيم نحو قوله تعالى: (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ والله بكل شيء عليم)[3] أعاد ذكر الله تعظيماً وتفخيماً له.

- قصد الإهانة والتحقير: نحو قوله تعالى: (أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ)[4]

- الاستلذاذ بذكره نحو: (وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ)[5] فلم يقل (منها) وإنما جاء بلفظ الجنة ظاهراً وإن كان المقصود بها الأرض التي سبق ذكرها.

- زيادة التقرير: مثل قوله تعالى: (وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ)[6]

- تربية المهابة وإدخال الرَّوعة في ضمير السامع بذكر الاسم المقتضي لذلك، كقول السلطان آمراً غيره: "السلطان يأمرك بكذا" مكان "أنا آمرك بكذا". ومثاله قوله تعالى: (الحاقة ما الحاقة)[7] و(وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ)[8]

- قصد تقوية داعية المأمور: نحو قوله تعالى: (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)[9] فقد أظهر لفظ الجلالة في (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ) رغم أنه سبق ذكره تقوية لداعية المأمور بالتوكل بالتصريح باسم المتوكل عليه.

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 24

[3] ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 485/2-500، عبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 503/1

[4] سورة البقرة: الآية 282

[5] سورة المجادلة: الآية 19

[6] سورة الزمر: الآية 74

[7] سورة الإسراء: الآية 105

[8] سورة الحاقة: الآيتان 1، 2

[9] سورة غافر: الآية 49

[10] سورة آل عمران: الآية 159

- تعظيم الأمر: كما في إظهار (الإنسان) في قوله تعالى: (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا. إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ)[1] فما قال: (خلقناه) للتنبيه على عِظم خلق الله تعالى للإنسان.

- التنبيه على علة الحكم: نحو قوله تعالى: (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)[2] فأظهر (على الذين ظلموا) والأصل (عليهم) للدلالة على أن الظلم هو علة استحقاقهم الرجز.

إضافة إلى أغراض كثيرة أخرى نحو: إرادة العموم أو الخصوص، ومراعاة التجنيس، وقصد التوصل بالظاهر إلى الوصف، وكون الاسم الظاهر أهم من الضمير، والإشارة إلى استقلال الجملة الثانية عن الأولى في الحكم وغيرها..

شواهد من سورة إبراهيم

وفي سورة إبراهيم شواهد رائعة من هذا الأسلوب ودقة أدائه للمعنى نذكر منها:

- في أول آية من السورة الكريمة صدَّر البيان الإلهي السورة بقوله تعالى: (الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) فذكر فاعل الإنزال مضمراً وأسنده إلى ذاته العلية، ثم عاد فأظهر له صفات ثلاثة: الربوبية، والعزة، واستحقاق الحمد فقال: (بِإِذْنِ **رَبِّهِمْ** إِلَى صِرَاطِ **الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**)، وقد كان سياق المقام يقتضي إضمارها تبعاً لقوله (أنزلناه)[3]، ولكن يبدو أن إبراز مقام **الامتنان والإنعام** بشكل جلي كان الغرض البلاغي من الإظهار، إضافة لما توحي به صفات الله من العظمة والسمو والجلال.

---

[2] سورة الإنسان: الآيتان 1، 2

[3] سورة البقرة: الآية 59

[4] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير:179/13

- في قوله تعالى: (وقَالَ **الَّذِينَ كَفَرُوا** لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ)[1] وعد من الله تعالى لرسله بإهلاك أعدائهم من الذين كفروا، وقد عدل البيان الإلهي عن الضمير إلى التصريح بحق (**الذين كفروا**) رغم أنهم قد سبق التصريح بهم، وكان الظاهر يقتضي إضمارهم في هذه الآية، لكنه أظهرهم لداع هو- بحسب ابن عاشور- الإشارة إلى اختلاف المتحدث عنهم رغم اتفاقهم في الصفة، والإيذان بأن المراد بالذين كفروا هنا مشركو قريش، والمقصود بـ (رسلهم) النبي محمد صلى الله عليه وسلم[2]، وهؤلاء غير الكافرين الذين تقدمت الحكاية عنهم في قوله: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۚ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ ..)[3]

ويتكرر الإظهار في موضع الإضمار في الآية نفسها عند قوله (**لنهلكن الظالمين**) إذ كان الحال يقتضي استخدام ضمير الغائب (لنهلكنهم) العائد على (الَّذِينَ كَفَرُوا)، كونهم قد ذكروا في صدر الآية، ولكن البيان الإلهي عدل عن هذا الأصل، فصرح بالصفة المشتملة على العلة التي استحق الذين كفروا الهلاك بسببها فقال: (لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ)؛ لأن الكفر وحده لا يستوجب عقاب الله الدنيوي إذا لم يرافقه ظلم وطغيان، وهو ما بدا من هذا الفريق من الكافرين حين هددوا الرسل بإخراجهم من ديارهم إن لم يتركوا دعوتهم.

وفي الإظهار كذلك إزالة لِلَّبْس، فاستخدام الضمير قد يوهم عوده إلى الرسل كونهم أقرب مذكور إليه فيفسد المعنى، وهناك غرض آخر ذكره ابن عطية بقوله:

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 13

[3] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 205/13

[4] سورة إبراهيم: الآية 9

"وخصص تعالى الظَّالِمِينَ من الذين كفروا إذ جائز أن يؤمن من الكفرة الذين قالوا المقالة ناسٌ، فإنما توعد بالإهلاك من خَلَصَ للظلم"[1]

- ومن الشواهد أيضاً على الإظهار في موضع الإضمار لغرض التنبيه على علة الحكم ما ورد في قوله تعالى: (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ **الظَّالِمُونَ** ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ.. وَأَنذِرِ **النَّاسَ** يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ **الَّذِينَ ظَلَمُوا** رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ)[2]، إذ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم[3]، يأمره الله تعالى بتخويف الناس من يوم الحساب والجزاء، وفي المراد بـ (الناس) ثلاثة أقوال[4]:

الأول: أنهم عموم الناس لأن الإنذار لا يختص بالكافر دون المسلم بل يعم كقوله تعالى: (إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ)[5]

الثاني: أن المراد عموم الكفار.

الثالث: أنهم كفار مكة على الخصوص، وهو الأقرب إلى سياق الآيات، لأن الحديث عن زمن إتيانهم العذاب، بعد أن أعلم الله تعالى رسوله سبب تأخيره العذاب عن الظالمين في الآيات السابقة.

---

[2] ابن عطية، المحرر الوجيز:330/3

[3] سورة إبراهيم: الآية 44

[4] ينظر: الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي، التَّفْسِيرُ البَسِيْط، المحقق، عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، 1430هـ، 504/12

[5] ينظر: أبو حيان، البحر المحيط: 452/6، الألوسي، روح المعاني: 233/7، والطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير:247/13

[6] سورة يس: الآية 11

والمراد باليوم اليوم المعهود الذي وصف بما يذهل الألباب وهو يوم القيامة، وقيل: هو يوم قبض ملائكة العذاب أرواحهم معذبين بالسكرات[1].

ويظهر لنا عدول البيان الإلهي عن المضمر إلى الظاهر في موضعين؛ الأول في قوله: (وَأَنذِرِ **النَّاسَ**) وكان حقه التعبير بالضمير العائد على الظالمين وهو مقتضى الظاهر، ولكن جاء بالاسم الظاهر (الناس) لإشعارهم بأن المراد بالإنذار هو الزجر عما هم عليه من الظلم شفقة عليهم، لا التخويف للإزعاج والإيذاء[2]، وهو النكتة البلاغية في عدم ذكرهم بعنوان الظلم.

والموضع الثاني: عند قوله تعالى: (فيقول **الَّذِينَ** ظَلَمُوا) بعد قول: (وَأَنذِرِ النَّاسَ) فقد كان الأصل أن يكني عن الناس بالضمير، لكنه عدل عن ذلك لغرض التسجيل عليهم بالظلم، والإشعار بأنه هو علة ما نزل بهم من العذاب[3].

ومن الأغراض البلاغية للإظهار في موضع الإضمار والتي نجد لها شواهد في السورة: **قصد التوصل إلى الوصف من خلال الإظهار**، وهو ما نلمحه في قوله تعالى: (واسْتَفْتَحُوا وخابَ كُلُّ جَبّارٍ عَنِيدٍ)[4] في إشارة إلى الظالمين من الذين كفروا، فقد كان الأصل أن يعبر عنهم بالضمير فيقول (وخابوا) مساواة بالفعل الذي سبق (واستفتحوا)، ولكن سراً بلاغياً لطيفاً حال دون ذلك، وتمثل بإرادة نعت هؤلاء الكفار بالتجبر والتعنت، والإشعار بخيبة كل من اتصف بهذه الصفات، ولا يخفى أن الإشارة إليهم بالضمير تُفوّت هذا الغرض لأن الضمير لا يوصف.

---

[2] ينظر: أبو حيان، البحر المحيط: 452/6

[3] ينظر: أبو السعود العمادي، إرشاد العقل السليم: 56/5، الألوسي، روح المعاني: 233/7

[4] ينظر: الشوكاني، فتح القدير: 139/3، وصديق خان، محمد بن حسن بن علي ابن لطف الله، فتحُ البيان في مقاصد القرآن، المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا – بَيروت، 1412 هـ - 1992م، 133/7

[5] سورة إبراهيم: الآية 15

الغرض البلاغي من إظهار لفظ الجلالة

- ومن شواهد الإظهار في موضع الإضمار أيضاً ما نجده في قوله تعالى: (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ)[1]

قال المفسرون[2]: إن هذه الآية وردت في فتنة القبر وسؤال الملكين وتلقين الله تعالى للمؤمنين كلمة الحق عند السؤال، فقوله: (يثبت الله..) أي يثبت الله المؤمن على الحق بالقول الثابت وهو شهادة ألا إله إلا الله.

والمقصود بالظالمين الكافرون بدليل أنه عادل بهم المؤمنين وقابل التثبيت بالإضلال[3]، وقيل[4]: كل من ظلم نفسه ولو بمجرد الإعراض عن البينات الواضحة فإنه لا يثبت عند سؤال الملكين ولا يهتدي إلى القول الحق، وموضع الشاهد في الآية إظهار لفظ الجلالة في موضعين يمكن التعويض عنه فيهما بالضمير وهما قوله: (**ويضل الله**)، وقوله: (**ويفعل الله**)، ولا يخفى على الناظر المتبصر ما يحققه إظهار الاسم الجليل في الموضعين من الفخامة وتربية المهابة وإلقاء الرهبة في نفس المتلقي، فهو من بيده الهداية والإضلال، فلا تنكر له قدرة ولا يسأل عما يفعل، وإن ما يثيره لفظ الجلالة في النفس من شؤون لا يستطيعها الضمير العائد عليه، فإذا كان الضمير يعطي إشارة ذهنية ويحضر العائد عليه في النفس، فإن الاسم الظاهر يظل محتفظاً بقدر كبير من التأثير لا طاقة للضمير على حمله نيابة عن الاسم، لأن هذا التأثير يتولد حين يقرع اللفظ سمع المخاطب بجرسه وارتباطاته المختلفة التي اكتسبها

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 27

[3] ينظر: الطبري، جامع البيان: 589/16، والسمرقندي، بحر العلوم: 242/2، والثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن: 316/5

[4] ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: 337/3

[5] ينظر: الشوكاني، فتح القدير: 128/2، محمد أمين الهروي، تفسير حدائق الروح والريحان: 381/4

مع الزمن من الأحداث والمواقف، ولفظ الجلالة هنا يختزن من المعاني ما لا يسعها الضمير العائد إليه ولا يطيقها، فاقرأ الآية- إن شئت - وكرر القراءة وتمعن وقعه العظيم على النفس، تجد أن هذا الأسلوب أصل من أصول البلاغة القرآنية، إذ يقع لفظ الجلالة هذا الموقع في كثير من الجمل القرآنية لينساب نورها الغامر في القلوب، "وتشيع مدلولاتها فتتمكن من النفوس زيادة تمكن، وتتقرر في السرائر أحسن قرار، وبذلك تتربى مهابة الحق وحده في الأمة التي يربيها القرآن، فلا يكن في صدرها خشية إلا لله وللحق"[1]

ومن ناحية أخرى فإن إظهار الاسم الجليل في الآية يحقق غرضاً آخر وهو الإيذان بالتفاوت في مبادئ التثبيت والإضلال، "فإن مبدأ صدور كلٍّ منهما عنه سبحانه وتعالى من صفاته العُلا غيرُ ما هو مبدأ صدور الآخر"[2].

- ويلمح الباحث نظير ما سبق في قوله تعالى: (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ **اللَّهَ** يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ **اللَّهِ** وَعَلَى **اللَّهِ** فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (11) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى **اللَّهِ** وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آَذَيْتُمُونَا وَعَلَى **اللَّهِ** فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)[3] حين يتكرر التصريح بلفظ الجلالة أربع مرات في حوار الرسل مع المكذبين من أقوامهم، ويحل محل الضمير، واللطيفة البلاغية من ذلك تربية المهابة وإدخال الروع في ضمير السامع بذكر لفظ الجلالة المقتضي لذلك في قول الرسل: (وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ **اللَّهِ**) مع قصد تعظيم الخالق الذي بيده الأمر كله، والمستحق بذلك تفويض الأمر إليه والتوكل عليه في قولهم: (وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى **اللَّهِ** وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا)، وأما الغرض من إظهار لفظ الجلالة في قولهم: (وَعَلَى **اللَّهِ** فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) وقولهم: (وَعَلَى **اللَّهِ**

---

[2] ينظر: محمد أبو موسى، خصائص التراكيب، دراسة تحليلية لمسائل علو المعاني: 247

[3] أبو السعود العمادي، إرشاد العقل السليم: 45/5، الألوسي، روح المعاني: 205/7

[1] سورة إبراهيم: الآيتان 11، 12

فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) فهو تقوية داعية المأمور بالتوكل من خلال التصريح باسم المتوكل عليه.

ثانياً - التقديم والتأخير

لكل نوع من أنواع الجملة العربية كيفية خاصة في ترتيب عناصرها، حيث يكون لكل عنصر موقعه في بناء الجملة سواء منها الفعلية والإسمية، فالأصل في الجملة الفعلية أن يتصدرها الفعل يليه الفاعل ثم المفعول به ثم المطلق فالظرف بنوعيه ظرف الزمان والمكان ويتأخر عنها الحال في حين يبقى المفعول لأجله أخيراً متذيلاً الجملة، أما الإسمية فتبدأ بالمبتدأ يليه الخبر ثم ظرفا الزمان والمكان ثم الحال ثم المفعول لأجله.

لكن المتكلم قد يخالف هذا الأصل فيقدم ما حقه التأخير ويؤخر ما حقه التقديم أو قد يغير من مواقع عناصر الجملة لدواع وأغراض بلاغية فكرية. وقد اعتنى علماء البلاغة ببيان الدواعي التي تدفع المتكلم إلى سلوك هذا النمط من التقديم والتأخير، بل وأولوها اهتماماً كبيراً لأنه سبيل إلى نقل المعاني في ألفاظها إلى المخاطبين مرتبة على وفق سلم الأولويات والمهمات في ذهن المتكلم، فيكون الكلام بذلك صورة صادقة لمشاعره وأحاسيسه[1].

ويعد سيبويه أول من وقف على هذا الباب وأشار إلى أحد معانيه البلاغية في (الكتاب) حين ذكر أن التقديم والتأخير ضرب من العناية والاهتمام[2] ، أما الريادة في تأصيله وتفصيله فتسجل لعبد القاهر الجرجاني الذي فصل القول فيه مبيناً الأغراض البلاغية التي يحققها، ومنتقداً من سبقه على إهمالهم هذا الأسلوب العظيم من الكلام، وجمودهم على الداع الوحيد الذي ذكره سيبويه حتى وقع في ظن الناس أنه

---

[2] يتنظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 233/3

[3] ينظر: سيبويه، الكتاب: 55/1

يكفي في تعليل تقديم أحد عناصر الجملة ونقله من موقعه أن يقال: إنه قدم لعناية المتكلم واهتمامه به، من غير أن يوضح سبب تلك العناية ووجه الاهتمام به في ذلك[1].

ويكفينا للدلالة على أهمية هذا الأسلوب الاستشهاد بما قاله الجرجاني عنه: "هو بابٌ كثيرُ الفوائد، جَمُّ المَحاسن، واسعُ التصرُّف، بعيدُ الغاية، لا يَزالُ يَفْتَرُّ لك عن بديعةٍ، ويُفْضي بكَ إِلى لَطيفة، ولا تَزال تَرى شِعراً يروقُك مسْمَعُه، ويَلْطُف لديك موقعُه، ثم تنظرُ فتجدُ سببَ أَنْ راقكَ ولطفَ عندك، أن قُدِّم فيه شيءٌ، وحُوِّل اللفظُ عن مكانٍ إلى مكان"[2]

وللتقديم نوعان: تقديم ما له رتبة معلومة في بناء الجملة وسماه الجرجاني (تقديم على نية التأخير) كتقديم الخبر على المبتدأ والمعمول على عامله، وتقديم ما ليس برتبة كتقديم كلمة على أخرى وسماه الجرجاني (تقديم لا على نية التأخير)[3].

وقد ذكر علماء البيان أغراضاً ودواعي كثيرة للتقديم والتأخير بنوعيه حتى أوصلها الزركشي إلى خمسة وعشرين سبباً، وفي الواقع لا سبيل لحصرها بسبب تجددها وتكاثرها بما تتفتق عنه قرائح البلغاء، ولكني سأقتصر على ذكر بعض الدواعي التي حازت على العناية وهي[4]:

---

[2] دلائل الإعجاز: 108

[3] ينظر: المرجع السابق: 106

[4] ينظر: المرجع السابق، الموضع نفسه.

[5] للاطلاع على كل الدواعي والأنواع ينظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني: 18، والسكاكي، مفتاح العلوم:231/1، وابن الأثير، المثل السائر:172/2، والسبكي، عروس الأفراح: 232، والزركشي، البرهان في علوم القرآن: 247/3، والصيادي، أحمد مطلوب أحمد، أساليب بلاغية، الفصاحة - البلاغة – المعاني، وكالة المطبوعات – الكويت، الطبعة: الأولى، 1980م، 170، وعبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 364/1

- التقديم لداعي التعظيم واهتمام المتكلم به: وذلك أن من عادة فصحاء العرب أن يبدؤوا بالأهم عند ذكر أمور وعطفها بالواو المقتضية عدم الترتيب، وهو ما نبَّه إليه سيبويه بقوله: "كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم"[1] ومن أمثلته في القرآن الكريم قوله تعالى: (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ)[2] بدأ بالصلاة لأنهم الركن الأهم بعد الشهادتين.

- الاختصاص: يدل عليه تقديم الخبر والمفعول والجار والمجروف والظرف ونحوها على الفعل إذا كان في السياق أو السباق أو القرائن الأخرى ما يساعد على ذلك، نحو قوله تعالى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)[3] أي نخصصك وحدك بالعبادة دون سواك.

- مشاكلة الكلام ورعاية الفاصلة في القرآن الكريم، نحو تقديم (إياه) في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)[4] لمشاكلة رؤوس الآي التي سبقتها (يعقلون، يهتدون)، وكذلك تأخير الفاعل (موسى) في قوله تعالى: (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ)[5] فإنه لو أخر خيفة عن موسى لفات تناسب الفواصل مع ما قبله في قوله: (يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ)[6] وما بعده في قوله تعالى: (قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ)[7]

---

[2] سيبويه، الكتاب: 34/1

[3] سورة البقرة: الآية 43

[4] سورة الفاتحة: الآية 5

[5] سورة البقرة: الآية 172

[6] سورة طه: الآية 67

[7] سورة طه: الآية 66

[8] سورة طه: الآية 68

- التقديم للتشريف: كالتشريف للرسالة أو الحرية أو العقل أو الإيمان أو العلم أو الحياة أو لشرف المعلوم[1] وغيرها..

- العلة والسببية: فيقدم السبب والعلة على المسبَّب والمعلول نحو قوله تعالى: (وَيْلٌ لِكُلِّ أفاك أثيم)[2] فقدم الإفك لأنه سبب الإثم ومؤدٍّ إليه.

- عموم السلب وسلب العموم: والمراد بعموم السلب تقديم (كل، جميع) وتسليطه على النفي ليفيد نفي الحكم عن جميع الأفراد نحو قول الشاعر:

قد أصبحَتْ أمُّ الخِيار تَدَّعِي عليَّ ذَنْباً كلُّه لَمْ أَصْنَعِ[3]

أما في سلب العموم فتقدم النفي على (كل، جميع) ليفيد الكلام سلب الحكم عن بعض الأفراد دون بعض مثل قولك: "لم يكن كل ذلك"، ونحو قول المتنبي:

مَا كلُّ ما يَتَمَنّى المَرْءُ يُدْرِكُهُ تجرِي الرّياحُ بمَا لا تَشتَهِي السّفُنُ[4]

- السبق: وهو إما في الزمان باعتبار الإيجاد بتقديم الليل على النهار، والظلمات على النور، وآدم على نوح، ونوح على إبراهيم، والملائكة على البشر، أو بالذات

---

[2] شرف الرسالة كقوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نبي) (الحج: 52)، والحرية مثل التقديم في قوله: (الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بالعبد) (البقرة: 178)، ومثال الشرف للعقل (متاعا لكم ولأنعامكم) (النازعات: 33)، وشرف الإيمان نحو (وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يؤمنوا) (الأعراف: 78)، وشرف العلم مثل (قُلْ هَلْ يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) (الزمر: 9)، وشرف الحياة نحو قوله تعالى: (يُخْرِجُ الْحَيَّ من الميت ويخرج الميت من الحي) (الروم: 19)، وشرف المعلوم: (عالم الغيب والشهادة) (الأنعام: 73) فإن علم الغيبيات أشرف من المشاهدات.

[3] سورة الجاثية: الآية 7

[4] البيت لأبي النجم العجلي. ينظر: سيبويه، الكتاب: 85/1، وابن السراج، أبو بكر محمد بن السري بن سهل النحوي، الأصول في النحو، مؤسسة الرسالة، لبنان – بيروت، 342/1، وابن جني، أبو الفتح عثمان الموصلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الرابعة: 63/3

[5] البيت في ديوانه: 165، وينظر: النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب: 107/3

نحو: (مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ)[1] و (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ)[2] وكذا جميع الأعداد، كل مرتبة هي متقدمة على ما فوقها بالذات.

ومن أغراض التقديم كذلك: التعجيل بالمسرة أو المساءة، وكذلك التشويق والإنذار بخطر، والتبرك أو التلذذ بالمذكور أولاً[3].

شواهد التقديم والتأخير في سورة إبراهيم

ورد هذا الأسلوب بنوعيه في سورة إبراهيم، وللوقوف على الأسرار البلاغية له في السورة نذكر الأمثلة الآتية:

التقديم على نية التأخير

- في قوله تعالى على لسان الرسل: (**وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**)[4]، وقوله: (**وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**)[5] في معرض ردهم على المكذبين بهم من أقوامهم في المناظرة المنعقدة بينهم، حيث سلَّم الرسل لخصومهم ما ادعوه بقولهم: (إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا) ببيان أن مشاركتهم لهم في الجنس لا تنفي اختصاصهم بالنبوة فضلاً من الله تعالى على من يشاء، ثم يفوض الرسل أمرهم إلى الله تعالى بالتوكل عليه وحده دون سواه، يفهم هذا الحصر من تقديم الجار والمجرور (وعلى الله) على الفعل

---

[2] سورة النساء: الآية 3

[3] سورة المجادلة: الآية 7

[4] أمثلتها: التعجيل بالمسرة نحو: سعد في دارك، وبالمساءة نحو: القصاص حكم به القاضي، والتشويق إلى المتأخر نحو قول أبي العلاء:

والذِي حَارتِ البَرِيَّةُ فيهِ حيوانٌ مُسْتَحْدَثٌ من جَمادِ

والإنذار بخطر مثل: العدو لا تغفل عن أمره.

والتلذذ نحو: بثينةُ ما فيها إذا ما تبصرتْ معابٌ ولا فيها إذا نسبتْ أشبُ

والتبرك مثل: اسم الله اهتديت به.

[5] سورة إبراهيم: الآية 11

[6] سورة إبراهيم: الآية 12

(فليتوكل)، حيث أشعر **باختصاص الله** تعالى بكونه وكيلاً للمؤمنين به، فهم لا يرجون نصراً ولا عوناً من غير الله تعالى لضعفهم وقلة ناصريهم، وفيه إيماء إلى ثقتهم بنصر **الله**[1].

- في قوله تعالى: (اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)[2] حيث أفاد تقديم الخبر (له) وتأخّر المبتدأ (ما) الموصولة مع صلتها **اختصاصَ الله** سبحانه وتعالى وحده دون ما عداه بالسماوات والأرض وما فيهن على سبيل الخلق والتملك، فهو الخالق لها والمالك والمتصرف فيها.

- وفي قوله تعالى: (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ **تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ**)[3] لما كان الحديث عن يوم القيامة الذي جعله **الله** تعالى موعداً بينه وبين المكذبين برسله، وتوعدهم فيه بالعذاب الأليم، اتجهت عناية البيان الإلهي إلى التركيز على الزمان المضروب لذلك الحدث، فقدَّم الجار والمجرور (فيه) على الفاعل (الأبصار) كون الضمير عائداً على (ليوم)، العنصر الأهم في الجملة والأولى بالذكر والتقديم.

- ونلمح نظير ما تقدم أيضاً من تقديم الجار والمجرور على الفاعل في الآية التالية في قوله تعالى: (مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ)[4] حيث تصور الآية الحال الذي يكون عليه هؤلاء الكافرون من الخوف والفزع من أهوال ذلك اليوم، إلى الحد الذي يفقدون فيه السيطرة على أبصارهم الشاخصة وعيونهم المسمَّرة من روع ما يشاهدون ومخافة العذاب المنتظر، فقدم الجار والمجرور هنا على الفاعل في قوله (إليهم طرفهم) ليشير إلى أن الطرف لا يعود إلى معتاده فلا يملكون التحكم به ولا تحويل مساره أو توجيهه.

---

[2] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 203/13

[3] سورة إبراهيم: الآية 2

[4] سورة إبراهيم: الآية 42

[5] سورة إبراهيم: الآية 43

- في قوله تعالى: (وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنّا كُنّا **لَكم تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ** عَنّا مِن عَذابِ اللهِ مِن شَيْءٍ)[1] والضعفاء هم عوام الناس والأتباع، والمراد بالذين استكبروا السادة والزعماء، والتبع: جمع تابع كخادم وخدم، أو مصدر نحو قولنا: "يومُ عدْلٍ، ويوم حرْبٍ"، وقولهم (**مُغْنُونَ** عَنّا): مِن الغَنَاء، وهي المنفعة التي تكون من الإنسان لآخر في الدفاع عنه وغيره[2]. وقد تكرر أسلوب التقديم في موضعين من الآية الأول: تقديم الجار والمجرور في قول الأتباع (**لكم تبعاً**) لغرض تخصيص التابعية بالذين استكبروا وحصر الاتباع بهم، أي: إنا كنا تبعاً لكم فقط لا لغيركم[3] في إشارة إلى الرسل. والثاني: تقديم المسند إليه (أنتم) على المسند (مغنون) ويبدو أن الذي أوجب ذلك أن المستفهم عنه "كون المستكبرين يغنون عنهم" لا أصل الغَناء عنهم[4]، لأنهم قد فقدوا الأمل به ويئسوا منه لما رأوا آثار الغضب الإلهي عليهم وعلى سادتهم كما يدل عليه قول المستكبرين: (سَواءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِن مَحِيصٍ)، فعلموا أنهم غرّوهم في الدنيا، لذا كان الاستفهام متعيناً في **التوبيخ والتعنيف**، ويعني: أظهروا مكانتكم التي كنتم تدَّعونها عند الله وتغررونا بها في الدنيا.

- وقريب مما سبق تقديم الخبر (في الله) على المبتدأ (شكٌّ) في قوله تعالى: (وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (9) قَالَتْ رُسُلُهُمْ **أَفِي اللَّهِ شَكٌّ** فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)[5] حيث تبدأ الجملة باستفهام صادر عن الرسل يستنكر وقوع الشك من الكافرين في وجود الله، لا وقوع الشك ذاته، ولما كان الإنكار

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 21

[3] ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز:332/3

[4] ينظر: الآلوسي، روح المعاني: 194/7

[5] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 216/13

[6] سورة إبراهيم: الآيتان 9، 10

منصباً على المشكوك فيه قُدِّم للاهتمام[1] باعتباره العمدة في الموضوع، وقد علق اسم الجلالة بالشك، والاسم العلم يدل على الذات، فيكون المراد " إنكار وقوع الشك في أهم الصفات الإلهية وهي صفة التفرد بالإلهية، أي: صفة الوحدانية "[2] فالداعي من التقديم إذن بيان أن وجود الله تعالى لا يحتمل الشك لظهور الأدلة وشهادتها عليه، وأهمها وجود السماوات والأرض الدال يقيناً على استحالة وجودهما من غير فاطر مبدع حكيم.

- قوله تعالى: (الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)[3] فيه تقديم الصفة على الموصوف إذا اعتبرنا (العزيز الحميد) صفتين للفظ الجلالة (الله) على قراءة جمهور القراء[4] بجر لفظ الجلالة على البدلية من (العزيز الحميد)، أو عطف البيان على قول الزمخشري[5]. وهنا يبرز الإشكال التالي: هل يجوز تقديم الصفة على الموصوف؟ ذهب ابن عصفور[6] إلى عدم جواز ذلك إلا حيث سمع وهو قليل كما قال، وله حينئذ وجهان

---

[2] ينظر: الزمخشري، الكشاف: 542/2، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 194/3، وأبو حيان، البحر المحيط في التفسير: 414/6، والسمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: 75/7

[3] الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 198/13

[4] سورة إبراهيم: الآيتان 1، 2

[5] ينظر: ابن مجاهد، أحمد بن موسى، السبعة في القراءات، دار المعارف – مصر، الطبعة: الثانية، 1400هـ، 362، وابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف، تحبير التيسير في القراءات العشر، دار الفرقان – الأردن، عمان، الطبعة: الأولى، 1421هـ - 2000م، 424

[6] ينظر: الكشاف:537/2

[7] هو علي بن مؤمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي، حامل لواء العربية بالأندلس في عصره، له تصانيف كثيرة منها: المقرب في علم النحو، والممتع في علم الصرف، وكذا شرح الجمل وشرح الحماسة. توفي سنة 669هـ. ينظر: الفيروزآبادي، البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة: 218، والسيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: 210/2

من حيث الإعراب[1]: الأول- أن تتقدم الصفة بحالها وتعرب صفة متقدمة ويجعل الموصوف بدلاً عنها. والثاني- أن تضاف الصفة إلى الموصوف المتأخر. فعلى الوجه الأول يمكن عدها صفة متقدمة، قال أبو عمرو بن العلاء: " القراءةُ بالخفض على التَّقديم، والتَّأخير، والتقدير: صراط الله العزيز الحميدِ الذي له ما في السماوات والأرض"[2] ونظير ذلك مما ورد في كلام العرب قول الشاعر:

والمؤمِنِ العائذَاتِ الطير يَمْسَحُهَا رُكْبَانُ مَكَّةَ بَيْنَ الفَيلِ والسَّعَدِ[3]

ولا شك أن تقديم الموصوف على الصفة هو الأصل في الكلام وهو الأولى عند انتفاء الداعي لتأخيره، غير أنه لا يبعد كذلك أن تذكر الصفة مرتين قبل الموصوف وعقبه، فيتخلل الموصوف الصفتين كما في قولنا: الإمام الأجل محمد الفقيه [4]، وعليه يحمل تقديم الصفة هنا في قوله: (صِرَاطِ العزيز الحميد الله الذي لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض) إذا جعلنا الاسم الموصول صفة للفظ الجلالة إضافة للعزيز والحميد.

ويبقى أن نبين الغرض البلاغي من مخالفة الأصل وهو: أن البيان الإلهي حين مدح الصراط أضافه إلى العزيز الحميد للدلالة على أن الصراط إنما حاز الشرف والرفعة ونال العظمة لإضافته إلى العالم القادر الغني، وعبر عن هذه المعاني بـ (العزيز الحميد) فوقعت الشبهة، وأثارت في نفس المتلقي الرغبة والفضول في معرفة ذلك العزيز الحميد، فأزيلت الشبهة بالتصريح بأنه (الله الذي لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض). قال الفخر الرازي: "إن الكفار ربما وصفوا الوثن بكونه عزيزاً حميداً، فلما

---

[2] ينظر: السمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: 66/7

[3] ابن عادل الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب: 332/11

[4] البيت للنابغة الذبياني، ينظر: ديوانه ص15، وينظر: التبريزي، يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ، شرح القصائِد العشر، إدارة الطباعة المنيرية، عام النشر: 1352هـ، 319، والأنباري، الزاهر في معاني كلام الناس: 84/1

[5] ينظر: ابن عادل الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب: 332/11

قال :(لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد) بقي في خاطر عبدة الأوثان أنه ربما كان ذلك العزيز الحميد هو الوثن، فأزال الله تعالى هذه الشبهة، وقال :(الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض) أي المراد من ذلك العزيز الحميد هو الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض"[1]

- ويتجلى كذلك غرض بلاغي في تقديم الجار والمجرور على المفعول في قوله تعالى: (وَأَنْزَلَ **مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ)[2] وهو تشريف السماء وتشويف السامع وتشويقه لمعرفة المفعول به النازل منها.

- وكانت مناسبة الكلام لما بعده أيضاً من الدواعي التي وقع لأجلها التقديم والتأخير في السورة الكريمة نحو تقديم المفعول وتأخير الفاعل في قوله تعالى: (سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ **وُجُوهَهُمُ النَّارُ**)[3] فتخصيص الوجوه بالحكم المذكور رغم شمول العذاب لسائر أعضاء الجسد لكون الوجه أعز الأعضاء الظاهرة وأشرفها، كقوله تعالى: (أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ العَذابِ يَوْمَ القِيامَةِ)[4]، ولكونها مقر الحواس، ومعرض المشاعر التي لم يسخروها لإدراك الحق وتدبُّره، وأما الداعي لتأخير الفاعل (النار) عن (وجوههم) فلملاحظة المناسبة بينها وبين الآية التالية التي توعد الله تعالى فيها المجرمين بقوله: (لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)[5] إذ لمَّا كانت مجازاة الله الكافرين عذاباً بالنار ختم الآية السابقة بالنار وافتتح التالية بالجزاء ليكون ذكر النار قريب عهد بالسامع حاضراً في ذهنه.

---

[2] ينظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 59/19

[3] سورة إبراهيم: الآية 32

[4] سورة إبراهيم: الآية 50

[5] سورة الزمر: الآية 24

[6] سورة إبراهيم: الآية 51

وبرزت صلة التقديم والتأخير بعناية البيان الإلهي بالشكل الخارجي والإيقاع الموسيقي للآيات من خلال مشاكلة رؤوس الآي ومراعاة الفاصلة، وهو ما ظهر في تقديم الخبر على المبتدأ في قوله تعالى: (أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا **لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ**)[1]، وتأخير المفعول عن الجار والمجرور في قوله: (وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا **لَكُمُ الْأَمْثَالَ**)[2]، وتأخير الفاعل كذلك عن الجار والمجرور في قوله: (وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ **لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ**)[3]

التقديم لا على نية التأخير:

ونذكر من الأمثلة في السورة على أسرار التقديم بنوعه الآخر المسمى (لا على نية التأخير)[4]

ما يأتي:

- في قوله تعالى: (فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[5] قدم العزيز على الحكيم للعلة والسببية، فلما كان الله تعالى عزيزاً قوياً لا ينفلت شيء عن قدرته ولا يخرج عما خُلِق له، حكم العباد بما يريد وكيفما يشاء[6] محققاً لهم في الوقت نفسه مصالحهم ومنافعهم على أكمل وجه، فالقوة أو المنعة تتقدم في الأهمية

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 44

[3] سورة إبراهيم: الآية 45

[4] سورة إبراهيم: الآية 46

[5] ويراد بهذا القسم نقل الشيء عن حكم إلى حكم بتغير إعرابه تبعاً لتغير موضعه من الجملة، كأن نعمد إلى اسمين يصلح كل منهما أن يكون مبتدأ أو خبراً، فنقدم تارة هذا على هذا، وأخرى هذا على هذا، كقولنا "زيد المنطلق" و"المنطلق زيد"، فإن المنطلق لم يقدم على أن يكون متروكًا على حكمه الذي كان عليه مع التأخير فيكون خبر مبتدأ كما كان، بل على أن ينقل عن كونه خبًرا إلى كونه مبتدأ، وكذا القول في "فاز زيد" و"زيد فاز". ينظر: القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 80/2

[6] سورة إبراهيم: الآية 4

[7] ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 247/3

المعنوية والزمن والطبع على الحكمة التي تعني ضبط الأمور ووضعها في أنصبتها، إضافة إلى السببية التي تربط بينهما، وبيان ذلك أن غير العزيز لا يحسن إتقان الأمور وضبطها والسيطرة عليها، فقبل أن تكون محكماً للأمور لا بدَّ من أن تتصف بالقوة والعزة، كما هو الحال في عرف الناس ومألوفهم إذ تسند إدارة الأمور إلى الأقوياء في كل مجالات الحياة.

- قوله تعالى: (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)[1] وهنا أشكل على الناس استرحام سيدنا إبراهيم لمن عصاه حين دعا: (وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)، لعدم جواز الاستغفار للكافرين، وانحصار دعاء المؤمنين بالمؤمنين. فأجاب المفسرون عن ذلك بحمله على أحد أوجه ثلاثة[2]:

إما أنه وقع له ذلك قبل أن يعلم بأن الله لا يغفر لمن أشرك به كما كان من استغفاره لأبيه وهو مشرك، أو أن مراده بـ (عصاني) المخالفة دون الإشراك، أو أن هذه المغفرة مقيدة بالتوبة من الشرك أي قبول توبتهم.

وقال الزركشي: معللا سبب تقديم (الغفور) على (الرحيم) في قوله (وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ): "المغفرة سلامة والرحمة غنيمة، والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة "[3] يعني بذلك أن المغفرة توجب السلامة من الذنوب المؤدية بالإنسان إلى العذاب وتحقق النجاة من النار، فتعلقت العناية بها أكثر من الرحمة التي تعني الغنيمة. في حين يرى الباحث أن تقديم ذكر المغفرة لأنها تمهيد للرحمة وتجلٍّ لها، ومظهر من أهم مظاهرها أي إن رحمة الباري عز وجل تتجلى وتظهر في مغفرته لعباده والصفح

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 36

[3] ينظر: ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير: 515/2، والرازي، مفاتيح الغيب: 102/19، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 200/3

[4] ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 249/3

عنهم. وإنما تأخرت المغفرة في قوله تعالى: (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ)[1] لأنها انتظمت في سياق تعداد أصناف مخلوقات الله المكلفين وغيرهم، فقدم الرحمة لأنها تشملهم جميعاً وأخر المغفرة لأنها تخص البعض دون البعض، والعموم يرد قبل الخصوص في الرتبة.

- ومن أمثلة التقديم لداعي السبق في الوجود قوله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ)[2] الآية حكاية دعاء سيدنا إبراهيم، وفيه تقدم ذكر سيدنا إسماعيل على إسحاق لداعي السبق في الوجود، فإن إبراهيم عليه السلام رُزِق أولاً بإسماعيل ثم بإسحاق وقد سبق أن روينا عن ابن عباس قوله: "أنَّ سِنَّهُ -إبراهيم -كانَ عِنْدَ وِلادَةِ إسْماعِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ تِسْعًا وتِسْعِينَ سَنَةً، وعِنْدَ وِلادَةِ إسْحاقَ عَلَيْهِ السَّلامُ كانَ مِائَةَ سَنَةٍ واثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً"[3].

ولغرض السبق الزمني كذلك جاء ترتيب الأقوام في قوله تعالى: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ)[4] ويعزز هذا الغرض ويؤكده العطف عليها بقوله: (وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ..) الذي يشير بوضوح إلى ملاحظة الترتيب الزمني.

- ومن شواهد التقديم للشرف الواردة في السورة ما كان بسبب الفضيلة في قوله تعالى: (وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)[5] ومن عادة البيان الإلهي أن يقدم ذكر الشمس على القمر، ويطَّرد ذلك في كل المواضع

---

[2] سورة سبأ: الآية 2

[3] سورة إبراهيم: الآية 39

[4] ينظر: ينظر: السمرقندي، بحر العلوم: 246/2، والواحدي، التفسير الوسيط: 34/3، والبغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن: 357/4، والزمخشري، الكشاف: 561/2، والنسفي، مدارك التنزيل: 176/2

[5] سورة إبراهيم: الآية 9

[6] سورة إبراهيم: الآية 33

التي يقترنان فيها ببعض. ولعلَّ السبب في هذا الترتيب أن نور القمر مستمد من أشعة الشمس، فالقمر جرم معتم بارد يستمد من الشمس ما يشعه من نور في الليالي المقمرة، ولما كان سياق الآية بيان نعم الله تعالى على الإنسان كان ميزان التفاضل بينهما هو مقدار ما ينتفع بهما الإنسان من الضوء والدفء الصادر منهما، فكان السبق في ذلك للشمس فقدمت لفضيلتها.

وأما تقديم الليل على النهار هنا وفي آيات أخرى كقوله تعالى: (وجعلنا الليل والنهار آيتين)[1]، (سيروا فيها ليالي وأياما آمنين)[2]، (بل مكر الليل والنهار)[3] فلكونه سابقاً في الزمن، وذلك لأنه كان قبل خلق الأجرام، ولذلك اختارت العرب التأريخ بالليالي دون الأيام[4]، وإن كانت الليالي مؤنثة والأيام مذكرة، وقاعدتهم في ذلك تغليب المذكر إلا أنهم جروا في التاريخ على خلافها [5].

- وفي قوله تعالى: (رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا **نُخْفِي** وَمَا **نُعْلِنُ** وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي **الْأَرْضِ** وَلَا فِي **السَّمَاءِ**)[6] نجد مثالاً للتقديم لداع تشريف المعلوم، فالآية الكريمة تقدم (ما نخفي) على (ما نعلن)، واللطيفة البيانية التي تتجلى للناظر المدقق في هذا التقديم هي أن اطلاع الله تعالى على ما يخفى أدل على شمول علمه سبحانه وكماله، وإحاطته بكل شيء، ولما كان الاطلاع على السر الخفي صعباً أو متعذراً في عرف الناس كان علم الله به فضيلة يحسن تقديمها، وقيل[7]: قدم لتحقيق المساواة بينهما في تعلق علم الله على أبلغ وجه، لأن تعلق علمه بما يخفى أقدم منه بما يعلن؛

---

[2] سورة الإسراء: الآية 12

[3] سورة سبأ: الآية 18

[4] سورة سبأ: الآية 33

[5] ينظر: الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: مادة (ء رخ)

[6] ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن:241/3

[7] سورة إبراهيم: الآية 38

[8] ينظر: الألوسي، روح المعاني: 227/7

لأن مرتبة السر والخفاء سابقة على مرتبة العلن، إذ إن كل شيء يمر قبل إعلانه بمرحلة الخفاء والسر، فتعلق علم الله بحالته الأولى أقدم من تعلقه بحالته الثانية.

وأما تقديم الأرض على السماء هنا فلأن الحديث ألصق بالأرض منه بالسماء؛ فهو يدور حول جدبها وخصبها ودعاء سيدنا إبراهيم بأن يرزق الله ذريته من ثمراتها، وقد يكون تقديم الأرض على السماء " بِاعْتِبارِ القُرْبِ والبُعْدِ مِنّا المُسْتَدْعِيَينِ لِلتَّفاوُت بِالنِّسْبَةِ إلى عُلُومِنا"[1]

[1] ينظر: أبو السعود العمادي، إرشاد العقل السليم: 53/5

الفصل الثالث

البلاغة القرآنية في أسلوبي الخبر والإنشاء

المبحث الأول: بلاغة الأسلوب الخبري في القرآن الكريم

استقر رأي النحويين وعلماء البلاغة على تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء. ودليلهم على ذلك انحصار الكلام المفيد فيهما، لأن الكلام:

إما أن يقال فيه: إنه مطابق للواقع أو غير مطابق للواقع وهذا الصنف من الكلام هو الخبر، أو أنه لا يحتمل أن يقال فيه - باعتبار منطوقه، لا باعتبار دلالاته اللزومية - ما سبق، فيكون إنشاء.

فالجملة المفيدة تنقسم إذاً على قسمين:

القسم الأول: الجملة الخبرية، وهي التي تتضمن الإخبار عن شيء إما سلباً أو إيجاباً، بقصد "الإعلام بأن الحكم الذي اشتملت عليه له واقع خارج العبارة الكلامية مطابق له"[1]

القسم الثاني: الجملة الإنشائية، وهي التي لم تشتمل على خبر، وسنفصل الكلام فيها في موضعه من البحث.

وعليه فالخبر هو ما احتمل الصدق أو الكذب لذاته باعتبار كونه مجرد كلام[2]، دون نظر إلى قائله[3]، نحو قولنا: الجو بارد، الطريق طويلة..

---

[2] ينظر: التفتازاني، المطول شرح تلخيص المفتاح: 172، عبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 166/1

[3] ينظر: ابن يعقوب المغربي، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح (ضمن شروح تلخيص المفتاح): 165

[4] إيراد هذا القيد في التعريف لتدخل في التعريف الأخبار الواجبة الصدق كالأخبار الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية، وأخبار الرسل، والبديهيات المألوفة نحو قولنا: نحن على الأرض، وليدخل في التعريف كذلك الأخبار التي لا شك في كذبها نحو ادعاء المتنبئين النبوة. وقيل: إن النبأ أخص من الخبر ويراد به الخبر الذي تعرى عن الكذب كخبر الله تعالى وخبر نبيه صلى الله عليه وسلم، والتواتر، ولذا سمى

وهناك من عرفه بأنه: "ما يتحقّق مدلولهُ في الخارج بدون النطق به"[1] ويعني أن حصول معنى الخبر لا يتوقف على التلفظ به، نحو قولنا: الحديقة جميلة، فإن نسبة الجمال إلى الحديقة حاصلة سواء أنطقنا بهذا الخبر أم لم ننطق[2]، بخلاف الإنشاء الذي يتولد مع التلفظ ويكون عدماً قبله.

وجمهور أهل العلم[3] على أن مناط الحكم على الخبر هو مطابقته للواقع الخارجي أو عدم المطابقة، فيكون صادقاً إن وافق الواقع وكاذباً إن خالفه.

أولاً - الغرض من إلقاء الخبر

جعل أهل البلاغة الأصل في إلقاء الخبر أن يكون لأحد غرضين[4]:

الأول: إفادة السامع الحكم الذي اشتملت عليه الجملة، ويكون عند جهل المخاطب له، ويسميه أهل البلاغة فائدة الخبر.

الغرض الثاني: إعلام المخاطب أن المتكلم على علم بالحكم الذي تتضمنه الجملة، ويكون المخاطب في هذه الحالة عالماً بالخبر. ويسمى هذا الغرض لازم الفائدة.

الله تعالى القرآن وما ورد فيه نبأ فقال جل ذكره: (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ. عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ)، (قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ)، ومنه النبوة والنبي لإنبائه عن الله صدقاً ما تسكن إليه العقول. ينظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن: 789، دراز، صبَّاح عبيد، الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، مطبعة الأمانة، الطبعة الأولى: 1406هـ، 1986م، 7

[2] الهاشمي، جواهر البلاغة: 55، وينظر: السبكي، عروس الافراح: 105/1

[3] ينظر: عيسى العاكوب، المفصل في البلاغة العربية: 69

[4] ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم: 166، والتفتازاني، المطول: 173، والصعيدي، بغية الإيضاح: 36/1، أحمد مطلوب الصيادي، أساليب بلاغية: 89، فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها: 104

[5] ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم: 166

ولكن المخبر قد يتحلل من هذين الغرضين ويخرج عليهما، فيقصد من وراء خبره أغراضاً أخرى تظهر وتتكشف من خلال سياق الكلام، وتدل عليها القرائن، وقد عدد علماء البلاغة بعضاً منها نذكر[1]:

- الاسترحام والاستعطاف، نحو قوله تعالى: (إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)[2]

- إظهار الضعف كما في قوله تعالى: (قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا)[3] جاء الخبر هنا معبراً عن ضعف العبد في حضرة خالقه.

- التوبيخ نحو قولك لمسلم تارك للصلاة: "الصلاة عماد الدين" فأنت لا تقصد من هذا الخبر إعلامه بمضمون هذا الخبر وهو فرضية الصلاة وكونها أساس الدين، لأنه يعرف ذلك، بل تقصد توبيخه على ترك ما هو خليق بأن يتمسك به.

- الفرح بمقبل نحو ما جاء في قوله تعالى: (جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

- التحفيز وتحريك الهمة إلى أمر يجب تحصيله مثل قوله تعالى: (لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ)

- إظهار التحسر على شيء يراد، كما في قوله تعالى حكاية عن امرأة عمران: (فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ) فأم مريم لا تريد الإعلام بمضمون الخبر

---

[2] ينظر: عروس الأفراح (ضمن شروح التلخيص): 193، حامد عوني، المنهاج الواضح للبلاغة: 9/2، الهاشمي، جواهر البلاغة:56، عبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 174/1، عيسى يعقوب، المفصل في البلاغة العربية: 79

[3] سورة القصص: الآية 24

[1] سورة مريم: الآية 4

ولا بلازمه، لأنها تخاطب الله تعالى العالم بحالها، وإنما تريد التعبير عن تحسرها لخيبة رجائها في ولادة ولد ذكر تهبه لبيت المقدس.

ومنها الوعد والوعيد والمدح والذم والتحذير والأمر والنهي والإنكار والتبكيت والتعظيم والتحقير وغيرها من الأغراض التي لا حصر لها وتتفتق عنها قرائح البلغاء والفصحاء من المتكلمين وتظهر من خلال سياق الكلام.

أمثلة من سورة إبراهيم

وإذا تتبعنا ورود الخبر في سورة إبراهيم نقع على أمثلة كثيرة خرج الخبر فيها عن إطار الفائدة ولازمها لأغراض بلاغية متنوعة يكشف عنها سياق الآيات، نذكر منها على سبيل المثال:

الامتنان

في قوله تعالى: (الر ۚ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ** لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)[1] حيث تضمن نعمة كبيرة من الله تعالى تمثلت بالكتاب المنزل لهداية الناس ونقلهم من ظلمات الضلال إلى نور الإيمان، على سبيل الامتنان.

وورود الخبر لغرض الامتنان والتَّفَضُّل جاء كذلك في قوله تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (33) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ)[2] حيث ذكرت الآيات أخباراً متعددة تضمنت إنعام الله تعالى على الإنسان وآلائه بخلق السموات والأرض، وإنزال الغيث، وتسخير الشمس والقمر والبحار والأنهار

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 1

[3] سورة إبراهيم: الآيات 32، 33، 34

للإنسان، وهذه الإخبار تأتي لإظهار فضل الله ومنَّتِهِ على عباده، قال ابن عطية معقباً: " الآيَةُ تَذْكِيرٌ بِآلاءِ اللهِ، وتَنْبِيهٌ عَلى قُدْرَتِهِ الَّتِي فِيها إحْسانٌ إلى البَشَرِ"[1]. وتختم الآيات ذكر النعم بقوله: (وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ) وقوله (آتاكم) لجنس البشر على سبيل التعديد للنعمة، أي إن الإنسان قد أُوتي بجملته كل ما من شأنه أن يُسأل وينتفع به، ولا يعنى اطراد ذلك في كل واحد من الناس[2].

وفي قوله (كل ما سألتموه) قراءتان[3] الأولى المشهورة (مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ) فتكون (ما) إما مصدرية، ويكون الضمير في (سألتموه) عائداً على الله تبارك وتعالى، أو تكون (ما) موصولة بمعنى (الذي) ويكون الضمير في (سألتموه) عائداً على (الذي)، والمفعول الثاني لـ آتاكم محذوف تقديره (شيئاً)[4].

والقراءة الثانية للضحاك والحسن وقتادة ورويت عن نافع (من كُلٍّ ما سألتموه) بتنوين (كلٍّ) فتكون (ما) مفعولاً ثانياً لـ (آتاكم)، وذهب بعضهم إلى اعتبار (ما) نافية على هذه القراءة، أي: أعطاكم من كلٍّ شيئاً ما سألتموه، فيكون المفعول الثاني (شيئاً)[5]

التنبيه والتحذير

نحو ما ورد في قوله تعالى: (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)[6] على القول بأنها جملة مستأنفة

---

[2] ابن عطية، المحرر الوجيز: 339/3

[3] ينظر: المرجع السابق، الموضع نفسه.

[4] ينظر: ابن مهران، المبسوط في القراءات العشر: 257

[5] ينظر: الخراط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 547/2

[6] ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: 340/3، وابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير: 514/2، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 200/3، أبو حيان، البحر المحيط في التفسير: 440/6

[7] سورة إبراهيم: الآية 3

بجعل الذين مبتدأ وأولئك خبره، إذ تضمن الخبر تحذيراً لهذا الفريق من الناس مما هم فيه ببيان عاقبته، فمن سلك هذا الطريق كان في (ضلال بعيد) كل البعد عن الحق والخير.

وكذلك في قوله تعالى: (وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (44))[1] إذ نجد الخبر في: (فيقول الذين ظلموا...) جاء لغرض الإنذار والتنبيه، وحمل المخاطبين على أخذ العبرة مما سيحل بالظالمين من الذل والهوان، حين يترجون ويتوسلون الله تعالى أن يمهلهم فرصة كي يؤمنوا به وبرسله، والمراد بـ (أجل قريب) الرجوع إلى دار الدنيا لتدارك ما فرطوا من إجابة الدعوة، وقيل[2]: إنهم أرادوا بذلك رفع العذاب عنهم وإعادتهم إلى حال التكليف مدة يسيرة ليعملوا ما يرضيه سبحانه[3].

التهديد والوعيد

مثاله قوله تعالى يصف حال الكافرين ومصيرهم في النار قائلاً: (مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (16) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ)[4] فالخبر هنا قد خرج متضمناً مع فائدته معنى الوعيد الشديد لأولئك المكذبين بالرسل، وجاء بعد قوله: (وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)[5] الذي بين فضل الله تعالى على رسله حين فتح عليهم، واستجاب دعاءهم

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 44

[3] ينظر: الالوسي، روح المعاني: 233/7

[4] ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب: 109/19، وأبو حيان، البحر المحيط: 452/6، والألوسي، روح المعاني: 233/7

[5] سورة إبراهيم: الآيتان 16، 17

[1] سورة إبراهيم: الآية 15

في النصر وأظهرهم على عدوهم، فسيق الخبر لغرض إظهار فضل الله وإحسانه على رسل، ثم أورد تعالى جملة من الأخبار (من ورائه جهنم)(ويسقى من ...) (ويأتيه الموت ..)(وما هو بميت) (ومن ورائه ...) جعلها صفة لـ (جبار عنيد) متوعداً أولئك الكافرين بمزيد من العذاب والإذلال يلقونه عند ورودهم جهنم من ماء صديد، وعذاب مطبق عليهم من كل جهة كأنه الموت غير أنه مستمر في حين أن الموت تنتهي سكراته بخروج الروح، ولا يخفى ما لهذه الأخبار من أثر في تخويف السامع وتفزيعه لما تحمله من التهديد والوعيد.

ولغرض الوعيد بزوال كل ما عمله الكافرون وأنتجوه جاء الخبر المتضمن تشبيه أعمال الكافرين يوم القيامة بالرماد الذي هبت عليه ريح قوية فنثرته في كل جهة (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ)[1] حيث يبيّن الخبر الوارد في الآية إفلاسهم وعدم انتفاعهم بشيء منها لأنهم يومئذ (لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ) فيا لها من خيبة ويا له من خسران حين يقف الكافر ينتظر ثواب أعمال صنعها في الدنيا وتأمل بها خيراً، فيفاجأ بها تبعثر أمام عينيه إشارة إلى عدم قيمتها مصداق قال تعالى (وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا)[2] ثم يأتي تذييل الآية خبراً آخر غرضه التقرير والتأكيد يقيّم المشهد ويحكم عليه بقوله: (ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ).

التحفيز وتحريك الهمة

نلحظ ورود الخبر في السورة لغرض بعث الهمم لنيل رضاء الله تعالى والفوز بثوابه من خلال الترغيب الذي نجده في قوله تعالى: (وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 18

[3] سورة الفرقان: الآية 23

سَلَامٌ)[1] فالآية الكريمة بدأت الخبر بالفعل الماضي للدلالة على أمر مستقبل لتفيد القطع بحصوله واليقين بوعد الله، وجاء هذا الوعد من الله بعد أن ذكر طرفاً من الجدال والخصومة الجارية بين أهل النار وهم يتقاذفون التهم ويتبادلون اللّوم والتأنيب، فحسُن الانتقال بعد ذلك إلى وصف حال المؤمنين على سبيل الترغيب والبشارة لهم باختلاف مصيرهم عما سبق، فهم يدخلون جنات تجري من تحتها الأنهار سارحة فيها حيث ساروا في سلامة ودَعَة[2]، منزهين عن الخوض في المهاترات والمنازعات.

الذَّم

ومما جاء فيه الخبر مقصوداً به الذم قوله تعالى: (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ)[3] بعد ذكر الكلمة الطيبة وتشبيهها بالشجرة الطيبة في قوله: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً ...)[4]، والكلمة الخبيثة هي الكفر والشرك، وقيل: كل قبيح من الكلام، والشجرة الخبيثة: الحنظل عند جمهور العلماء[5]. والآية خبر اشتمل على تشبيه سيق لذم الكفر وتقبيحه، فهو كشجرة الحنظل طعمها مرٌّ، لا أصل لها ثابت في الأرض، ولا فرع صاعد في السماء، استؤصلت وقُلعت جثتها من الأرض ما لها ثبات، وكذلك الكافر بما في قلبه من الشرك لا خير له في الأرض ولا عمل يصعد له إلى السماء.

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 23

[3] ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 491/4، الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 222/13

[4] سورة إبراهيم: الآية 26

[5] سورة إبراهيم: الآية 24

[6] ينظر: البغوي، معالم التنزيل: 37/3، ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 411/1، الإيجي، محمد بن عبد الرحمن بن محمد، جامع البيان في تفسير القرآن، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1424 هـ - 2004 م، 295/2

ومن شواهد الخبر الوارد لغرض الذم أيضاً قوله تعالى: (وجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ)[1] عطفاً على قوله: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا وأَحَلُّوا قَوْمَهم دارَ البَوارِ)[2] حيث تضمن الخبر ذماً لأولئك الزعماء يُحَمِّلُهم مسؤولية دمار الجمع كله، والمقصود بهم كفار قريش جملة[3]، هذا بحسب ما اشتهر من حالهم، وروي عن علي بن أبي طالب قوله [4]: "هُمُ الْأَفْجَرَانِ مِنْ قُرَيْشٍ، بَنُو أُمَيَّةَ وَبَنُو الْمُغِيرَةِ، فَأَمَّا بَنُو الْمُغِيرَةِ فَقَدْ قَطَعَ اللَّهُ دَابِرَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ، وَأَمَّا بَنُو أُمَيَّةَ فَمُتِّعُوا إِلَى حِينٍ"[5]

الاستعطاف وإظهار الضعف

يظهر لنا هذا الغرض في الأخبار التي وردت على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام مخاطباً ربّه: (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)[6] فالغرض من الخبر في قوله: (إني أسكنت من ذريتي ...) الاستعطاف منه لربه، ولا يمكن حمله على فائدة الخبر لأن الله تعالى أعلم بما صنع، ولكنه أراد من هذا الخبر مناشدة الله تعالى والتضرع إليه بإظهار حاجته له، والتمهيد لما سيطلبه في قوله: (فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ...) فهو قد ترك زوجته وولده معرضين للهلاك في صحراء قاحلة لا يرتادها أحد، ليقيموا دين الله ويعبدوه، وهما بانتظار رحمة الله ولطفه.

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 30

[3] سورة إبراهيم: الآية 28

[4] ينظر: أبو حيان، البحر المحيط: 444/6

[5] ينظر: الماوردي، النكت والعيون: 136/3، ابن عطية، المحرر الوجيز: 337/3، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 364/9

[6] الأثر رواه الحاكم في مسنده في كتاب التفسير، باب تفسير سورة إبراهيم برقم: 3343، وقال عنه: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ.

[7] سورة إبراهيم: الآية 37

وكذلك جاء الخبر لغرض الاستعطاف وإظهار العجز إضافة إلى غرض الثناء والتعظيم في قوله تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم: (إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)[1] ومعنى قول الخليل: ربنا إنك أعلم منا بأحوالنا ومصالحنا ومفاسدنا، وقيل: إن إبراهيم قصد بـ (ما نعلن) الحوار الذي دار بينه وبين السيدة هاجر عندما ودعها قافلاً[2]، وبـ (ما نخفي) الوجد المتمكن من قلبه بسبب فراقه لهاجر وابنه إسماعيل. وبما أن الله تعالى عالم بكل شيء فلا حاجة لتسمية المطالب الجزئية، وهو ما جعل الخليل يكتفى بتقديم شعائر العبودية بين يدي الله بإظهار ضعفه وعجزه، والافتقار لرحمة الله تعالى، والحاجة لفضله ولطفه في تيسير أمره وتفريج كربته. ثم جاء الخبر الثاني الذي قصد منه إبراهيم عليه السلام الثناء على الله تعالى بأنه علّام الغيوب[3] لا تخفى عليه خافية.

الفرح وإظهار السرور

حينما انتهى إبراهيم عليه السلام من الثناء على الله تعالى انتقل إلى شكره على هباته، فجاء خبره بغرض إظهار الفرح والسرور وتعبيراً عن الشكر (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ)[4] وقد كان فرح سيدنا إبراهيم كبيراً ولا شك، ومتناسباً مع عظم الهبة والعطية، إذ إن الله تعالى قد رزقه إسماعيل وإسحاق بعد طول انتظار وبعد انقطاع الرجاء بالإنجاب كما دلَّ عليه قوله: (على الكبر).

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 38

[3] حين قالت له هاجر عند الوداع: إلى من تكلنا؟ فقال: إلى الله أكلكم، قالت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا نخشى. ينظر: الطبري، جامع البيان:19/17

[4] ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: 343/3

[5] سورة إبراهيم: الآية 39

العنيف والتوبيخ

نحو ما جاء في قوله: (وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ) حيث ورد للمفسرين في المقصود من قوله: (سكنتم) قولان[1]؛ الأول: من السكون أي الاطمئنان، فيكون المعنى أنكم اطمأنتم إلى الظلم والفساد، وصاحبتم الظالمين لأنفسهم وسرتم سيرتهم بالرغم من أنه تبين لكم ورأيتم في ديارهم آثار العقاب والهلاك الذي نزل بهم[2]. والثاني: من السكنى بمعنى الحلول والمكث، وقد عدي بحرف الظرفية خلافاً لأصل فعله المتعدي بنفسه، والمعنى: أنكم أثناء مسيركم في تجاراتكم حللتم في ديار الظالمين لوقت يكفي للاتعاظ وأخذ العبرة مما وقع بهم، في إشارة إلى واقع كفار قريش في رحلاتهم التجارية إذ كانوا يمرون بديار قوم ثمود في طريقهم إلى الشام، يحطون رحالهم هناك، كما كانوا يمرون على ديار قوم عاد في رحلتهم إلى اليمن[3].

ومن التوبيخ أيضاً ما ورد في قوله تعالى: (وَقالَ مُوسى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ ومَن في الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ) فقوله: (لغني حميد) يتضمن تعظيم الله تعالى وتحقير الكافرين في الوقت نفسه، وقوله: (حميد) توبيخ لهم، حيث إن الله تعالى يتصف بما يوجب له دائماً المحامد كلها لم يزل ولا يزال، فكفركم أيها المغفلون بإله هذه صفاته غاية في التخلف والخذلان، وفيه كذلك تقريع لهم مفاده أن الله تعالى ذو

---

[2] ينظر: السمرقندي، بحر العلوم: 247/2، الزمخشري، الكشاف: 565/2، أبو السعود العمادي، إرشاد العقل السليم: 57/5

[3] ينظر: الزحيلي، وهبة بن مصطفى، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر – دمشق، الطبعة: الثانية، 1418 هـ، 274/13

[4] ينظر: طنطاوي، محمد سيد، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة: الأولى، 575/7

نعم وآلاء عليهم كانت تستوجب منهم الحمد لكنهم كفروا[1]، فكان ذلك منهم ضلالاً ما بعده ضلال.

التحقير وإظهار العجز

ومن أغراض الخبر التي ظهرت في آيات سورة إبراهيم تحقير مكر الكفار، وإظهار عجزهم، في قوله تعالى: (وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)[2]، حيث بين الله تعالى تشابه أحوال مشركي قريش مع أحوال من سبقهم من الأمم حين مكروا مكرهم وبذلوا كل جهدهم وأفرغوا وسعهم في إبطال الحق وتقرير الباطل، و (وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ) أي مكتوب عند الله فعلهم فهو مجازيهم عليه، وفي قوله:(وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ) قال المفسرون إن الخبر يحتمل وجهين:

الأول: تعظيم لمكرهم[3] وتبييتهم للشر وتدبيره حتى إنه من القوة والصلابة بحيث يؤثر في الجبال مضرب المثل في الثقل والثبات[4]، وأبعد شيء عن تصور الزوال والتزعزع، والمعنى أنه مع ذلك ليس خاف على الله ولا مجهول؛ بل هو في نطاق علم الله وطوق قدرة الله تعالى (وعند الله مكرهم).

والثاني وهو الأقرب: أنه تعالى أراد بالجبال آياته وشرائعه[5] لأنها من الثبات والتمكن بمنزلة الجبال الراسيات، لا يضرها كيدهم شيئاً وإنما يعود عليهم وبال ما

---

[2] ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: 326/3

[3] سورة إبراهيم: الآية 46

[4] ينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل: 203/3

[5] ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: 346/3، وسيد قطب، في ظلال القرآن: 2112/4

[6] ينظر: الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن: 326/5، وابن عطية، المحرر الوجيز: 346/3، ومكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 3843/5، الزحيلي، التفسير المنير: 275/13

حاكوه من شر وسوء، وهذا على تقدير (إن) نافية واللام في (لتزول) مؤكدة لها[1]، فيكون المعنى: (وما كان مكرهم لتزول منه الجبال) أي ليس من شأن مكرهم أن يؤثر في شرائع الله الراسخة رسوخ الجبال، وعليه يكون الغرض من إلقاء هذا الخبر التحقير من شأن مكرهم وتصغيره وتهوينه، وفضحهم بإظهار عجزهم وفشل تدابيرهم.

أغراض الخبر في خطبة إبليس في أتباعه

ويلاحظ الباحث تنوع الأغراض من الأخبار التي وردت على لسان إبليس في جهنم حين وقف خطيباً في أتباعه، فبدأ كلمته باعتراف صريح بحَقِّيَّة وعد الله تعالى قائلاً إن الله الذي له صفات الكمال قد وعدكم وعداً حقاً، ودعاكم لدينه القويم، وأرسل إليكم رسلاً، وأنزل معهم البينات والبراهين، وبشر من أجاب، وحذر من أبى، وها هو قد صدقكم فوفَّى ما وعد، وأما أنا فأقرّ بنكوب صراطي وزيغ دعوتي، وإخلاف وعدي فقال كما حكاه القرآن الكريم: (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ)[2]، فكان الغرض من الخبر **الاعتراف بالضلال والإضلال**، ثم انتقل من الاعتراف إلى التنديم والتوبيخ من خلال التبرّي من أتباعه وهو الغرض الثاني الذي ظهر في كلامه حين قال: (وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ) فهو يلقي باللائمة عليهم فيما حل بهم من العذاب، محاولاً التنصل من المسؤولية، ويحتج على ذلك بأنه لم يكن له عليهم أي تسلط أو حجة تدل على صدقه، إلا ما كان من وسوسة وتزيين للمعصية وتسويل عليها.

ثم ينتقل إلى غرض آخر وهو **التيئيس وإظهار** الخيبة فيقول: (مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ) والجملة بيان لجملة النهي عن

---

[2] ينظر: الزمخشري، الكشاف: 565/2

[3] سورة إبراهيم: الآية 22

اللوم " لِأَنَّ لَوْمَهُ فِيهِ تَعْرِيضٌ بِأَنَّهم يَتَطَلَّبُونَ مِنهُ حِيلَةً لِنَجاتِهِمْ، فَنَفى ذَلِكَ عَنْ نَفْسِهِ بَعْدَ أَنْ نَهاهم عَنْ أَنْ يَلُومُوهُ"[1] والإصراخ: الإغاثة، اشتق من الصراخ، لأن المستغيث يصرخ بأعلى صوته[2]، والمعنى: ما أنا بمغيثكم[3] ومخلصكم مما أنتم فيه من العذاب، ولا أنتم بمغيثيَّ مما أنا فيه من العذاب، وفي ذلك إرشاد من الشيطان لأتباعه بأن يكفوا عن انتظار الإغاثة والتخليص منه، لكونه هو نفسه مبتلى بما ابتلوا فيه هم من العذاب، ومن كان هذا شأنه لا يتوقع منه فعل شيء. نظير ما ورد في قول أمية بن أبي الصلت[4]:

فَلا تَجْزَعُوا إنّي لَكم غَيْرُ مُصْرِخٍ ولَيْسَ لَكم عِنْدِي غَناءٌ ولا نَفَرُ[5]

وتختتم الآية بخبر مفاده: (إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) قيل[6]: هو من كلام الله تعالى، وقيل[7]: بل هو من تمام خطبة الشيطان، فعلى الأول يكون الغرض منه التهديد والوعيد، وعلى الثاني يظهر أن الله تعالى إنما حكى ما سيقوله إبليس في تلك اللحظة ليكون ذلك المشهد عبرة ولطفاً بالسامعين، وإيقاظاً لهم للنظر إلى عاقبتهم والاستعداد لما لا بدَّ لهم من الوصول إليه[8]، وحثاً لهم على تصور ذلك المقام الذي يعترف فيه

---

[2] الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير: 220/13

[3] المصدر السابق.

[4] ينظر: النيسابوري، محمود بن أبى الحسن بن الحسين، إيجاز البيان عن معاني القرآن، دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى - 1415 هـ، 461، وبيان الحق، محمود بن أبي الحسن، باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن، جامعة أم القرى - مكة المكرمة حرسها الله تعالى، 1419 هـ - 1998م، 763/2

[5] ينظر: الشوكاني، فتح القدير: 124/3

[6] ذكره نشوان الحميري في " شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم " دار الفكر المعاصر (بيروت - لبنان)، دار الفكر (دمشق - سورية)، الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 1999م، مادة (الإصراخ)

[7] ينظر: النسفي، مدارك التنزيل: 171/2

[8] ينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل: 198/3

[9] الزمخشري، الكشاف: 552/2

الشيطان ويدلي بشهادته، فيكون ذلك أدعى لهم للخوف والعمل على اتقاء ذلك الموقف وتخليص أنفسهم منه.

وكان للرازي مذهب آخر فهو وإن رجح كون التذييل من كلام الله تعالى عاد ليقول: "ولا يَبْعُدُ أيْضًا أنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِن بَقِيَّةِ كَلامِ إبْلِيسَ قَطْعًا لِأطْماعِ أُولَئِكَ الكُفّارِ عَنِ الإعانَةِ والإغاثَةِ. واللَّهُ أعْلَمُ "[1]

ثانياً - أضراب الخبر

عرضنا فيما مضى الأغراض التي يلقي لأجلها المتكلم خبره، وعرفنا أن الخبر يخرج أحياناً عن أغراضه الأصلية لأغراض مجازية تفهم من سياق الكلام، وأوردنا لذلك من سورة إبراهيم طائفة من الأمثلة.

ومن المعلوم أن وظيفة علم المعاني بيان مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فهو يرشدنا كيف نراعي المقام الذي نتحدث فيه، ليكون الكلام مناسباً له، لأن للكلام مقامات وأحوالاً تقتضي قوالب معينة وصياغات محددة، فمقام المنكر لحكم الخبر يستدعي صياغة الخبر بشكل مختلف عنه في مقام الشاك المتردد، وهو بدوره يختلف في حال كان المخاطب خالي الذهن، لذا وجب على المتكلم أن يَزِن كلامه، فيلقي به من غير زيادة ولا نقصان.

وقد تنبه العرب إلى ذلك وتقيدوا به في أخبارهم، يشهد له قول عبد القاهر الجرجاني: "واعلمْ أَنّ ممَّا أَغمضَ الطريقَ إِلى معرفَةِ ما نحنُ بصدده، أَنَّ ههنا فروقاً خفيَّةً تَجهلُها العامَّةُ وكثيرٌ من الخاصة، ليس أَنَّهم يَجْهلونَها في موضعٍ ويَعْرفونها في آخرَ، بل لا يَدْرون أَنها هي، ولا يَعْلمونها في جملةٍ ولا تفْصيل"[2] ثم مثَّل لذلك بما

---

[2] الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 89/19

[3] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: 315

وقع للمبرد مع الكندي[1] الذي سأله قائلاً: إني لأجد في كلام العرب حشواً، فقال له المبرد: في أي موضع وجدت؟ قال: أجد العرب تقول: عبد الله قائم، وإن عبد الله قائم، وإن عبد الله لقائم، فالمعنى واحد رغم الألفاظ المتكررة، فرد عليه المبرد: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم عبد الله قائم إخبار عن قيامه، وقولهم: إن عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل، وقولهم: إن عبد الله لقائم جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني[2].

وبناء على كلام المبرد قسم أهل البلاغة الخبر من حيث تأكيده وعدم تأكيده إلى ثلاثة أقسام أطلقوا عليها (أضراب الخبر) وهي:

الخبر الابتدائي[3]

ويراد به إلقاء الخبر خالياً من أدوات التوكيد، ويلجأ إليه عندما يكون المخاطب خالي الذهن من مدلول الخبر ليستقر في ذهن المخاطب ويتمكن من نفسه تحقيقاً لقول الشاعر:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا[4]

---

[2] هو يعقوب بن إسحاق بن الصباح، كان رأساً في المنطق اليوناني والهيئة والتنجيم والطب، كان يقال له: فيلسوف العرب، قال عنه الذهبي: " كان متهما في دينه، بخيلا، ساقط المروءة .. همَّ بأن يعمل شيئا مثل القرآن، فبعد أيام أذعن بالعجز". سير أعلام النبلاء: 337/12، وينظر: العسقلاني، لسان الميزان: 305/6

[3] ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: 315

[4] ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم: 170، التفتازاني: المطول شرح تلخيص المفتاح: 184، علي الجارم – مصطفى أمين، البلاغة الواضحة: 144، وعتيق، عبد العزيز، علم المعاني، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1430هـ - 2009م، 52

[5] البيت بلا نسبة في مفتاح العلوم: 170، وهو لقيس بن الملوح مجنون ليلى في روح المعاني: 42/1

ومن أمثلة هذا الضرب قوله تعالى حكاية عن قول سيدنا إبراهيم: (قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا)[1] فالخبر ألقي من سيدنا إبراهيم عليه السلام لقومه دون مؤكدات نظراً منه لحالهم في عدم التردد والإنكار في بداية الأمر، لأن تمحيص ذلك الخبر واختباره استدعى منهم الرجوع إلى نفوسهم والاحتكام إلى عقولهم كما قال تعالى: (فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (64) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ)[2] فأذهانهم كانت شاغرة عما جاء به الخبر أول الأمر لذا لم يصادف لديهم اعتراضاً ولم يحتج إلى تأكيد.

ومن الضرب الابتدائي أيضاً الخبر الوارد في قوله تعالى: (الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) فالآية خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، تضمنت حكماً يبين الحكمة من إنزال القرآن الكريم ويوضح وظيفة النبي صلى الله عليه وسلم، وهو -النبي صلى الله عليه وسلم - لا شك خالي الذهن منه غير متردد فيه ولا منكر، لذا جاء الخبر ابتدائياً مستغنياً عن المؤكدات.

الخبر الطلبي[3]

ويكون حينما يدخل الشك نفس المخاطب ويتردد في قبول الحكم الذي يتضمنه الخبر، حاله كحال طالب يسأل صحة الخبر، مما يستدعي تأكيد الخبر وتقويته، فيحسن عندها أن يؤتى بالجملة الخبرية مقترنة بما يؤكد صحة الخبر، ويكون مقدار التأكيد مناسباً لحجم التشكيك، فكلما زادت نسبة التشكيك حسن زيادة عدد المؤكدات المزيلة لها.

---

[2] سورة الأنبياء: الآية 63

[3] سورة الأنبياء: الآية 65

[4] ينظر: السبكي، عروس الأفراح: 120/1، عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح: 43/1، حامد عوني، المنهاج الواضح للبلاغة: 13/2

ومثال هذا النوع في سورة إبراهيم قوله تعالى: (وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ)[1] فالخبر في قوله: (وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ) يأتي في سياق تصوير مشهد العذاب الذي ينتظر الجبار العنيد، ومعنى قوله تعالى: (وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ) أي؛ تتألب عليه أسباب الموت وأصناف العذاب كلها، وتحيط به من كل جانب، وتدخل عليه من كل عضو من أعضائه "حتى من أصول شعره وإبهام رجله"[2]. ولما كان من شأن هذه الغلظة من العذاب أن تزهق نفس الإنسان وتقضي عليه حسب سنن الحياة الدنيا ونواميسها، وأعقبه خبر آخر (وما هو بميت) نبه به الباري عز وجل على أنه لا يقضى على الكافر رغم شدة العذاب ولا يموت فيستريح، أثار هذا الخبر الأخير حيرة في نفس السامع وتردداً في قبوله، فاقتضى الأمر تأكيد الجملة بإحدى أدوات التأكيد، وهي هنا الباء الزائدة التي دخلت على الخبر في قوله (بميت) لغرض تمكين الخبر في ذهن المخاطب وإزالة الشكوك عنه.

ومن الخبر الطلبي كذلك ما ورد في قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (19) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ)[3] إذ يبرهن الله تعالى على قدرته على إيجاد المعدوم وإعدام الموجود، بأن من خلق السموات على ارتفاعها واتساعها وعظمتها وما فيها من كواكب وأجرام، والأرض بما فيها من مهاد وأوتاد وبراري وقفار هو قادر على إفنائكم أيها المعاندون والاستبدال بكم[4]، فلما ذكر (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأت بِخَلْقٍ جَدِيدٍ) تطلب الخبر تأكيداً يزيل التردد الحاصل عند المخاطب في قبول هذا الخبر، ويستجيب لتشوفه إلى

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 17

[3] البيضاوي، أنوار التنزيل: 196/3، وينظر: الخطيب الشربيني، السراج المنير 175/2

[4] سورة إبراهيم: الآيتان 19، 20

[5] ينظر: الزمخشري، الكشاف: 547/2، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 487/4

تقريره، فجاء بقوله: (وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ) الذي تضمن خبراً مؤكداً بالباء الزائدة في (بعزيز) لترسيخ الحكم وتقويته.

ومن الخبر الذي ورد طلبياً في السورة الكريمة قوله تعالى: (فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ)[1]، وقوله تعالى: (لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)[2]، وكذلك التوكيد في قوله تعالى حكاية عن أهل النار: (إِنَّا كُنَّا لَكم تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنّا مِن عَذابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ)[3]

الخبر الإنكاري[4]

ويلقيه المتكلم حينما يكون المخاطب منكراً للحكم الذي يتضمنه الخبر، معتقداً خلافه، وعندها يجب تأكيد الخبر بمؤكدين أو أكثر على حسب إنكار المخاطب قوة وضعفاً، وجدير بالذكر ان التأكيد كما يكون في الإثبات يكون في النفي أيضاً.

ومن أمثلة هذا النوع في سورة إبراهيم قوله تعالى: (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)[5] فقد جاء الخبر مؤكداً بعدة مؤكدات هي: إن، واللام المزحلقة الداخلة على اسم (إن)، وصيغتا المبالغة في فعَّال (صبار)، وفعول (شكور)، ولا شك أن ما تضمنه الخبر من حكم هو موضع إنكار عند جميع المشركين، سيما وأن الخبر يشير إلى الآية السابقة عليه[6] التي يأمر فيها الله تبارك وتعالى نبيه موسى أن يذكر قومه بـ (أيام

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 47

[3] سورة إبراهيم: الآية 51

[4] سورة إبراهيم: الآية 21

[5] ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم: 171، شرف الدين الطيبي، لطائف التبيان في علمي المعاني والبيان: 59، عبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 179/1

[6] سورة إبراهيم: الآية 5

([7]) في قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) (إبراهيم: 5)

الله) المتضمنة آلاءه في إنجائهم من بطش فرعون وزبانيته وفلق البحر لهم وتظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم، ونقمه التي أحلها بالأمم الكافرة قبلهم على سبيل الترغيب والترهيب، فكان قوله: (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) تذييلاً يعني: إن في ذلك التنبيه والتذكير أو في أيام الله دلائل لمن اتصف بالصبر والشكر، لأن " الحالَ إمّا أنْ يَكُونَ حالَ مِحْنَةٍ وبَلِيَّةٍ أوْ حالَ مِنحَةٍ وعَطِيَّةٍ، فَإنْ كانَ الأوَّلَ كانَ المُؤْمِنُ صَبّارًا، وإنْ كانَ الثّانِيَ كانَ شَكُورًا"[1].

ولكن لقائل أن يقول: إن ما ذكر يصلح أن يكون آيات لكل مؤمن فلما خص الصبار الشكور؟

يجيبنا الفخر الرازي على ذلك بوجهين[2]:

الأول: لما كان الصبار الشكور أكثر المنتفعين بهذه الدلائل، صارت الآيات كأنها ليست إلا لهذا النوع، نظير ما في قوله تعالى: (ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ)[3]، وقوله: (إنما أنت منذر من يخشاها)[4]

الثاني: إن الانتفاع بهذا التذكير لا يحصل إلا لمن اتصف بهاتين الصفتين، أما الذي لا يكون كذلك فهو محروم على عينه عشاوة عن هذه الآيات.

ومن الضرب الإنكاري كذلك الخبر في قوله تعالى: (وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)[5]

---

[2] الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 65/19

[3] ينظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 65/19

[4] سورة البقرة: الآية 2

[5] سورة النازعات: 45

[6] سورة إبراهيم: الآية 34

وقد قيل في تفسير ظلوم أنه يظلم النعمة بترك شكرها، أو يضعها في غير موضعها، أو أنه ظالم لنفسه بتعريضها للحرمان، وقيل: إنه ظلوم حين يظن أن شكره يقابل نعم الله تعالى[1]، و(كفار) ساتر لتلك النعم جاحد لها ومنكر، وقد أورد الله تعالى الخبر مؤكداً بأربع مؤكدات[2]: إن، واللام المزحلقة في (لظلوم) إضافة لصيغتي المبالغة فعول وفعَّال. وجاء إنكارياً لمخالفته اعتقاد المخاطبين من المشركين المتصفين بما تضمنه الخبر من صفات الظلم والكفران.

ويلاحظ أن الآية ختمت هنا بقوله: (إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) فيما جاءت في سورة النحل[3] مختتمة بقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) فما الفرق بين الخاتمتين؟ ولماذا اختلفتا رغم انهما تذييل للكلام نفسه وهو قوله تعالى: (وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)؟

يجيبنا عن ذلك سياق الآيتين، فلما كان الحديث هنا عن قبائح الإنسان من كفران للنعمة وجحود لها وظلم لنفسه بدأ بقوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا) ثم قوله: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا) وغيرها من القبائح، ناسبها التذييل بقوله: (إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)، أما سياق آية النحل فكان عن تعداد فضائل الله تعالى على

---

[2] ينظر: الألوسي، روح المعاني: 219/7

[3] ينظر: قاسم-حميدان – دعاس، إعراب القرآن الكريم: 133/2، ودرويش، محيي الدين بن أحمد مصطفى، إعراب القرآن وبيانه، دار الإرشاد للشئون الجامعية - حمص – سورية، الطبعة: الرابعة، 1415هـ، 196/5

[4] سورة النحل: الآية 16

الإنسان[1]، وبعد أن أطنب في ذكرها حسن التذييل بوصف الله تعالى بالمغفرة والرحمة حضاً للناس وتحريضاً لهم على الرجوع إليه تعالى[2].

ومن الآيات التي ورد فيها الخبر إنكارياً أيضاً قوله تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)[3] حيث جاء الخبر في قوله: (إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) مؤكداً بـ (إنَّ) ولام المزحلقة الداخلة على خبرها إضافة إلى اسمية الجملة[4].

وللعلماء في جملة (إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) قولان[5]:

الأول: أنها خبر سد مسد جوابي القسم والشرط في قوله: (ولئن كفرتم) بمعنى: لئن كفرتم وجحدتم إنعامي عليكم فإن عذابي شديد، ولا بدَّ أن يصيبكم منه ما يصيبكم، وقد جاء الخبر تعريضاً، وهذا أسلوب رفيع للقرآن الكريم، إذ من عادة الكرام التصريح بالوعد والتعريض بالوعيد.

---

[2] سياق الآية هو قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (11) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۚ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (12) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (13) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (14) وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15) وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (16) أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (17) وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (18))

[3] ينظر: أبو حيان، البحر المحيط: 441/6

[4] سورة إبراهيم: الآية 7

[5] ينظر: الصافي، محمود بن عبد الرحيم، الجدول في إعراب القرآن الكريم، دار الرشيد، دمشق – مؤسسة الإيمان، بيروت، الطبعة: الرابعة، 1418هـ، 159/13

[6] ينظر: الألوسي، روح المعاني: 181/7

الثاني: أن جملة جواب (ولئن كفرتم) محذوفة تقديرها (لأعذبنكم) والخبر في قوله: (إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) جاء تعليلاً لها، وقد احتاج الخبر للتأكيد كونه موجهاً لمن ينكره ولا يعبأ به، بل ولا يعتقده أصلاً.

ومن أمثلة الخبر الإنكاري كذلك في السورة قوله تعالى: (وقالَ مُوسى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ ومَن في الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حُمَيْدٌ)[1] فبعد أن بيَّن سيدنا موسى عليه السلام أن الاشتغال بشكر النعم يوجب تكاثرها وزيادتها، وأن التلبس بجحودها يستوجب العذاب الشديد، عاد هنا لينبه على أمر قد يخامر قلب الكافر، ويداخل نفسه فيذهب به إلى الاعتقاد بأنه إنما يحسن إلى الله بإيمانه، وأن أنبياء الله حين يلحون عليه ويرجون توبته إنما يريدون بذلك تقوية دينهم وتعزيز جانبهم حرصاً منهم على مصلحتهم، فلما وعد الله الشاكرين بالزيادة والكافرين بالعقوبة " خَشِيَ أنْ يَحْسَبُوا ذَلِكَ لِانْتِقامِ المُثِيبِ بِما أثابَ عَلَيْهِ، ولِتَضَرُّرِهِ مِمّا عاقَبَ عَلَيْهِ، فَنَبَّهَهم إلى هَذا الخاطِرِ الشَّيْطانِيِّ حَتّى لا يَسْرِيَ إلى نُفُوسِهِمْ فَيُكْسِبَهم إدْلالًا بِالإيمانِ والشُّكْرِ والإقْلاعِ عَنِ الكُفْرِ"[2] فجاء قوله: (فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حُمَيْدٌ) ليؤكد أن منافع الشكر لا تعود إلا على الشاكر، ومضار الكفر لا تعود إلا على الكافر، وأن الله تعالى غني: وهو الذي لا حاجة له في شيء. ويدخل في عموم غناه أنه غني عن الذين يكفرون، وأنه حميد: محمود من غيرهم مستغن عن حمدهم، وأنهم حامدون له بلسان حالهم كرهاً وإن لم تنطق به ألسنتهم.

وكما نلاحظ فإن الخبر جاء مؤكداً بـ (إن)، واللام المزحلقة إضافة إلى اسمية الجملة، والذي استدعى تأكيده أن الكافرين المخاطبين كانوا يعتقدون خلاف مضمون الخبر كما ذكرنا.

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 8

[3] الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير: 194/13

ومن الضرب الإنكاري ما جاء على لسان الأقوام البائدة قوم نوح وعاد وثمود حين سعى رسلهم في هدايتهم بالإقناع من خلال الحوار بالحجج والبراهين والبينات، فجاءهم الجواب ضمن خبر إنكاري مؤكد يقطع جميع سبل التفاهم، وينهي كل أشكال الحوار، ويقضي على أدنى رجاء وأمل في هدايتهم حين قالوا: (إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)[1] ونلاحظ أنهم أكدوا الخبر بمؤكدات متعددة ومتنوعة ليقطعوا رجاء الرسل، ويقنطوهم من التصديق، فصدروا الجواب بـ (إنّ) ، ثم أوردوا فعل الكفر بصيغة الماضي (إنا كفرنا) تحقيقاً لوقوعه، وسموا ما كفروا به (مرسلاً به) رغم كفرهم به على سبيل التهكم والاستهزاء نظير ما ورد في قوله تعالى: (وقالُوا يا أَيُّها الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ)[2]، ثم كرروا (إنَّ) مع اللام المزحلقة الداخلة على خبرها، ثم أكدوا شكهم بإيراد مرادفه (مريب) تحقيقاً له وتقريراً لماهيته نحو قول العرب: ليلٌ أليلٌ، وشعرٌ شاعرٌ[3].

وقد يثير مجيء الشك بعد التصريح بالكفر تساؤلاً إذا علمنا أن الشك يعني "الوقوف بين الضدين دون ترجيح بينهما"[4]، فما فائدة قولهم: (وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ) وهم قد صدعوا بالكفر ولم يتركوا فسحة للمراجعة والتفكير حين قالوا: (إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ)؟

أجاب عن ذلك الطاهر بن عاشور بما مفاده[5]: أن كفرهم كان موجهاً إلى نسبة دعوة الرسل إلى الله تعالى، وأما الشك فمتعلق بصحة ما يدعونهم إليه وصلاحيته، إذ هو قابل عندهم للنظر والتمحيص لتمييز صحيحه من سقيمه، وكأن مرادهم: أنكم

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 9

[3] سورة الحجر: الآية 6

[4] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 198/13

[5] البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 10/ 390

[6] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 198/13

أيها الرسل وإن كنتم كاذبين في دعوى الرسالة والنبوة، فقد يكون بعض ما تدعون إليه حقاً لأن الكاذب لا يعدم صدقه أحياناً.

وكذلك جاء الخبر إنكارياً في قوله تعالى: (**لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ** (13) **وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ**)[1] وعداً للرسل ومن اتبعهم في وجه الظالمين الذين توعدوهم بإخراجهم من ديارهم إن لم يتركوا دينهم ويعودوا إلى ملة الكفر، فأكد الباري عز وجل الخبر بلام القسم ونون التوكيد الثقيلة في قوله: (لَنُهْلِكَنَّ)، وقوله: (وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ) رداً على تلك الفئة المتجبرة التي ظنت نفسها قادرة على تنفيذ وعيدها ومس الرسل والمؤمنين بسوء. فجاء التأكيد في وعد الله تعالى المؤمنين ووعيده للظالمين لئلَّا يكون أضعف من تهديد الكافرين الذين أكدوا كلامهم (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا)[2] وقد جاء الخبر في كلامهم إنكارياً كذلك رداً على اعتصام الرسل بالله تعالى وعزمهم التوكل عليه وإظهارهم الصبر في مقابل أذى الظالمين (وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)[3]

وأخيراً يظهر للمتأمل في السورة الكريمة كثرة ورود الخبر موشحاً بثوبه الإنكاري، وهو- بحسب رأي الباحث – أمر طبيعي اقتضته ضرورة مجيء الكلام مطابقاً لمقتضى الحال ومناسبته لجو السورة العام من حيث الموضوعات التي تناولتها والقضايا التي عالجتها، فهي من السور التي نزلت بمكة وتضمنت ركائز العقيدة الإسلامية وسعت إلى تثبيتها وترسيخا، ولما كانت الحقائق التي انطوت عليها هذه العقيدة موضوع إنكار وجحود، ومحور جدل طويل مع المشركين، استدعت البلاغة إلقاء الخبر الحامل لها مؤكداً بالضرب الإنكاري ليناسب حال المخاطب ومقام الحديث.

---

[2] سورة إبراهيم: الآيتان 13، 14

[3] سورة إبراهيم: الآية 13

[1] سورة إبراهيم: الآية 12

ثالثاً - خروج الخبر على مقتضى الظاهر

قد يجري المتكلم خبره على خلاف الظاهر من حال المخاطب، فلا يعتد في صياغته بما سبق من الأحوال، وإنما يجريه على أمور اعتبارية تنزيلية يلحظها هو، ويعتبرها مقامات يصوغ عبارته وفق مقتضاها، وذلك في مواطن دقيقة لا يهتدى إليها إلا بعد طول نظر وتأمل، منها:

تنزيل خالي الذهن منزلة السائل المتردد

ويكون ذلك عندما تتضمن الجمل السابقة على الخبر إشارات أو أيماء يثير في نفس السامع تساؤلاً فيأتي الخبر مؤكداً ليجيب عن هذا التساؤل ويواجه التردد الحاصل في ذهن المخاطب[1] نحو قوله تعالى: (قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ)[2] فإن أمر الباري عز وجل الكافرين بالتمتع والتنعم بالشهوات وملذات الحياة الدنيا بعد قوله تعالى: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ)[3] أثار في نفس المتلقي تساؤلاً عن سبب ذلك، إذ كيف يؤمر من جعل لله شركاء أن يستمر في غيه ويسترسل في ضلاله بالتمتع بالشهوات، فجاء الخبر في قوله تعالى: (فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ) جواباً عن هذا التساؤل وأكد بـ (إن) لرفع الشك الذي يدفع المخاطب للتردد في قبول هذا التعليل.

ومنه الخبر الوارد في قوله تعالى: (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)[4] خطاب لكل من توهم أن تأخير العذاب عن المجرمين مع توافر أسبابه إهمال من الله تعالى وغفلة، أو هو خطاب إلى النبي صلى

---

[2] أبو يعقوب المغربي، مواهب الفتاح (ضمن شروح تلخيص المفتاح): 210/1، والصعيدي، بغية الإيضاح: 45/1، والهاشمي، جواهر البلاغة: 58

[3] سورة إبراهيم: الآية 30

[4] سورة إبراهيم: الآية 30

[1] سورة إبراهيم: الآية 42

الله عليه وسلم مراد به تثبيته على ما هو عليه من عدم حسبانه الغفلة في حق الله تعالى، وهذا الخطاب جار على سبيل التسلية للمظلوم والتهديد للظالم.

وقد أكد البيان الإلهي الخبر بـ (إنما) ليقع موقع الجواب المؤكد عن تساؤل قد يثيره في ذهن المخاطب قوله تعالى أولاً (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ) ويولد عنده تشوفاً إلى معرفة سبب النهي عن الحسبان، فورد الخبر مؤكداً تنزيلاً للمتلقي منزلة السامع المتردد في قبول الجواب.

ونظير ما سبق تأكيد الخبر في قوله تعالى: (فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)[1] أُكِّد فيه الخبر بـ (إن) في جواب تساؤل نشأ عن النهي في قوله: (فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ...) مفاده: أن موجب إخلاف الوعد له احتمالان إما العجز أو عدم اعتياد الموعود له، وكلاهما منتف عن الله تعالى، الأول لكونه عزيزاً قادراً على كل شيء، الثاني لكونه صاحب انتقام[2].

تنزيل منكر الخبر منزلة غير المنكر

ومن ضروب الخروج على مقتضى الظاهر تنزيل منكر الخبر منزلة غير المنكر لعدم الاعتداد بإنكاره، وافتقاره للدليل المقنع، فلو أنه أنصف ونظر نظرة متأنية لعدل عن إنكاره وعاد لرشده[3]. نحو قوله تعالى: (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)[4] فإن الآية الكريمة تضمنت خبراً عظيماً يفيد أن كل ما في السماوات والأرض من ناطق وصامت كالجبال والبحار والحيوان والنبات يدين لله تعالى ويسبحه ويعبده، متضمناً -لا شك - ما يزلزل النفس ويرجها، ولكن

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 47

[3] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 252/13

[4] ينظر: السبكي، عروس الأفراح: 123/1، عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح: 47/1، عيسى العاكوب، المفصل في البلاغة العربية: 87

[5] سورة الجمعة: الآية: 1

الملاحظ أن النظم الحكيم قد ساق الخبر دون توكيد أو احتفال رغم كونه منكوراً عند الجاحدين[1].

ومن شواهده في سورة إبراهيم ما نراه من أخبار متوالية تتضمن أسَّ نظام الكون وأساس الخلاف بين الأنبياء والكافرين من أقوامهم جاءت في هدوء تام دون احتفال أو توكيد ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (33) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾[2] إذ حكم الخبر بمالكية الله تعالى للكون وحاكميته عليه، وأن كل ما ينال الناس مؤمنهم وكافرهم من الخير والنعم هو تفضل من الله تعالى يستوجب الشكر، وهي قضايا طال حولها جدال الرسل مع المنكرين ولا يزال يدور حولها النظر وتجهد فيها العقول وينكرها المنكرون.

ولكن المُلفِت للباحث أن الحكيم آثر الترفع عن جهالة المنكرين، فلم يلتفت إلى إنكارهم ولم يعبأ به، لأن الكون كله لسان ناطق ودليل شاهد على قوله، وهل بعد الكون من شاهد! وساق الخبر بأسلوب الواثق كما يساق إلى النفس الخالية الذهن بنبرة خافتة هامساً بالحقيقة بعيداً عن صخب المؤكدات وجلجلتها.

ومنه كذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾[3] إخبار من الله تعالى عن أمر عظيم يتعلق بمصير الإنسان وعاقبته، وهو أن الله تعالى يثبت المؤمنين به ويلقنهم حجتهم في موقف تتلعثم فيه الأفواه وتنعقد الألسن، ويتخلى عن الظالمين فيجعلهم في حيرة وارتباك. وهو كما ترى أمر في غاية الأهمية والخطورة لتعلقه بنجاة الإنسان وهلاكه،

---

[2] ينظر: محمد محمد أبو موسى، خصائص التراكيب: 87

[3] سورة إبراهيم: الآيات 32، 33، 34

[1] سورة إبراهيم: الآية 27

ويستلزم التوثيق والتأكيد، لكن البيان الإلهي أورده ابتدائياً مستغنياً عن أدوات التأكيد رغم أنه موضع إنكار الكافرين، في إشارة إلى عدم اعتباره واعتداده بإنكار المنكرين.

تنزيل غير المنكر منزلة المنكر

ويكون عند ظهور أمارات الإنكار على المخاطب فيستدعي ذلك خروجاً على الظاهر مراعاة لتلك العلامات[1]، ويحسن مخاطبته بأسلوب التوكيد أثناء توجيه الخبر إليه، ويستشهد البلاغيون لهذه اللون من الخبر ببيت لحجل بن نضلة الباهلي[2] يقول فيه مخاطباً ابن عمه:

جَاء شَقيقٌ عَارضاً رُمْحَهُ إنَّ بَنِي عَمكَ فِيهِمْ رِماحْ[3]

فالشاعر حينما رأي شقيقاً قد أقبل بهيئة تظهر عدم اكتراثه بالقوم، واضعاً رمحه على فخذيه عرضاً، عدَّ ذلك استخفافاً منه بقبيلة الشاعر، وعامله معاملة المنكر لقوتهم وسلاحهم بسبب هيئته الدالة على ذلك، وإن كان شقيق غير منكر لذلك حقيقة. فقال له: (إنَّ بَنِي عَمكَ فِيهِمْ رِماحْ) مؤكداً الخبر بـ إن.

وفي سورة إبراهيم أمثلة لذلك منها تأكيد الخبر في قوله تعالى: (**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ**

---

[2] ينظر: التفتازاني، المطول شرح تلخيص المفتاح: 188، محمد محمد أبو موسى، خصائص التراكيب: 90

[3] هو شاعر جاهلي، ورد أنه أسر (النَّوار) بنت عمرو ابن كلثوم، يوم (طلح) وفر بها في الفلاة خوفاً من أن يلحق به، وله في ذلك شعر مطلعه:

حنّت نوار ولات هنّا حنّت ... وبدا الّذى كانت نوار أجنت

لمّا رأت ماء السّلا مشروبا ... والفرث يعصر في الإناء أرنّت

ينظر: ابن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء: 97/1، والبغدادي، خزانة الأدب: 200/4، والزركلي، الأعلام:170/2

[4] البيت ذكره الجاحظ في "البيان والتبيين": 222/3، والسكاكي في "مفتاح العلوم": 174

لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)[1] فالآية جاءت رداً على المستغربين والطاعنين بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، بمعنى: لست يا محمد بدعاً من الرسل، وليس ما جئت به خروجاً على سنة الله تعالى مع خلقه بإرسال الرسل والكتب السماوية الهادية للناس، والدالة لهم على طرق الحق والخير، فقد أرسلنا من قبلك موسى أيضاً وجاء قومه بما جئت به قومك. وذِكْرُ موسى ورسالته هنا ردٌّ بالتمثيل بالنظير، وقد أكد النظم الحكيم خبره عن نبوة موسى ورسالته بمؤكدين: لام القسم، وحرف التحقيق (قد) فقال: (**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا**) رغم أن القوم لا ينكرون ذلك وإنما ينكرون رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، تنزيلاً لهم منزلة المنكرين رسالة موسى أيضاً، لأن حالهم في التكذيب برسالة محمد يقتضي ذلك، من باب أن ما جاز على المثل يجوز على المثيل[2]، فمصدر الرسالات واحد وغايتها واحدة، وواجب الناس أن يؤمنوا بها جميعها دون تفريق.

ومنه قوله تعالى حكاية عن قول الشيطان مخاطباً أشياعه في خطبته: (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ **إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ** وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ)[3] فأتى بالخبر مؤكداً (**إن الله**) رغم أن المخاطبين وهم أتباعه لا ينكرون حقية وعد الله تعالى في ذلك الموقف الذي ينجلي فيه كل شيء بدليل قوله تعالى: (لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ)، ولكنه جاء بالخبر مؤكداً استصحاباً لما كانوا عليه من الإنكار والتكذيب، وتذكيراً لهم على سبيل التوبيخ والتنديم. وأما الخبر المتعلق بوعده الباطل (وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ) فجاء ابتدائياً مستغنياً بحالهم ومآلهم عن التأكيد، إذ لو لم يخلفهم لما اجتمعوا معه في هذا الموقف المهين.

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 5

[3] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 189/13

[4] سورة إبراهيم: الآية 22

التعبير عن انفعالات المتكلم وخلجات نفسه

وهناك ضرب من التوكيد لا ينظر فيه إلى حال المخاطب من حيث التردد أو الإنكار، وإنما ينظر فيه المتكلم إلى حال نفسه، ومدى انفعاله بالحكم الذي تضمنه الخبر، وحرصه على إذاعته وتقريره في نفس المخاطب بالشكل الذي ترسخ به في ذهنه ووجدانه، وهذا اللون كثير وله مذاقات حسنة[1] مثاله قول الله تعالى واصفاً خداع المنافقين وإضمارهم الكفر: (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ)[2] فقد أكد المنافقون انتماءهم لشياطينهم (إنا معكم...) في حين خلا ادعاؤهم الإيمان من أي مؤكد وجاء الخبر ابتدائياً (قالوا آمنا)، ولاشك أن هذا الاختلاف يعود إلى الحالة النفسية للمتكلمين، إذ يعبر عن ضعف اعتقادهم وإيمانهم في مقابل شكهم وكفرهم يقول الزمخشري عن ذلك: "فإن قلت: لم كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية، وشياطينهم بالاسمية محققة بإن؟ قلت: ليس ما خاطبوا به المؤمنين جديرًا بأقوى الكلامين وأوكدهما؛ لأنهم في ادعاء حدوث الإيمان منهم، ونشئه من قبلهم لا في ادعاء أنهم أوحديون في الإيمان غير مشقوق فيه غبارهم، وذلك إما لأن أنفسهم لا تساعدهم عليه، إذ ليس لهم من عقائدهم باعث ومحرك، وهكذا كل قول لم يصدر عن أريحية وصدق رغبة واعتقاد، وإما لأنه لا يروج عنهم لو قالوه على لفظ التوكيد والمبالغة، وكيف يقولون ويطمعون في رواجه وهم بين ظهراني المهاجرين والأنصار"[3]

ومن هذا الضرب التوكيد في قول سيدنا إبراهيم عليه السلام متضرعاً إلى الله تعالى: (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ)[4]، وقوله:

---

[2] أبو موسى، خصائص التراكيب: 91

[3] سورة البقرة: الآية 14

[4] الزمخشري، الكشاف: 66/1

[5] سورة إبراهيم: الآية 37

(رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)[1] فلا يمكن القول إن الخليل جاء بالخبر مراعياً حال المخاطب لأن المخاطب هنا هو الله جل جلاله، وإنما جاء التأكيد بالنظر إلى حال المتكلم - سيدنا إبراهيم عليه السلام - تصويراً لحال نفسه الراجية ومدى انفعالها بهذا الرجاء وتأكيدها للدعاء، فهو يؤكد لوعة قلبه على فراق زوجه وولده وما يعتلج بين جوانحه من مشاعر العبودية الخاصة لله التي تدفعه للتوكل عليه والثقة بعطائه وفرجه، وهو في الآية الثانية كذلك يقرر هذه المشاعر بمؤكدين: (إنَّ) و(من) الزائدة التي تفيد تقوية المعنى، ليؤكد ضعفه أمام قدرة الله تعالى المحيط بكل شيء علماً وافتقاره الدائم إلى عونه وإحسانه.

وهو يخاطب ربه في آية أخرى مؤكداً مشاعر الأسف والحزن التي تعصف به على أولئك المغفلين الذين وقعوا في شراك الأصنام وضلالاتها فيناجي ربه: (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)[2] فجاء بالخبر مؤكداً بـ (إن) ليعبر عن حسه القوي بالشفقة والحسرة عليهم، فكان التوكيد لتوثيق الحالة الوجدانية للمتكلم وتقريرها بأقوى تعبير.

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 38

[1] سورة إبراهيم: الآية 36

المبحث الثاني: البلاغة القرآنية في الأساليب الإنشائية

الإنشاء لغة: الإيجاد والإحداث والإبداع، قال الراغب الأصفهاني: "النَّشْءُ والنَّشْأَةُ: إحداثُ الشيءِ وتربيتُهُ"[1] ومنه الخلق كما في قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ)[2]، وقال أيضاً: (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى)[3] وهو قسيم الخبر الذي فصلنا القول فيه، يقول القزويني: "ووجه الحصر أنّ الكلام إما خبر أو إنشاء، لأنّه إما أن يكون لنسبته خارج تطابقه أو لا تطابقه، أو لا يكون لها خارج. الأول الخبر، والثاني الإنشاء"[4].

وإذا كنا قد عرَّفنا الخبر بأنه: القول الذي يحتمل الصدق والكذب لذاته، ويصح أن يقال لقائله: إنه صادق فيه أو كاذب، أو بأنه قول لا يتوقف تحقق مدلوله على النطق به، وأن وجوده في الخارج سابق على التلفظ به، فإننا نستطيع أن نعرف الإنشاء بعكس الخبر أي؛ إنه قول لا يحتمل الصدق والكذب، فلا يجوز أن يقال لقائله: إنه صادق فيما قال أو كاذب، إذ ليس له واقع خارجي حتى يطابقه أو لا يطابقه[5]، بل هو قول يتوقف تحقق مدلوله على النطق له، بمعنى أن النطق به هو الذي ينشئ مدلوله، فطلب الفعل في (افعل)، وطلب الكف في (لا تفعل)، وطلب المحبوب في

---

[2] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن: 807، والجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، مادة (نشأ)، والزمخشري، أساس البلاغة: مادة (نشأ)

[3] سورة الأنعام: الآية 98

[4] سورة الواقعة: الآية 62

[5] القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 55/1

[6] ينظر: المغربي، مواهب الفتاح، والسبكي، عروس الأفراح (ضمن شروح تلخيص المفتاح): 234/2، والشريف الجرجاني، علي بن محمد بن علي، التعريفات، دار الكتب العلمية بيروت -لبنان، الطبعة الأولى 1403هـ -1983م، 38، وحامد عوني، المنهاج الواضح: 88/2، والهاشمي، جواهر البلاغة: 69/1، وأحمد مطلوب الصيادي، أساليب بلاغية: 107

(التمني)، وطلب الفهم في (الاستفهام)، وطلب الإقبال في (النداء) كل ذلك ما حصل إلا بنفس الصيغ المتلفظ بها.

وللإنشاء باعتبار المعنى نوعان:

الإنشاء غير الطلبي: وهو ما لا يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب[1].

والإنشاء الطلبي: وهو ما يستدعي مطلوبا غير حاصل في اعتقاد المتكلم وقت الطلب، قال القزويني: "وأنواعه كثيرة"[2] ولكن معظم البلاغيين يقصرونها على خمسة: الأمر، والنهي، الاستفهام، والتمني، والنداء. ومنهم من عد الترجي[3] قسماً سادساً. ومنهم من أخرج التمني والنداء منها[4].

ولم يعتن البلاغيون بالإنشاء غير الطلبي، لأن أكثر صيغه هي في الأصل أخبار نقلت إلى الإنشاء، ولهذا السبب لن تتناول دراستنا هذا النوع وإنما ستعكف على دراسة الإنشاء الطلبي لما يمتاز به من لطائف بلاغية.

وسنقف من هذه الأنواع فيما يأتي على ما توافرت له شواهد في السورة الكريم تحاشياً الخروج عن هدف الدراسة.

---

[2] له صيغ كثيرة منها: المدح، والذمّ، وصيغ العقود، والقسم، والتعجّب، والرّجاء، إضافة إلى ربّ، ولعلّ، وكم الخبرية. ينظر: محمد أحمد قاسم- محيي الدين ديب، علوم البلاغة: 282

[3] القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 55/1

[4] الترجي: ترقب حصول شيء محبوب أو مكروه، نحو: لعل الحبيب قادم ولعل الصديق مريض. وألفاظه لعل وعسى وحرى واخلولق. فهو عند البعض من أقسام الطلب وقيل: ليس منها ترقب الحصول. ينظر: عبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 251/1

[5] ينظر: السبكي، عروس الأفراح: 421/1، وعبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 251/1

أولاً - الاستفهام

الاستفهام لغة: مشتق من (الفَهْم) وهو العلم والمعرفة بالقلب، فيقال: فهِمتُ الشيءَ أفهَمُه، فَهْماً وفَهَماً وفهامة، واستفهمه: سأله أن يفهمه[1].

وأما اصطلاحاً عند البلاغيين فيعرف بأنه: "طلب حصول صورة الشيء في الذهن"[2] أو طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل[3]،وهو عين الاستخبار الذي هو طلب خبر ما ليس عندك، وهناك من فرق بين المصطلحين فجعل الاستخبار لما تطلب العلم به أولاً، وربما فهمته أو لم تفهمه، فإن عاودت السؤال فأنت مستفهم طالب للفهم[4].

وأدوات الاستفهام كثيرة قسمها العلماء إلى نوعين حروف وأسماء[5] وما يهمنا منها ما له شواهد في السورة الكريمة وهو الهمزة وهل وكيف فقط.

---

[2] ينظر: ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل، المحكم والمحيط الأعظم، المحقق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1421هـ - 2000م، باب (الهاء والفاء والميم)، وابن منظور، لسان العرب، مادة (فهم)

[3] التفتازاني، مختصر المعاني مع حاشية الدسوقي: 647/1

[4] ينظر: الهاشمي، جواهر البلاغة: 78

[5] ينظر: ابن فارس، أحمد بن زكريا القزويني الرازي، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، دار الكتب العلمية، الطبعة: الطبعة الأولى 1418هـ-1997م، 134، والزركشي، البرهان في علوم القرآن: 326/2

[6] قسم أهل اللغة أدوات الاستفهام إلى حروف وأسماء، الحروف هي الهمزة وهل. والأسماء هي: ما، من، أي، كم، كيف، أين، أني، متى، أيان. وهي بحسب دلالتها على الطلب ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يستفهم به عن التصور والتصديق، وهو همزة الاستفهام فقط، وهو حرف لا محل له من الإعراب.

القسم الثاني: ما يستفهم به عن التصديق فقط، وهو لفظ (هل) وهو أيضاً حرف لا محل له من الإعراب.

القسم الثالث: ما يستفهم به عن التصور فقط، وهو سائر الأدوات الاستفهام، وهي أسماء.

أما الهمزة فهي حرف لا محل له من الإعراب عند النحويين، ويطلب بها أمران[1]:

التصور: ويراد به تصور المفرد، كإدراك المسند وحده أو المسند إليه وحده، فتقول في طلب إدراك المسند إليه: أخالد مسافرٌ أم زيد؟ إذا كنت تعرف نسبة السفر إلى أحدهما ولكنك لا تعرفه بعينه، فأنت تطلب بسؤالك تعيينه، ويكون الجواب بذكر أحدهما، وفي طلب تصور المسند: أراغب أنت عن الأمر أم راغب فيه؟ وفي تصور المفعول به تقول: إياي تقصد أم زيداً؟ فالمسؤول عنه هو الذي يلي الهمزة مباشرة.

التصديق: وهو طلب إدراك وقوع نسبة تامة بين المسند والمسند إليه، أو عدم وقوعها، بحيث يكون المتكلم خالي الذهن مما استفهم عنه، ويأتيه الجواب بـ(نعم) إثباتاً و(لا) نفياً، نحو قولك: أيصدأ الذهب؟ أتتحرك الأرض؟

وأما (هل) فهي الأخرى حرف لا محل له من الإعراب، ويطلب بها التصديق فقط، أي معرفة حصول النسبة أو عدم حصولها لا غير، نحو قولك: هل أنت مدرّس؟

وأداة الاستفهام الثالثة التي وردت في السورة الكريمة هي (كيف) ويطلب بها تعيين الحال كقوله تعالى[2]: (فكيف إذا جئنا من كل أمةٍ بشهيد)[3]

ومعلوم أن الاستفهام الوارد في القرآن الكريم ليس على حقيقته، لأنه كلام الله تعالى، وطلب العلم والاستفهام غير معقول ولا جائز في حق الله تعالى العالم بكل شيء، وما وقع حقيقياً إنما كان حكاية عن أقوال البشر في سياق حواراتهم المذكورة القرآن الكريم. ولكن له أسرار ولطائف بلاغية اعتنى بها المفسرون وأولوها الاهتمام

ينظر: عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح: 252/2 وما بعدها، وعبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 258/1

[2] بنظر: السكاكي، مفتاح العلوم: 309/1، الهاشمي، جواهر البلاغة: 78

[3] ينظر: العاكوب، عيسى علي، المفصل في علوم البلاغة العربية (المعاني – البيان - البديع)، منشورات جامعة حلب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، 1421هـ، 2000م، 269

[1] سورة النساء: الآية 41

لدورها البارز في توضح المعنى وجعله أكثر زخماً وثراء، وهذه المعاني هي بغيتنا المنشودة وضالتنا التي سنبحث عنها في هذه الدراسة.

دلالات الاستفهام البلاغية في سورة إبراهيم

ورد أسلوب الاستفهام في سورة إبراهيم تسع مرات بدلالات مجازية متنوعة كشفت عنها سياقات الجمل والآيات نتناولها بالبيان فيما يأتي:

- في قوله تعالى: (**أَلَمْ يَأْتِكُمْ** نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۚ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)[1] الخطاب يحتمل أن يكون من كلام موسى عليه السلام نزولاً عند أمر الله تعالى له بتذكير قومه بأيام الله[2]، كما يحتمل أن يكون من كلام الله تعالى مخاطباً قوم محمد صلى الله عليه وسلم[3] تذكيراً لهم بالقرون السالفة وأخبارهم مع رسلهم، وتحذيراً لهم، فعلى الأول يكون الاستفهام في قوله: (**أَلَمْ يَأْتِكُمْ** نَبَأُ الَّذِينَ...) **للتقرير**[4] **والتوبيخ** على ما قاله أبو حيان[5]، والمراد بالتقرير حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده العلم به، أو هو أمر باستطاعته معرفته حسيا أو فكريا، إثباتاً كان أو نفياً[6]، فوسى عليه السلام ساق الاستفهام ليقرر على بني إسرائيل علمهم السابق بأخبار الأمم السالفة عليهم وما جرى لهم مع أنبيائهم، مع تقريع وتوبيخ لهم على عدم اتعاظهم بذلك.

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 9

[3] ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: 326/3

[4] ينظر: النسفي، مدارك التنزيل: 164/2

[5] ينظر: صديق حسن خان، فتح البيان في مقاصد القرآن: 89/7

[6] ينظر: أبو حيان، البحر المحيط: 412/6

[7] ينظر: عبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 275/1

وعلى الاحتمال الثاني يكون الغرض من الاستفهام إنكار من الله تعالى على مشركي العرب تجاهلهم لأخبار الأمم الماضية وعواقبها[1]، ومضيّهم في الكفر والتكذيب، والمشركون لم يكونوا يجهلون أنباء قوم نوح وعاد وثمود، لأنها قد بلغتهم، فقوم نوح تواتر خبر طوفانهم بين الأمم، وأما عاد وثمود فهم من العرب تشهد أطلالهم الباقية في بلاد العرب على ما حل بهم، وأخبارهم يرويها جيل عن جيل، ولكن القرآن الكريم أنزل المخاطبين منزلة الجاهل بها أو المنكر لها لعدم حصول الاعتبار منهم بها، فخاطبهم باستفهام إنكاري ينكر عليهم النفي بالإثبات. والرأي الثاني هو الذي أميل إليه وأرجحه لأن البيان الإلهي عندما ساق لنا حوار موسى مع قومه صدَّر الآية بذكره فقال: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ..)[2]، (وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا..)[3].

- قوله تعالى: (**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ**)[4] قيل[5]: هو خطاب من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم تعريضاً لأمته الذين بعث إليهم، وقيل[6]: هو الخطاب لكل واحد من الكفرة لقوله: (إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ). والراجح عند ابن عاشور أنه غير معين، موجه لكل من يصلح له، وكل من يُظن به التساؤل عن إمكان إهلاك المشركين، والمراد بالرؤية هنا: العلم الناشئ عن التفكر والتأمل[7]، وقوله: (بِالْحَقِّ)، أي على الوجه الصحيح الذي

---

[2] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 196/13

[3] سورة إبراهيم: الآية 6

[4] سورة إبراهيم: الآية 8

[5] سورة إبراهيم: الآية 19

[6] ينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل: 196/3

[7] ينظر: الألوسي، روح المعاني: 193/7

[8] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 214/13

يحق أن يخلقها عليه ليستدل بها على كمال قدرته وحكمته[1]. وقد جيء بالاستفهام لتقرير العلم الحاصل مسبقاً عند المخاطب بمخلوقية السماوات والأرض لله تعالى الناشئ عن النظر والتدبر، وجعل ذلك مقدمة للاستدلال على قدرة الله تعالى على إهلاك المشركين والاستبدال بهم.

- قوله تعالى: (**أَلَمْ تَرَ** كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ)[2] تلوح في هذه الآية نكتة بلاغية متناهية في اللطافة والدقة، نلمحها في الاستفهام مع صيغة الماضي (ألم تر) (ضرب) المستعملة في تقرير العلم بالمثل المذكور في الآية رغم أن المثل ما سبق أن ضرب به، والآية الكريمة هي أول من حملته وكشفت عنه، ولكن البيان الإلهي أراد إثارة نفس المخاطب وإيقاظ ذهنه ليترقب ما سيرد بعد هذا الكلام[3]، من خلال تشويق السامع إلى معرفة هذا المثل، مع دلالة الاستفهام الذي أنكر عليه انتفاء علمه بالمثل وتعجب من جهله مع توفر الدواعي على معرفته، تنزيلاً للمخاطب منزلة من لم يعلم، وتحريضاً له على العناية به.

- في قوله تعالى: (وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ۗ **أَوَلَمْ تَكُونُوا** أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ)[4] قيل: المراد بـ (مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ) الرحيل عن دار الدنيا، وهو لا شك بعيد لأنهم لا ينكرون الموت، وقيل: المراد الزوال عن التمتع بالحظوظ الدنياوية[5]، وقيل: هو إشارة إلى قسمهم الذي حكاه الله عنهم[6]: (وأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا

---

[2] ينظر: الشوكاني، فتح القدير: 123/3

[3] سورة إبراهيم: الآية 24

[4] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 223/13

[5] سورة إبراهيم: الآية 44

[6] ينظر: الألوسي، روح المعاني: 234/7

[7] ينظر: السمرقندي، بحر العلوم: 247/2، البغوي، معالم التنزيل: 360/4، الخازن، لباب التأويل: 44/3

يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ)[1]، أو أنه لا قسم منهم حقيقة، وإنما حكاية للسان حالهم وما هم فيه من الغفلة عما بعد الزوال[2]، ودلالة الاستفهام المجازية هي تقرير ذلك الحال بغرض توبيخهم وتبكيتهم[3] وتنديمهم، بمعنى: ألم يمهلكم الله تعالى في الدنيا، ولم تكونوا إذ ذاك حلفتم وأنكرتم البعث بعد الموت بألسنتكم، أو بألسنة حالكم ودلالة أفعالكم بما كنتم فيه من الانغماس في الشهوات والإخلاد إلى المعاصي، حيث بنيتم مشيداً وأملتم بعيداً ولم تحدثوا أنفسكم بالانتقال إلى هذه الأحوال والاهوال.

- قوله تعالى: (وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ **كَيْفَ فَعَلْنَا** بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ)[4] استمرار لتوبيخ المشركين وتقريعهم، والمعنى: ظهر لكم على أتم وجهٍ بمشاهدة الآثار وتواتر الأخبار ما أنزلنا بأسلافكم من العقوبة والإهلاك بسبب ظلمهم وفسادهم وتعنتهم، وينبغي التنبيه إلى أن جملة الاستفهام (كيف فعلنا) ليست معمولة للفعل (تبين) فلا يجوز أن تكون فاعلاً له، لأن (كيف) إنما تأتي اسم استفهام أو شرط وكلاهما لا يعمل فيه ما قبله، بل فاعل (تبين) مضمر يدل عليه الكلام، أي فعلنا بهم العجيب، أو تبين لكم حالهم وخبرهم وهلاكهم. (وكيف) اسم استفهام في محل نصب بالفعل بعده (فعلنا)[5]، وقد جيء به لغرض التعظيم لقدرة الله تعالى، وتصويراً لقوته وبطشه بأعدائه " وفِيهِ مِنَ المُبالَغَةِ ما لَيْسَ في أنْ يُقالَ: ما فَعَلْنا بِهِمْ"[6]

---

[2] سورة النحل: الآية 38

[3] ينظر: الزمخشري، الكشاف: 565/2، والشوكاني، فتح القدير: 139/3

[4] ينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 57/5

[5] سورة إبراهيم: الآية 45

[6] ينظر: أبو البقاء العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 773/2، ومحيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 206/5

[7] أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 57/5

- قوله تعالى: (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى)[1] وقد جاء قول الرسل جواباً على سبيل التعجب والإنكار والتوبيخ لمقالة الكافرين الحمقاء (إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)[2]، وقد قُدِّم الجار والمجرور (في الله) وأدخلت الهمزة عليه للإعلام بأن مدار الإنكار ليس الشك نفسه، وإنما وقوعه فيمن لا يتوهم الشك فيه أصلاً[3]، فالاستفهام إنكاري ينفي الشك في أهم الصفات الإلهية وهي صفة الوجود، بل ويوبخ من يرتاب في ذلك لظهور الأدلة وشهادتها نحو خلق السموات والأرض.

- قوله تعالى: (وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا **فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ** عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ **سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا** مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ)[4] في الآية الكريمة استفهامان أحدهما بـ (هل) والثاني بـ (الهمزة) وكلاهما ليس حقيقياً بل ينطوي على دلالات مجازية تصور ظلال الحالة الوجدانية والانفعالية في المشهد، حين يتواجه طرفا الضلال فيسأل الضعفاء التابعون أسيادهم – وهم أعلم منهم يومئذ بالجواب – (**فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ** عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ) ولكن مرادهم من ذلك التبكيت والعتاب والتوبيخ[5]. وأما الموضع الثاني لورود الاستفهام فيتجلى في جواب أسيادهم في الضلالة وكبراؤهم: (**سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا** مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ) وقد جاء لغرض التسوية، أي يستوي

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 10

[3] سورة إبراهيم: الآية 9

[4] ينظر: الزمخشري، الكشاف: 542/2، البيضاوي، أنوار التنزيل: 194/3، ابن عاشور: التحرير والتنوير: 198/13

[5] سورة إبراهيم: الآية 21

[6] ينظر: أبو السعود العمادي، إرشاد العقل السليم: 41/5

عندنا الجزع والصبر، والجزع هو انزعاج النفس بورود ما يغم[1]، فلا فائدة لنا بواحدة منهما لأن الأمر أطم من ذلك فإنه (مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ) قال ابن عاشور: "وهي مستأنفة، تبيين عن سؤال من الضعفاء يستفتون المستكبرين أيصبرون أم يجزعون تطلبا للخلاص من العذاب، فأرادوا تأييسهم من ذلك يقولون: لا يفيدنا جزع ولا صبر، فلا نجاة من العذاب، فضمير المتكلم المشارك شامل للمتكلمين والمجابين، جمعوا أنفسهم إتماما للاعتذار عن توريطهم"[2]

- قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ)[3] الخطاب موجه للنبي صلى الله عليه وسلم أو لكل من يصلح للخطاب، وقد ذكر ابن الجوزي سبعة أقوال في المشار إليهم في الآية بـ (الذين بدلوا نعمت الله كفراً) أشهرها ثلاثة[4]: أنهم عموم كفار قريش، الثاني قول ابن عباس: أنهم قادة المشركين بمعركة بدر، الثالث: إنهم الأفجران من قريش بنو المغيرة وبنو أمية على ما روي عن علي وعمر رضي الله عنهما. والغرض البلاغي للاستفهام الوارد في الآية هو حمل المخاطب على التعجب[5] مما يرى من حال المشار إليهم لما يدعو إليه حالهم من الدهشة والاستغراب، إذ كيف لحصيف العقل سليم المنطق أن يقدم على استبدال الكفر بنعمة أنعمها الله عليه، فوا عجباً لأهل مكة أغدق الله عليهم نعمه، حين بعث منهم رسوله، وأسكنهم حرمه، وجعلهم قوَّام بيته، وأكرمهم بنعمة الأمن في ديارهم، وساق إليهم أرزاقهم ثم هم بعد ذلك يكفرون.

---

[2] ينظر: البقاعي، نظم الدرر في تناسق الآيات والسور: 405/10

[3] الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 217/13

[4] سورة إبراهيم: الآية 28

[5] ينظر: ابن الجوزي، زاد المسير: 513/2، وأبو المظفر السمعاني، تفسير القرآن: 117/3

[6] ينظر: الشوكاني، فتح القدير: 130/3، وصديق حسن خان، فتح البيان: 113/7

وللطاهر ابن عاشور رأي آخر[1]، إذ جعل الغرض من الاستفهام تشويق المخاطب إلى الرؤية، فالرؤية المستعملة في الآية عنده بصرية لتعدي فعلها بـ (إلى)، والنظم الحكيم قد نزل المخاطب بهذا الأسلوب منزلة من لم ير ليثير لديه اللهفة والشوق إلى رؤية ما يذكر.

ثانياً - الأمر

الأمر مفرد نقيض النهي، جمعه أوامر[2]، وهو لغة: التقدم بالشيء سواء كان بقولهم: افعل وليفعل، أو كان ذلك بلفظ خبر نحو قوله تعالى: (وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ)[3]، أو كان بإشارة أو غير ذلك، كما في رؤيا سيدنا إبراهيم عليه السلام حين أمرَ بذبح ابنه فسمي ذلك أمراً[4] قال تعالى حكاية عن حوار سيدنا إبراهيم مع ابنه إسماعيل عليهما السلام: (قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ)[5]، وإن أريد بالأمر الشأن جُمِعَ على أمور، وأكثر ما ورد في القرآن الكريم بمعنى الشأن، وبمعنى طلب الفعل[6]، وهذا الأخير هو موضوع دراستنا.

---

[2] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 228/13

[3] الفراهيدي، العين، مادة (أمر)

[4] سورة البقرة: الآية 228

[5] ينظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، والكفوي، الكليات: مادة (أمر)

[6] سورة الصافات: الآية 102

[7] الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: 39/2، وينظر أيضاً: مجمع اللغة العربية، معجم ألفاظ القرآن الكريم، الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، تاريخ النشر: 1409هـ، 1989م، مادة (أمر)

وأما في اصطلاح أهل البلاغة فهو: طلب حصول الفعل على جهة الاستعلاء[1]، والمراد بالاستعلاء جعل الإنسان نفسه عالياً سواء كان عالياً في نفسه حقيقة أم لا [2]. وهو قول الجمهور، وخالفهم في ذلك الرازي الذي لم يشترط الاستعلاء في تعريف الأمر واكتفى بطلب حصول الفعل[3].

وللأمر صيغ أربعة:

- فعل الأمر نحو قوله تعالى: (وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)[4]
- الفعل المضارع المقترن بلام الأمر كقوله تعالى: (لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ)[5]
- اسم فعل الأمر نحو ما ورد في قوله عز وجل: (عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)[6]، عليكم أنفسكم: اسم فعل أمر بمعنى (الزموا أنفسكم) ومن أسماء الأمر: (صه) بمعنى اسكت، (مه) أي اكفف، (آمين) بمعنى استجب ..
- المصدر النائب عن فعل الأمر: كقوله عز وجل: (وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً)[7] أي أحسن بالوالدين إحساناً.

---

[2] ينظر: العلوي، الطراز لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز: 26/1، والسبكي، عروس الأفراح: 462/1، وينظر أيضاً: الأنصاري، يوسف عبد الله، أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، 1410هـ، 1990م، 10، صباح دراز، الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم: 15

[3] ينظر، التفتازاني، مختصر المعاني (ضمن شروح التلخيص): 312/2

[4] ينظر: الرازي، محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين، المحصول، دراسة وتحقيق: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، 1418هـ - 1997م، 45/1

[5] سورة النور: الآية 56

[6] سورة الطلاق: الآية 7

[7] سورة المائدة: الآية 105

[8] سورة البقرة: الآية 83

ورغم أن حقيقة الأمر في طلب الفعل ووجوبه ولزومه فإنه غالباً ما يخرج عن معناه الحقيقي ليفيد معاني مجازية تلمح من السياق بمعونة القرائن ومقتضيات الأحوال، وتتعدد هذه الأغراض وتتنوع حيث أوصلها الإمام السبكي إلى خمسة وعشرين غرضاً أهمها[1]: الدعاء، الالتماس، الإرشاد، التمني، التيئيس، التخيير، التسوية، التعجيز، التهكم والإهانة، الإباحة، التوبيخ والتأنيب والتقريع، التهديد، الإنذار، وقد تختلف في تقدير العلماء أحياناً لأنها معان شعورية أو نفسية تتبع الذوق، بل وربما تتداخل مع بعضها. وسنقتصر في بحثنا هنا على دراسة الأغراض التي لها شواهد في السورة الكريمة.

الأغراض البلاغية للأمر في سورة إبراهيم

التهديد والإنذار

وهو لغة: التخويف والوعيد[2]، وفي اصطلاح البلاغيين: استعمال أسلوب الأمر من جانب المتكلم في مقام عدم الرضا منه بقيام المخاطب بفعل ما أمر به تخويفاً وتحذيراً له[3]، ويسميه ابن فارس (الوعيد)[4]. ودلالة أسلوب الأمر على التهديد أمر مألوف في خطاب القرآن الكريم للكافرين، مثل قوله تعالى: (كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ)[5] فسياق الآية يدل بوضوح على أن صيغة الأمر في (كلوا وتمتعوا) لم تجر على حقيقتها في طلب الفعل وإنما خرجت إلى معنى التهديد والوعيد للكافرين، وأن استرسالهم في المحرمات يجعلهم من المجرمين الذين سينالون العذاب.

---

[2] ينظر: السبكي، عروس الأفراح: 464/1-468، وكذا ينظر: عبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 231/1

[3] ينظر: الزمخشري، أساس البلاغة: 344/2

[4] ينظر: عبد العزيز عتيق، علم المعاني: 81، وحامد عوني، المنهاج الواضح للبلاغة: 90/2

[5] ينظر: ابن فارس، مقاييس اللغة: 125/6

[6] سورة المرسلات: الآية 46

وفي سورة إبراهيم نسمع نبرة التهديد والوعيد عاليةً في أمر الله عز وجل مخاطباً نبيه طالباً منه توجيهه للمشركين: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ **تَمَتَّعُوا** فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ)[1] فبعد أن سجل الله تعالى عليهم الإشراك به بما اتخذوه من أنداد يضلون بهم عن دين الله ومنهجه وشريعته، جاءهم بالتهديد والوعيد[2] قائلاً (**تَمَتَّعُوا** فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ) فلا يمكن حمل الأمر هنا على حقيقته من الوجوب والإلزام، لأن المعنى المجازي مراد قطعاً دل عليه السياق وقرائنه اللفظية، وبينه وبين المعنى الحقيقي تضاد، وشرط جواز الجمع بين المعنى الحقيقي والمجازي أن لا يكونا متضادين في الاستعمال[3] ومعلوم أن بين الوجوب والتهديد تضاد، فتعين استبعاد المعنى الحقيقي للأمر.

إذن فليس الغرض من الأمر طلب الامتثال فإن هؤلاء الكافرين لما ارتكبوا ما لا يغفر وهو الشرك بالله، أراد الله لهم أن يقوى طغيانهم ويشتد إعراضهم، ويزيد تعنتهم وتعاليهم على الحق، فيزدادوا تمتعاً بشهواتهم، ويكون ذلك أدعى لعذاب أشد وأفظع. قال الزمخشري: "تمتعوا، إيذان بأنهم لانغماسهم في التمتع بالحاضر، وأنهم لا يعرفون غيره ولا يريدونه، مأمورون به، قد أمرهم آمر مطاع لا يسعهم أن يخالفوه، ولا يملكون لأنفسهم أمراً دونه، وهو آمر الشهوة؛ والمعنى: إن دمتم على ما أنتم عليه من الامتثال لأمر الشهوة فإن مصيركم إلى النار"[4]

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 30

[3] ينظر: أحمد المطلوب، أساليب بلاغية: 114

[4] ينظر: السبكي، عروس الأفراح: 464/1

[5] الزمخشري، الكشاف: 555/2

وجعل السبكي غرض الأمر في الآية الإنذار[1]، وأما البيضاوي فجعل الإنذار من التهديد[2] فلم يفرق بين المصطلحين.

والراجح أن الإنذار غير التهديد كما يفهم من كلام الجوهري في الصحاح حين ذكر في باب الدال أن التهديد هو التخويف، ثم عاد ليذكر في باب الراء أن الإنذار هو الإبلاغ، وهو لا يكون إلا في التخويف[3]، وبناء على كلام الجوهري يمكننا أن نعد خطابه تعالى لنبيه (قل) إنذاراً يحمل معنى التبليغ أي بلغهم ما يأتي من الوعيد، وخطاب النبي صلى الله عليه وسلم المأمور به للمشركين (تمتعوا) تهديداً لما يحمله من التخويف، ولأن ورود الوعيد بعد الأمر علامة على أن الغرض من الأمر التهديد[4].

وهناك من جوَّز أن يكون المراد الخذلان والتخلية[5] نحو قوله: (قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ)[6]

ومن الإنذار والتخويف كذلك قوله تعالى مخاطباً نبيه موسى عليه السلام: (وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)[7] وعلى اختلاف تفسيرات أهل العلم لـ أيام الله يكون الغرض من الأمر إنذار بني إسرائيل وتخويفهم، فإذا فسرنا

---

[2] ينظر: السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: 467/1

[3] ينظر: الإسنوي، عبد الرحيم بن الحسن، نهاية السول شرح منهاج الوصول، دار الكتب العلمية -بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى 1420هـ- 1999م، 160

[4] ينظر: الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، مادة (هدد) ومادة (نذر)
وينظر: السبكي، عروس الأفراح: 46/1

[5] ينظر، العثيمين، محمد بن صالح بن محمد، الأصول من علم الأصول، دار ابن الجوزي، الطبعة: الرابعة، 1430 هـ - 2009م، 26

[6] ينظر: الزمخشري، الكشاف: 555/2

[7] سورة الزمر: الآية 8

[1] سورة إبراهيم: الآية 5

(أيام الله) بوقائع انتقام الله تعالى من الأمم الماضية كقوم نوح وعاد وثمود وأيام نزول عقابه بهم، يكون الغرض من الأمر إنذارهم بوجوب الاتعاظ وأخذ العبرة منهم، والحذر مما يوجب غضب الله وبطشه، فإن في ذكرها تخويفاً من الله تعالى للمخاطبين، وإيذاناً منه بتكرار (أيامه) عند تكرر الداعي لها. وعلى القول بأن المراد بـ (أيام الله) أيام نعمه وآلائه على بني إسرائيل، يكون المعنى المراد بالأمر إنذارهم بوجوب الشكر عليها، وتجنب جحودها وإنكارها، وتخويفهم بزوالها وحلول النقمة محلها.

الإلهاب والتحفيز والتهييج

الإلهاب لغة من قولهم: ألهب النار إذا أسعرها، والتهبت النار إذا طال لهيبها، وأما التهييج فهو الإثارة، من قولهم: هاجت الحرب إذا ثارت[1]، وأما في اصطلاح البلاغيين فيطلقان على الكلام الدال على الحث على فعلٍ لمن لا يتصور منه تركه، أو على ترك فعل لمن لا يتصور منه فعله[2]، وإنما يكون الأمر والنهي لمن هذه حاله على جهة الإلهاب والتهييج والرغبة في مواظبته على ما هو مرغوب منه، وتشجيعه منعاً من فتور همته أو ضعف عزيمته.

وتبرز بلاغة هذا الغرض من الأمر في إثارة الشعور والوجدان والانفعال، وهز المشاعر، ودغدغة العواطف لتكون النفس عند سماعه أحسن تلقياً وأكثر تمسكاً به، ولذلك نرى هذا الأسلوب مستعملاً في المعاني الهامة التي تعد من أصول الدين[3]. ويمكن عد الدوام والاستمرار من معاني الأمر المندرجة تحت هذا الغرض والمراد بالدوام: طلب وقوع فعل واقع[4]، ومن أمثلة خروج الأمر إلى هذا المعنى المجازي

---

[2] ينظر: الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: مادة (لهب) ومادة (هيج)

[3] ينظر: العلوي، الطراز لأسرار البلاغة: 93/3

[4] ينظر: يوسف الأنصاري، أساليب الأمر والنهي وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم: 121

[5] ينظر: صباح عبيد دراز، الأساليب الإنشائية: 57

قوله تعالى مخاطباً المؤمنين: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ)[1] فالأمر في قوله: (آمنوا) للدوام والاستمرار ، أي داوموا واثبتوا على إيمانكم وازدادوا منه، لأن في وصف الله تعالى لهم بـ (الذين آمنوا) دليلاً على حصول الإيمان منهم، فيكون الغرض من ورود الأمر ثانية طلب استمرارهم على الإيمان مع حثهم على الثبات عليه.

ومنه قوله تعالى مخاطباً نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم: (قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ)[2] فقد جاء هذا الأمر بعد أمر الله تعالى نبيه أن يقول للمشركين به: (تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ)[3] وَتَرْكُ العطفِ بين الأمرين إيذانٌ بتباين حال الفريقين باختلاف الأمر الموجه إليهما، فالأول تهديد والثاني تشريف[4]، فلما هدد الله الكفار ووبخهم بسبب انهماكهم في شهواتهم وملذاتهم الدنيوية الفانية أمر نبيه أن يأمر خاصة عباده بما يزيدهم قرباً إليه.

وللمفسرين في إعراب قوله: (يقيموا الصلاة) وما عطف عليه قولان[5]:

الأول: أن الفعل يقيموا مجزوم في جواب الأمر المحذوف، والمقول محذوف دل عليه المذكور بعده، فالمعنى: قل لعبادي أقيموا وأنفقوا يقيموا وينفقوا، فحذف المقول لدلالة جوابه عليه، وهو قول المبرد والأخفش.

---

[2] سورة النساء: الآية 136

[3] سورة إبراهيم: الآية 31

[4] سورة إبراهيم: الآية 30

[5] ينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 46/5

[6] ينظر: النحاس، إعراب القرآن: 232/2، والباقولي، علي بن الحسين بن علي، إعراب القرآن المنسوب للزجاج، دار الكتاب المصري – القاهرة ودار الكتب اللبنانية – القاهرة / بيروت، الطبعة: الرابعة – 1420هـ، 811/3، والألوسي، روح المعاني: 207/7

الثاني: للزجاج، ويرى أن قوله: (يقيموا) مجزوم بمعنى لام الأمر، أي ليقيموا، نحو قول الشاعر:

مُحَمَّدُ تَفْدِ نَفْسَكَ كُلُّ نَفْسٍ إذا ما خِفْتَ مِن أمْرٍ تَبالا[1]

ونلمح في هذا الحذف دلالة على انتظار المؤمنين وتشوقهم لاتباع أي تكليف صادر عن ربهم والعمل به على الفور، فهم يتلقفون خبر السماء فور نزوله دون تراخ أو تثاقل، "وما دُمْتَ قد أبلغتهم يا محمد هذا الأمر فسيُنفّذونه على الفور؛ وقد جاء قوله (يقيموا) محذوفاً منه لام الأمر، تأكيداً على أنهم سيصعدون لتنفيذ الأمر فور سماعه"[2]

ولما كان المؤمنون على هذه الدرجة العالية من الهمة، وهم الموصوفون من الله تعالى بـ (الذين آمنوا) والإيمان يقتضي الانقياد والانصياع لأوامر الحق، عُلم أن الغرض من توجيه الأمر لهم إلهاب مشاعر العبودية فيهم، وتهييج وجدانهم، وحثهم على الاستمرار في التقيد بفروض دينهم، ألا ترى أن الله تعالى وصفهم بأشرف أوصافهم في قوله: (قل لعبادي) ثم أضافهم إلى ضميره الشريف تحبيباً إليهم به، ثم أتبع هذا الوصف ما يناسبه من إذعانهم لسيدهم فقال: (الذين آمنوا) أي أوجدوا هذا الوصف.

ومما ورد الأمر فيه للإلهاب والتحفيز وطلب الاستمرار والثبات قوله تعالى على لسان الرسل مخاطبين المؤمنين من أقوامهم: (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ

---

[2] البيت منسوب إلى أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم أو إلى ابنه علي بن أبي طالب، وكذا إلى حسان بن ثابت وإلى الأعشى وليس في ديوان واحد منهما على ما ذكر شيخنا عبد السلام هارون، رحمه الله، في حواشي الكتاب وقد استشهد به سيبويه دون أن ينسبه. ينظر: سيبويه، الكتاب: 8/3، والمبرد، المقتضب: 132/2، وابن هشام، شرح شذور الذهب: 275

[3] الشعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي – الخواطر، مطابع أخبار اليوم، 7529/12، وينظر: الآلوسي، روح المعاني: 208/7

مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)[1] فقد جاء الأمر بصيغة المضارع المقترن بلام الأمر في (فَلْيَتَوَكَّلِ)، والتوكل (التَّفَعُّل) من وكَّل أمره إلى غيره إذا اعتمد عليه في كفايته والقيام به، وقيل: التوكل هو العجز والاعتماد على الغير، والمراد به هنا تفويض الأمر إلى الله تعالى في وجه كل مكروه قد يصيبهم من أعدائهم، وهو أمر صادر من الرسل لأتباعهم المؤمنين، وقصدوا به أنفسهم أيضاً فهم داخلون في الأمر دخولاً أولياً لأنهم أول المؤمنين ولقرينة قولهم: (وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا)[2] فإن كان الغرض من الأمر طلب التوكل واستحداثه من المؤمنين فهو يتضمن معنى التثبيت للرسل، لأن التوكل حاصل منهم؛ بل هو سلاحهم الناجع في الدعوة إلى دين الله تعالى، ويكون مرادهم من هذا الأمر تقوية عزيمتهم والتذكير بما هم متصفون به وتأكيده. ولنا أن نعتبره كذلك بالنسبة للمؤمنين لأن اتصافهم بالإيمان قرينة على حصول التوكل منهم.

ثم عاد الرسل ليؤكدوا على ما سبق وأمروا به فقالوا: (وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)[3] فكرروا الأمر بالتوكل ولكن من المتوكلين هذه المرة، إذ لما كان نصر الله تعالى لرسله وتأييده لهم غير معلوم الميقات ولا متعين الوقوع في تلك اللحظة، بل ربما تأخر لحكمة من الله واختبار للمؤمنين، وكانت مدة انتظار الفرج مظنة اشتداد أذى الكافرين لأتباع الرسل، وربما أصاب المؤمنين بسبب ذلك فتور في الهمة وتراخ في صبرهم أو ضعف في شكيمتهم، جاء الأمر من الرسل لهم بالتوكل تذكيراً لهم وتنويهاً بهم وتشجيعاً على الثبات والاستمرار، لئلا يتعرض إيمانهم إلى زعزعة شك، نظير قوله صلى الله

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 11

[3] ينظر: فتح البيان، صديق حسن خان، 94/7

[4] سورة إبراهيم: الآية 12

عليه وسلم لعمر رضي الله عنه: (أفِي شَكٍّ أنْتَ يا ابْنَ الخَطّابِ)[1]، "وفي الأمر كذلك إيذان بأنهم لا يعبؤون بما يضمره لهم الكافرون من الأذى، كقول السحرة لفرعون حين آمنوا: (لا ضَيْرَ إنّا إلى رَبّنا مُنْقَلِبُونَ)[2]"[3]

التعجيز

وهو لغة التثبيط، من قولهم: أعجزت فلاناً جعلته عاجزاً عن طلبه وإدراكه[4]، وَيُقَالُ: عَجَزَ يَعْجِزُ عَنِ الأَمر إِذا قَصَرَ عَنْهُ[5]. وأما اصطلاحاً فهو: مطالبة المخاطب بعمل لا يقوى عليه، إظهاراً لعجزه وضعفه وعدم قدرته، وذلك من قبيل التحدي. ولا يمكن أن يراد به طلب الفعل حقيقة لما بينه وبين الأمر من تضاد، إذ الأول في الممكنات والثاني في المستحيلات[6]. ومن أشهر أمثلته في القرآن الكريم تلك الآيات التي تحدى بها الله تعالى أهل البلاغة والبيان من العرب مظهراً عجزهم التام وقصور وسعهم عن إدراك بلاغة نظم القرآن الكريم حين أمرهم أن يأتوا بمثله فقال: (قُلْ **فَأْتُوا** بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)[7]، فكان تحدّياً بالقرآن جملة، ثم قال: (قُلْ **فَأْتُوا** بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)[8] وذكر وصف مفتريات ليبين لهم أن الغاية أن يأتوا بمثل

---

[2] ما ورد جزء من حديث طويل رواه مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب في كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء، برقم: 1479، يروي فيه سيدنا عمر لابن عباس قصة اعتزال النبي صلى الله عليه وسلم نساءه.

[3] سورة الشعراء: الآية 50

[4] الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 203/13

[5] مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس: مادة (عجز)

[6] ابن منظور، لسان العرب: مادة (عجز)

[7] ينظر: أبو يعقوب المغربي، مواهب الفتاح (ضمن شروح التلخيص): 316/2

[8] سورة القصص: الآية 49

[9] سورة هود: الآية 13

نظمه وسبكه وألفاظه لا بمثل معانيه، ثم خفف من مستوى الطلب وسلك معهم منهج التدرج، فأرخى لهم أكثر ليشعروا بمزيد من الضعف والخيبة، فقال: (وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا **فَأْتُوا** بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)[1] ثم سجل عليهم وعلى جميع الجن والإنسان العجز التام والمستمر فقال: (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) فكان الأمر المتكرر في قوله: (فأتوا) خارجاً عن معنى الأمر الحقيقي، وإنما معناه مجازي يفهم من سياق الآيات والقرائن وهو إظهار عجز البشر والجن عن الإتيان بما يماثل كتاب الله تعالى في نظمه.

ومن شواهد خروج الأمر إلى معنى التعجيز في سورة إبراهيم قوله تعالى حكاية عن قول أقوام الرسل مخاطبين رسلهم: (إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا **فَأْتُونَا** بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ)[2] رداً على دعوة الرسل لهم للإيمان بالله تعالى ونبواتهم، فأوردوا على الدعوة اعتراضين أولها: أن الرسل بشر مماثلون لهم في الهيئة والصورة يأكلون كما يأكلون ويشربون كما يشربون[3]، فكيف يكون لهم فضل عليهم أو مزية، معتقدين بذلك أن الله إذا أرسل رسلاً فإنه سيجعلهم من جنس أفضل من جنس البشر.

وقد وضع ابن عطية لاعتراضهم هذا احتمالين[4]: إما أنهم استبعدوا إرسال البشر فطلبوا دليلاً وحجة، أو أنهم اعتقدوا استحالة ذلك فكان الباعث على قولهم (**فَأْتُونَا** بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) تعجيز الرسل[5]، أي إن ما ادعيتموه محال وإلا فأتوا بآية على صدقكم،

---

[2] سورة الإسراء: الآية 88

[3] سورة إبراهيم: الآية 10

[4] ينظر: الزمخشري، الكشاف: 543/2

[5] ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: 328/3

[1] الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 200/13

ولستم بقادرين على ذلك أبداً، وقيل: إن هذا الطلب إنما صدر منهم بعد الآيات الظاهرة والبيات الباهرة التي جاء بها الرسل سعياً في إقناعهم، فكان الغرض مما طلبوه المكابرة واللجاج على سبيل العناد والتعنت لا غير، وإلا فما أتى به الرسل من الدلائل والبراهين كاف لمن استبصر، ولكنهم آثروا ديدنهم في تقليد آبائهم، ألا ترى إلى اعتراضهم الثاني؟ وهو اتهام الرسل بعد ذكر تماثلهم لهم في البشرية (تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا) أي إن غايتكم صرفنا عن دين آبائنا لنكون لكم تبعاً من بعدهم. وعليه فمن جملة القرائن التي حفت بالسياق **يظهر لنا أن الأمر في** كلامهم لا يمكن حمله على حقيقته، وإنما كان غرضهم منه قطع حجج الرسل وإحراجهم بإظهار عجزهم.

الدعاء

يعود الأصل اللغوي للدعاء إلى الطلب والنداء، من قولهم: دعاه أي ناداه، فبعد أن ذكر ابن منظور ثلاثة أوجه للدعاء: توحيد الله والثناء عليه، وسؤال الله الرحمة والعفو، وسؤاله حظوظ الدنيا عقَّب ذلك بقوله: "وإنما سُمّي هذا جميعه دعاء لأن الإنسان يُصدِّر في هذه الأشياء بقوله: يا الله يا رب يا رحمن، فلذلك سمي دعاء"[1]

وللدعاء في القرآن الكريم دلالات لغوية متنوعة منها النداء، والعبادة، والاستعانة، والاستغاثة، والتسمية، والتضرع ..[2]

أما في اصطلاح أهل البلاغة: فهو طلب الفعل صادراً من الأدنى إلى الأعلى على سبيل الخضوع والتضرع لله تعالى[3]. وهو عادة ما يكون من العبد إلى ربه نحو (فاغفر

---

[2] ابن منظور، لسان العرب، مادة (دعا)

[3] ينظر: معجم ألفاظ القرآن: 404/1

[4] ينظر: شروح التلخيص (عروس الأفراح للسبكي، مختصر المعاني للتفتازاني، مواهب الفتاح للمغربي): 320/2

لَنَا وارحمنا وَأَنتَ خَيْرُ الغافرين)[1]، (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ)[2] ويسميه ابن فارس (المسألة)[3]

وبرز هذا الغرض في السورة جلياً في مناجاة سيدنا إبراهيم لربه التي تجلت في سبعة أفعال جاءت بصيغة الأمر، عبَّر نبي الله إبراهيم من خلالها عن عبوديته لخالقه وافتقاره للطفه وحاجته إليه، فقال أولاً: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ **اجْعَلْ** هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا **وَاجْنُبْنِي** وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ)[4] وقد كان دعاؤه هذا بعد ما وقع له من الإلقاء في النار، وحينها لم يسأل واكتفى بعلم الله بحاله، أما هنا فقد تضرع ودعا، وتفسير ذلك أن مقام الدعاء أجل وأعلى من الاكتفاء بعلم الله، فيكون ذلك دليلاً على ارتقاء سيدنا إبراهيم في سلّم العبودية الخالصة لله[5]. فقوله: (**اجعل**)، و(**اجنبني**) فعلان جاءا في صيغة أمر، أريد بهما الدعاء مع التضرع بقرينة صدورهما من عبد لخالقه ومولاه وسيده.

وتكرر مجيء فعل الأمر لمعنى الدعاء والتضرع مرتين في توجه سيدنا إبراهيم عليه السلام لربه قائلاً: (رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ **فَاجْعَلْ** أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ **وَارْزُقْهُم** مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)[6] فأي معنى يمكن أن تفيده صيغتا الأمر في قول إبراهيم سوى الاسترحام والاستعطاف والمناشدة من عبد ضعيف لربه بعد أن ترك زوجته وولده الصغير استجابة لأمره في أرض قاحلة جدباء لا أثر لحي فيها يرزق ولا لزرع فيها ينبت، وقفل راجعاً من حيث أتى وكله إيمان أن الله هو الوحيد القادر على تفريج

---

[2] سورة الأعراف: الآية 155

[3] سورة إبراهيم: الآية 41

[4] ينظر: ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة العربية: 138

[5] سورة إبراهيم: الآية 35

[6] ينظر: صديق حسن، فتح البيان في مقاصد القرآن: 121/7

[7] سورة إبراهيم: الآية 37

كربته، فهو يبتهل إليه أن يؤنس وحشتهم ويرزقهم من فضله (**فَاجْعَلْ** أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ **وَارْزُقْهُم** مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)

ثم عاد هذا الغرض للظهور كذلك على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام من خلال أفعال (اجعلني، تقبل، اغفر) حين سأل الله قائلاً: (رَبِّ **اجْعَلْنِي** مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا **وَتَقَبَّلْ** دُعَاءِ (40) رَبَّنَا **اغْفِرْ** لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ)[1] فهو في الآية الأولى يدعو الله متوسلاً أن يجعله ممن يقيمون الصلاة بأركانها ويحافظون على أدائها في أوقاتها، وأن يجعل بعض ذريته أيضاً مقيمين لها على اعتبار (من) للتبعيض، قال أبو حيان: "لأنه أعلم أن من ذريته من يكون كافرا، أو من يهمل إقامتها وإن كان مؤمنا"[2] في إشارة إلى قوله تعالى: (وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ).

ثم استرسل الخليل في مناجاة ربه في الآية التالية قائلاً (رَبَّنَا **اغْفِرْ** لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ) فراح يوسع دائرة من يشملهم دعاؤه شيئاً فشيئاً ، وطلب من الله تعالى العفو والمغفرة لنفسه أولاً لما يكون قد يصدر منه من ترك للأولى في باب الدين مما يعده هو ذنباً، وإلا فالأنبياء معصومون عن الكبائر، ثم سأل الله المغفرة لوالديه وهنا قد يُشْكِلُ عليك استغفاره لأبيه المشرك، وقد تعددت أقوال المفسرين في المسألة سعياً منهم لحل هذا الإشكال، فقيل[3]: إنما كان الاستغفار قبل تَبَيُّن عداوته لله وتبرؤ إبراهيم منه، وقيل: إن الاستغفار كان بشرط الإسلام والتوبة، وقيل: إن أمه قد أسلمت، وقيل: أراد بوالديه آدم وحواء، وقيل غير ذلك[4]، والذي يراه الباحث أن الله تعالى قد حسم الخلاف ببيان عُذر خليله في الاستغفار لوالديه في

---

[2] سورة إبراهيم: الآيتان 40، 41

[3] أبو حيان، البحر المحيط: 450/6

[4] ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 514/4

[5] ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 375/9

سورة التوبة حين قال: (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ)[1] وقد قيل في تفسير قوله: (إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ): إن الهاء في (إِيَّاهُ) عائدة إلى إبراهيم عليه السلام، فيكون الوعد من الأب له، ويفهم منه أن أباه قد وعده أن يسلم[2]، فقال له إبراهيم: سأستغفر لك ربي، يعني إذا أسلمت. ولكن الراجح عند العلماء[3] أن الهاء راجعة إلى الأب، والمعنى أن إبراهيم قد وعد أباه أن يستغفر له رجاء إسلامه[4]، ويقوي هذا القول قراءة: (وَعَدَهَا أَبَاهُ) بالباء الموحدة[5]، والدليل الآخر على صدور الوعد من إبراهيم عليه السلام قوله تعالى مخاطباً المسلمين من أمة سيدنا محمد: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ)[6] ثم استثناء موضوع الاستغفار من التأسي به، ونفي كونه قدوة في الاستغفار للمشركين (إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ)[7].

وبعد الدعاء لوالديه ينتقل الخليل عليه السلام إلى الدعاء لجميع المؤمنين.

---

[2] سورة التوبة: الآية 114

[3] تبنَّى ابن عاشور هذا الرأي ودافع عنه قائلاً: "والوعد صدر من أبي إبراهيم لا محالة، كما يدل عليه الاعتذار لإبراهيم؛ لأنه لو كان إبراهيم هو الذي وعد أباه بالاستغفار وكان استغفاره له للوفاء بوعده لكان يتجه من السؤال على الوعد بذلك وعلى الوفاء به ما اتجه على وقوع الاستغفار له. فالتفسير الصحيح أن أبا إبراهيم وعد إبراهيم بالإيمان، فكان بمنزلة المؤلفة قلوبهم بالاستغفار له، لأنه ظنه متردداً في عبادة الأصنام لما قال له: (واهجرني مليا) (مريم: 46) فسأل الله له المغفرة لعله يرفض عبادة الأصنام كما يدل عليه قوله: (فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) (التوبة: 114) " ولكن يظهر لي في قوله تعالى (فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) إشارة إلى أن استغفار إبراهيم لأبيه كان قبل تبين العداوة، فهو غير مؤاخذ عليه حينئذ. ينظر: التحرير والتنوير: 45/11

[4] ينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل: 100/3، والألوسي، روح المعاني: 34/6، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 107/4

[5] ينظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 159/16

[6] ينظر: الثعالبي، الكشف والبيان: 102/5

[7] سورة الممتحنة: الآية 4

[8] ينظر: البغوي، معالم التنزيل: 395/2

التمني

وهو لغة: حديث النفس بما يكون وبما لا يكون، وقيل: هو مِن تمنَّيتُ الشيء أي؛ قدرته وأحببت أن يصير لي[1]. وأما اصطلاحاً: فهو طلب حصول الفعل المحبوب الذي لا قدرة للطالب عليه ولا مطمع له في حصوله[2]. وقد أُدِّيَ التمني في القرآن الكريم بأساليب متنوعة كالأمر والنهي، والخبر والاستفهام، وكثر خروج الأمر إلى معنى التمني في القرآن الكريم على ألسنة الكافرين المستحقين للعذاب في مختلف المراحل التي يمرون بها[3] بدءاً من لحظات قبض أرواحهم حين يرون ملائكة العذاب تحيط بهم فيقولون ما حكاه الله عنهم (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ)[4] فصيغة الأمر في قوله: (ارْجِعُونِ) للتمني دون شك، يدل على ذلك جواب الله تعالى له: (كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ)[5] فـ(كلا) كلمة ردع للسامع ليعلم إبطال طلب الكافر وأن قوله: (رب ارجعون) لا يتجاوز أن يكون أمنية مستحيلة لا رصيد لها عند الله. ويستمر جريان صيغ الأمر على ألسنة الكافرين كلما مروا بهول من أهوال يوم الحساب، وكلها أمانٍ لا تتحقق ولا يلتفت إليها، كما في قوله تعالى: (وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا **أَخِّرْنَا** إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ)[6] حيث يأمر الله نبيه أن يخوف المشركين بالعذاب

---

[2] الأزهري، تهذيب اللغة، باب النون والميم، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: مادة (مني)

[3] ينظر: حاشية الدسوقي على شرح التفتازاني لتلخيص المفتاح (ضمن شروح التلخيص): 319/2 أبو يعقوب المغربي، مواهب الفتاح (ضمن شروح التلخيص): 319/2

[4] ينظر: يوسف الأنصاري، أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم: 99

[5] سورة المؤمنون: الآية 100

[6] سورة المؤمنون: الآية 100

[7] سورة إبراهيم: الآية 44

الذي ينتظر المكذبين، ثم يورد خبرهم من غياهب الغيب مصوراً الحسرة والندامة التي ستملأ نفوسهم في موقف لا ينفع فيه الندم ولا يجدي فيه الترجي، حينما يتوسل الكافرون إلى ربهم (رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ) فيكون الغرض من صيغة الأمر في قولهم (أَخِّرْنَا) التمني الذي يكشف عنه جواب الله تعالى لهم توبيخاً وتقريعاً على ما بيَّنَّا (أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ).

ثالثاً – النهي

وأما النهي لغة فهو الكفّ والزجر عن الشيء، وهو ضد الأمر، تقول: نهيته، وفي لغة نهوته[1]، قال تعالى: (أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى عَبْداً إِذا صَلَّى)[2] وهو من حيث المعنى لا فرق بين أن يكون بالقول أو بغيره، وما كان بالقول لا فرق بين أن يكون بصيغة: افعل نحو اجتنب، أو بلفظة لا تفعل نحو[3] (ولا تقربا هذه الشجرة)[4]

وأما في الاصطلاح: فهو طلب الكف عن الفعل استعلاءً، وصيغته الوحيدة هي المضارع المقترن بـ(لا) الناهية الجازمة[5]، في قولك: لا تفعل، وهو في دلالته الحقيقية بفيد التحريم[6].

وكان حضور النهي في سورة إبراهيم ضعيفاً نظراً لطبيعة المواضيع التي تناولتها السورة، حيث غلب عليها السرد القصصي لأحداث الرسل مع أقوامهم والحوارات

---

[2] الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، مادة (نهي)

[3] سورة العلق: الآيتان 9، 10

[4] ينظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن: مادة (نهى)، ابن منظور، لسان العرب: مادة (نهى)

[5] سورة البقرة: الآية 35

[6] ينظر: التفتازاني، المطول: 427، والسبكي، عروس الأفراح (ضمن شروح التلخيص): 324/2، وفضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها: 154

[7] ينظر: الفخر الرازي، محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي، المحصول في أصول الفقه، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، 1418هـ، 1997، 281/2

التي دارت بينهم، إضافة إلى طرف من قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام، وغرض الآية من هذه المواضيع أخذ العبرة مع تسلية للنبي، كما هو الطابع الغالب على السور التي أنزلت في العهد المكي، وكون النهي أسلوباً إنشائياً فهو أكثر ما يرد في السور المدنية المتضمنة للتشريعات والنظم حيث يكون أهم عناصرها، باعتبار أنها – التشريعات والنظم – لا تخلو من أن تكون أمراً من الله بفعل، أو نهياً منه عن فعل، وما ورد من النهي في السورة كان خارجاً عن حقيقته المعهودة في التحريم والحظر، وأفاد كالأمر معاني بلاغية[1] دلت عليها القرائن والسياق، وهو ما سنقف عليه في الأسطر القليلة الآتية:

ورد النهي في ثلاث آيات فقط من السورة الكريمة هي:

- قوله تعالى: (**وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ** تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)[2] خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وقيل: هو تعريض لأمته، كأنه قال: ولا تحسبنَّ أمتك يا محمد، ومعنى (تحسبن) تظنَّنَّ، وعلى القول بأن الخطاب موجه للنبي صلى الله عليه وسلم فإنه لا يمكن حمله على حقيقة النهي، لأن هذا الظن لا يتصور دخوله قلب النبي صلى الله عليه وسلم وهو أعلم الخلق بالله تعالى، فلا داعي لنهيه عنه، وإنما يكون الغرض من النهي **دوامه وتثبيته على ما هو حاصل منه أصلاً**، وهو عدم مجرد الظَّنِّ أن الله غافل عن أعمال الظالمين أو مهمل لعقابهم، نظير[3] قوله تعالى: (ولَا تَكُونَنَّ مِنَ المُشْرِكينَ)[4] وقوله أيضاً: (وَلَا تَدْعُ مَعَ

---

[2] ذكر علماء البلاغة أغراضاً مجازية كثيرة يمكن أن يحققها النهي عند خروجه عن معناه الحقيقي منها: النصح والإرشاد، والرجاء، والتسوية، والدعاء، والالتماس، والإلهاب والتهييج، والتهديد والوعيد، والتحدي، والإهانة، والتيئيس، وغيرها. ينظر: يوسف الأنصاري، أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم: 306-385

[3] سورة إبراهيم: الآية 42

[4] ينظر: الزمخشري، الكشاف:562/2

[5] سورة الأنعام: الآية 14

اللَّهِ إِلهاً آخَرَ)[1] ، والغفلة: معنى يمنع الإنسان من الوقوف على حقيقة الأمور، أو هي سهو يعتري الإنسان من قلة التحفّظ والتيقّظ[2]، والله تعالى منزه عنها.

وقد يكون المعنى النهي عن الظنِّ بأن الله تعالى يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون، وإنما معاملة الرقيب عليهم المحصي لأفعالهم، وقيل: إن الغرض الذي خرج إليه النهي هنا هو الإيذان، أي الإعلامُ بأن الله تعالى عالم بأفعال المشركين الظالمين مطّلع عليها لا يخفى عليه شيء منها، وذلك على سبيل التسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه المستضعفين[3]، وهو في الوقت نفسه وعيد للمشركين الظالمين بأن تأخير العذاب عنهم ليس للرضا بأفعالهم بل سنة الله سبحانه في إمهال العصاة والكافرين[4]، فهو الذي من شأنه الإمهال لا الإهمال.

- قوله تعالى: (**فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ**)[5] النهي فيه شبيه بما ذكرنا في المثال السابق، إذ لمَّا كان تأخير ما وعد الله رسوله من إنزال العقاب بأعدائه يشبه حال المخلف وعده نهى عن حسبانه وظنه[6]، وقد خرج النهي عن معناه الحقيقي إلى غرض **تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم على ثقته بالله** سبحانه واليقين بإنجازه وعده بتعذيب الظالمين، أو لغرض الإيذان الذي يحمل مع الوعد للنبي وعيداً للمشركين.

- قوله تعالى: (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي **فَلَا**

---

[2] سورة القصص: الآية 88

[3] ينظر: الخازن، لباب التأويل: 43/3، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: 167/3

[4] ينظر: الزمخشري، الكشاف:562/2، وابن عطية، المحرر الوجيز: 343/3، والثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن: 388/3

[5] ينظر: السمرقندي، بحر العلوم: 247/2

[6] سورة إبراهيم: الآية 47

[7] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 251/13

تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)[1] وقد جاء النهي فيه على لسان الشيطان موجهاً لأتباعه الذين غرر بهم وزين لهم في الدنيا، فكانوا ضحية وساوسه، ويبدو من خطابه أنه يواجه منهم لوماً وعتاباً، فهو يتبرأ منهم متملصاً من المسؤولية ملقياً باللائمة عليهم قائلاً: (وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي) أي إن نفوذي عليكم لم يتعدَّ مجرد الوسوسة والدعوى المجردة من الحجة أو السلطان والقهر، ثم طالبهم بالكف عن لومه، ومحاسبة أنفسهم بدلاً عنه ذلك: (**فَلَا تَلُومُونِي** وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ) وهما نهي وأمر خرجا عن معناهما الحقيقي إلى معنى **التأنيب والتوبيخ والتقريع**، فلا تلوموني على تغريري بكم "فإن من صرح بالعداوة لا يلام بأمثال ذلك"[2] ولكن لوموا أنفسكم على سوء النظر واتّباع الباطل دون تثبت أو دليل، ولا يخفى ما لاجتماع الأمر مع النهي من دلالة على توكيد الغرض الذي خرج له الأمر أو النهي والحرص على تحققه.

رابعاً – النداء

النداء لغة: الصوت، ناداهُ مُناداةً ونداء، أي صاح به[3]، وأما اصطلاحاً فهو: طلب المتكلم إقبال المخاطب إليه، أو تنبيه المنادى وحمله على الالتفات بحرف ينوب عن الفعل (أدعو) أو (أنادي) لفظاً أو تقديراً[4]، أو هو "ذكر اسم المدعو بعد حرف من حروف النداء"[5]

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 22

[3] ينظر: صديق حسن خان، فتح البيان: 105/7

[4] الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، مادة (ندا)

[5] ينظر: التفتازاني، مختصر المعاني، أبو يعقوب المغربي، مواهب الفتاح (شروح تلخيص المفتاح): 333/2-334، والهاشمي، جواهر البلاغة: 89

[6] محمد قاسم، محيي الدين ديب، علوم البلاغة: 306

والحروف المستعملة في النداء هي: الهمزة، ويا، وأي، وأيا، وهيا، ووا، وآي، ويختص نداء لفظ الجلالة منها بـ(يا). وأدوات النداء بالنظر إلى المخاطب نوعان:

الهمزة وأي: وتستعملان لنداء المخاطب القريب من المتكلم

باقي الأدوات: لنداء البعيد.

وقد يخرج النداء على الأصل والظاهر فينزل البعيد منزلة القريب، فينادى بـ(الهمزة وأي) ابتغاء تحقيق غرض بلاغي، كأن يراد بذلك التعبير عن قرب المنادى من القلب وحضوره في الذهن فيعامل كأنه ماثل أمام العين[1]، وقد ينزل القريب منزلة البعيد رغبة من المتكلم في إعلاء شأنه[2] أو الحط منه[3]، أو إشارة إلى غفلة السامع وشرود ذهنه[4].

وقد ظهر أسلوب النداء في سورة إبراهيم في مشهدين:

المشهد الأول

---

[2] نحو قول الشاعر:

أسُكانَ نعمانِ الأراكِ تيقَّنوا بأنكُم في ربع قلبي سُكانُ

فالشاعر نادى على سكان ذلك الوادي البعيد بالهمزة الموضوعة لنداء القريب لينبئ بأنهم مع بعدهم قريبون منه لا يتركون فكره ولا يبرحون خياله. ينظر: عبد العزيز عتيق، علم المعاني: 116

[3] نحو نداء سيدنا إبراهيم على أبيه وهو يحاوره ويعظه: (يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا) (مريم: 44،45)

[4] نحو قول الفرزدق يهجو جريراً:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

فالفرزدق حط من شأن جرير حين نادى عليه بالأداة المستعملة للبعيد تنزيلاً للبعد النفسي المتمثل بالوضاعة منزلة البعد المكاني. ينظر: عبد العزيز عتيق، علم المعاني: 116

[5] نحو قول البارودي:

يأيُّها السادر المزور من صلفٍ مَهلاً، فإنك بالأيّام مُنخَدع

ينظر: الهاشمي، جواهر البلاغة: 89

أثناء مناجاة إبراهيم الخليل ربه ودعائه أن يجعل مكة المكرمة بلداً آمناً يطمئن فيه أهله، ويكون مركزاً لعبادة الله يتوجه إليه الناس من كل حدب وصوب (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ)[1] ويبدو الغرض الذي خرج إليه نداء سيدنا إبراهيم ناصعاً لما اصطبغ به من تضرع وتذلل لربه، واعتصام به من فتنة الأصنام التي وقع فيها كثير من الخلق، فهو قد بدأ دعاءه بنداء الله تعالى بصفة (رب) وأضافها إليه[2] معبراً بذلك عن إحسان الله تعالى إليه، وتدبيره لشؤونه ورعايته لأموره يقول الشيخ الشعراوي: " قال (ربّ) ولم يَقُل (يا الله) لأن عطاءَ الله تكليفٌ، وأمام التكليف هناك تخيير في أن تفعل أو لا تفعل، مثل قوله سبحانه: (وَأَقِيمُواْ الصلاة ...)، أما عطاء الربوبية فهو ما يقيم حياة المُصلِّين وغير المُصلِّين"[3]، ثم توسل إليه أن يكلأه وبنيه ويمنعهم بألطاف منه وأسباب خفية من الانزلاق في مهاوي الشرك والضلال وعبادة الأصنام، وقد تعددت أقوال المفسرين وتأويلاتهم بشأن المقصود بـ (بنيَّ) فقيل المراد بهم: أبناؤه من صلبه[4] وكانوا ثمانية وقد عُصموا مما كان يخشاه عليهم سيدنا إبراهيم. وقيل: أراد بها ما كان موجوداً حال دعوته من بنيه وأحفاده، وقيل: جميع ذريته ما تناسلوا[5].

ويبدو لي أن القول الأول والثاني بعيدان لأنهما خصصا كلمة (بني) دون مخصص من دليل أو قرينة، وينقض الثالث أيضاً أن قريشاً من سلالته وقد وقعت في الشرك وعبادة الأصنام، وأرى أن مقصود الخليل بقوله: (بنيَّ) من كان مؤمناً منهم بدليل

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 35

[3] ربِّ: منادى مضاف إلى ياء المتكلم التي حذفت تخفيفاً، والحذف كثير في المنادى المضاف إلى ياء المتكلم.

[4] الشعراوي، الخواطر: 7563/12

[5] ينظر: البغوي، معالم التنزيل: 42/3

[6] ينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل: 200/3، والشوكاني، فتح القدير: 134/3، وصديق حسن، فتح البيان: 122/7

سياق قوله موضحاً بعد الدعاء: (مَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيم)[1] فهو قد تبرأ بهذا التصنيف مِمَّن ليس على طريقه ودينه، ويدخل فيمن تبرأ منهم من كان غير مؤمنٍ من نسله، وبذلك يكون دعاؤه خاصاً بالمؤمنين من ذريته ويكون غرضه طلب الثبات والدوام له ولهم.

ومن النكت البلاغية التي نلمحها في أسلوب النداء الذي جاء على لسان سيدنا إبراهيم حذف أداة النداء في كل مرة تضرع ودعا فيها ربه في السورة الكريمة، وهو ـ حذف الأداة - إن كان أمراً مألوفاً في أسلوب النداء ومبرراً عند النحويين، فإنه يخفي وراءه دلالات ومعاني يتلمسها البليغ ويتذوقها، والذي يظهر لي منها هنا أن أداة النداء لو ذكرت في هذا المقام لكانت فضلة في الكلام وحشوا لا داعي له، لأن المنادى قد بلغَ من القرب منزلاً لم يحتج معه إلى أداة لشدة قربه، وهو ما يليق بمقام الرب من عبده، وخير من يستشعر هذا الدنو هو سيدنا إبراهيم الذي نال صفة الخلة، وهل من شيء أقرب إلى الخليل من خليله.

ثم كرر الخليل نداء ربه للتأكيد وكثرة الابتهال وقل إن شئت للتلذذ بمخاطبة خليله مبيناً سبب طلبه السابق[2] حين دعا ربه أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام فقال: (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)[3] وقد جاء النداء هنا لإنشاء التحسر[4] والحزن على أولئك الذين فتنوا بالأصنام واغتروا بها يشهد لهذا الغرض قوله: (وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) إذ تبدوا سمة إبراهيم العطوف الرحيم الأواه، يقول سيد قطب: " فهو لا يطلب الهلاك لمن يعصيه من نسله ويحيد عن طريقه، ولا يستعجل لهم العذاب بل لا يذكر العذاب، إنما يكلهم إلى

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 36

[3] ينظر: أبو حيان، البحر المحيط: 445/6

[4] سورة إبراهيم: الآية 36

[5] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 239/13

غفران الله ورحمته. ويلقي على الجو ظلال المغفرة والرحمة، وتحت هذا الظل يتوارى ظل المعصية"[1]

ويعود غرض الدعاء للظهور مجدداً مع نداء الخليل وتضرعه إلى ربه مرتدياً ثوب العبودية ومظهراً الضعف والفقر طالباً العون واللطف بزوجته ورضيعها مع تركه لهما في ذلك الوادي المهجور المقفر: (رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ)[2] ثم يعود فيكرر النداء بقوله: (رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)[3] وهو هنا يضيف الرَّب إلى ضمير الجمع المتكلم خلافاً لما تقدم لأن الدعاء الذي افتتح به فيه حظٌّ للداعي ولأبنائه، ولعل إسماعيل عليه السلام كان حاضراً معه أثناء الدعاء[4]، فإبراهيم عليه السلام يبتهل إلى ربه أن يعمِّر الوادي الذي يضم البيت الحرام، ويوفِّرَ لسكانه أسباب العيش ويكفيهم شواغل الاكتساب ليتفرغوا للعبادة، فإن قلوب الناس حين تهفوا إلى مكة وتميل إلى الحجِّ والعمرة تحمل معها إلى وجهتها الأرزاق والخيرات.

وما قيل فيما سبق من أغراض النداء يسري على تتمة مناجاة سيدنا إبراهيم عليه السلام ربه في الآيات الآتية:

- (رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)[5] نداء مصطبغ بالتضرع والتخشع جاء بصيغة الجمع ليشمل ما كان يجده إبراهيم الخليل من الوجد على فراق ذريته، وما تشعر به هاجر كذلك في تلك اللحظة من الاضطراب والقلق الذين ألجآها إلى البوح بنوازعها البشرية بعد طول كتم

---

[2] سيد قطب، في ظلال القرآن: 2110/4

[3] سورة إبراهيم: الآية 37

[4] سورة إبراهيم: الآية 37

[5] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 239/13

[6] سورة إبراهيم: الآية 38

وصبر، وجعلاها تستفسر عما يجري لها وابنها وتسأل الخليل: أهو من رأيك أم من أمر الله؟ فنداء الخليل يلقي على المشهد ظلالاً من التوكل، وتفويض الأمر والحال والمآل إلى الرب الرحيم اللطيف المطلع على السر والعلن، والذي بيده مقاليد كل شيء.

- (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (40) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ)[1] كذلك خروج للنداء عن أصله وحقيقته إلى غرض الدعاء والرجاء والتضرع، إذ إن من صيغ الدعاء ما يأتي بأسلوب نداء يعقبه أمر أو نهي[2] كما في دعاء الخليل هنا حيث يبتهل إلى ربه مفتتحاً دعاءه بندائه (رب) طالباً منه العون والتوفيق له ولذريته في الثبات على إقامة الصلاة، ويسدل الستار على هذا المشهد الطويل، مشهد الدعاء الخاشع الضارع، بخلع ظل وديع لطيف على الموقف كله تهفو معه القلوب إلى رحمه الله وعفوه ومغفرته[3]، يتجلى في دعاء عام صادر من أبي الأنبياء إبراهيم - نموذج العبد الصالح الحليم - بالمغفرة لنفسه ووالديه وسائر المؤمنين.

المشهد الثاني

أما المشهد الثاني الذي ورد فيه أسلوب النداء في السورة الكريمة فيتجلى فيما رواه البيان الإلهي عن مآل الكافرين المكذبين حين يرون العذاب فيتوسلون إلى الباري عز وجل أن يمنحهم فرصة يتداركون فيها ما فاتهم: (وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ)[4] فالنداء الجاري على لسان أهل

---

[2] سورة إبراهيم: الآيتان 40، 41

[3] ينظر: عبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 256/1

[4] ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن: 2111/4

[1] سورة إبراهيم: الآية 44

العذاب ليس على أصل النداء وحقيقته - كما يبدو لي - وإنما هي صرخة من يائس، وأمنية من فاقد للأمل في جو من الخيبة والحسرة، يجد في النداء بـ(رب) المضافة إلى ضمير الجمع المتكلم (نا) - بما يوفِّره الألف من مد للصوت – يجد فيه متنفساً وتعبيراً عن مشاعر النفس المتألمة المتمنِّية أمراً متعذراً.

فالكافر مادي بطبعة لا يؤمن إلا بما يقع تحت سلطان حسه ويخضع لحواسه القاصرة، فهو كافر بما غاب عن بصره وسكت عن سمعه، مؤمن بما رأى أو سمع أو لمس، أما المؤمن فعنده ما يرتقي به عن مستوى الحيوانية، لديه العقل الذي ينتقل إلى ما وراء المحسوس، ولذا وصف الله المؤمنين بأنهم يؤمنون بالغيب[1] تقديراً وتشريفاً لدور العقل في قضية الإيمان، وعليه يكون حال الكافر يوم يأتيه العذاب صعباً والموقف صادماً عندما يُكشَف عن الغيب الذي ظل يكذب به في دار الدنيا، ويرى العذاب ماثلاً أمام عينيه، فلا يجد بداً من الإيمان حينها ولات حين إيمان، ثم يشرع ينادي الله تعالى بما هو أقرب إلى التمني منه للرجاء أو الدعاء والتوسل نظير مقولته فيما حكى الله تعالى عنه: (. . . رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ)[2] وهي المرة الأولى التي ينادي الكافر فيها الله تعالى بـ (ربنَّا) معترفاً بربوبيه تعالى له مستجدياً أن يمهل ويؤخر عنه العذاب.

---

[2] ينظر: أبو زهرة، محمد بن أحمد بن مصطفى، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، 4051/8

[1] سورة السجدة: الآية 12

الفصل الرابع

البلاغة القرآنية في نظم الجمل والمعاني

المبحث الأول: البلاغة القرآنية في نظم جملة القصر

يعد القصر أحد الأساليب البلاغية التي حفلت بها اللغة العربية، واستخدمها القرآن الكريم بكثرة في خطابه كلما اقتضاه المقام واستدعاه النسق، وهو يستمدُّ أهميته من الأغراض البلاغية التي يحققها وتتنوع بين الإقناع والإيجاز والتوكيد والتقرير والمبالغة.

والقصر لغة يطلق على معنيين أحدهما: التخصيص، فيقال: قصر الشيء على كذا، إذا خصَّصه به، ولم يتجاوز به إلى غيره، ويقال: قصر غلة بستانه على عياله، إذا جعلها خاصة بهم دون غيرهم[1]. والثاني: الحبس[2] نحو قولهم: قصر نفسه على عبادة ربه، أي حبسها على القيام بعبادة ربه، وقد ورد القصر في التنزيل في قوله تعالى: (وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ)[3] وقوله: (وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ)[4] وفي سورة الرحمن قوله تعالى: (فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ)[5]

---

[2] المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مادة (قصر)، وعبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 523/1

[3] ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب مادة (قصر)، أيضاً الشريف الجرجاني، التعريفات: 175

[4] سورة الصافات: الآية 48

[5] سورة ص: الآية 52

[6] سورة الرحمن: الآية 56

وما ورد في الآيات الثلاثة هو وصف لنساء أهل الجنة بأنهن يقصرن طرفهن على أزواجهن، فلا يتجاوزنهم بالنظر إلى غيرهم[1]، قال الفراء: "قد قصرن أنفسهن على أزواجهن فلم يطمحن إلى غيرهم"[2]

وفي قوله تعالى: (حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ)[3] أي مقيمات فيها، قد خصصت لهن هذه الخيام ليقمن فيها، فهي مخصوصة لمكثهن ولبثهن.

وهذان المعنيان اللغويان هما الأساس في المعنى الاصطلاحي الذي استقر عليه أهل البلاغة فيما بعد حين عرفوا القصر بأنه: تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص[4]، والشيء الأول: هو المقصور، والشيء الثاني: هو المقصور عليه، والطريق المخصوص هو طرق وأدوات القصر التي سترد.

والقصر ضرورة يقتضيها المقام كما أسلفنا، يستعين به البليغ لإثبات كلامه وتقريره، فإذا أردنا أن نتكلم في إطار الشعر والشعراء وأن نخصص البحتري مثلاً بالشعر دون غيره لاعتقادنا أنه أجدر بهذا الوصف منهم قلنا: إنما الشاعر البحتري، فنكون قد أثبتنا الشعر للبحتري وحده وقصرناه عليه بإخراج الشعراء الآخرين من حلبة الشعر. والذي حملنا على هذا التخصيص إنما هو مخالفة الآخرين لنا في هذا الرأي كأن يرى بعضهم أن المتنبي هو الحري بوصف الشعر، ويرى آخرون أن

---

[2] ينظر: الأزهري، تهذيب اللغة، مادة (قصر)

[3] الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، وابن منظور، لسان العرب، مادة (قصر)

[4] سورة الرحمن: الآية 72

[5] ينظر: السبكي، عروس الأفراح، المغربي، مواهب الفتاح، التفتازاني، مختصر المعاني (ضمن شروح التلخيص): 166/2، وعيسى العاكوب، المفصل في علوم البلاغة: 229، وعبد العزيز عتيق، علم المعاني: 146

الوصف يناسب أبا تمام، فاستعملنا أسلوب القصر لإثبات الصفة للبحتري ودفعها عن غيره[1].

ومثله ما لو كان حديثنا عن شخصية الجاحظ، وأردنا إقناع الغير أنه كان كاتباً فحسب، وأردنا دفع بقية الصفات الأخرى عنه نحو الخطابة والشعر، تجدنا نقول: إنما الجاحظ كاتبٌ، فيكون كلامنا مخصصاً الجاحظ بالكتابة مزيلاً لما توهمه البعض من أنه كان خطيباً أو شاعراً، إذ ربما قرأوا له أبياتاً من الشعر أو سمعوا له خطباً فظنوه كذلك. وبه يظهر الغرض من إلقاء الكلام بهذه الصيغة، فلولا اختلاف وجهات النظر في هذه المسألة لما احتيج للقصر ولكان قولنا: (البحتري شاعر، والجاحظ كاتب) كافياً.

وللقصر أنواع بحسب اعتبارات وحيثيات متعددة[2] فينقسم تبعاً لغرض المتكلم إلى:

حقيقي يكون تخصيص الشيء بالشيء فيه بحسب الحقيقة والأمر نفسه، لا يتجاوز فيه المقصورُ المقصورَ عليه إلى سواه حقيقة أو ادعاء.

وإضافي: عند تخصيص الشيء بالشيء قياساً أو إضافة إلى شيء معين، أي في دائرة محددة بحيث لا يتعداه إلى ذلك الشيء وإن صح أن يتعداه إلى شيء آخر.

وينقسم باعتبار حال المقصور إلى: قصر صفة على موصوف، وقصر موصوف على صفة، وباعتبار حال المخاطب ينقسم إلى قصر قلب يقصد به قلب اعتقاد المخاطب، وقصر إفراد يخاطب به من يعتقد الاشتراك، وقصر تعيين يخاطب به المتردد بن شيئين.

---

[2] ينظر: فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني): 359

[1] ينظر: التفتازاني، المطول شرح تلخيص المفتاح: 381، الهاشمي، جواهر البلاغة: 170

وفيما يلي سنعرض المواضع التي ورد فيها أسلوب القصر حسب طرقه وأدواته في سورة إبراهيم:

أولاً_ القصر بـ (إنما)

تتركب (إنما) من (إنّ) الداخلة على الجملة الاسمية لتأكيد علاقة ركني الإسناد، ومن (ما) الكافة التي تكف (إنّ) عن العمل؛ فلا يكون لها تأثير لفظيّ في الاسم فيعود مبتدأ كما كان[1]؛ ولكنها من حيث المعنى ازدادت فضل تأكيد بأن حصرت أحد ركني الإسناد في الآخر، وبكف (إنّ) عن العمل يزول اختصاصها بالدخول على الجملة الاسمية فتدخل على الجملة الفعلية أيضًا.

ويجيء المقصور بـ (إنَّما) و(أنَّما) تالياً للأداة، ثم يأتي المقصور عليه بعده[2]، مثال هذا الطريق من القصر[3] قوله تعالى: (وَمَن يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ على نَفْسِهِ ...)[4] أي لا يكسبه إلا على نفسه، والمعنى أنّ المكسُوبَ من الإِثم - وهو هنا موصوف - مقصور على صفة واحدة هي كونه على نفس الكاسب، فهو من قصر موصوف على صفة، أي: لا يضرّ به إلاَّ نفسه، وظاهرٌ أنَّه من قسم القصر الإِضافي، إذ الكلام يدور في دائرة الجزاء عند الله، أمّا في غير دائرة الجزاء الرّبّاني فقد يضرّ كاسب الإِثم به غيره من عباد الله ضرراً دنيويّاً.

---

[2] ينظر: الزمخشري، محمود بن عمرو بن أحمد، المفصل في صنعة الإعراب، مكتبة الهلال- بيروت، الطبعة الأولى 1993، 389، وابن هشام، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك: 338/1

[3] ينظر: حامد عوني، المنهاج الواضح لليلاغة: 76/2

[4] ينظر: عبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 532/1

[5] سورة النساء: الآية 111

وتمتاز (إنما) في دلالتها بجرسها وغنتها، فلا تكون إلا في المواقف الهادئة الناعمة دون جلبة أو عنف وثورة، وهي تتصدر الحقائق والمواقف والمشاعر والأفكار، تبعث فيها حياة جديدة وتسوقها إلى النفس المخاطبة سوقاً هادئاً وتطبعها بتريث وأناة.[1]

وقد ورد أسلوب القصر بـ (إنما) مرتين في السورة الكريمة:

- في قوله تعالى: (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ **إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ**)[2] والمراد بتأخيرهم: تأخير جزائهم وعذابهم، وعدم مؤاخذتهم الآن بظلمهم[3]. وهو استئناف جاء ليعلل النهي الوارد في قوله تعالى: (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ..) أي لا يذهبن بك الظن أن أعمالهم تفوت الله فينجون من العقاب، لأن تأخير ذلك هو (لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)، وفيه قصر لتأخير العذاب وهو صفة على اليوم الذي تشخص فيه الابصار وهو موصوف بهذا العذاب المؤخر الذي ينتظر الظالمين في الدار الآخرة، من قصر الصفة على الموصوف، وجلي أن القصر هنا جاء إضافيّاً أُريدَ به العذاب المستأصل لشأفة الظالمين، المستمر الذي لا انقطاع له ولا فتور وهو عذاب الآخرة، وإلا فهناك أنواع من العذاب يسلطها الله على الظالمين في الحياة الدنيا، ويعجلها لهم بين الفينة والأخرى نحو ما لحق بمشركي قريش في عزوة بدر حين نصر الله المسلمين عليهم فقتل منهم من قتل وأسر من أسر، وهو لا شك عقاب من الله تعالى ولكنه خارج عن دائرة القصر هنا؛ فالعذاب المقصور في الآية هو عذاب جهنم الموسوم بالخلود.

وقد حمل الأسلوب قوة في التصوير وإيجازاً في المعنى وتأكيداً عليه، لأن جملة القصر جاءت في قوة جملتين، الأولى منها منطوقة مثبتة وهي: (**إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ**

---

[2] ينظر: دراز، صبَّاح عبيد، أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية، مطبعة الأمانة، الطبعة الأولى، 1406هـ، 1986م، 219

[3] سورة إبراهيم: الآية 42

[1] ينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل: 202/3

تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ) والثانية مفهومة منفية مقدرة بقولنا: لا لشيء آخر كإهمال أو غفلة أو توان.

والأصل في القصر بـ (إنما) أن يؤتى به في الأمر الجلي الذي لا خلاف فيه ولا مراء، إذ يكون مقبولاً لدى المخاطب ومستساغاً غير منكر ولا مشكوك فيه، ويكون دورها عندئذ إخراجه في حلة أكثر توكيداً وتقريراً، يقول عبد القاهر الجرجاني عن ذلك: " اعلم أن موضوع (إنما) على أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته، أو لا ينزل هذه المنزلة، تفسير ذلك أنك تقول للرجل: (إنما هو أخوك) و (إنما هو صاحبك القديم): لا تقوله لمن يجهل ذلك ويدفع صحته، ولكن لمن يعلمه ويقر به، إلا أنك تريد أن تنبهه للذي يجب عليه من حق الأخ وحرمة الصاحب"[1]. وفي الآية موضوع الشاهد جرت (إنما) على أصلها وحقيقتها، فالخبر الذي تصدرته معلوم للنبي صلى الله عليه وسلم على افتراض أنه المخاطب، وهو حقيقة مسلمة كذلك عند المؤمنين، وليس مثار جدل ولا موضع إنكار عندهم، ولكنه سيق تذكيراً لهم وتوكيداً لوعد الله، ليكون تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فيحملهم على مزيد من الصبر وتحمل أذى المشركين، مع ملاحظة ما فيه من تعريض للكفار الذين تمادوا في طغيانهم يظنون الغفلة في حق الله تعالى.

ويظهر لي أن مجيء (إنما) خفف من وقع الشدة، وهدَّأ من وتيرة النبرة العالية التي اتسم بها قوله تعالى: (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ)[2] فأرخى على جو الآية بعد الصخب ظلالاً من الطمأنينة منحت المؤمنين سكينة وتسلية بما حملته من وعد لهم بعدم إفلات الظالمين من العقاب، فالله تعالى مطلع على أفعالهم، ويوم القيامة لهم بالمرصاد.

---

[2] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: 330

[3] سورة إبراهيم: الآية 42

وأما الموضع الثاني من السورة الكريمة الذي ورد فيه أسلوب القصر بـ (إنما) فهو في ختام السورة في قوله تعالى:

- (هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا **أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ** وَلِيَذَّكَّرَ أُولُواْ الْأَلْبَابِ)[1]

فقوله: (**أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ**) من قصر الموصوف على الصفة، أي قصر الضمير العائد على لفظ الجلالة (الله) وهو موصوف على صفة الألوهية والوحدانية، وهو قصر إضافي كون الكلام مع المشركين يدور في دائرة التوحيد والشرك، وإلا فصفات الله تعالى تتعدى الوحدانية إلى غيرها من الصفات الأخرى مثل الحياة والقوة والقدرة والإرادة وغيرها.

وهو بالنسبة للمخاطب من نوع القلب، الذي يقصد به المتكلم قلب اعتقاد المخاطب فيما يتعلق بالخبر الذي يدخله أسلوب القصر، وهو هنا يقلب اعتقاد المشركين الذين لا يؤمنون بوحدانيته ويشركون الأوثان والأصنام معه في العبادة، فكان غرض القصر إثبات الوحدانية لله تعالى بقصره عليها في أسلوب هادئ وديع يمثله القصر بطريق (أنما) التي نلمح دورها جلياً في ترطيب المشهد وتهدئته – بعد شدة الإنذار وحدَّتِه في قوله: (وَلِيُنْذَرُوا) – وذلك من خلال إنزال المخاطبين المنكرين لألوهية الله تعالى والجاحدين لوحدانيته منزلة المذعنين له المؤمنين بصفاته، وإنزال الخبر منزلة المعلوم المقرر، في إشارة إلى أن ما بُثَّ في الكون من أدلة كاف ليجعل الخبر من البدهيات، ويبعده عن دائرة الإنكار والشك، يشير إلى هذا الغرض قوله: (وَلِيَعْلَمُوا) فالعلم متيسر ووسائله متاحة، ولا اعتبار لمنكر يتجاهل كل ما يحيط به من البينات، ويبني اعتراضه على عناد وتكبر وتعال على الحق.

---

[1] سورة إبراهيم: الآية 52

ثانياً- القصر بالنفي والاستثناء

ويكون المقصور بالنفي والاستثناء قبل أداة الاستثناء صفة كان أو موصوفاً، والمقصور عليه هو الذي يلي الأداة، مثاله في قصر الصفة قصراً حقيقياً قولنا: (ما شاعر إلا فؤاد) أي لا غير فؤاد، وفي قصر الموصوف قصراً إضافياً قولنا: (ما فؤاد إلا شاعر) أي لا غير، شاعر بالنسبة لصفات أخرى. ومثاله في قصر الصفة قصراً إضافياً قولك: (ما شاعر إلا فؤاد) أي لا غيره كزيد مثلاً[1].

وقد ورد أسلوب القصر بطريق النفي والاستفهام ست مرات في سورة إبراهيم نوردها فيما يأتي:

في قوله تعالى: (**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ** يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[2] وهو من قصر الموصوف على الصفة، إذ قصر إرسال الرسل أي الرسالات السماوية على كونها منزلة بلغة أقوامها كل نبي يبعث إلى قومه بلغتهم، قصراً إضافياً محصوراً في دائرة اللغة التي أنزل بها والوسيلة التي يبلغ بها، وهو من نوع القلب لكونه جاء بغرض قلب اعتقاد المشركين وإنكارهم، فقد روي أن فريقاً من المشركين استنكروا ورود القرآن باللغة العربية قائلين: هلَّا أُنزل القرآن بلغة العجم كما سائر الكتب السماوية[3]، وقد رد القرآن الكريم مقالتهم وأجابهم قائلاً: (ولَوْ جَعَلْناهُ قُرْآنًا أعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آياتُهُ أأعْجَمِيٌّ وعَرَبِيٌّ)[4] فلما كان الخبر موضع شك وإنكار استعمل النظم الحكيم القصر بطريق النفي والاستثناء، لمناسبتها له يقول عبد القاهر الجرجاني: " وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو: (ما هذا إلا كذا)، و (إن هو إلا كذا)، فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه.

---

[2] ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم: 288، الصعيدي، بغية الإيضاح: 229/2

[3] سورة إبراهيم: الآية 4

[4] ينظر: الزمخشري، الكشاف: 202/4، الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 185/13

[5] سورة فصلت: الآية 44

فإذا قلت: (ما هو إلا مصيب) أو: (ما هو إلا مخطئ)، قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلت"[1]، ومع هذا الاعتراض من المشركين على عربية القرآن الكريم نلمس ارتفاع النبرة الجهيرة للخطاب الرباني، ونلحظ قوة وقع هذا الأسلوب الذي يتناسب مع المقامات العنيفة حيث الرفض والجدال مما يستدعي مزيداً من التوكيد والتقرير، وإثباتاً وتوثيقاً يرتقي إلى مستوى المقام، ويكون في قوة الموقف اللافظ للخبر.

- وفي قوله تعالى: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ **لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ**)[2]

قصر صفة على موصوف، إذ إن الخبر قد قصر الإحاطة بعلم الأقوام التي تلت قوم نوح وعاد وثمود وهو (صفة) على الله تعالى فقط وهو (موصوف)، وقد ذكر المفسرون في المراد بالعلم في قوله: (لَا يَعْلَمُهُمْ) قولين[3]:

الأول: إن العلم هنا راجع إلى صفاتهم وأحوالهم وأخلاقهم ومدد أعمارهم، وما حل بهم من العذاب والهلاك، فالعلم بهذه الأحول محصور في الله تعالى.

الثاني: إن المقصود بالعلم هنا المتعلق بذوات تلك الأمم ونسبهم، أي إنها قد بلغت من الكثرة ما لا يحصي مقاديرها وأعدادها غير الله عز وجل.

فعلى القول الأول يكون القصر إضافياً، لأن العلم بأحوالهم وصفاتهم مقصور على الله جل وعلا ولكن بالإضافة إلى من نزل القرآن عليهم، ومن باعد الزمن بينهم وبين تلك الأمم، إذ لا شك في علم من كانوا قريبي عهد بهم ممن تلاهم من الأقوام والأمم.

---

[2] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: 332، والمراغي، علوم البلاغة: 153، وصباح عبيد، أساليب القصر في القرآن الكريم واسرارها البلاغية: 166

[3] سورة إبراهيم: الآية 9

[4] ينظر: الواحدي، التفسير البسيط: 409/12، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 344/9، الخازن، لباب التأويل: 30/3، وصديق حسن خان، فتح البيان: 89/7

وعلى الثاني يكون حقيقياً إذ لا يعلم أحد من البشر عددهم، وهو مقصور على الله تعالى فقط.

والذي يترجح عندي أن العلم شامل للقولين لما روي عن ابن عباس قوله: (بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لَا يُعْرَفون)[1]، وإذا كان نسبهم مجهولاً وغائباً فهذا يعني أن أحوالهم أكثر غموضاً وأشد بعداً عن العلم والمعرفة، لأن العلم بالحال فرع عن علم الذات والنسب.

- قوله تعالى: (قَالُوا **إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا** تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آَبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ)[2] خطاب من الذين كفروا لرسلهم، وهو من قصر الموصوف على الصفة، إذ قصروا (الرسل) وهو موصوف على صفة البشرية، قصراً إضافياً بالنسبة إلى موضوع ادعائهم النبوة، ولا يكون حقيقياً لأن الرسل متصفون بأوصاف أخرى كثيرة غير البشرية. وهو باعتبار المخاطب قصر من نوع قلب أراد الكافرون به نفي ما يدعيه الرسل وقلبه، فجاؤوا بأسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء الموسوم بالشدة تنزيلاً للرسل المخاطبين منزلة من ينكر بشريته بسبب ادعائهم النبوة والرسالة لزعمهم أن ذلك مناف للبشرية، فما كان الله تعالى - بظنهم واعتقادهم - ليبعث رسولاً من جنس البشر. فالكفار بأسلوبهم هذا قد جعلوا الرسل كأنهم بادعائهم النبوة قد أخرجوا أنفسهم من دائرة البشرية[3]، وأن إصرارهم على دعوى الرسالة – بناء على اعتقاد الكفار- هو إصرار

---

[2] ينظر: مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره: 3782/5، السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور: 10/5، والخطيب الشربيني، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: 171/2

[3] سورة إبراهيم: الآية 10

[4] ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: 333، والسكاكي، مفتاح العلوم: 294، والكرماني، محمد بن يوسف بن علي بن سعيد، تحقيق الفوائد الغياثية، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1424 هـ، 511/1

على أن لا يكونوا بشراً، فقلبوا وقالوا: (إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا). ويكون القصر بذلك قد خرج على ظاهره تنزيلاً للمعلوم منزلة المجهول، والمسلم به منزلة المنكر " فنزلوا علم الرسل بأن المرسل إليهم يعلمون أنهم بشر منزلة من لا يعلم؛ فلذلك خاطبوهم بقولهم: إن أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا "[1] إضافة إلى ما في كلامهم من الاستخفاف بالرسل والتقليل من شأنهم بسبب بشريتهم.

- وأما رد الرسل عليهم بقولهم: (**إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**)[2] فهو على سبيل مجاراة الخصم والتماشي معه بقصد تبكيته وإفحامه، وليس ذلك لتسليم انتفاء الرسالة، فهو أسلوب يتبعه المناظر لإسكات خصمه وقطع حجته من خلال إرخاء العنان له في بعض مقدماته، ويكون ذلك عندما يدعي عليه خصمه الخلاف في أمر هو لا يخالف فيه، فيعيد كلامه في وجهه ويكرره كما يقال لك: أنت من شانك كذا وكذا، فتجيب بنعم وتكرر دعواه قائلاً: أنا من شأني كذا وكذا، ولكن لا ضير علي ولا يلزمني من أجل ذلك ما ظننت[3]، ومعنى الحصر في قول الرسل هنا جار على ما وضحنا، فكأنهم قالوا: إن ما قلتم من أننا بشر مثلكم هو أمر نسلم به ولا ننكره، ولكن ذلك لا يتنافى مع صفة النبوة، فلا يمنع أن يكون الله تعالى قد منَّ علينا بالرسالة[4].

- قوله تعالى: (**وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**)[5] فيه رد من الرسل على ما

---

[2] السبكي، عروس الأفراح شرح تلخيص المفتاح: 410/1

[3] سورة إبراهيم: الآية 11

[4] ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: 333، السكاكي، مفتاح العلوم: 294، الكرماني، تحقيق الفوائد الغياثية: 511/1، عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح: 236/2

[5] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 201/13، وعبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح: 236/2

[1] سورة إبراهيم: الآية 11

طلبه الكفار منهم حين قالوا في تحد (فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) فقصر الرسل مقدرتهم في الإتيان بالسلطان على تعلق مشيئة الله تعالى بهذا الإتيان، من قصر الموصوف على الصفة قصراً حقيقياً، والمراد بالسلطان هنا: ما طلبه الكفار على سبيل التعنت، وقيل هو الحجة والدليل. وقد استعمل الرسل هذا الأسلوب مع الكفار في وجه اعتقادهم أن ما يأتي به الرسل من معجزات إنما هي أفعال يخدعون بها أتباعهم، بمقدورهم الإتيان بها في الوقت الذي يشاؤون، لأنهم ينكرون صلة الرسل بالله تعالى، وكونهم مبتعثون من الله ومعهم البينات على صدق دعواهم، فجاء أسلوب القصر بالنفي والاستثناء ليؤكد أن الرسل لا يملكون من أمرهم شيئاً وأن ما يظهر على أيديهم من خوارق ومعجزات هي بأمر من الله تعالى، فيكون معنى قولهم: إن ما يجري على أيدينا من سلطان مبين بشيء من الأشياء وسبب من الأسباب محصور في إذن الله ومشيئته، إن شاء كان وإلا لم يكن.

- قوله تعالى:(**وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي**)[1] في مشهد تخاصم أهل النار حين يتبرأ إبليس من أشياعه ويلقي باللائمة عليهم توبيخاً لهم وتقريعاً، وهو يستعمل أسلوب الحصر على غير ظاهره، مستثنياً دعوته لهم بالغواية من عموم السلطان، وجلي أن تجرد الدعوى من الدليل والبرهان يخرجها من حيز السلطان الذي يعني السطوة والقهر والإجبار[2]، فيكون الاستثناء منقطعاً، أي ما كان لي عليكم من قهر ونفوذ يلزمكم اتباعي ويضطركم إلى طاعتي إلا دعوتي لكم واستجابتكم لها، وقيل هذا الاستثناء هو من باب قول الشاعر[3]:

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 22

[3] ينظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 85/19

[4] البيت نسبه القيرواني لعمرو بن معدي كرب، وذكره الزمخشري في أساس البلاغة دون نسبة. ينظر: العمدة في محاسن الشعر: 292/2، أساس البلاغة: 158/2

وخيل قد دلفت لها بخيل تحية بينهم ضرب وجيع[1]

غرضه المبالغة في نفي صولته وحكمه عليهم، كأنه يقول: " إنما يكون لي عليكم سلطان إذا كان مجرد الدعاء من السلطان وليس منه قطعاً"[2] وتظهر النكتة البلاغية في حصر الشيطان كل تأثيره على أتباعه في الدعوة، وهو يعني بها تزيينه الكفر لهم ووسوسته بالضلال والمعصية، فيكون ذلك مبرراً له على التبرؤ منهم وتحميلهم المسؤولية.

- قوله تعالى: (وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي **فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم**)[3] فيه نادرة من نوارد القصر الإضافي كما صرح ابن عاشور، وهو من خطاب الشيطان لأوليائه وأتباعهم ينفي به اللوم عن نفسه محاولاً قلب اعتقادهم وإفرادهم باللوم من دون نظر إلى شراكتهم له في التبعة بقوله (**فلا تلوموني**) ويثبته لهم في الجملة الثانية (**ولوموا أنفسكم**) سالكاً فيه أسلوب القصر بالنفي والإثبات، إذ إن مجموع جملتي (فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم) يعني: فلا تلوموا إلا أنفسكم، فإذا نظرنا إلى حقهم من اعتقاد الشركة كان القصر قصر إفراد، وإذا نظرنا إلى رده عليهم بقلب اعتقادهم وإفراده باللوم كان قصر قلب وهو المفهوم من النظم، وكأنه بذلك يتجاهل حكم التشريك ليلقي باللوم عليهم وحدهم دون أن يكون له نصيب منه " وهو مبني على اعتبار أجدر الطرفين بالرد، وهو طرف اعتقاد العكس بحيث صار التشريك كالملغى لأن الحظ الأوفر لأحد الشريكين"[4]

---

[2] ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: 333/3

[3] ينظر: أبو السعود العمادي، إرشاد العقل السليم: 42/5، وصديق حسن، فتح البيان في مقاصد القرآن: 105/7

[4] سورة إبراهيم: الآية 22

[5] الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 220/13، وينظر: صلاح الدين محمد أحمد، من جمال النظم القرآني في سورة إبراهيم، دار الطباعة المحمدية، الطبعة الأولى، 1410هـ، 1989م، 123

ثالثاً- القصر بطريق دلالات في الكلام تفهم من:

1- تقديم ما حقه التأخير في الجملة:

سبق أن ذكرنا مراتب عناصر الجملة العربية بنوعيها الاسمية والفعلية، وأن تقديم أي عنصر عن مرتبته في الكلام يحقق أغراضاً ودواعي بلاغية معنوية وجمالية، وسنتناول هنا غرضاً منها وهو القصر.

وقد نبه البلاغيون[1] في باب القصر على أن تقديم ما حقه التأخير في الجملة قد يفيد القصر في بعض صوره التي منها تقديم المعمول على عامله، وقالوا: إنه يفيد قصر المعمول على العامل سواء كان مفعولاً، أم ظرفاً، أم مجروراً بحرف الجر، ويكون المقدم هو المقصور عليه في هذه الحالة. مثاله قوله تعالى: (وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى الله تُحْشَرُونَ)[2] فإن الجار والمجرور في قوله: (لإِلَى الله) متعلق بالفعل (تُحْشَرُونَ) وقد قدِّم عليه، والأصل أن يتأخر عنه لأنه معمول له، فيكون لتغيير هذا الترتيب فائدة بلاغية، تفيد أن حشر الناس يوم القيامة يكون إلى الله تعالى دون غيره، على سبيل الحصر الحقيقي. مع ملاحظة المعنى الجمالي الذي روعي في التقديم هنا وظهر في تناسق رؤوس الآيات. ومن أمثلته كذلك:

قوله تعالى: (وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ **وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**)[3] وفي قوله بعدها: (وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا **آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**)[4] حكاية عن جواب الرسل للكافرين من أقوامهم عند احتداد المواجهة بينهم، وتلويح الكافرين بالانتقام وتوقع الرسل ذلك

---

[2] ينظر: ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 173/2، القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 28/3

[3] سورة آل عمران: الآية 158

[4] سورة إبراهيم: الآية 11

[1] سورة إبراهيم: الآية 12

منهم، وقد جيء بأسلوب القصر تأكيداً للكلام وتقريراً له في الأذهان، وقُدِّمَ المعمول الذي هو الجار والمجرور (على الله) على عامله (فليتوكل) عل سبيل قصر صفة التوكل على الله تعالى الموصوف بكونه أهلاً للاعتماد وتفويض الأمور إليه، فأفاد وجوب الاعتماد على الله تعالى وحده دون غيره. وإيراد كلامهم في قالب الحصر يوحي بالحالة النفسية والمعنوية العالية للرسل وأتباعهم، وتحليهم بالصبر والإيمان القوي بالله تعالى في أحلك الظروف والمواقف، حين ينتهي كل أمل بالغير وينقشع ضباب الأسباب والمسببات وينجلي الإيمان الحق بالاعتماد حق الاعتماد على الله تعالى الذي بيده كل الأمور.

ومن هذا النوع كذلك قوله تعالى: (**وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا**)[1] فقول التابعين المغرر بهم لساداتهم وكبرائهم الذين أضلوهم في الدنيا: (إنا كنا لكم تبعاً) فيه حصر لتابعيتهم على رأي سادتهم، من قصر الصفة على الموصوف. من خلال تقديم المعمول (لكم) على عامله (تبع)، وهو قصر إضافي بالنسبة إلى موضوع تكذيب الرسل عليهم السلام والإعراض عن نصائحهم، ولا يشمل كل شؤون الحياة.

والتّبع يريدون بذلك تحميل كبرائهم مسؤولية الإضلال بقولهم: إنا كنا تبعاً لكم لا لرأينا ولا لغيركم[2]، ولذا سماهم الله تعالى ضعفاء، ولا يلزم أن يكون رؤساؤهم أقوياء الرأي كونهم ضلوا وأضلوا، ولكن ضعف هؤلاء الأتباع مكَّن السادة من فرض قولهم.

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 21

[3] ينظر: الخفاجي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر، حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي، دار صادر – بيروت، 261/5، والألوسي، روح المعاني: 195/7

ومما جاء الحصر فيه بطريق تقديم المعمول على عامله أيضاً قوله تعالى: (**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (19) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ**)[1] فقد جاء الحصر من خلال تقديم المعمول (على الله) على عامله (عزيز) من قصر الصفة على الموصوف، أي إن القدرة على إفناء الخلق وإيجادهم من جديد، أو إهلاك قوم والاستبدال بهم قوماً آخرين ليس بممتنع على الله تعالى، وهو ممتنع ومتعذَّر على غيره، فهو قصر حقيقي. وعليه فالله تعالى وحده الحقيق بأن يرجى ثوابه ويخشى عقابه.

2- إضافة ضمير الفصل:

المراد بضمير الفصل هو ضمير منفصل يفصل بين المبتدأ والخبر، ويفيد تقوية الإسناد وتوكيده، وهو يفيد كذلك الحصر بمساعدة قرائن الحال، أو المقام والسياق، والمقصور عليه في هذا الطريق هو ما يدل عليه ضمير الفصل. وهو في الأصل لا محل له من الإعراب، وقد يُعدُّ مبتدأ وما بعده خبراً في جملة تقع هي الأخرى في محل رفع خبر للمبتدأ قبلها[2]. نحو ما ورد في قوله تعالى على لسان سيدنا عيسى عليه السلام: (مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَآ أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعبدوا الله رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ **فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ** وَأَنتَ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) فقوله: (كنت أنت الرقيب عليهم) قصر للرقابة على الله تعالى دون غيره بضمير الفصل (أنت)، أي: كنت وحدك الرقيب عليهم دوني، إذ وفيتني أجلي بينهم ورفعتني بعيداً عنهم، فلم تكن لي بعدها رقابة عليهم[3].

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 19، 20

[3] ينظر: ابن السراج، الأصول في النحو: 257/2، والزمخشري، المفصل في صنعة الإعراب: 172، والسبكي، عروس الافراح: 226/1، الكرماني، تحقيق الفوائد الغياثية: 504/1، وعبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 542/1

[4] ينظر: عبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 543/1

ومنه ضمير الفصل الذي ورد في قوله تعالى من سورة إبراهيم تذييلاً على مصير أعمال الكافرين الذين كانوا يحسبونها من البر والخير: (مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ **ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ**)[1] وقد جيء أسلوب القصر في هذه الآية بطريق ضمير الفصل (هو) الذي أفاد قصر الضلال البعيد والضياع والخسران على حالة اليأس والقنوط التي تنتاب الكافر في ذلك الموقف، إذ لا ضلال ولا خيبة توازي شعور الكافر وهو يرى أعماله تنثر أمام عينيه وتتطاير إلى غير مستقر. وهو إضافي من قصر الصفة على الموصوف جيء به لتوكيد الإسناد وتقريره في الذهن.

3- تعريف ركني الإسناد (المسند والمسند إليه)

ويكون ذلك في الجملة الإسمية دون الفعلية، لأن الفعل يكون في قوة النكرة ولا يمكن تعريفه، ويفيد تعريف طرفي الجملة القصر بمساعدة قرائن الحال أو المقال مع إفادته تقوية الإسناد وتقريره، وسواء في ذلك أن يختلف طريقا تعريف المسند والمسند إليه نحو قوله تعالى: (**وَرَبُّكَ الْغَفُورُ** ذُو الرَّحْمَةِ)[2] أو يتحدا نحو قولنا: الأمير القادم علينا[3].

ومن أمثلة هذا الطريق من أسلوب القصر في السورة الكريمة:

- ما ورد في قوله جل وعلا: (**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**)[4] في سياق بيان وظيفة الرسل في التبليغ، وأن الهداية والضلال هما بيد الله تعالى من خلال ما أعده الله في نفوس العباد من اختلاف الاستعداد وما

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 18

[3] سورة الكهف: الآية 58

[4] ينظر: حامد عوني، المنهاج الواضح للبلاغة: 76/2، عبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 543/1

[5] سورة إبراهيم: الآية 4

يخلقه من أفعالهم عند الكسب، وقد ذُيلت الآية الكريمة بالثناء على الله تعالى بأسلوب القصر بطريق تعريف طرفي الإسناد في الجملة الاسمية (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) فالمبتدأ جاء معرفاً بالضمير (هو) والخبر (العزيز) (الحكيم) باللام[1] ، وهو من قصر الصفة على الموصوف قصراً حقيقياً، إذ إن صفة العزة الحقيقة لا تليق إلا بالله تعالى وكذلك الحكمة، فالعزيز هو القوي الذي لا يغالبه مغالب في حكمه، الذي لا يرام ما عنده إلا به، ولا يمتنع عليه شيء أراده، والحكيم هو الذي يضع الأشياء في مواضعها ولا ينقضُّ ما أحكمه، وهو لا يشاء ما يشاء إلا لحكمة[2] ،وهذه الصفات إن نسبت إلى أحد من البشر كانت تجوّزاً أو نسبة إلى غيره. وقصر هاتين الصفتين على الله تعالى في ختام الآية الكريم له تعلق بما تضمنته من أفعال جرت وفقهما من إرسال كل رسول إلى قومه مبلغاً ومبيناً بلسانهم ليكون أدعى للفهم والامتثال لكونهم الأقرب إليه، ولفهمهم أسرار شريعته، ووقوفهم على حقائقها، فهم بذلك عن الغلط والخطأ أبعد. ومن فعلي الإضلال والهداية في قوله تعالى: (فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) الجاريان على الحكمة وملاحظة حال العبد وإرادته وكسبه، إذ لا يهيئ الله تعالى ألطافه إلا لمن استحقها بالإقبال على الحق والإنابة إليه، ولا يخلق الضلال إلا فيمن باشر أسبابه المؤدية إليه. والفعلان صادران كذلك عن متفرّد بالقوة والعزة يتصرف في خلقه كيف يشاء لا رادَّ لحكمه ولا معترض.

- ومن شواهده أيضاً قوله تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ..)[3] فقد قصر

---

[2] ينظر: عبد الرحيم صافي، الجدول في إعراب القرآن الكريم: 155/13

[3] ينظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن: 563، والكواري، كاملة بنت محمد بن جاسم بن علي آل جهام، تفسير غريب القرآن، دار بن حزم، الطبعة: الأولى، 2008م، 18/3، والأبياري، إبراهيم بن إسماعيل، الموسوعة القرآنية، مؤسسة سجل العرب، الطبعة: 1405هـ، 162/10

[1] سورة إبراهيم: الآية 32

البيان الإلهي خلق السموات والأرض على الله تعالى وحده، وجاء القصر بطريق تعريف ركني الإسناد: المبتدأ لفظ الجلالة (الله) والخبر اسم الموصول مع صلته (الذي خلق ..) وهو من قصر الصفة على الموصوف قصراً حقيقياً كذلك، إذ لا بارئ ولا فاطر إلا الله، جاء لغرض إفراد الله تعالى بالحكم المتعلق بخلق السماوات والأرض وإنزال الماء وإخراج الثمرات وسائر الصلات السبع المتعاطفة لـاسم الموصول (الذي) لأن المشركين كانوا يجعلون لله تعالى أنداداً يشركونها في العبادة كما لو كانت شريكة له في الخلق، فجاء أسلوب القصر بهدف إفراد من له الخلق وبيده كل شيء، تنبيهاً للمشركين وتأكيداً على استحقاقه وحده الألوهية. ومن القرائن التي ساعدت على إفادة معنى القصر تقديم المسند إليه، حيث افتتح الكلام باسم الموجد (الله) لأن تعيينه هو الغرض الأهم[1].

---

[1] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 235/13

المبحث الثاني: النظم القرآني بين الإيجاز والإطناب

حين يلقي المتكلم بكلامه فإنه يتخير من القوالب ما يناسب حال المخاطب، فحيناً يوجز في كلامه وتارة يسهب، ولكل مواضعه ومقاماته، ويختلف منطوق الكلام من حيث كثافة المعاني التي يحتويها، بين عبارات تزيد على مدلولها وهو الإطناب، وأخرى تزخر بالمعاني حتى تكون المعاني أكثر من حدود المنطوق به من الكلام وهو الإيجاز، وهناك الكلام الذي يفصل على قد المعنى دون زيادة أو نقصان.

وقد نقل لنا أبو هلال العسكري اختلاف أهل الصناعة في الترجيح بينهما، فذكر أولاً أقوال المنتصرين للمجاز فقال: "وقال محمد الأمين: عليكم بالإيجاز فإن له إفهاما، وللإطالة استبهاما. وقال شبيب بن شبة: القليل الكافي خير من كثير غير شاف. وقال آخر: إذا طال الكلام عرضت له أسباب التكلف، ولا خير في شيء يأتي به التكلف. وقد قيل لبعضهم: ما البلاغة؟ فقال: الإيجاز. قيل: وما الإيجاز؟ قال: حذف الفضول، وتقريب البعيد"[1]

ودليلهم أن الإيجاز قصر على الحقيقة، وما تجاوز مقدار الحاجة فهو فضل داخل في باب الخطل والهذر، وهما من أعظم أدواء الكلام، وفيهما دلالة على بلادة صاحب الصناعة.

غير أن لأنصار الإطناب كلاماً آخر إذ يرونه ضرورة يقتضيها الكلام أحياناً، ويستدلون على ذلك بأن المنطق إنما هو بيان، والبيان لا يكون إلا بالإشباع، وهو لا يكون إلا بالإقناع، وأفضل الكلام ما كان محيطاً بالمعنى، ولا يحاط بالمعاني إحاطة

---

[2] أبو هلال العسكري، الصناعتين: 173

تامة إلا باستقصاء جميع ما يتصل بموضوع الكلام من جزئيات، فإن كان الإيجاز كافياً لخواص الناس، فإن الإطناب يشترك فيه العامة والخاصة، الفطن والبليد[1].

وغريب أن يغيب عن الفريقين أن مقياس سلامة الكلام هو مطابقته لمقتضى الحال، وملائمته للمقام، وهو معيار قديم نوه إليه كثير من البلاغيين القدامى أمثال الجاحظ الذي يقول: "وللإطالة موضع وليس ذلك بخطل، وللإقلال موضع وليس ذلك من عجز ... ورأينا الله تبارك وتعالى، إذا خاطب العرب والأعراب، أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم، جعله مبسوطا، وزاد في الكلام"[2]

فالكلام لا يستغني عن أي منهما، وهو بحاجة إليهما كل في موضعه، فلا يفي إيجاز في موضع يستدعي إسهاباً ومزيد بيان، ولا يستقيم إطناب في مقام يكفيه الإيجاز، فمتى كان الإيجاز أبلغ كان الإكثار فضلة من الكلام وعياً، ومتى جاءت الكناية في موضع يستوجب الإكثار كان الإيجاز إخلالاً وتقصيراً[3]. إذن فالمعيار الذي يحكم به على جودة الكلام هو الملائمة والمناسبة "فقد يكون الاتساع فيه من باب الإيجاز، وقد يكون الكلام قصيراً ومع ذلك يعد مطنباً فالعبرة بالمواقف والمقامات"[4]

أولاً - الإيجاز:

الإيجاز لغة من وجز الكلام وجازة ووجزاً، وأوجزه: اختصره، وكلام وجيز أي خفيف مقتصر، وأوجزت الكلام: قصرته، ورجل ميجاز: يوجز في الكلام والجواب،

---

[2] أبو هلال العسكري، الصناعتين: 190، وابن الأثير، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور: 148

[3] الجاحظ، الحيوان: 64/1

[4] ينظر: أبو هلال العسكري، الصناعتين: 173

[5] ضيف، شوقي، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، الطبعة التاسعة، 48

وأوجز القول والعطاء: قلَّله[1]. وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (إِذَا قُلْتَ فَأَوْجِزْ)[2]، أي أسرع واقتصر[3]، فالمعنى المحوري لمادة (وجز) هي الاختصار والتقليل في الكلام.

وأما المعنى الاصطلاحي للإيجاز فقد تعددت تعريفات أهل البلاغة وتنوعت تبعاً لتنوع اسمه عندهم، إذ يجد المتتبع لما كتبه علماء البلاغة تنوعاً في تعبيراتهم عن هذا الفن البلاغي فيطلقون عليه: الإشارة والاختصار والتلميح والاختزال والاختزان والاقتصار والاكتفاء والتكثيف وغير ذلك [4]..

وقد عرفه أبو هلال العسكري بقوله: "أن يكون اللفظ القليل مشاراً به إلى معان كثيرة بإيماء إليها، أو لمحة تدل عليها"[5] وهو عند ابن رشيق القيرواني: "بعد المرمى وفرط المقدرة، وهي في كل نوع من الكلام لمحة دالة واختصار وتلويح يعرف مجملاً ومعنى بعيد عن ظاهر لفظه"[6] وعند الخفاجي: " أن يكون المعنى زائداً على اللفظ؛ أي إنه لفظ موجز يدل على معنى طويل على وجه الإشارة واللمحة "[7] ولعل أخصر

---

[2] ابن سيده المرسي، المحكم والمحيط الأعظم، والصاحب بن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس، مادة (وجز)

[3] ذكره المبرد في (الكامل في اللغة والأدب): 10/1، وابن منظور في (لسان العرب) مادة (وجز). وقد أورده المتقي الهندي: (في كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال) بلفظ: "يا جرير إذا قلت فسدد، ولا تكلف إذا قضيت حاجتك" ثم قال: "ابن عساكر عن عيسى بن يزيد مرسلاً" ولم أجده في غيره من كتب السنة.

[4] ينظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: مادة (وجز)

[5] ينظر: فاطمة قرينو، أسرار الإيجاز في القرآن الكريم: 37

[6] أبو هلال العسكري، الصناعتين: 348

[7] القيرواني، الحسن بن رشيق الأزدي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، دار الجيل، الطبعة: الخامسة، 1401هـ - 1981م، 302/1

[8] الخفاجي، سر الفصاحة: 207

تعريف يليق بالإيجاز ويناسبه هو للباقلاني الذي عرفه بأنه: "اشتمال اللفظ القليل على المعاني الكثيرة"[1]

فالتعريفات كلها متفقة على أن اللفظ في أسلوب الإيجاز يكون أقل من المعنى، أي إن المتكلم يستخدم مفردات قليلة لكنها كلية شاملة تختزن معاني مكثفة كثيرة، فيعبّر عن المراد بكلامٍ قصير ناقص عن الألفاظ التي يُؤَدَّى بها عادةً في متعارف الناس، مع وفائه بالدّلالة على المقصود.

وقد جعله الرماني في أعلى مراتب البلاغة، فأولاه اعتناء كبيراً، واتخذه أول المباحث البلاغية ترتيباً وتحليلاً[2].

وهو عند أهل الصناعة البلاغية ضربان: إيجاز حذف، وإيجاز قِصَر. ولنبدأ بالأول.

1- الإيجاز بالحذف:

وهو الإيجاز الذي يكون سبب الاختصار فيه حذف بعض مفردات الكلام وأجزائه اكتفاء بدلالة القرائن على الجزء المحذوف. وقد سمى ابن جني الحذف شجاعة العربية[3]، وقال عنه عبد القادر الجرجاني: ما من اسم حذف في الحالة التي ينبغي أن يحذف فيها إلا وحذفه أحسن من ذكره[4]، ولا يمكن أن يكون الحذف على إطلاقه دون قيود وضوابط وإلا ضاع المعنى بسقوط القسم الدال عليه من الكلام، لذا وضع العلماء له شروطاً نذكر منها ما يخص البلاغة وهما شرطان[5]:

الشرط الأول- أن تنوب عن القسم المحذوف قرائن تدل على معناه وهي:

---

[2] الباقلاني، إعجاز القرآن الكريم: 90

[3] ينظر: الرماني، النكت في إعجاز القرآن الكريم (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن): 76 وما بعدها

[4] ينظر: ابن جني، الخصائص: 362/2

[5] ينظر: عبد القادر الجرجاني، دلائل الإعجاز: 152

[1] ينظر: العلوي، الطراز لأسرار البلاغة: 51/2، وعبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 43/2

- إما أن تكون قرائن مقال موجودة في السباق أو السياق.
- وإما من قرائن حال.
- وإما أن تكون من المفاهيم الفكرية والاقتضاءات العقلية، واللوازم الذهنية.

الشرط الثاني: ألّا يكون القسم المحذوف قد جيء به لتأكيد المذكور، لأن الحذف مناف للتأكيد.

ومن الأمثلة على الإيجاز بالحذف ما ورد في قوله تعالى: (وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا خَيْرًا ۗ)[1] فقد اقتصرت إجابة الذين اتقوا على ذكر المفعول به (خَيْرًا) واستغنوا به عن تكرير عبارة (أنزل ربنا) لدلالة قرينة سباق الآية عليها.

ومنه قوله تعالى: (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ. إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ)[2] استخدم أسلوب الإيجاز بالحذف في تحية الملائكة لسيدنا إبراهيم، وفي رده كذلك، فيفهم من قولهم (سلاماً) أن جزءاً من الكلام قد سقط قبله وهو (نسلم عليكم) وكذلك رد إبراهيم (سلامٌ) يتبعه جزء محذوف هو (عليكم أنتم)، ويبرر الحذف في الموضعين إرادة التخفيف لكثرة دوران هذا الاستعمال على الألسنة، وسهولة إدراكه وفهمه.

أنواع الحذف وشواهده في سورة إبراهيم

ذكر البلاغيون للحذف على سبيل الإيجاز أنواعاً نذكر منها ما له شواهد في السورة الكريمة وهي:

---

[2] سورة النحل: الآية 30

[3] سورة الذاريات: الآية 25

أ- الاقتطاع (حذف بعض حروف الكلمة أو ما هو بمثابة الكلمة الواحدة) وأغراضه البلاغية

عرف الزركشي الاقتطاع: بأنه ذكر حرف من الكلمة وإسقاط الباقي.[1] وهذا التعريف غير دقيق، وهو عند السيوطي: حذف بعض حروف الكلمة[2]. وقد توسع عبد الرحمن حبنكة في تعريفه فقال: هو حذف حرف أو أكثر من الكلمة، أو حذف حرف يعد بمثابة الكلمة الواحدة[3]. ويكون لدواع بلاغية منها: التخفيف على مخارج الحروف، وسرعة إفادة الكلام، ومناسبة القافية في الشعر والفاصلة في النثر أو مناسبة رؤوس الآيات، والتحبب في النداء وغير ذلك..

مثاله حذف نون فعل الكون في حال الجزم كما في قوله تعالى: (أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى. **أَلَمْ يَكُ** نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى)[4] فالأصل (ألم يكنْ) ولكن حذفت نون (يكن) تخفيفاً، وربما لأغراض أخرى تتصل بأعداد الحروف[5]. أو أن حذف النون من (يكن) المجزومة في هذه الآية وغيرها[6] ينظر فيه إلى اكتمال الفعل وعدم اكتماله، فمتى كان الشيء مكتملاً لم تقتطع النون منه، واقتطعت منه متى كان غير مكتمل، وهنا اقتطعت النون لأن النطفة من الذكر وهي غير مكتملة وغير مخصبة تحتاج إلى بويضة تلتحم بها فتكملها. فحذفت النون للدلالة على قصور النطفة ونقصها[7]. وقيل:

---

[2] الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 117/3

[3] السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 202/3

[4] ينظر: عبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 46/2

[5] سورة القيامة: الآية 36

[6] ينظر: عبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 46/2

[7] نحو قوله تعالى: (ذلك بأنّ الله **لمْ يَكُ** مغيّرًا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم)، وقوله: (وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ **وَلاَ تَكُ** فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ) وقوله: (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا **ولم يكُ** من المشركين)، وقوله:(قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر **ولم أَكُ** بغيا)

[8] د. فاضل السامرائي، من برنامج لمسات بيانية.

إن المعنى البلاغي من حذف النون الواردة في موضع لام الفعل هو التنبيه على صغر الشيء وحقارته، كما في الآية السابقة حيث دل الإيجاز بالحذف على مهانة أصل الإنسان وحقارة منشئه ومبدئه وصغر قدره[1].

حذف ياء المتكلم

ومن شواهد هذا النوع من الإيجاز حذف حرف الياء الدال على ضمير المتكلم المتصل سواء كان منصوباً أو مجروراً، وياء المتكلم تفيد التحول في الأصل، فتعبر عن المتكلم الذي تحول إليه شيء أو أضيف إليه. وخصت الياء بالمتكلم دون المخاطب لأنها إذا جاءت في آخر الكلمة أفادت معنى الاستقرار والامتداد إضافة للتحول، وصورة الياء الساكنة في الرسم والمتولدة عن مد كسرة الحرف الأخير في الكلمة تثبت معنى التحول واستقراره وتقيد التحول بالمتكلم، وأما حذفها فيطلق قيدها للاستمرار، فتشمل غير المتكلم أيضًا في حال الوقف[2]. وينقل الزركشي عن المبرد توجيهاً آخر لحذف الياء باعتبار ملكوتي باطن فتحذف حيث تعلق الأمر بالغيب وملكوت الله تعالى نحو قوله تعالى: (فلا **تسألن** ما ليس لك به علم)[3] حذفت الياء من (**تسألن**) لأن علم هذا المسؤول غيب ملكوتي بدليل قوله: (ما ليس لك به علم)، وهو بخلاف ما ورد في قوله: (فلا **تسألني** عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا) لأن المسؤول عنه هنا حوادث في مقام عالم الشهادة كخرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار[4]. وقد حذفت ياء المتكلم في ثلاث مواضع في السورة الكريمة نعرضها فيما يأتي:

---

[2] ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 407/1

[3] ينظر: العرابلي، عبد المجيد، أسرار حذف الياء في القرآن الكريم، موقع ملتقى أهل التفسير.

[4] سورة هود: الآية 46

[5] ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 399/1

- قوله تعالى: (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ)[1] من دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام، ونلاحظ أنه حذف ياء المتكلم التي جاءت في محل جر مضاف إليه في نهاية الآية (وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ)، والأصل (دعائي) لدلالة سباق الآية عليه عند قوله: (اجعلني) وقوله: (ذريتي) فهو يعني نفسه وذريته بالدعاء. و(دعاء) مفعول به منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة " للتخفيف أو لمناسبة رؤوس الآي"[2] والياء المحذوفة ضمير متصل في محل جر بالإضافة. ولكن تعليلنا للحذف بالتخفيف ومناسبة رؤوس الآية لا يشفي غليل المشتغلين في البلاغة ولا يقنعهم، لذا نعود إلى ما قررناه قبل قليل من أن حذف الياء يفك التقييد ويفيد الإطلاق، فمراد سيدنا إبراهيم من حذف الياء الطمع في قبول الدعاء بصفة دائمة متى دعا الله، سواء في هذا الموقف أو غيره، وكذلك دعاؤه لذريته، خاصة وأن من الدعاء ما لا يتحقق إلا في يوم القيامة كالفوز بالجنة والنجاة من النار. فيكون الغرض البلاغي من الإيجاز بالحذف هنا إرادة الإطلاق والاستمرار في تقبل الدعاء.

وما يؤكد هذا الغرض هو ثبوت الياء في دعاء سيدنا نوح لقومه: (فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا)[3] إذ أنه قد وجه دعاءه لهم مطالباً إياهم بالتحول إلى الإيمان، وكان دعاؤه في موقف معين وضمن مهلة محددة منحهم خلالها فرصة الإيمان، وعندما آيس من إيمانهم توقف عن الدعاء وقال داعياً عليهم: (رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا)[4]، فاتضح بذلك أن لثبوت الياء وحذفها علاقة بالاستمرار والانقطاع والله أعلم.

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 40

[3] محمود عبد الرحيم الصافي، الجدول في إعراب القرآن الكريم: 202/13

[4] سورة نوح: الآية 6

[5] سورة نوح: الآية 26

- في قوله تعالى: (إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا **أَشْرَكْتُمُونِ** مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)[1] ظهر الإيجاز بحذف ياء المفعول به من الفعل: (**أَشْرَكْتُمُونِ**) في قوله تعالى حكاية عن إبليس. والأصل (**أشركتموني**) فعل ماض مبني على السكون، والتاء فاعل، والميم للجمع، والواو للإشباع، والنون للوقاية، والياء المحذوفة مفعول به[2]، ولعل الوجه البلاغي لحذف الياء هنا أن الخطاب قد صدر من الشيطان لأتباعه المخلدين في النار، ومعلوم أن هؤلاء قد جعلوا الشيطان شريكاً مع الله واستمروا على إشراكهم حتى انقضاء الأجل لذلك حشروا مع الشيطان، أما الذين تركوا الإشراك ودخلوا الإسلام فقد انقطع إشراكهم بالإيمان ونجوا من النار وهم ليسوا مشمولين بهذا الخطاب، فكان حذف الياء إشارة إلى علة خلود أتباعه في النار وهو دوام كفرهم واستمرارهم في الغي والضلال. وربما كان حذف المفعول به إشارة إلى العلة الأصل في دخولهم النار وهي الإشراك الذي ما بعده ذنب، من غير نظر إلى الند الذي أشركوه مع الله تعالى في العبادة، إذ أراد الشيطان صرف نظرهم عن نفسه بالتركيز على فعل الإشراك باعتباره العلة.

- (وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ **وَعِيدِ**)[3] وهنا كذلك نلحظ حذف ضمير ياء المتكلم الذي جاء في محل جر بالإضافة في قوله تعالى (**وَخَافَ وَعِيدِ**) والأصل (وعيدي) بثبوت الياء، والقرينة التي استغني بها عن الياء هي سباق الآية حيث لا بدَّ أن يكون الوعيد صادراً من متوعد قادر على تنفيذه، إذ لا معنى له من دون الإضافة، وقد سُبِقَ بفعل الخوف من المقام المضاف إلى الله تعالى فعرف أن الوعيد مضاف كذلك له. وأما المعنى البلاغي الداعي للإيجاز بحذف الياء فهو أن الله تعالى وعد الرسل وأتباعهم بالنصر وإهلاك أعدائهم، وإسكانهم في ديارهم لقاء الاستمرار على ما هم عليه من الإيمان بالله، والصبر، والخشية من الله

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 22

[3] ينظر: أحمد الخراط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 545/2

[4] سورة إبراهيم: الآية 14

والخوف منه، وقد ذكر المفسرون للمراد ب(مقامي) قولين الأول: موقفي، وهو يوم الحساب، والثاني: إن المقام هنا مصدر بمعنى القيام، أي لمن خاف قيامي عليه ومراقبتي له، كقوله تعالى (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)[1][2] ولكن الذي يراه الباحث أن المقصود بـ (المقام) هنا علو الشأن والمرتبة العالية والمنزلة الجليلة التي لا منزلة فوقها، يشهد لذلك أن العرب تستخدم (مقام) مرادفاً لـ(منزلة) قال ابن منظور: "قيل: المقام الكريم هو المنبر، وقيل: المنزلة الحسنة"[3]، وجاء في تكملة المعاجم العربية: " مقام: رتبة، مكانة، منصب، منزلة، والجمع مقامات "[4]، و(وعيد) هو وعيد الله وتخويفه الكفار والعصاة بالعذاب، أو هو العذاب نفسه الموعود للكفار[5]. فشرط الاستمرار على هذه الخصال هو السر البلاغي في حذف الياء من الوعيد. ويرى الزركشي أن المعنى من حذف الياء تعلق الوعيد بعالم الملكوت والغيب فيقول: " ثبتت الياء في المقام لاعتبار المعنى من جهة الملك، وحذفت من الوعيد لاعتباره ملكوتياً؛ فخاف المقام من جهة ما ظهر للأبصار وخاف الوعيد من جهة إيمانه بالأخبار"[6]

حذف (يا) النداء

ومما يندرج تحت أنواع الإيجاز بحذف الحرف ما يكثر وروده في القرآن الكريم من حذف يا النداء قبل كلمة (رب)، فعلى كثرة نداء الرب في القرآن الكريم لم يظهر حرف النداء إلا في موضعين اثنين هما قوله جل وعلا: (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ

---

[2] سورة الرعد: الآية 33

[3] ينظر: الزمخشري، الكشاف: 545/2، الرازي، مفاتيح الغيب: 77/19، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 195/3، والنسفي، مدارك التنزيل: 166/2، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 39/5

[4] لسان العرب، مادة (قوم)

[5] دُوزِي، تكملة المعاجم العربية، مادة (قوم)

[6] ينظر: صديق حسن خان، فتح البيان في مقاصد القرآن: 96/7

[7] الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 400/1

قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا)[1] وقوله تعالى: (وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ)[2] وفي سورة إبراهيم ورد نداء الرب تسع مرات، حذف منها جميعها حرف النداء وقدّر أنه (يا) إذ لم يرد نداء في القرآن الكريم بغير هذه الأداة، وهي التي يقدرها العلماء في مواضع الحذف لأنها أم الباب. وإذا عرفنا أن الإيجاز بالحذف لا يقف عند حدود الجانب الشكلي للتركيب علمنا أن وراء ذلك نكتاً بلاغية وفوائد بيانية جمة. ولعل السر في حذف الأداة عند نداء الرب هو المبالغة في تصوير قرب المنادى للحد الذي لم يحتج في ندائه إلى وسائط وأدوات، بناء على أن معنى الرب هو المربي والمالك والسيد، وهو بهذه المعاني من شأنه أن يكون قريباً وحاضراً[3]. وهناك تفسير آخر لحذف (يا) النداء يحسن ذكره وهو أن كلمة (رب) هي الأكثر دوراناً على الألسن في الدعاء، فروعي فيها أن تكون خفيفة طيّعة سهلة في مجرى الحديث، واستدعت الخفة إسقاط (يا) عند ندائها[4].

وأما ثبوت (يا) النداء في الآيتين الآنفتي الذكر فيلمح فيه د. أحمد بدوي تعبيراً عن حالة نفسية ألمَّت بالرسول بعد أن أفرغ جهده في دعوة قومه، ولم يزدهم ذلك إلا تمادياً وبعداً عن دعوته، فكأن إحباطاً قد أصابه وجعله يشعر بتخلي ربه عنه أو أنه استبطأ نصرته، فأنزل شعوره هذا منزلة البعد الحقيقي وراح يرفع صوته زيادة في الضراعة واستجلاباً للإجابة واستعجالاً لها[5]، من خلال ما يوفره له المد في ألف (يا) من التنفيس والارتياح الذي يجده المتألم في صراخه.

---

[2] سورة الفرقان: الآية 30

[3] سورة الزخرف: الآية 88

[4] ينظر: البدوي، أحمد أحمد عبد الله، من بلاغة القرآن، نهضة مصر – القاهرة، 2005م، 130

[5] ينظر: المطعني، عبد العظيم إبراهيم محمد، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، 1413هـ - 1992م، 8/2

[1] ينظر: بدوي، من بلاغة القرآن: 131

وفيما يلي الآيات التي جاء نداء الرب فيها محذوفاً منه حرف (يا) في السورة:

- (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (36) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (38) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (39) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (40) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ)[1]

والملاحظ أن حذف أداة النداء ورد ثماني مرات في دعاء سيدنا إبراهيم وتضرعه إلى ربه أن يعصمه وذريته من الانحراف عن دين الله، وحينما بث إليه حزنه وقلقه على أهله عندما تركهم في ذلك الوادي القفر، وكذلك في شكره لربه على نعمة الإنجاب بعد تقدم العمر، وجلي أن مناجاة الخليل خليله لا تحتاج إلى وسيلة وأداة، وهو القريب منه المطلع على أمره، والمدبر لشؤونه، والعالم بحاله كما ورد على لسان الخليل: (رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)[2]

وأما الموضع الأخير الذي حذفت فيه الأداة من نداء الرب فكان على لسان أهل النار وهم يستغيثون الله ويتوسلونه أن يمنحهم فرصة يتداركون فيها ما فرطوا وذلك في قوله تعالى:

---

[2] سورة إبراهيم: الآيات من 35 إلى 41

[3] سورة إبراهيم: الآية 38

- (وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ)[1] ويبدو أنها المرة الأولى التي يشعر فيها هؤلاء الظالمون بقرب الله تعالى منهم وتمكنه من رقابهم بعد طول كفر وجحود في الدار الدنيا، مصحوباً بإحساس بدنو العذاب منهم وتلاشي فرص النجاة والإفلات منه، وهذه الحالة النفسية نراها قد ألقت بظلالها على دعائهم فأسقطت منه (يا) النداء تعبيراً عن تحول في اعتقادهم وعودة منهم عن الكفر إلى الإيمان، وطمعاً في الاستفادة مما تزخر به كلمة (رب) المضافة إلى (نا) من معاني الملك والتربية والرعاية، وما تحمله من معاني الرحمة والشفقة.

ب - الاكتفاء

وهو أن يقتضي المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط، فيكتفى بأحدهما عن الآخر. ويختص بالارتباط العطفي غالبا[2]. والإيجاز بأسلوب الاكتفاء لا يأتي في القرآن عبثاً بل يحقق أغراضاً بيانية، فليس المراد الاكتفاء بأحد المتلازمين كيفما اتفق بل لا بدَّ فيه من نكتة تقتضي الاقتصار عليه.

وأشهر شواهد الاكتفاء هو ما ورد في قوله تعالى: (وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ)[3] ذكر الوقاية من الحر وحذف البرد مع أن بينهما تلازماً وارتباطاً، ومعلوم أن السرابيل وهي القمصان والثياب تحمي من البرد كما تحمي من الحر، ولكن البيان الإلهي اكتفى عن البرد بذكر الحر، والنكتة البلاغية في ذلك أن الخطاب في الآية الكريمة موجه للعرب مبيناً آلاء الله عليهم، وبلاد العرب تتصف

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 44

[3] ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 118/3

[4] سورة النحل: الآية 81

بالحرارة المرتفعة، والوقاية من الحر عندهم أهم كونه أشدّ عندهم من البرد فكان ذكر الحر أولى[1].

والذي تجب ملاحظته في هذا المقام أن القرآن الكريم يسلك في الإيجاز بالحذف مسلكاً دقيقاً من خلال تجزئة العناصر الفكرية وتفرقتها على النصوص مبرزاً بذلك وحدة النص القرآني وتكامله[2]، فتتمة عناصر المثال السابق نجدها في قوله جل جلاله: (وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)[3] في معرض امتنان الله تعالى على البشر بتهيئة أسباب الدفء لهم من خلال السرابيل التي يصنعونها من أصواف الأنعام وأوبارها وأشعارها، فهنا حضور للبرد والوقاية منه على حساب الحر.

ومن أمثلة الاكتفاء في السورة الكريمة ما جاء في قوله تعالى: (وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)[4]

وقد سبق وذكرنا وجوه تفسير هذه الآية واختلاف المفسرين على قولين في إعراب (ما) في قوله: (مَا سَأَلْتُمُوهُ) الأول: أنها مصدرية والضمير في (سَأَلْتُمُوهُ) عائد على الله تعالى، والثاني: أنها موصولة بمعنى الذي فيكون الضمير عائداً عليها، ويكون المفعول الثاني على هذا القول محذوفاً تقديره شيئاً[5]، وعلى القولين نلحظ أن المعنى يحتاج إلى تقدير محذوف ليكتمل المعنى، فنعم الله تعالى على الإنسان تشمل ما سأله الإنسان وما لم يسأله، بل وحتى ما لم يخطر بباله، فالمعنى " وآتاكم من كل ما سألتموه وما لم تسألوه فحذف الثاني لدلالة ما أبقي على ما ألقي"[6] أي إن البيان

---

[2] ينظر: ابن معصوم، أنوار الربيع في أنواع البديع: 183

[3] ينظر: عبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 49/2

[4] سورة النحل: الآية 5

[5] سورة إبراهيم: الآية 34

[6] ينظر: الخراط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 547/2

[7] الألوسي، روح المعاني: 213/7

الإلهي قد طوى أحد طرفي الكلام وهو (ما لم تسألوه) اكتفاء بذكر الطرف الآخر وهو (ما سألتموه) المرتبط به بمقتضى اللازم الذهني والمنطقي. فيكون المعنى كما قال الزحيلي: "وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ أي أعطاكم أيها البشر سؤلكم من كل ما شأنه أن يسأل، ويحتاج إليه، وينتفع به، سواء سألتموه أو لم تسألوه"[1]

ومنه كذلك قوله تعالى: (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ)[2] توجه سيدنا إبراهيم إلى ربه بالدعاء أن يجعله وبعضاً من ذريته مديمين على أداء الصلاة على أكمل وجه، محافظين عليها بأركانها وحدودها، ولا يعقل أن يقتصر الخليل على طلب الدوام على عبادة واحدة دون غيرها من أركان الإسلام وفرائضه، وتلك قرينة على أن ثمة محذوفاً في الآية جُعلت الصلاةُ دليلاً وآية عليه، وهو ما ارتبط بالصلاة من أركان الدين ودعائمه وعباداته، ولكن النظم القرآني اكتفى بذكر الصلاة عما يلازمها من صيام وزكاة وحج وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر وصلة رحم وغيرها لمكانة الصلاة ومزيتها العظمى في تطهير القلوب بترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن[3] كما ورد في قوله تعالى(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ)[4]، ولأنها رمز للقيام بحق الدين كاملاً من غير التواء[5]، فهي عماده، بها يميز بين المؤمن وغيره لقوله صلى الله عليه وسلم: (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر)[6].

---

[2] الزحيلي، التفسير المنير: 256/13

[3] سورة إبراهيم: الآية 40

[4] ينظر: الزحيلي، التفسير المنير: 256/13

[5] سورة العنكبوت: الآية 45

[6] ينظر: أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4044/8

[7] رواه الحاكم في كتاب الإيمان، برقم 11، وقال: " هذا حديث صحيح الإسناد لا تعرف له علة بوجه من الوجوه"، وكذلك الترمذي في أبواب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة برقم 2612، وقال عنه: " هذا

ونلمح دقة اختيار ألفاظ الدعاء في قوله (مقيم الصلاة) فـ(مقيم) من القيام وهو مع الصلاة يعني إدامة فعلها والمحافظة عليها بأدائها كاملة الأركان والسنن والهيئات في أوقاتها، ومن عادة القرآن الكريم أن يستعمل هذا اللفظ في كل موضع يمدح فيه الله تعالى فعل الصلاة أو يحث عليها نحو : والمقيمين الصلاة، وأقيموا الصلاة، ولم يرد لفظ (المصلين) إلا في المنافقين نحو قوله: (فويل للمصلين)[1]، وإنما خص لفظ الإقامة تنبيهاً على أن المقصود من فعلها توفية حقوقها وشروطها لا الاتيان بهيئتها فقط[2]، ولهذا روي أن المصلين كثير والمقيمين لها قليل نظير قول سيدنا عمر رضي الله عنه: (الحاج قليل والركب كثير)[3]

ج – التَّضمين

عرف الباقلاني التضمين بأنه: "حصول معنى فيه من غير ذكره له باسم أو صفة هي عبارة عنه"[4]، وذكر له وجهين: تضمين توجبه البنية[5]، وآخر يوجبه معنى العبارة

حديث حسن صحيح غريب "، ورواه مسلم في كتاب الإيمان، بَابُ بَيَانِ إِطْلَاقِ اسْمِ الْكُفْرِ عَلَى مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ، برقم 134، ولكن بلفظ: (إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ).

[2] سورة الماعون: الآية 4

[3] ينظر: تفسير الراغب الأصفهاني: 81/1

[4] الأثر منسوب في التفاسير إلى سيدنا عمر، لكن عبد الرزاق الصنعاني نسبه للقاضي شريح العراقي. جاء في مصنفه 91/5: "عَنِ ابْنِ عُيَيْنَةَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: سَمِعْتُ شُرَيْحًا الْعِرَاقِيَّ يَقُولُ: «الْحَاجُّ قَلِيلٌ، وَالرُّكْبَانُ كَثِيرَةٌ»". ينظر: تفسير الراغب الأصفهاني: 81/1، محاسن التأويل: 244/1

[5] الباقلاني، إعجاز القرآن الكريم: 272

[6] نحو قولنا: (معلوم) فإنه يوجب أن يكون له عالم.

بحيث لا تصح إلا به[1]، ثم قال عنه: "والتضمين كله إيجاز"[2]، وعرفه الزركشي والسيوطي بأنه "إعطاء الشيء معنى الشيء"[3] وجعلاه في الأسماء والأفعال والحروف.

ولعل عبارة د. فاضل السامرائي في بيان التضمين أوسع وأوضح حين يقول[4]: إنه تضمين كلمة معنى كلمة أخرى، وجعل الكلام بعدها مبنياً على الكلمة غير المذكورة كالتعدية بالحرف المناسب لمعناها، فتكون الجملة بهذا التضمين بقوة جملتين، دلَّ على إحداهما الكلمة المذكورة التي حذف ما يتعلق بها وقدر معناه ذهناً، ودلَّ على الأخرى الكلمة التي جاءت بعدها المتعلقة بالكلمة المحذوفة الملاحظ معناها ذهناً.

ولا يوفق في أداء هذا الأسلوب اللطيف إلا البليغ، يلجأ إليه عندما يحتاج في كلامه إلى استعمال فعلين متقاربين أو نحوهما، ويرى في ذكرهما معاً حشوا أو تطويلاً فيحاول إخفاء أحدهما في ظل الآخر حرصاً على إيجاز عبارته، فيذكر أحدهما بلفظه ثم يأتي بما يتعدى إليه الفعل الآخر أو يعمل فيه فيذكره، ويحذف معمول الفعل المذكور إذا كان له معمول فيتحصل على جملة تتضمن معنى جملتين.

ومن أمثلته المشهورة في القرآن الكريم قوله تعالى: (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا)[5] إذ إن الفعل (يشرب) إنما يتعدى بحرف الجر (من)، ولكن تعديته

---

[2] كالصفة بقاتل، تدل على مقتول من حيث لا يصح معه معنى قاتل ولا مقتول، فهو على دلالة التضمين، وأضاف الرماني التضمين الذي يوجبه معنى العبارة من جهة جريان العادة كقولهم: الكيل بستين، والمعنى فيه بستين دينارا، فهذا مما حذف وضمن الكلام معناه لجريان العادة به. ينظر: الرماني، النكت في إعجاز القرآن الكريم: 103

[3] ينظر: الباقلاني، إعجاز القرآن الكريم: 272

[4] الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 338/3، والسيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 136/3

[5] ينظر: فاضل السامرائي، أسرار البيان في التعبير القرآني: 122

[6] سورة الإنسان: الآية 6

هنا بالباء أفادت تضمنه لمعنى فعل آخر هو (يتلذذ) أو (يروى) الذي حذف من الجملة وترك معموله (الباء) دليلاً على معناه، فصار المعنى: عيناً يشرب منها ويروى بها عباد الله، "وهذا أحسن من أن يقال: يشرب منها فإنه لا دلالة فيه على الري، وأن يقال: يروى بها لأنه لا يدل على الشرب بصريحه بل باللزوم، فإذا قال: يشرب بها، دل على الشرب بصريحه وعلى الري عن طريق الباء"[1]، ولنا أن نقول كذلك: إن الباء تفيد الإلصاق نحو قولهم: (أقام بالبلد)، أي فيها، فيكون المعنى أنهم يشربون منها وهم موجودون في العين ذاتها ينتعشون بها ويرتوون ويمتعون النظر والجسد. وقيل: التضمين هنا في الحرف أي أن حرف الباء قد ضمن معنى (من)[2].

ومن أمثلته في الأسماء قوله تعالى: (حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ)[3] حيث ضُمِّن (حقيق) معنى حريص ليفيد أنه محقوق بقول الحق وحريص عليه[4].

أمثلة التضمين في سورة إبراهيم

للتضمين شواهد عدة في السورة الكريمة نذكر منها ما ورد في قوله تعالى: (الَّذِينَ **يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ** وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا)[5] فقد ضُمِّنَ الفعل (يستحبون) معنى (يؤثرون) أو (يختارون) ودليل التضمين تعدية الفعل بـ (على)، والاستحباب عند الزمخشري استفعال من (المحبة) السين فيه للطلب، لأن من يؤثر شيئاً على آخر هو في الواقع يطلب من نفسه أن يكون ذلك الشيء أحبَّ

---

[2] فاضل، محمد نديم، التضمين النحوي في القرآن الكريم، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه من جامعة القرآن الكريم بالخرطوم، دار الزمان، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1426هـ - 2005م، 94/1، والقيعي، محمد عبد المنعم، الأصلان في علوم القرآن، الطبعة: الرابعة مزيدة ومنقحة 1417هـ - 1996م، 312، وعبد الخالق عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 5/2

[3] ينظر: السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن: 198/1

[4] سورة الأعراف: الآية 105

[5] ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 338/3

[6] سورة إبراهيم: الآية 3

إليها من الآخر[1]. وأما (المحبة) فهي مجاز مرسل من الاختيار والتفضيل لعلاقة اللزوم، ولاعتبار المجاز عُدي الفعل بـ (على)[2]. قال أبو حيان: "وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ (اسْتَفْعَلَ) بِمَعْنَى أَفْعَلَ كَـ(اسْتَجَابَ) وَ(أَجَابَ)، وَلَمَّا ضَمِنَ مَعْنَى الْإِيثَارِ عدي بعلى"[3]

وعليه جاءت العبارة متضمنة معنى جملتين في قالب جملة واحدة على سبيل الإيجاز وتعني: الذين يحبون الحياة الدنيا ويؤثرونها على الآخرة. فهؤلاء القوم فقدوا صوابهم في التمييز بين الحسن والقبيح وبين الباقي والفاني، فانتهى بهم الأمر إلى تفضيل ملذات الحياة الفانية على نعيم الحياة الخالدة، وحين يفضل بعض الناس دنياهم على أخراهم، ويؤثرونها بالحب، تراهم يبغونها عوجاء لا استقامة فيها ولا عدالة، فيصدون عن الهدى والحق.

ومما جاء فيه الإيجاز بطريق التضمين كذلك قوله تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم: (رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ **فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ** وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)[4] اتفق المفسرون على أن قوله تعالى: (**تَهْوِي إِلَيْهِمْ**) يتضمن معاني أفعال أخرى حذفت على سبيل الإيجاز، وترك ما يتعلق بها وهو (إليهم)، لأن الفعل (تهوي) يتعدى باللام.

قال الزمخشري: تهوي إليهم تسرع إليهم وتطير نحوهم شوقاً ونزاعاً[5]. وأبو حيان ضمن (تهوي) معنى الفعل (تميل) فعدي بـ (إلى) وأصله أن يتعدى باللام واستشهد بقول الشاعر[6]:

---

[2] ينظر: الزمخشري، الكشاف: 538/2، وكذا ينظر: النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 171/4

[3] ينظر: الألوسي، روح المعاني: 174/7

[4] أبو حيان، البحر المحيط في التفسير: 407/6

[5] سورة إبراهيم: الآية 37

[6] ينظر: الزمخشري، الكشاف: 559/2

[7] ينظر: أبو حيان، البحر المحيط في التفسير: 448/6

حَتّى إذا ما هَوَتْ كَفُّ الوَلِيدِ لها طارَتْ وفي كَفِّهِ مِن رِيشِها بِتَكُ[1]

وبما ورد في معنى الآية الكريمة من قول الشاعر:

تَهْوِي إلى مَكَّةَ تَبْغِي الهُدى ما مُؤْمِنُ الجِنِّ كَكُفّارِها[2]

وأضاف القرطبي إلى ما ذكر معنى النزوع، تهوي إليهم: تنزع، من هوي نحوه إذا مال، وهوت الناقة هوياً: عدت عدواً شديداً، (وتهوي إليهم) مأخوذ منه، أي تحن إلى زيارة البيت[3]. وقال العكبري: هوى: يتعدى بنفسه وهوي يتعدى بـ (إلى). فالقراءة الثانية عديت بـ (إلى) حملا على تميل[4]، وهو ما ذكره الزركشي أيضاً[5].

وبذلك يظهر لنا أن البيان الإلهي قد أجاد في اختصار العبارة وإيجازها عندما أتى بفعل الهوي وعداه بحرف الجر (إلى) قرينة على تضمنه لمعاني أفعال تصور الحالة النفسية لقوافل حجاج بيت الله الحرام حين تهفو قلوبهم مجنحة وتطير مسرعة نحو ذلك الوادي الجدب يشدها إلى زيارته حب وحنين وشوق، وهو ما رامه الخليل بدعائه. ونلحظ غرضاً بلاغياً آخر أراده الخليل في التعبير بحرف الجر (إليهم) وهو أن تميل قوافل الناس إلى مكانهم فتتجمع فيه ليصبح مأهولاً، وكذلك التعبير بضمير الجمع بدلاً من التثنية في قوله: (تهوي إليهم) فيه دلالة على أن الميل المراد هنا ليس لشخصي هاجر وإسماعيل فحسب وإنما لمن سيسكن معهما من القبائل أيضاً.

---

[2] بِتكُ: قِطع. البيت في ديوان زهير بن أبي سلمي: 80، واستشهد به ابن دريد في جمهرة اللغة، مادة (بتك)، وابن منظور في لسان العرب مادة (كفف)

[3] البيت نسبه الصحابي سواد بن قارب إلى الجن في قصة إسلامه، حين كان كاهناً فأتاه نجيُّه من الجن مخبراً بظهور النبي صلى الله عليه وسلم ومنشداً إياه بأبيات منها هذا البيت. ينظر: أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب: 54، والنهرواني، أبو الفرج المعافى بن زكريا بن يحيى، الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى 1426هـ - 2005م، 225

[4] ينظر: القرطبي، الجامع في أحكام القرآن: 373/9

[5] ينظر: العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 771/2

[6] ينظر: البرهان في علوم القرآن: 234/4

ومن أمثلة الإيجاز بالتضمين أيضاً قوله تعالى: (وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ)[1] تقريع وتوبيخ من الله تعالى للكفار وتذكير لهم بعدم انتفاعهم بوسائل الاتعاظ والاعتبار التي أتيحت لهم في الدار الدنيا، وهنا عدي الفعل (وَسَكَنتُمْ) بحرف الظرفية (في) مع أن الأصل فيه أن يعدى بنفسه. وفي ذلك قرينة على تضمنه معنى آخر.

فالفعل (سكن) يستعمل في معنيين: الأول التبوؤ والاستيطان، وهو بهذا المعنى يتعدى بنفسه فتقول: سكنت الدار أي؛ استوطنتها[2]. والثاني: القرار والاطمئنان وهو الأصل، ويتعدى بحرف الظرفية (في)[3] ويبدو أن النظم الحكيم قد أراد المعنيين معاً، يدل على فهمنا هذا ذكر المساكن بعد فعل السكن، وهي جمع مسكن ويعني الدار والمنزل، ومجيء الفعل سكن معه يدل بظاهره على المعنى الأول، لكن تعديته بـ (إلى) قرينة على إرادة المعنى الثاني ضمناً، فيكون مجموع المعنى: واستوطَنْتم ديار الذين ظلموا مطمئنين آمنين طيبي النفوس مقتفين آثارهم سائرين على خطاهم في الظلم والفساد، من غير وازع لكم من عظة، أو رادع لكم من اعتبار.

وفي ذكر معمول الفعل (ظلم) في قوله تعالى: (ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ) إشارة إلى أن غائلة الظلم الوخيمة عائدة على صاحبه[4]، وأوثر التعبير بجمع القلة (أنفس) على جمع الكثرة (نفوس) للدلالة على حقارة تلك الأنفس المعتدية الظالمة، فهي على كثرتها وسطوتها تافهة قليلة لا قيمة لها ولا اعتبار[5].

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 45

[3] ينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل: 203/3

[4] ينظر: أبو حيان، البحر المحيط في التفسير: 453/6

[5] ينظر: الألوسي، روح المعاني: 234/7

[6] ينظر: الروينى، عادل، تأملات في سورة إبراهيم، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، وحدة البحوث والدراسات، 231

ونجد للتضمين شاهداً كذلك في قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ **وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ** ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)[1] إذ إن قوله: (**وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ** ۚ) تضمن معنى الإنذار والوعظ، لأن التذكير هو إزالة نسيان الشيء، ويستعمل في تعليم مجهول كان شأنه أن يُعلم[2]، ولكن لما عدي بحرف الباء كان ذلك قرينة على تضمنه لفعل الإنذار والوعظ، وصار تقدير الكلام: أن أخرج قومك وذكرهم أيام الله وأنذرهم بوقائعه التي وقعت على الأمم الماضية، أي ذكرهم تذكير عظة بأيام الله[3].

وفي قوله تعالى حكاية عن قول إبراهيم وهو يشكر ربه على نعمة الإنجاب: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي **عَلَى الْكِبَرِ** إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ)[4] الجار والمجرور في قوله (على الكبر) في محل نصب حال[5]، أي إن الإنجاب كان بعد بلوغ سيدنا إبراهيم مرحلة متقدمة من العمر لا يرجى معها الإنجاب، وهنا تظهر عظمة تلك النعمة وقيمتها، وبناء على هذا التفسير يكون حرف الجر (على) قد استعمل في معنى (مع) لأن الإنجاب كان مصاحباً للكبر وتقدم السن، وقد تأول المفسرون سبب هذا التضمين فقالوا: جاءت (على) لتفيد الاستعلاء المجازي، ومعنى الاستعلاء على الكبر أنه وصل غايته فكأنه تجاوزه وعلا ظهره كما يقال على رأس السنة[6]، لكن الألوسي دفع هذا الوجه بأن (على) لو كانت للاستعلاء لكان الأنسب جعل الكبر مستعلياً على الإنسان لا العكس، نحو قولنا: عليَّ دين، وقوله: (ولَهم عَلَيَّ

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 5

[3] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 189/13

[4] ينظر: الزمخشري، الكشاف: 540/2

[5] سورة إبراهيم: الآية 39

[6] ينظر: محي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 199/5

[7] ينظر: الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي: 273/5، والألوسي، روح المعاني: 228/7

ذَنْبٌ)[1] إذ معلوم أن الكبر هو من يترك أثره على الإنسان وخاصة على رأسه (واشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا)[2] [3]، غير أن لابن عاشور تفسيراً آخر للاستعلاء المراد بـ (على) يقول: "أيْ: وهَبَ ذَلِكَ تَعَلِّيًا عَلى الحالَةِ الَّتِي شَأْنُها أنْ لا تَسْمَحَ بِذَلِكَ، ولِذَلِكَ يُفَسِّرُونَ (عَلى) هَذِهِ بِمَعْنى مَعَ "[4] وهو ما أميل إليه وأرجحه إذ يفهم منه أن الاستعلاء المقصود هو ما كان بعون من الله تعالى لسيدنا إبراهيم، عندما جعله يقهر نواميس الكون ويخرق الأسباب الظاهرة بإنجاب الولد بعد ما بلغ من العمر عتياً، فالإنجاب كان رغم الكبر وفي ذلك استعلاء عليه وقهر له، والله تعالى أعلم.

د- الاحتباك

وهو من ألطف أنواع الحذف وأبدعها، قال السيوطي: وقلَّ من تنبه له أو نبه عليه من أهل البلاغة[5]. ذكره الزركشي ولكن سماه (الحذف المقابلي)[6]. وأكثر من اهتم به وتناوله بالشرح والبيان الإمام البقاعي في كتابه (نظم الدرر) وقال عنه: " وهو فن عزيز نفيس، وقد جمعت فيه كتاباً حسناً ذكرت فيه تعريفه ومأخذه من اللغة وما حضرني من أمثلته من الكتاب العزيز وكلام الفقهاء وسميته (الإدراك لفن الاحتباك)"[7]

---

[2] سورة الشعراء: الآية 14

[3] سورة مريم: الآية 4

[4] ينظر: الألوسي، روح المعاني: 228/7

[5] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 243/13

[6] ينظر: السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن: 243/1

[7] ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 129/3

[8] البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 225/1

عرفه الجرجاني: بأن يَجتمع في الكلام متقابِلان، ويُحذف من كلِّ واحدٍ منهما مُقابِلُه؛ لدلالة الآخَر عليه[1]، كقوله: علفتها تبناً وماء بارداً، أي علفتها تبنًا، وسقيتُها ماء باردًا. وذكره السيوطي في منظومته[2]:

قُلْتُ وَمِنْهُ الِاحْتِبَاكُ يُخْتَصَرْ مِنْ شِقَّيِ الْجُمْلَةِ ضِدُّ مَا ذُكِرْ

وَهْوَ لَطِيفٌ رَاقَ لِلْمُقْتَبِسِ بَيَّنَهُ ابْنُ يُوسُفَ الأَنْدَلُسِي

فهو يعني أن يحذف من شطر الكلام الأول ما جاء نظيره أو مقابله في الشطر الثاني، ويحذف من الثاني ما جاء نظيره أو مقابلة في الأول.

وتظهر العلاقة بينه وبين معناه اللغوي في كونه مأخوذاً من (الحَبْك)، وهو الشد والإحكام، وتحسين أثر الصنعة في الثوب، فحبك الثوب سد ما بين خيوطه من الفرج وشده وإحكامه بحيث يمنع عنه الخلل مع الحسن والرونق، ووجه الشبه بينهما أن مواضع الحذف في الجملة تشبه الخلل والفرج التي تكون ما بين الخيوط في الحياكة، فلما صاغ البليغ الكلام واضعاً المحذوف مواضعه وربط بين أطراف الحديث، وسد تلك الفرج مانعاً من الخلل ومكسباً الكلام حسناً ورونقاً كان عمله مشابهاً لعمل الحائك[3].

ومما يستشهد به لهذا النوع من الإيجاز قوله تعالى مخاطباً سيدنا موسى: (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ)[4] فقد حذف من أول الكلام (غير بيضاء)

---

[2] الجرجاني، التعريفات: 12، والزركشي، البرهان في علوم القرآن: 129/3

[3] ينظر: السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، عُقُودُ الجُمَانْ في عِلْمِ الْمَعَانِي وَالْبَيَانْ، دار الإمام مسلم للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة: الأولى، 1433هـ - 2012م، 107

[4] ينظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 206/3، وعبد العظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية 73/2

[5] سورة طه: الآية 22

لدلالة (بيضاء) من آخر الكلام عليه، كما حذف من آخر الكلام (وأخرجها) لدلالة (أدخل) من أول الكلام عليه[1].

ومنه ما جاء في قوله تعالى في سورة إبراهيم حكاية عن قول الشيطان مخاطباً أتباعه: (**وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ**)[2] فإذا أنعمنا النظر في الآية الكريمة تراءت لنا أخيلة الكلمات المحذوفة على سبيل الاحتباك في النظم، لأن معنى الآية: إن الله وعدكم وعد الحق - ويشمل جميع ما وعدهم الله بالقرآن على لسان رسوله - فوفاكم وأنجزكم وعده، ووعدتكم وعد الباطل - أن لا بعث بعد الموت ولا حساب ولا نشور، وإن كان فالأصنام تشفع لكم[3] - فأخلفتكم وكذبت موعدي، ويشمل الخلف جميع ما كان يعدهم الشيطان على لسان أوليائه وما يعدهم إلا غروراً[4].

وبه تتجلى مواضع الحذف ومسوغاته، فقد أغنى قوله (وعد الحق) في أول الكلام عن ذكر (وعد الباطل) في آخره، وأغنى قوله: (فأخلفتكم) في آخر الكلام عن ذكر (فوفاكم وأنجزكم وعده) في أوله[5]، فلعبت الكلمة دوراً مزدوجاً حين أفادت مدلولها المباشر في موضعها من جملتها من جهة، وشكلت قرينة دالة على مقابل معناها في الجملة الأخرى بطريق المفهوم من جانب آخر، وبهذا يتميز سحر التعبير القرآني ويعلو على غيره.

---

[2] ينظر: السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن: 243/1

[3] سورة إبراهيم: الآية 22

[4] ينظر: الالوسي، روح المعاني: 197/7

[5] ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: 219/13

[6] ينظر: البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 406/10

ومن أمثلة الإيجاز بالاحتباك التي ذكرها البقاعي أيضاً قوله تعالى: (**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ**)[1] إذ يضرب الله مثلاً لكلمة الحق الطيبة فيشبهها بالشجرة النافعة الحسنة التي تضرب بجذورها في الأرض وتلقي بأفنانها في السماء. وباستحضار المحذوفات يكون الكلام على الشكل التالي: ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت في الأرض وفرعها صاعد في السماء، فحذف البيان الإلهي (في الأرض) من الجملة الأولى لدلالة (في السماء) عليها في الجملة الثانية، واستغنى بكلمة (ثابت) في أول الكلام عن ذكر كلمة (صاعد) في آخره[2].

ومنه كذلك ما ورد في قوله تعالى: (**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ**)[3] القول الثابت هو الحجة الواضحة عندهم، وهي الكلمة الطيبة التي سبق ذكرها، وقد ثبت في الصحيح أنها كلمة الشهادة التي يُمَكِّنُ الله المؤمن من قولها إذا أُقعِدَ في قبره بتلقينه الجواب وتمكينه من الصواب، قال البقاعي: فالآية من الاحتباك، فقد ذكر الثبات أولاً في قوله: (يثبت الله..) واستغنى به عن ذكر ضده ثانياً وهو الزعزعة، والأصل أن يقول: (يزعزع الله الظالمين..)، وذكر الإضلال ثانياً في قوله: (ويضل الله..) وجعله دليلاً على حذف ضده من أول الكلام وهو الهدى، والأصل أن يقول: (يثبت الله الذين آمنوا ويهديهم..)[4]، فيكون المعنى الكلي للآية: يثبت الله الذين آمنوا ويهديهم بالقول الثابت.. ويزعزع الله الظالمين ويضلهم..).

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 24

[3] ينظر: البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 411/10

[4] سورة إبراهيم: الآية 27

[5] ينظر: البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 415/10

ولا يخفى ما في هذا الأسلوب من الاستثمار الأمثل لأقل ما يمكن من الكلمات في أداء أكثر ما يمكن من المعاني تحصيلاً لفضيلة الإيجاز البياني.

ر- الاختزال:

ويراد به كل حذف في الجملة لا يندرج تحت واحد من الأنواع الأربعة الآنفة الذكر (الاقتطاع، الاكتفاء، التضمين، الاحتباك)[1]، والاختزال في الأصل (افتعال) من الفعل (خَزَلَ) التي تعنى لغة قطع الشيء من وسطه[2]، ثم نقل في الاصطلاح البلاغي إلى معنى حذف كلمة أو أكثر من الجملة[3]، والمحذوف قد يكون حرفاً أو فعلاً أو اسماً، وقد يكون جملة أو عدة جمل أو كلاماً طويلاً في قصة ذات أحداث كثيرة.

وفيما يأتي دراسة لحالات الإيجاز بالحذف التي تندرج تحت هذا النوع وتطبيقاتها في ثنايا السورة الكريمة.

1- حذف المسند إليه

المسند إليه هو أحد طرفي الإسناد الرئيسيين اللذين لا يكتمل المعنى دونهما، فالخبر أو الفعل لا بد له من مبتدأ أو فاعل يسند إليه، ولكن ذلك لا يعني حتمية ذكره في كل كلام، فربما نجد في ذكره أحياناً زيادة على حاجة الكلام إذا كانت هناك قرينة حالية أو لفظية تدل عليه وتغني عنه، وعندها لو تكلفنا ذكره لخرج أسلوب الكلام عن مظان البلاغة، ولفقدنا الغرض البلاغي المطلوب من حذفه.

- **حذف المبتدأ**

---

[2] ينظر: عبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 57/2

[3] نظر: الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين: مادة (خزل)، والأزهري، تهذيب اللغة: مادة (خزل)

[4] ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 134/3

في قوله تعالى: (الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) على القول[1] بأن (كتابٌ) خبر مبتدؤه محذوف تقديره (هذا)[2] ، والداعي للحذف هو الجري على عادة العرب في حذف المسند إليه إذا ذكروا موصوفاً بأوصاف أو أخبار لجعلهم السامع في منزلة العالم به اكتفاء بتلك الأوصاف. وقد سمى السكاكي هذا النوع بالحذف الذي اتبع فيه الاستعمال الوارد على تركه[3].

وهنا جاء لفظ (كتابٌ) موصوفاً بجملة (أنزلناه) فصار في حكم المعروف إذ لا كتاب منزل على النبي صلى الله عليه وسلم سوى القرآن الكريم المشار إليه بـ (هذا) المحذوف. ثم إن الصفات العالية والخيرة التي وصف بها الكتاب الكريم متمثلة بانتشاله الناس من غياهب الضلال إلى نور الإيمان أغنت عن ذكر المسند إليه وهو القرآن الكريم.

وقد يكون سبب حذف المسند إليه هنا وروده في سياق المدح موافقاً استعمال العرب الشائع في "ترجيح حذف المسند إليه إذا قصد به إنشاء المدح أو الذم أو الترحم، وكان في الكلام قرينة تدل عليه ... كقول الشاعر:

سأشكر عمرا ما تراخت منيتي أيادي لم تمنن وإن هي جلت

فتى غير محجوب الغنى عن صديقه ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت[4]

---

[2] وقيل في إعراب (كتابٌ) خبر مبتدؤه (الر) وجملة (أنزلناه) صفة للخبر. ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب: 56/19

[3] ينظر: النحاس، إعراب القرآن: 227/2، ومكي بن أبي طالب، مشكل إعراب القرآن: 400/1، والعكبري، التبيان في إعراب القرآن: 762/2

[4] ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم: 176، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 313/1

[5] البيتان نسبا لعبد الله بن الزبير في مدح عمرو بن عثمان بن عفان لما زاره عمرو فرأى على ابن الزبير ثياباً رثةً، فدعا وكيلَه وقال: اقترض لنا مالاً، فقال: هيهات ما يعطينا التُّجّار شيئاً، قال: فأربحهم ما شاؤوا: فاقترض

أي هو فتى"[1]

وكذا حذف المبتدأ من قوله تعالى: (وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (2) **الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ** الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)[2] فقد ذكر أهل العلم ثلاثة أوجه في إعراب الموصول وصلته[3]، الأول: أنه صفة للكافرين، والثاني: مبتدأ خبره جملة (أولئك في ضلال بعيد)، والثالث: أنه خبر مبتدؤه محذوف تقديره (هم) العائدة على الكافرين، قال محي الدين درويش: " وجميع هذه الأوجه متساوية في الأرجحية"[4]

- **حذف الفاعل:**

ومن الأمثلة التي وقف عليها الباحث لحذف الفاعل في السورة الكريمة:

قوله تعالى: (مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ **وَيُسْقَىٰ** مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ)[5] عبَّرَ بالفعل المبني للمجهول بحذف فاعل (**يسقى**) للعلم بفاعل السقي، وهم ملائكة العذاب الذين يتولون تعذيب الكفار يوم القيامة، والغرض البلاغي من حذفه هو الإشارة إلى نزع اختيار الكافر المسقيّ من هذا الصديد، وللدلالة على سلب إرادته في قبول الشرب أو رفضه، فهو إما مأمور بتجرع ما يسيل من فروج الزناة من قيح ودم قهراً، أو مضطر إلى شربه بدافع

له عشرةَ آلاف فوجّه بها إليه. ينظر: المبرد، محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، دار الفكر العربي – القاهرة، الطبعة: الطبعة الثالثة 1417هـ - 1997م، 173/1، والبغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب: 265/2

[2] عبد العزيز عتيق، علم المعاني: 125

[3] سورة إبراهيم: الآيتان 2، 3

[4] ينظر: العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 763/2، ومحمد عبد الرحيم الصافي، الجدول في إعراب القرآن: 153/13

[5] محيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 141/5

[6] سورة إبراهيم: الآية 16

إخماد الشَّوب المشتعلِ في أمعائه وجوفه. فيكون حذف الفاعل قد ساهم في وصف المشهد ورسم الصورة، ولولا الحذف لما تحقق هذا الغرض البلاغي.

ومن شواهد حذف الفاعل للعلم به كذلك قوله تعالى: (**وأُدْخِلَ** الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ جَنّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِها الأنْهارُ خالِدِينَ فِيها بِإذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهم فِيها سَلامٌ)[1] فقد قرأ الحسن وعمرو بن عبيد (**وأُدْخِلُ**) بهمزة المتكلم مضارع أَدْخَل، أي: أُدخلُ أنا[2]. ولكن قراءة الجمهور (**أُدخِلَ**) الماضي المبني للمفعول، والفاعل محذوف للعلم به وهم الملائكة[3]، يدخلون المؤمنين الجنات بإذن ربهم، وطالما أن العلم بالفاعل ليس بالأمر العسير مع توفر القرائن الدالة عليه فإن ذكره في الكلام تطويل لا فائدة منه، وكلام الله منزه عن ذلك.

ومنه كذلك قوله تعالى: (يَوْمَ **تُبَدَّلُ** الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)[4] فإن الحديث عن تغيرات وخروقات ستحدث يوم القيامة تطال نواميس الطبيعة وقوانين الكون، لا طاقة لأحد من البشر ولا الجن ولا حتى الملائكة بها، يختص بالقدرة على القيام بها خالق الكون لا غير، وعليه لا معنى لذكر فاعل (تبدل الأرض) لتعينه، وانعدام احتمال غيره، مع ما يلقيه المشهد مع الحذف من ظلال مهيبة على نفس السامع.

ومن شواهده أيضاً ما ورد في قوله تعالى: (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا **قُضِيَ الْأَمْرُ** إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ)[5] بني الفعل (قُضي) للمجهول بحذف فاعله لدلالة الحال والمقام عليه، فمن ذا الذي يملك القضاء في يوم القيامة سوى الله الملك

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 23

[3] ينظر: إبراهيم الأبياري، الموسوعة القرآنية: 354/5

[4] ينظر: أبو حيان، البحر المحيط: 430/6

[5] سورة إبراهيم: الآية 48

[6] سورة إبراهيم: الآية 22

القاهر الجبار مالك يوم الدين، والمقصود بـ (قضي الأمر) في الآية الكريمة: حكم الله بين عباده وميز بين أصحاب الجنة وأهل النار فأدخل المؤمنين الجنات وأسكن الكافرين الدركات[1]، وربما حذف الفاعل مراعاة للاستعمال الشائع عند العرب يقول ابن عاشور: " وتركيب (قضي الأمر) شاع فجرى مجرى المثل، فحذف الفاعل ليصلح التمثل به في كل مقام"[2] وقد ورد في أكثر من موضع في القرآن الكريم نحو قوله تعالى:

(**وَقُضِيَ الْأَمْرُ** ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)[3]

(وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا **لَّقُضِيَ الْأَمْرُ** ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ)[4]

(قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ **لَقُضِيَ الْأَمْرُ** بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ)[5]

(وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ **قُضِيَ الْأَمْرُ** وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)[6]

ويشهد لما ذكر التصريح بفاعله عند مجيئه في غير طريقة المثل نحو قوله تعالى: (**وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ** أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ)[7]

هذا ويضاف إلى الغرض الذي ذكره ابن عاشور معان بلاغية أخرى يفيدها حذف الفاعل في هذا التركيب تتجلى في تعظيم الله تعالى وتهويل الأمر مع مراعاة حسن الأدب[8].

---

[2] ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 489/4

[3] ابن عاشور، التحرير والتنوير: 269/7

[4] سورة البقرة: الآية 210

[5] سورة الأنعام: الآية 8

[6] سورة الأنعام: الآية 58

[7] سورة مريم: الآية 39

[8] سورة الحجر: الآية 66

[9] ينظر: الألوسي، روح المعاني: 161/4

ومما جاء محذوف الفاعل من المواضع في السورة الكريمة كذلك قوله تعالى حكاية عن قول المكذبين من أقوم الرسل: (وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا **أُرْسِلْتُمْ** بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)[1] وفيه رد هؤلاء الكفار على دعوة الرسل لهم للإيمان من خلال إتيانهم بالبينات والحجج والبراهين، ويلاحظ أنهم قد حذفوا الفاعل في جوابهم للرسل وبنوا الفعل للمفعول (إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا **أُرْسِلْتُمْ** بِهِ) فيبدو لي أن السر البلاغي في ذلك هو إمعانهم في إنكار كونهم رسلاً من عند الله، لأن إثباتهم فاعل (أرسل) في الكلام يوحي بالاعتراف بنسبة المرسَلين إلى المرسِل والإيمان بالدعوة، ولا معنى بعدها للكفر بالبينات إذا ثبت أنها من عند الله، لذا نراهم قد تجنبوا ذكر الفاعل حتى في الكلام ليبعدوا ذاك الاحتمال.

2- حذف المسند

- **حذف الخبر:**

نحو ما في قوله تعالى: (مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ)[2] فقوله: (مثل) مبتدأ حذف خبره عند سيبويه، تقديره: مثل الذين كفروا بربهم فيما يقص عليك، والمثل مستعار للصفة التي فيها غرابة[3]. أي فيما يقص عليك صفتهم وحالهم العجيبة الشأن التي هي غاية في الغرابة، وقيل: إن قوله (مثل) مبتدأ خبره جملة (أعملهم كرماد)[4].

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 9

[3] سورة إبراهيم: الآية 18

[4] ينظر: الزمخشري، الكشاف: 547/2

[5] ينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 40/5

ومما حذف خبره قوله تعالى: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا **فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ** إِلَى النَّارِ)[1] على قول الحوفي[2] بأن (مصيركم) اسم إن وخبرها محذوف تقديره (واقع) على اعتبار (إلى النار) متعلقاً بـ(مصير) الذي ضمن معنى (انتقال) لتعديته بـ (إلى) فيكون المعنى: فإن انتقالكم إلى النار واقع لا محالة، أو كائن[3].

وقد نوقش هذا القول ورُدَّ بأن (مصير) هي مصدر (صار) التامة بمعنى رجع، وخبر إنَّ هو (إلى النار)، ولا داعي لتقدير الخبر لأن حذفه في مثل هذا التركيب قليل، وأكثر ما يحذف إذا كان اسم إن نكرة[4].

- **حذف الفعل**:

ويظهر في نحو قوله تعالى: (**وَإِذْ** قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ)[5] **(إذ)** ظرف موضوع لزمان نسبة ماضية وقع فيه نسبة أخرى مثلها، كما أن (إذا) موضوع لزمان نسبة مستقبلة يقع فيها أخرى مثلها، ولذلك يجب إضافتهما إلى الجمل، وتنتصبان بفعل محذوف تقديره (اذكر) أي: واذكر إذ قال موسى لقومه. وقد جاء هذا الفعل مصرحاً به في مثل قوله تعالى: (**وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ** قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)[6] وفي قوله: (**وَاذْكُرُوا إِذْ** جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 30

[3] هو علي بن إبراهيم بن سعيد، أبو الحسن الحَوفي: نحوي، من العلماء باللغة والتفسير، من أهل الحوف (بمصر) من كتبه (البرهان في تفسير القرآن)، و (الموضح) في النحو، و(مختصر كتاب العين) توفي سنة 430هـ. ينظر: القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة: 219/2، وابن خلكان، وفيات الأعيان: 300/3، والزركلي، الأعلام: 250/4

[4] ينظر: أبو حيان، البحر المحيط في التفسير: 437/6، والألوسي، روح المعاني: 207/7

[5] ينظر: ابن عادل الحنفي، اللباب في علوم الكتاب: 385/11، والسمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: 104/7

[6] سورة إبراهيم: الآية 6

[7] سورة الأعراف: الآية 86

مِن بَعْدِ عَادٍ)[1] وتوجيه الأمر بالذكر إلى الزمن مع أن المقصود هو ما وقع في ذلك الزمن من الحوادث غرضه المبالغة في إيجاب ذكرها، لأن إيجاب ذكر الوقت هو إيجاب لتذكر ما يتضمنه من وقائع ومجريات بالطريق البرهاني، ولأن الوقت مشتمل عليها فتذكر الوقت استحضار لتلك الحوادث في الذهن بتفاصيلها كأنها مشاهدة عياناً[2].

ومن هذا القبيل قوله تعالى: (**وَإِذْ** قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ)[3] وتقديره: واذكر إذ قال إبراهيم.

وقوله تعالى: (**وَإِذْ** تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)[4]

وجميع (**إذ**) في القرآن الكريم، أكثره على هذا يحذف عامله، لدلالة المعمول عليه، والغرض البلاغي من الحذف تركيز العناية على المعمول[5].

وكذلك الأمر في قوله تعالى: (**يَوْمَ** تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)[6] تقدير الكلام: واذكر يوم تبدل الأرض غير الأرض[7].

3- حذف المفعول به:

---

[2] سورة الأعراف: الآية 74

[3] ينظر: أبو شادي، مصطفى عبد السلام، الحذف البلاغي في القرآن الكريم، مكتبة القرآن، القاهرة، 129

[4] سورة إبراهيم: الآية 35

[5] سورة إبراهيم: الآية 7

[6] ينظر: أبو شادي، الحذف البلاغي في القرآن الكريم: 129

[7] سورة إبراهيم: الآية 48

[8] ينظر: العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 774/2

وقد حظي باهتمام أهل البلاغة وعلى رأسهم عبد القاهر الجرجاني الذي وصفه قائلاً: "اللطائف كأنها فيه أكثر، ومما يظهر بسببه من الحسن والرونق أعجب وأظهر"[1].

من أمثلته في السورة الكريمة:

قوله تعالى: (... فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ **يَشْكُرُونَ**) فالفعل (**يشكرون**) فعل يتعدى إلى مفعول به في الأصل، ولكن المفعول به لم يذكر في الآية، تنزيلاً للفعل المتعدي منزلة اللازم رجاء اتصافهم بالشكر في كل أحوالهم دون تقييد بحال دون حال، أي " إثبات المعنى في نفسه للشيء على الإطلاق وعلى الجملة، من غير أن يتعرض لحديث المفعول "[2]، فالتعميم هو الغرض البلاغي الذي حذف لأجله المفعول.

ولأجل هذا الغرض كذلك حذف المفعول في قوله تعالى: (وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ **يَتَذَكَّرُونَ**)[3] فالفعل (يتذكر) فعل متعدٍّ حُذف مفعوله فصار في حكم اللازم، وهذا في ذاته ملمح لطيف لأنه يثري اللغة والبيان ويجعل للفعل اعتبارين كونه متعدياً وكونه لازماً في الفعل ذاته، غير أن ورود الفعل هنا لم يقصد به التعليق بمفعول، وإنما قصد إثباته لفاعله فقط، فكان الغرض التركيز على إثبات المعنى في نفسه فعلاً للشيء، والإخبار بأن من شأن الفاعل أن يكون منه هذا الفعل، ولذا جاء محذوف المفعول لأن تعديته في هذه الحال تنقض الغرض، بل وتغير المعنى، يقول عبد القاهر الجرجاني مدللاً على ما ذكرنا: " ألا ترى أنك إذا قلت: "هو يعطي الدنانير"، كان المعنى على أنك قصدت أن تُعلم السامع أن الدنانير تدخل في عطائه، أو أنه يعطيها خصوصا دون غيرها، وكان غرضك من الجملة بيان جنس ما تناوله

---

[2] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: 153

[3] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: 154

[4] سورة إبراهيم: الآية 25

الإعطاء، لا الإعطاء في نفسه، ولم يكن كلامك مع من نفى أن يكون كان منه إعطاء بوجه من الوجوه، بل مع من أثبت له إعطاء، إلا أنه لم يثبت إعطاء الدنانير. فاعرف ذلك، فإنه أصل كبير عظيم النفع"[1]

فالتذكر في قوله (لعلهم يتذكرون) عام مطلق عن التقييد بنوع مما يتناوله الفعل (تذكر)، فيشمل التفكر في أحوال المبدأ والمعاد، وفي بدائع صنع الله تعالى وما بث في الكون من أدلة على وجوده ووحدانيته[2] وغير ذلك.

ومما حذف فيه المفعول قوله تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن **شَكَرْتُمْ** لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن **كَفَرْتُمْ** إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)[3] فكل من الفعلين (شكر) و(أزاد) متعديان حذف مفعولهما للعلم به، وهو نعمة الله تعالى على بني إسرائيل التي سبق ذكرها في الآية السابقة في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ)[4] والغرض البلاغي من حذف مفعولي (شكرتم) و (أزيدنكم) تقدير العموم في الفعلين[5]. ولذا كان للعلماء في تقديرهما ثلاثة أقوال ذكرها ابن الجوزي[6]:

الأول- لئن شكرتم نِعَمي لأزيدنكم من طاعتي قاله الحسن

الثاني- لئن شكرتم إنعامي لأزيدنكم من فضلي قاله الربيع

الثالث- لئن وحّدتموني لأزيدنكم خيراً في الدنيا قاله مقاتل

---

[2] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: 155

[3] ينظر: الشوكاني، فتح القدير: 128/3

[4] سورة إبراهيم: الآية 7

[5] سورة إبراهيم: الآية 6

[6] ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: 193/13

[7] ينظر: ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير: 505/2

وقد ذكر أهل البلاغة أغراضاً بلاغية أخرى يحققها حذف المفعول به منها: البيان بعد الإبهام، ويكون مع فعل المشيئة والإرادة، ويغلب في باب (لو) والشرط[1]، ومثاله في السورة الكريمة ما ورد في قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ **إِنْ يَشَأْ** يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ)[2] حيث حذف مفعول الفعل (**يشأ**) ودلَّ عليه جواب الشرط، وتقديره (إن يشأ الله إذهابكم والإتيان بخلق جديد) وجلي أن ذكره هنا يخرج الكلام عن البلاغة، ويجعله غثاً يمجَّه السمع وتعافه النفس.

وإلى جانب فضيلة الإيجاز تظهر براعة أسلوب الحذف هنا في جعل نفس المخاطب في حالة ترقب وانتظار وتشوف لما سيتفتَّقُ عن المشيئة، كونها قد تعلَّقت في المعنى بشيء يلقي في نفس السامع أن ثمة شيئاً تقتضي مشيئة الله له أن يكون أو لا يكون، فالآية الكريمة مهدت ببيان عظمة الله تعالى الخالق للسموات والأرض وقدرته، ثم أعقبت بتعليق مشيئة الله على معنى خفي غير مذكور أوقع نفس السامع في حيرة وترقب حتى أزالها جواب الشرط الحامل لمعنى المفعول المحذوف.

وكذا يحذف المفعول به في غير الشرط خلافاً لمن اشترط ذلك مثل بدر الدين محمد بن يعقوب المعروف بابن النحوية[3] مثل ما ورد في قوله تعالى: (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ **يَشَاءُ** مِنْ عِبَادِهِ)[4] حذف مفعول فعل (**يشاء**) لدلالة سياق الآية عليه، وتقديره: ولكن الله يمن على من يشاء أن يمن

---

[2] ينظر: العز بن عبد السلام، الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز: 17

[3] سورة إبراهيم: الآية 19

[4] هو محمد بن يعقوب بن إلياس، بدر الدين، المعروف بابن النحوية: عالم بالعربية، من أهل دمشق، له (شرح ألفية ابن معطي) في نحو، و (إسفار الصباح عن ضوء المصباح) اختصر به المصباح في المعاني والبيان، وشرحه. توفي سنة 718هـ. ينظر: العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: 40/6، والسيوطي، بغية الوعاة: 272/1، والزركلي، الأعلام: 146/7

[5] سورة إبراهيم: الآية 11

عليه من عباده. والداعي للحذف في هذه الحال "الجري على غالب استعماله في كلام العرب"[1].

وما قيل هنا يقال في حذف مفاعيل فعل المشيئة في قوله:

(فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)[2]

(وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ)[3]

4- حذف المضاف:

يشيع أسلوب الإيجاز بطريق حذف المضاف في القرآن الكريم، ويعد من أكثر أنواع الحذف وروداً، ولعل السبب في ذلك سهولة إدراكه وظهور معناه ووضوح القرائن الدالة عليه، الأمر الذي يجعل ذكره عند ذلك ضرباً من الحشو والتطويل الذي لا فائدة منه. وقد تتبع العز بن عبد السلام هذه الظاهرة في القرآن الكريم في كتابه "الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز" واستقرأها وأحصى المضافات المحذوفة على ترتيب الآيات والسور. فذكر ثمانية وعشرين موضعاً حذف منه المضاف في سورة إبراهيم[4]. وحسبنا أن نشير في هذا المقام إلى شيء منها مع بيان المعنى البلاغي من الحذف:

في قوله تعالى: (وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)[5] حذف المضاف من قوله (على الله) وقرينة الحذف امتناع تعلق التوكل بلفظ الجلالة (الله)، فعُلم أن ثمة مضافاً محذوفاً تقديره عند أهل العلم: على نصر الله

---

[2] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 280/30

[3] سورة إبراهيم: الآية 4

[4] سورة إبراهيم: الآية 27

[5] ينظر: الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز: 162-163

[6] سورة إبراهيم: الآية 11

أو عصمة الله أو كفايته أو معونته أو وقايته[1]، ويتجلى السر البلاغي من حذف المضاف هنا في التركيز على المتوكَّل عليه وهو الله، وتجنب الاشتغال بذكر نوع الاستعانة المرجوة منه ليترك للمخاطب تقدير ما يشاء، فالله تعالى قادر عليه وأهل له. إضافة إلى ما يوحيه الحذف في نفس السامع من معاني الصلة التامة بين المؤمن وربه والقرب منه.

ومنها قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ)[2] أي: أي شكر نعمته تعالى الواجب عليهم، ووضعوا موضعه (كفراً) عظيماً وغمطاً لها، فالكلام على تقدير حذف مضاف وإقامة مضاف إليه مقامه[3].

ومنها أيضاً قوله تعالى: (يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ)[4] في وصف الكافر حال تعذيبه في النار، وقد حذف المضاف من قوله (ويأتيه الموت) بقرينة قوله: (وما هو بميت) فالكافر لا يموت رغم ما يتعرض له من أصناف العذاب، فيكون تقدير الكلام مع المضاف: ويأتيه ألم الموت أو كرب الموت، أو سكرات الموت، أو غمراته، أو أسبابه أي أنواع العذاب[5]. والغرض من حذف المضاف هو بيان اقتراب الموت منه كثيراً لتكالب أسبابه وغمراته بسبب شدة العذاب، ولكن الله تعالى مع ذلك لا ينهي معاناته ولا يقبض روحه، فحذف المضاف جعل الموت متصلاً به ومباشراً له من غير حائل، ولا يخفى ما في هذا الأسلوب من الترهيب والترويع اللذين كانا هدف الآية ومقصودها.

---

[2] ينظر: العز بن عبد السلام، الإشارة إلى المجاز في بعض أنواع المجاز: 162

[3] سورة إبراهيم: الآية 28

[4] ينظر: الألوسي، روح المعاني: 205/7

[5] سورة إبراهيم: الآية 17

[6] ينظر: ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 2239/7، والواحدي، الوجيز في تفسير القرآن العزيز: 580، العز بن عبد السلام، الإشارة إلى المجاز في بعض أنواع المجاز: 162

وفي قوله تعالى: (وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ)[1] تقدير الكلام: وأنذر الناس أهوال يوم يأتيهم العذب، وقرينة افتقار الكلام لتقدير مضاف أن الآية وعيد بدليل قوله (وأنذر) و (العذاب)، والإنذار لا يتعلق بالظرف وإنما يتعلق بالمظروف، أي ما يتضمنه ذلك اليوم من الأهوال والمصائب المفزعات.

وكذلك قوله تعالى: (وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)[2] أي عند الله جزاء مكرهم. وقوله: (لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)[3] أي ليجزي الله كل نفس جزاء ما كسبت أو مثل ما كسبت.

ولعل المقتضى البلاغي الذي يعم كل موضع حذف فيه المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه هو إظهار المعنى في صورة أتم وأبين وأشمل[4].

5- حذف الجملة

ما سبق كان المحذوف فيه مفردة واحدة، وفيما يلي بيان للإيجاز بحذف الجملة أو ربما يتعداها إلى حذف عدة جمل. ومن شواهد هذا النوع من الحذف في السورة الكريمة:

قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[5] ذكر أبو حيان في تفسير الآية قولاً مفاده أن فيها حذفاً تقديره: وما أرسلنا من رسول قبلك إلا بلسان قومه، وأنت أرسلناك للناس كافة بلسان قومك، وقومك يترجمون لغيرهم بألسنتهم[6]. والقرينة الدالة على وجود

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 44

[3] سورة إبراهيم: الآية 46

[4] سورة إبراهيم: الآية 51

[5] ينظر: عبد العظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: 45/2

[6] سورة إبراهيم: الآية 4

[7] ينظر: أبو حيان، البحر المحيط في التفسير: 408/6

الجمل المحذوفة هي أن بعثة النبي صلى الله عليه وسلم عامة لكل البشر لقوله تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا)[1] فدل ذلك على أنه صلى الله عليه وسلم مستثنى من هذا الحكم. ولعل الداعي البلاغي للحذف هنا وضوح هذه الحقيقة وحضورها في ذهن المخاطبين لدلالة آيات كثيرة على عالمية الرسالة المحمدية وعدم انحصارها بالأمة العربية.

ومنه قوله تعالى: (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ **وَالسَّمَاوَاتُ** ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)[2] ففي الآية حذف دل عليه قوله (والسماوات) وتقديره: وتبدل السماوات غير السماوات لدلالة ما قبله عليه، وقد اختلف في المراد بالتبديل[3]، فقيل: هو في الذات كما تقول العرب بدلت الدراهم بالدنانير، وأكثر المفسرين على أن التبديل المراد هو الذي يكون في الصفات يشهد له قولهم: "بدلت الحلقة خاتماً".

وقد ورد نظير هذا الحذف في قوله صلى الله عليه وسلم: (لا يُقتل مؤمنٌ بكافر ولا ذو عهد في عهده)[4] المعنى: ولا ذو عهد في عهده بكافر، كما كان التقدير في الآية[5].

ويبدو أن الغرض البلاغي من تقديم ذكر الأرض وفصلها عن السماوات ثم حذف جملة السماوات لفتُ انتباه المخاطبين إلى أهمية تبدل الأرض وخطورة شأنها بالنسبة إليهم، لكونهم يتأثرون بشكل مباشر بما يطرأ عليها من تبدل أو يعتريها من تغيير.

---

[2] سورة الأعراف: الآية 158

[3] سورة إبراهيم: الآية 48

[4] ينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل: 203/3، والنسفي، مدارك التنزيل: 180/2، والشوكاني، فتح القدير: 142/3

[5] أخرجه أبو داود في كتاب: الديات، إيقاد المسلم بالكافر، (2751)، وابن ماجه في كتاب: الديات، لا يقتل مسلم بكافر،(2660) واللفظ له، والنسائي: القَسامة، القود بين الأحرار والمماليك في النفس (4734) بنصه، والحاكم: الفيء لا يقتل مؤمن بكافر (2623) بنصه، وقال صحيح على شرط الشيخين.

[6] ينظر: الواحدي، التفسير البسيط: 516/12

وجاء حذف الجملة المتعلقة بـ (السماوات) تجنباً للتطويل ولأن الوصول إلى المحذوف ظاهر وميسور.

ومن شواهد حذف الجملة في السورة كذلك قوله تعالى: (مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ **وَيُسْقَىٰ** مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ)[1] فمجيء واو العطف في قوله: (وَيُسْقَى) قرينة على وجود جملة محذوفة عُطِفَ عليها الفعل (يسقى)، وقعت جواباً عن سؤال سائل، كأنه قيل: فماذا يكون إذن؟ فقيل: يلقى فيها، ويسقى من ماء صديد[2]. وقد حذف المعطوف عليه للاستغناء عنه ودلالة ما بعده عليه، للعلم بأن تجرع الكافر من الصديد لا يكون إلا بعد إلقائه في جهنم، لكونه أحد أصناف عذابه هناك، ومتى توفر في الكلام ما يغني عن المحذوف، وتيسر استحضاره في ذهن السامع دون كد أو مشقة، كان حذفه بلاغة يقتضيها الإيجاز.

ونظير ما سبق نجده في قوله تعالى: (هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ **وَلِيُنذَرُوا** بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) فقوله: (ولينذروا) معطوف على محذوف تقديره: لينصحوا ولينذروا[3].

ومما يندرج تحت حذف الجملة **حذف جواب الشرط**، الذي نستشهد له من السورة بقوله تعالى: (وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ)[4] وهو بيان أن الله تعالى مستغن عن الخلق أجمع وهم إليه محتاجون، وقد صاغ سيدنا موسى هذا المعنى في أسلوب شرط حذف جوابه، فقوله: (إن تكفروا) إن اسم شرط، تكفروا مضارع مجزوم وعلامة جزمه حذف النون، وجواب الشرط

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 16

[3] ينظر: الزمخشري، الكشاف: 546/2، وأبو السعود العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 39/5

[4] ينظر: الزمخشري، الكشاف: 568/2، ومحيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 208/5

[1] سورة إبراهيم: الآية 8

محذوف تقديره: فلن تضروا الله شيئاً، ولكن الضرر عائد على أنفسكم التي حرمتموها من مزيد الإنعام وعرضتموها للعذاب الشديد، وأما جملة: (فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ) فهي تعليل لجواب الشرط المحذوف لا محل لها من الإعراب، وقرينة دالة على المعنى الإجمالي لجواب الشرط المحذوف.

ويبدو لي أن الغرض البلاغي الذي استدعى الحذف في هذا المقام هو تأدب سيدنا موسى مع ربه بتحاشي نسبة إضرار الخلق إلى الذات الإلهية وتنزيهها حتى في معرض النفي، والاكتفاء بالإشارة في قوله (فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ) التي تضمنت تعظيم الله تعالى وتحقير شأن الكافرين به.

ومن أمثلة حذف جواب الشرط أيضاً ما ورد في قوله تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)[1] فاللام في (لئن) موطئة للقسم، وإن اسم شرط جازم، و(شكرتم) فعل الشرط، وقوله: (لأزيدنكم) اللام جواب القسم، وجملة (لأزيدنكم) لا محل لها من الإعراب، لأنها جملة جواب القسم، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم[2]. والداعي لحذف جملة الشرط هنا اتباع القاعدة النحوية القاضية بأن يحكم بجملة الجواب للسابق من القسم والشرط عند اجتماعهما ويعتبر جواب اللاحق محذوفاً.

ومن حذف الجملة ما يكون حذفاً لأسلوب الشرط وإقامة أسلوب الأمر أو الدعاء مقامه، مثاله في سورة إبراهيم قوله تعالى على لسان أهل النار يوم القيامة: (رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ) فالآية فيها طلب (أخرنا) ومعلوم أن جوابه (نُجبْ) يكون مجزوماً به قال العز بن عبد السلام: تقديره فإن تؤخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك[3]. إذ جاء أسلوب الشرط في قالب الدعاء.

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 7

[3] ينظر: محيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 162/5

[4] ينظر: العز بن عبد السلام، الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز: 13

ومن حذف الجمل كذلك حذف جملة القول في نحو قوله تعالى: (وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ۗ **أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم** مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ)[1] إذ إن قوله: (أولم تكونوا ..) معطوف على قول محذوف تقديره: "فيقول" أي: فيقال لهم توبيخاً وتبكيتاً، ألم تؤخروا في الدنيا، ولم تكونوا أقسمتم إذ ذاك بألسنتكم بطراً، وأشراً وجهلاً وسفهاً (ما لكم من زوال)[2]

2- الإيجاز بالقِصَر:

وهو الإيجاز الذي لا يعتمد فيه على أسلوب الحذف، وإنما يكون بتوظيف ألفاظ وتراكيب قليلة تتضمن معاني غزيرة، وهذه الثروة من المعاني مصدرها منطوق الألفاظ التي يتم اختيارها بعناية فائقة. قال بهاء الدين السبكي في التفريق بين الإيجاز بالحذف والإيجاز بالقصر: "الكلام القليل إن كان بعضاً من كلام أطول منه فهو إيجاز حذف، وإن كان كلاما يعطي معنى أطول منه فهو إيجاز قصر"[3].

ويبرز حسن هذا النوع من الإيجاز وأهميته في كونه آية على فصاحة المتكلم ودليلاً على تمكّنه من اللغة، ولذا قال صلى الله عليه وسلم: (أعطيت جوامع الكلم)[4].

وبتصفّح السورة الكريمة وإنعام النظر فيها نقف على نماذج من هذا النوع، نعرض فيما يأتي بعضاً من صوره، ونبدأ بما بدأت به السورة الكريمة في أول كلمة منها (الر) في قوله تعالى: (**الر** كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 44

[3] ينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 56/5، ودعاس، حميدان، قاسم، إعراب القرآن الكريم: 136/2

[4] السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: 586/1

[5] أخرجه مسلم في أول كتاب المساجد برقم 523، والترمذي في السير: باب ما جاء في الغنيمة برقم 1553، وابن حبان في كتاب الصلاة، باب ما يكره للمصلي وما لا يكره برقم 2313 عن طريق إسماعيل بن جعفر.

رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)[1] وهو ما عُرف بين العلماء بالأحرف المقطعة في أوائل السور.

وقد اختلف أهل العلم في تفسيرها وكثرت الأقوال في تأويلها، وما يهمنا أنها حروف اختزنت ثروة كبيرة من المعاني فكانت من موجز الكلام، لأن كل حرف منها يدل – حسب بعض الأقوال- على اسم من أسماء الله تبارك وتعالى، أو على صفة من صفاته، فهي توحي بمعان مقصودة، قال ابن كثير: "معانيها في أنفسها"[2] وقد افتتحت بها تسع وعشرون سورة من سور القرآن الكريم، وهي من أبرز وجوه الإعجاز البلاغي الذي جعل العرب يحتارون في تفسيرها حتى قيل: إن المراد بها إظهار عجز العرب عن مجاراة القرآن في البلاغة، فجيء بها للتنبيه على أنه – القرآن الكريم- منتظم من الحروف نفسها التي ينسج بها العرب كلامهم، وهم مع ذلك عاجزون عن أن ينسجوا على منواله أو أن يحاكوه في أسلوبه وبيانه[3].

وهكذا تكون هذه الحروف المقطعة من مظاهر الإيجاز بالقصر؛ لأنها رموز اختصرت من كلام أو جمل، فكانت أسراراً يعمل أهل العلم على كشفها وإماطة اللثام عن دلالاتها[4]. وفيما يتعلق بمعاني (الر) التي افتتحت بها سورة إبراهيم نقل لنا ابن الجوزي ستة أقوال لأهل العلم[5]:

الأول: أن معناها: أنا الله أرى.

الثاني: أنا الله الرحمن.

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 1

[3] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 160/1

[4] ينظر: أبو السعود العمادي، إرشاد العقل السليم: 21/1

[5] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 207/1

[1] ينظر: ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير: 314/2

الثالث: أنها بعض اسم من أسماء الله.

الرابع: أنها قسم أقسم به الله.

الخامس: أنها اسم من أسماء القرآن.

السادس: أنها اسم للسورة.

وحاصل القول: إنها رموز لغوية أحكمت أوضاعها، سيقت من أجل أداء مهام بلاغية، ونكت بيانية، ولتحقيق دلالات سامية عظيمة المقصد[1].

ومن الإيجاز بالقصر ما ورد في قوله تعالى: (اللَّهِ الَّذِي لَهُ **مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)[2] فقوله: (ما في السماوات وما في الأرض) جعل كل الموجودات والكائنات في الكون لله تعالى خلقاً وملكاً يتصرف فيها كيفما يشاء إيجاداً وإعداماً وإحياء وإفناء[3]. فالخطاب موجه للإنسان، وجميع ما يحويه الكون من مخلوقات بالنسبة للإنسان إما أن يكون على الأرض أو في السماوات، فمجيء الآية الكريمة مع (ما) الدالة على العموم جعلها موجزة وجامعة شاملة في الوقت نفسه، ولتغني عن ذكر ما لا يقع تحت العد والحصر.

ومما نلمح فيه جنوح النظم الحكيم إلى الإيجاز في اختيار تراكيبه، ومراعاته الدقة التامة في ذلك ما جاء في قوله تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)[4]، فحين ذكر جواب القسم في قوله (لأزيدنكم) في الجملة الأولى المتعلقة بالشكر وثوابه، كان القياس أن يصرح بجواب قسم الجملة المعطوفة

---

[2] ينظر: قراينو، فاطمة، من أسرار الإيجاز في القرآن الكريم – دراسة بلاغية- رسالة ماجستير، كلية العلوم الإسلامية، قسم اللغة، جامعة الجزائر، 1431هـ، 2010م، 61

[3] سورة إبراهيم: الآية 2

[4] ينظر: أبو السعود العمادي، إرشاد العقل السليم: 241/2

[5] سورة إبراهيم: الآية 7

(ولئن كفرتم) ولكن أغراضاً بلاغية حالت دون ذلك منها: أن تقدير جملة جواب القسم سيكون حينها (لَأُعَذِّبَنَّكم عَذابًا شَدِيدًا) وإذا قارناها مع ما أقيم مقامها (إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) وجدنا مختار البيان الإلهي أوجر[1]، فعدد حروفه أقل، وهو كذلك أعم وأشمل، ويختزن معان أكثر من حيث إنه يفيد وعيداً عاماً لكل من كفر بالله وضل عن سبيله ويحمل في طياته تهديداً خاصاً للمتلبسين بكفر النعمة الوارد في سياق الآية، فيكون المعنى: إن عذابي لشديد لمن كفر، فأنتم إذن منهم.

وإلى جانب غرض الإيجاز لاحظ المفسرون معنى بلاغياً آخر لسلوك أسلوب التعريض، بيانه أن الله تعالى متصف بالكرم واللطف والرحمة، ومن عادة الكرام غالباً التصريح بالوعد والتعريض بالوعيد ولذا لم يقل: إن عذابي لكم، كما صرح في الوعد (لأزيدنكم)[2].

ومن بديع الإيجاز بالقصر ما ورد في قوله تعالى على لسان الرسل مصممين على الثبات على دينهم والصبر في سبيل ذلك وتحمل أذى الكفار متوكلين على الله: (وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ **وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا** ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)[3] وموضع الشاهد قولهم: (**وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا**) الذي اختزل زمني الماضي والمستقبل، ومرادهم منه تأييس الكفار من قومهم بالأذى، إذ أقسموا على الصبر على ما ينالهم من أذى قومهم، وأرادوا التأكيد على أن ذلك الصبر مستمر ما استمر الأذى، فهو دون أن يثني عزائمهم، وقد حققوا هذا المعنى من خلال صيغة الاستقبال المستفادة من فعل المضارع المؤكد بنون التوكيد في (**وَلَنَصْبِرَنَّ**) الذي يدل على أذى مستقبل. ومن المصدر المنتزع من صيغة الماضي في قوله: (**مَا آذَيْتُمُونَا**)

---

[2] ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: 194/13

[3] ينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 193/3

[4] سورة إبراهيم: الآية 12

الذي دل على أذى مضى، فحصل من مجموع ذلك معنى: إننا "نصبر على أذى متوقع كما صبرنا على أذى مضى، وهذا إيجاز بديع"[1]

ومن الإيجاز بالقصر ما نجده في أسلوب سيدنا إبراهيم في التعبير عن تعلق علم الله تعالى بكل شيء وذلك في حكاية الله تعالى عن قوله: (رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ **مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ** وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)[2] فالتعبير بـ (**مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ**) يشمل كل شيء ولا يستثني شيئاً من الموجودات. وبيان ذلك أن الأشياء والمخلوقات والموجودات والوجدانيات إما أن تكون ظاهرة مشاهدة بالنسبة للإنسان أو تكون خافية عليه، وكذلك المشاعر والأحاسيس فإنها تقسم إلى ما يعلنه الإنسان وما يخفيه، فتعلق علم الله بما ظهر وما خفي يعني إحاطة علمه بكل شيء. فتكون العبارة قد اختزنت بكلماتها القليلة ثروة غزيرة من المعاني وفَّرها حسن انتقاء المفردات الكلية ذات الدلالات الواسعة.

ومما جاء فيه الكلام موجزاً ومتضمناً معاني غزيرة قوله تعالى: (قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا **يُقِيمُوا الصَّلَاةَ** وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ **لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ**)[3] فإن الملاحظ أن لفظ الصلاة لا يأتي في القرآن الكريم إلا مقروناً بالإقامة، رغم أن القيام بفعل الصلاة وتنفيذها يعبر عنه بـ (الأداء) فيقال: أديت الصلاة، أي فعلتها. ولكن البيان الإلهي دقيق في تخير ألفاظه فهو لا يريد من عباده حركات وهيئات لا روح فيها ولذا جاء التعبير بـ (يقيموا الصلاة).

وثمة فرق كبير بين (الأداء) و(الإقامة) فالأول تنفيذ للعمل بأي حال كانت، فحتى المسيء في صلاته قد أداها حين جاء بصورتها فركع وسجد وجلس، ولكنه لم يقم الصلاة على الوجه المطلوب، لذلك قال له النبي صلى الله عليه وسلم: (اذهب فصل

---

[2] ابن عاشور، التحرير والتنوير: 204/13

[3] سورة إبراهيم: الآية 38

[4] سورة إبراهيم: الآية 31

فإنك لم تصلّ)[1]، وهذا يعني أن الإقامة تعني الطمأنينة كما تعني أداء الشعائر المطلوبة في الصلاة بأركانها وواجباتها وسننها بخشوع وحضور قلب، [2]، وإذا علمنا هذا أدركنا سر تعبير القرآن الكريم بـ (يُقِيمُوا الصَّلَاةَ) وأدركنا وجه الإيجاز في هذا التركيب الذي اختزل لنا كل هذه المعاني في كلمة واحدة هي (يقيموا).

وأما الموضع الثاني الذي يصلح مثالاً لإيجاز القصر في الآية فهو قوله: (**لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ**)، فالكلام حث للمؤمنين على الإكثار من الأعمال الصالحة، وعلى وجه الخصوص الصلاة والإنفاق في سبيل الله، وتذكير لهم بأن قواعد يوم الحساب تختلف عن سنن الحياة الدنيا وأصولها وقوانينها، ولما كانت العلاقات الاقتصادية والمعاشية من جهة، والصلات الاجتماعية من جهة أخرى هما قوام الحياة في دار الدنيا جاء البيان الإلهي على ذكر ما يكنى عنها فذكر (البيع) وهو هنا كناية عن العلاقات المالية، ثم ذكر (الخلال) يعني المخالة والصداقة، كناية عن العلاقات الاجتماعية. فدلت الكلمتان على انتفاء كل أشكال العلاقات والصلات التي كان الإنسان ينتفع بها في دار الدنيا ويستعين بها في دفع الضرر، قال الألوسي: "والمراد - من وصفه بما ذكر- الإشارة إلى أنه لا قدرة لأحد فيه- أي في ذلك اليوم- على تحصيل ما ينتفع به بوجه من الوجوه، لأن من في ذمته حق مثلاً إما أن يأخذ بالبيع ما يؤديه به، وإما أن يعينه أصدقاؤه، وإما أن يلتجئ إلى من يشفع له في حطه، والكل منتف ولا مستعان إلا بالله عز وجل"[3]

ومن روائع طرق الإيجاز التي استخدمها النظم الحكيم في السورة الكريمة **ضرب المثل** للاستغناء عن ذكر التفصيلات الكثيرة والجزئيات الدقيقة من خلال ذكر الأشباه

---

[2] متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها، برقم: 757، ومسلم في كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، برقم: 397

[3] ينظر: السمرقندي، بحر العلوم: 244/2، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 510/4

[4] الألوسي، روح المعاني: 6/2

والنظائر الدالة على مقابلاتها، إذ يدل الممثل به الجامع لصور وصفات ومعان كثيرة على صور وصفات ومعان موجودة في الممثل له[1]

ومثاله في السورة قوله تعالى ممثلاً لأعمال الكفار يوم القيامة: (مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ)[2] فالبيان الإلهي اختزل عبارات كثيرة واستغنى عنها بنظائرها في المثل المضروب، فلا شك أن للكفار أعمالاً تُعد من البر في الحياة الدنيا كالصدقة وصلة الرحم وفك الأسير وإقراء الضيف وبر الوالدين، وهم يعوّلون عليها وينتظرون أجرها، فجاء المثل مشبهاً الانتفاع بها بالانتفاع بالرماد - وهو ما يتبقى من الحطب والفحم بعد احتراقه – حينما تهب عليه ريح شديدة فتنسفه نسفاً وتفرق أجزاءه بحيث لا يبقى من ذراته شيء، فيكون انتفاع الكافرين بأعمالهم كالانتفاع بذرات ذلك الرماد.

ويظهر الإيجاز هنا من خلال قصر الكلام على ذكر عناصر المشبه به دون المشبه، والمعنى المراد: أن الكافرين لن ينالهم من أعمال برهم شيء في الآخرة، وستملأ الحسرة قلوبهم حين يرونها عديمة الفائدة منثورة في مهب الريح كما ورد وصفها في قوله تعالى في موضع آخر: (وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا)[3]

ثانياً - الإطناب

ذكرنا آنفاً أن للمتكلم في إلقاء كلامه طرقاً وأساليب يعبر بها عن مراده، فهو إما أن يعبر عن المعنى المقصود بألفاظ قليلة ينتقيها من الكليات الشاملة فتؤدي معاني كثيرة وهو الإيجاز الذي تكلمنا عنه بالتفصيل، وإما أن يسلك في كلامه مسلكاً

---

[2] ينظر: عبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 32/2

[3] سورة إبراهيم: الآية 18

[1] سورة الفرقان: الآية 23

الموسع فيأتي بمفردات وألفاظ، أو عبارات تزيد على مراده من الكلام وهو ما يطلق عليه (الإطناب) في اصطلاح البلاغيين، وفيما يلي بيانه مع تطبيقاته في السورة الكريمة.

معنى الإطناب

الإطناب لغة مصدر أطنب، من قولنا: أطنبَ في كلامه إذا بالغ فيه وطوّل ذيوله[1]، وَأَطْنَبَ الرجل فِي الْمَدْح والذم إِذا بَالغ فيهمَا، ومعناه المعجمي يدور حول الإكثار والإطالة والطول والكثرة والزيادة على المعتاد[2]، وأما اصطلاحاً فلأهل البلاغة تعريفات متنوعة له: فهو عند الجاحظ " كل ما جاوز مقدار الحاجة من الكلام ولم يقف عند منتهى البغية"[3] ويعرفه أبو هلال العسكري بقوله: " الإطناب هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة "[4]، وعند السكاكي والخطيب القزويني: " هو أداء المقصود بأكثر من عبارات متعارف الأوساط "[5] ورغم أن مؤدى التعاريف واحد غير أن لتعريف أبي هلال العسكري الفضل على سائرها بذكره (الفائدة) وهي القيد الأهم في تعريف الإطناب، إذ به يفرق بينه وبين التطويل والحشو اللذين يعدان من أدواء الكلام.

فزيادة اللفظ على المعنى إن لم يحقق للمتكلم غرضاً كان عياً يعيب الكلام ويحطه من رتبة البلاغة ويجعله في خانة التطويل أو الحشو، وقد فرَّق البلاغيون بين التطويل والحشو فقالوا: إن أمكننا تعيين اللفظ الزائد في الكلام كان حشواً، وإلا فهو تطويلاً[6]، ومعلوم أن كليهما منتفي في حق البيان الإلهي.

---

[2] ابن دريد، جمهرة اللغة: مادة (طنب)

[3] ينظر: الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزمخشري، أساس البلاغة: مادة (طنب)

[4] الجاحظ، كتاب الحيوان: 7/6

[5] أبوهلال العسكري، الصناعتين: 190

[6] مفتاح العلوم: 277، والإيضاح (ضمن شروح التلخيص): 163/3

[7] يمثل أهل البلاغة للكلام الذي جاءت الزيادة فيه متعينة بقول الشاعر:

أنواع الإطناب وشواهدها من السورة:

يقسم الإطناب من حيث الزيادة وانعدامها إلى قسمين: إطناب بالبسط، وإطناب بالزيادة.

القسم الأول - الإطناب بالبسط:

ويقابل الإيجاز بالقصر، ويعني تكثير الجمل وبسط المعنى والإتيان بكلام طويل مسهب يغني عنه كلام أقصر منه دون أن يكون فيه كلمات وعبارات زائدة[1]. ومثاله في سورة إبراهيم ما جاء في قوله تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)[2] إذ نلحظ أن الله تعالى قد بسط القول في معرض بيان نعمه وفضله على الإنسان للدلالة على وحدانيته وقدرته في الوقت نفسه، واللتين تستوجبان العبادة والشكر له دون سواه، وكان يغني عن هذا الاسهاب جملة واحدة من مثل: سخر لكم ما خلق، أو سخر لكم ما في السموات والأرض، ولكن البيان الإلهي فضل سلوك

ذكرت أخي فعاودني صداع الرأس والوصب

وسبيل تعيين اللفظ الزائد أن الصداع ليس إلا صفة لألم الرأس، فتبين أن لفظ (الرأس) جاء حشوا لا فائدة منه.

ومثال الكلام الذي لا تتعين الزيادة فيه قول الشاعر:

ألا حبذا هند وأرض بها هند وهند أتى من دونها النأي والبعد

فلما كان (النأي) و(البعد) بمعنى واحد عرف أن أحد اللفظين زيادة يستغنى عنها بأختها، وليس بمقدورنا تعيين الزائد منهما. ينظر: المراغي، علوم البلاغة: 191

[2] ينظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 216/3

[1] سورة إبراهيم: الآيتان 32، 33

مسلك التوسع في العرض والإسهاب في التعبير، والبسط في المعاني، وبالنظر إلى ما تضمنته الآتيان من النعم يمكن حصرها فيما يأتي:

- خلق السماوات والأرض
- إنزال الماء من السماء
- إخراج الثمار من الأرض
- تسخير الفلك الجارية في البحار
- تسخير الأنهار
- تسخير الشمس والقمر الدائبين
- تسخير الليل والنهار

من هذا العرض نجد أن شيئاً من هذه الجمل لا يغني عن الآخر، فلا زيادة في الألفاظ، ولكن في الكلام بسطاً وتكثيراً استدعاه غرض بلاغي هو لفت الأنظار لآيات كونية دالة على طائفة من صفات الله تعالى منها وحدانيته وقدرته على الخلق، وكمال إرادته، وجليل حكمته، وإتقانه وإبداعه لمخلوقاته. إلى جانب تذكير الإنسان بعظيم منن الله عليه وما توجبه عليه هذه النعم العظام والمنن الجسام من إيمان وشكر، مع ما في ذكرها من حث للمؤمنين على الطاعة لله وتقريع للكفرة المخلين بالواجب[1].

قال الألوسي: وهذا أولى مما قيل في الداعي للإطناب هنا أن الله تعالى لما أطنب في وصف أحوال السعداء والأشقياء، وكانت السعادة الحقيقية في معرفة الخالق وصفاته دلهم الخالق على مصدر السعادة وفصل القول فيه[2]. وقال السيوطي: " أطنب فيها أبلغ الإطناب لكون الخطاب مع الثقلين وفي كل عصر وحين للعالم منهم والجاهل"[3] والذي يظهر لي أن الكلام قد خوطب به العرب المنكرون للدعوة

---

[2] ينظر: الألوسي، روح المعاني: 210/7

[3] ينظر: الألوسي، روح المعاني: 210/7

[1] السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 216/3

والمشركون بالله، ومن كانت هذه حاله لا تكفيه الإشارة ولا يقنعه التلميح، بل يستدعي الإطناب في بيان دلائل وحدانية من هو موضع شك عنده، ويستلزم تفصيل القول فيما أنعم به عليه، لكونه أدعى لاستمالة قلبه واستثارة وجدانه للإيمان، وأنفع في إغراء عقله وحمله على التأمل والتفكير.

القسم الثاني – الإطناب بالزيادة

ويكون بزيادة بعض الألفاظ في الكلام على أصل المعنى الذي يراد بيانه لتحقيق فائدة ما. وهو يقابل الإيجاز بالحذف الذي مر الكلام عليه في مبحث الإيجاز.

وقد نظر أهل العلم في الزيادات التي يحصل بها الإطناب المفيد، فوجدوا أنها تأتي لتحقيق أغراض بلاغية، أوصلها بعضهم[1] إلى خمسة عشر غرضاً أو داعياً[2]، سيحاول الباحث الوقوف منها على ما توفر له شواهد في السورة الشريفة وهي:

1- الإيضاح بعد الإبهام:

أو ما يسمى بالتفسير، ويكون عندما يأتي الكلام في صورة مجملة مبهمة أولاً ثم يعقبه بيان وتفسير يزيل ذلك الإبهام ويفصل المجمل، تحصيلاً لفوائد بلاغية متنوعة[3]، وقد ورد عن أهل البيان: إذا أردت أن تبهم ثم توضح فإنك تطنب[4].

ومن أمثلة هذا النوع في السورة الكريمة نذكر:

---

[2] ينظر: القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 196/3، والسيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 217/3، حبنكة، البلاغة العربية: 66/2

[3] من أغراض الإطناب بالزيادة: الإيضاح بعد الإبهام، ذكر الخاص بعد العام، التكرير، الإيغال، الاعتراض، الاحتراس، التذييل، التتميم، الطرد والعكس، الاستقصاء، التعليل ..

[4] لمعرفة أهم الفوائد البلاغية لهذا النوع من الإطناب ينظر: القزويني، الإيضاح: 197/3، وعبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح: 346/2، وعبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 66/2

[5] ينظر: عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح: 346/2، وعبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 66/2

- قوله تعالى: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۚ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)[1] حيث بدأت الآية باستفهام تقريري[2] يؤكد وصول أخبار الأمم الماضية إلى المخاطبين ويحتم اطلاعهم عليها بقوله: (ألم يأتكم نبأ الذي من قبلكم ..) ثم ترك البيان الإلهي السامعين يتصفحون أذهانهم بحثاً عن هذه الأخبار التي وصلتهم من قوم نوح وعاد وثمود، ولما تشوفت نفوسهم لمعرفة تفاصيل هذا الأنباء ورد قوله تعالى مبيناً ومفصلاً: (**جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ** فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ..)، وجلي المعنى البلاغي الذي حققه هذا الأسلوب من تمكين الخبر في نفس المتلقي تمكيناً زائداً لوقوعه بعد استشراف النفس إليه بسبب الإبهام.

- قوله تعالى: (مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ)[3] فبعد أن مثل الباري عز وجل لحال ما عمله المشركون من الخيرات وعدم انتفاعهم بها يوم الحساب بالرماد المتطاير في يوم عاصف شديد الريح عاد ليبين المراد بهذا التمثيل فقال: (لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ) بياناً لجملة التشبيه أي ذهبت أعمالهم سدى فلا يقدرون أن ينتفعوا بشيء منها[4]. وربما كان الداعي البلاغي لإيراد الكلام مغلفاً بالمشبه به مرة ومصرحاً بمضمونه مرة أخرى هو الرغبة في تقديم المعنى الواحد في صورتين مختلفتين، كما في إبراز الحسناء مغطاة بالحايك[5] أولاً، ثم عرضها مجلوة

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 9

[3] صديق حسن، فتح البيان فيي مقاصد القرآن: 89/7

[4] سورة إبراهيم: الآية 18

[5] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 213/13

[6] الحايك: لباس تغطى به المرأة يستر رأسها ووجهها وسائر مفاتن جسدها. ينظر: معجم المعاني مادة (حائك).

بعد رفع الحايك عن وجهها ورأسها ومواطن زينتها، لتنجلي لعين عريسها مفاتنها ومحاسنها.

- قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ **دَارَ الْبَوَارِ** (28) **جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ**)[1] قيل نزلت في الذين قاتلوا المسلمين في بدر، وروي عن عمر بن الخطاب أنهم الأفجران من قريش بنو المغيرة وبنو أمية، والمراد بـ (أحلوا قومهم) أنزلوهم بسبب ما زينوه لهم من الكفر، ولما كان مصير أشياعهم وأتباعهم موضع اهتمام السامع لأنه جاء في سياق التهديد والوعيد، آثر البيان الإلهي ذكره في بداية الأمر مبهماً باستعمال تركيب غير مألوف عند المخاطبين ابتداء وهم قريش، فقال: (دار البوار) وقد سبق أن بينا عند حديثنا عن غريب القرآن في السورة أن هذا التركيب يعني دار الهلاك بلغة عمان، من بار السوق إذا كسد، ثم عاد ليوضح المراد به بقوله في الآية التالية: (جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ)، ويظهر لي أن الغرض البلاغي من إيراد مصير الكفار بهذا الأسلوب هو لفت انتباه السامعين وجذب اهتمامهم له، لما يثيره التعبير بالمبهم أولاً من تشوف المخاطب إلى معرفة المقصود به والوصول إلى معناه، ولا شك أن ما ينتظر الساقطين في شراك المضلين والتابعين لهم من جزاء يوم القيامة يعدُّ من الأمور المهمة والخطيرة " وفي الإبهام ثم البيان ما لا يخفى من التهويل "[2]

- قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ **فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ**)[3] سبق وأن بينا أن المراد بـ(الذين كفروا) مشركو قريش، وبـ(لرسلهم) النبي محمد صلى الله عليه وسلم، والآية تأتي بعد حوار طويل جرى بين رسل الله تعالى والمنكرين لدعوتهم من أقوامهم.

---

[2] سورة إبراهيم: الآيتان 28، 29

[3] الألوسي، روح المعاني:206/7

[1] سورة إبراهيم: الآية 13

بدأ الحوار سلمياً ولكن من عادة الظالم المتكبر أن يلجأ إلى العنف والبطش عند افتضاح أمره ودعواه، وظهور بطلانها وضعف حجته وبرهانه، وهو الأسلوب الذي سلكه الكافرون مع الرسل حينما توعدوهم بقولهم: (لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا)، ولكن حاشا الله تعالى أن يتخلى عن رسله، وهنا تدخلت الإرادة الإلهية إلى جانب الرسل تطمئنهم، سالكة في النظم أسلوب الإيضاح بعد الإبهام (**فَأَوْحَىٰ** إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ) وهو كلام مبهم لكنه يجعل السامع في حالة تشوق ولهفة مترقباً ما تضمنه وحي السماء من قرار في حق أولئك المعتدين، إلى جانب ما يلقيه إبهام الكلام على هذا الشكل من رهبة وذعر في نفوس الكفار، يسببه الخوف من مجهول مبطن بوعيد وعقاب.

وعقب تحقق هذه الأغراض من إيراد الكلام مجملاً، جاء التوضيح حاملاً البشارة المنتظرة التي تثلج صدور الرسل وأتباعهم، وتخيب آمال الظالمين وتفشل مخططاتهم (لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (13) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ).

- قوله تعالى حكاية عن قول الشيطان مخاطباً أتباعه حال اجتماعهم في النار: (فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ)[1] جاءت جملة (مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ) بياناً لجملة النهي عن اللوم[2] عند قوله: (فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم) لأن توجيههم اللوم له يتضمن تعريضاً بمطالبتهم إياه إيجاد حيلة تنقذهم وتنجيهم، فجاء بالتوضيح تأكيداً لنفي ذلك عن نفسه.

- قوله تعالى: (الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (1) اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)[3] احتوت الآيتان الكريمتان شاهدين للإطناب

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 22

[3] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 220/13

[1] سورة إبراهيم: الآيتان 1، 2

بغرض الإيضاح بعد الإبهام: **الأول** حين جاء بكلمة (النور) مبهمة ثم فسرها بـ (صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) وهو طريقة الله الواضحة التي شرعها لعباده، وأمرهم بالمصير إليها والدخول فيها. وتبرز أهمية هذا الأسلوب في تكميل لذة المعنى المراد تقديمه إذ تبدأ ناقصة بالإبهام، وتكتمل بالإيضاح، والشيء إذا علم ناقصاً تشوقت النفس إلى العلم به كاملا، وحصل لديها ظمأ لمعرفته، فإذا تمت للنفس معرفته كانت لذتها أشد وأطيب من حصول العلم به دفعة واحدة[1].

وأما الشاهد **الثاني**: فهو قوله تعالى أولاً (العزيز الحميد) على سبيل الإجمال لصفات الله عز وجل ثم فسَّر ذلك موضحاً بقوله: (اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)، قال الزمخشري: "اللَّهِ عطف بيان للعزيز الحميد؛ لأنه جرى مجرى الأسماء الأعلام لغلبته واختصاصه بالمعبود الذي تحق له العبادة كما غلب النجم في الثريا"[2] فالعزيز الحميد هو الله المتفرَّد في ملكه وتصرفه في السماوات والأرض.

2- ذكر الخاص بعد العام ونظيره ذكر العام بعد الخاص:

والفائدة البلاغية من ذكر الخاص بعد العام الاعتناء بشأن الخاص والتنبيه على فضله[3]، حتى كأنه جنس مختلف عما اشتمل عليه العام المذكور قبله[4]. وأما النكتة البلاغية من ذكر العام بعد الخاص فهي تعميم الحكم المتعلق بالخاص وسحبه على أفراد العام[5].

وقد اشتملت سورة إبراهيم على كلا النوعين من الإطناب فمن شواهد الأول ما ورد في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آَلِ

---

[2] ينظر: عبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 67/2

[3] الزمخشري، الكشاف: 537/2

[4] ينظر: ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 28/3

[5] ينظر: القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 200/3، الصعيدي، بغية الإيضاح: 348/2

[6] ينظر: عتيق، علم المعاني: 200

فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)[1] فسيدنا موسى عليه السلام يذكر بني إسرائيل بجليل نعم الله عليهم، وفي مقدمتها حين أنقذهم من ظلم فرعون وخلصهم من تعذيبه. وقوله: (يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ) نوع من التعذيب الذي تعرضوا له على يد فرعون وزبانيته، ورغم أنه مندرج في عموم العذاب المذكور قبله في قوله: (يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ) فقد خص بالذكر مجدداً لكونه من أشد أنواع العذاب وكأنه جنس آخر غير عموم التعذيب تنزيلا للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات، وهل من عذاب أشد على الوالدين من ذبح فلذة كبديهما على مرأى منهما ومسمع دون أن يكون في مقدورهما فعل شيء!

وأما عطف جملة (وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ) فلأن مضمونها لا يصلح وحده بياناً لسوء العذاب المذكور، لأن الإبقاء على النساء وعدم قتلهن نعمة في ذاته، غير أنه صار نوعاً من التعذيب حينما اقترن بذبح الأبناء، وعلم أن القصد منه إهانتهن واسترقاقهن حتى صار القتل أهون لهن وأرحم بهن، فعاد بذلك مستحقاً التخصيص بالذكر على سبيل " ذكر سوء العذاب مجملا، وذكر أفظع أنواعه مبينا "[2]

وأما **ذكر العام بعد الخاص** فقد قال الزركشي مدافعاً عن وجوده: " وهذا أنكر بعض الناس وجوده، وليس بصحيح "[3] ومثَّل له بقوله تعالى: (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)[4] فإن علم السر والنجوى داخل بلا شك في الغيوب.

وقد كثرت أمثلة تعقيب الخاص بذكر العام في السورة تبعاً لأسلوب الخطاب القرآني في جعل الخاص مناسبة لتعميم أحكامه، نذكر منها قوله تعالى: (وَقَالَ مُوسَىٰ

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 6

[3] ابن عاشور، التحرير والتنوير: 192/13

[4] الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 471/2

[5] سورة التوبة: الآية 78

إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ)[1] الآية خطاب من موسى لبني إسرائيل عندما عاين منهم دلائل العناد وأمارات الإصرار على الكفر والفساد، وأيقن أنه لا ينفعهم الترغيب ولا التعريض بالترهيب. ونلاحظ أن قوله (أنتم) داخل في عموم دلالة قوله: (وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) ولكن النظم الحكيم خص بني إسرائيل بالحكم وأخرجهم من عموم من في الأرض جميعاً باعتبار أن الخطاب موجه إليهم ابتداء كونهم كانوا مظنة لصدور الكفر منهم.

ومنه ما جاء في قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ) فقد طلب عليه السلام المغفرة لنفسه ولوالديه قبل أن يعمم، ومعلوم أنه ووالديه داخلان في عموم قوله: (وَلِلْمُؤْمِنِينَ) ولكنه خص والديه بالذكر أولاً اعتناء بشأنهما وحباً لهما، وقدَّم نفسه تعريضاً بشفاعته لهما، ثم جاء بلفظ (المؤمنين) تعميماً لطلب الاستغفار لكل من آمن به.

3- التكرير لفائدة بلاغية:

وهو ذكر اللفظ مرتين أو أكثر لداع بلاغي، بمعنى أن يورد المتكلم لفظاً ثم يعيده بعينه، سواء أكان اللفظ متفقاً في المعنى أم مختلفاً[2].

ولما كان كتاب الله تعالى مصوناً من العبث فإن ورود الكلام فيه مكرراً إنما يكون لأداء وظيفة بيانية وتحقيق أغراض بلاغية[3]، وقد كان لهذه الظاهرة البلاغية وجود

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 8

[3] ينظر: ابن حجة الحموي، خزانة الأدب: 361/1، وعيسى العاكوب، المفصل في علوم البلاغة: 333

[4] من الدواعي البلاغية لظاهرة التكرار:

- تمكين المعنى وتأكيده في نفس المتلقي، وزيادة التنبيه على ما ينفي التهمة إذا كان البيان يقتضي ذلك.
- التلذذ بتكرير عبارات الفخر والإشادة بالمآثر الحميدة.
- التنفيس عن النفس بعبارات التحسر والندم أو الحزن، أو الفرح.
- طول الفاصل في الكلام الذي تدعو الحاجة معه إلى التنبيه بالتكرير

في السورة الكريمة نقف عند بعض شواهدها مثل قوله تعالى: (وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ)[1] كرر الفعل (خاف) وكان يمكن الاكتفاء بعطف (وعيد) على مقامي لولا ملاحظة داع بلاغي مفاده أن دلالة الصلة في الآية وإن كانت صريحة في الثناء على المخاطبين فإن المراد بها إلى جانب الثناء التعريض بالكافرين بأنهم لا يخافون وعيد الله ولولا ذلك لكانت جملة (خاف مقامي) تغني عن التي تليها، فإن المشركين لم يعبؤوا بوعيد الله وحسبوه عبثاً كما ورد في قوله تعالى: (ويَسْتَعْجِلُونَكَ بِالعَذابِ)[2] وهو ما يفسر لنا عدم الجمع بينهما في سورة البينة (ذَلِكَ لِمَن خَشِيَ رَبَّهُ)[3] لأنه جاء في سياق ذكر نعيم المؤمنين على وجه الخصوص[4]، أما هنا فالآية تضمنت وعيداً بإهلاك الكافرين وإسكان المؤمنين أرضهم، فكان للتكرير نافلة توكيد للمعنى وتمكين لذلك التعريض في الأذهان.

ومنه تكرير دلالة التوكل في آيتين متواليتين من السورة الكريمة، في قوله تعالى: (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ **وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**)[5] وقوله تعالى: (وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا **وَعَلَى اللَّهِ**

- المدح أو الذم أو الشتيمة.
- التنبيه على تعدد المقتضي لذكر العبارة المكررة.
- جعل العبارة المكررة فاصلة في الكلام ذات تأثير فني جمالي بديع مستطرف، كأنها أعلام ترفرف على مفاصيل السور، أو لوحة مكررة على مقاطع من الطريق.
- الترّديد: وهو تكرار اللفظ متعلقاً بغير ما تعلق به أولا نحو – السخي: قريب من الله، قريبٌ من الناس، قريب من الجنة. ينظر: الهاشمي، جواهر البلاغة: 203

[2] سورة إبراهيم: الآية 14

[3] سورة الحج: الآية 47

[4] سورة البينة: الآية 8

[5] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 208/13

[6] سورة إبراهيم: الآية 11

فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)[1] وقد ذكر المفسرون أن متعلق التوكل مختلف في الآتين[2]، فصدور الأمر به من الرسل في الآية الأولى كان لغرض إنشائه واستحداثه ، أما في الآية التالية فالأمر به سعي لتثبيته بعد الاستحداث وترسيخه في نفوس المتصفين به أصلاً ولذا جاء التعبير عن المؤمنين بـ (المتوكلين) لسبق اتصافهم به[3]، ويكون المعنى فليثبت المتوكلون على توكلهم الذي استحدثوه[4].

وقيل: معنى الأمر بالتوكل في الآية الأولى توجيه لمن يطلب المعجزات بالتوكل على الله في حصولها لا على الرسل، فإن شاء سبحانه أظهرها على يد الرسل وإلا لم تظهر. ومعنى الثاني ابداء التوكل على الله في دفع شر الكفار واتقاء سفاهتهم[5].

ومن شواهد التكرار في السورة كذلك ما يظهر لنا في مناجاة سيدنا إبراهيم لربه حين كرر النداء ثماني مرات في قوله تعالى حكاية عنه: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ:

- **رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا..**[6]
- **رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ ..**[7]
- **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي ..** [8]
- **رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ ..**[9]

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 12

[3] ينظر: النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 166/2

[4] ينظر: الألوسي، روح المعاني: 188/7

[5] ينظر: الزمخشري، الكشاف:544/2

[6] ينظر: صديق حسن خان، فتح البيان في مقاصد القرآن: 94/7

[7] سورة إبراهيم: الآية 35

[8] سورة إبراهيم: الآية 36

[9] سورة إبراهيم: الآية 37

[10] سورة إبراهيم: الآية 37

- رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ..[1]
- رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي[2]
- رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ[3].
- رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ[4]

إذ يبدو لي أن الغرض البلاغي الذي دعا الخليل إلى تكرير النداء هو ما كان يشعر به من اللذة في مناجاة خليله، والنشوة التي ملأت عليه قلبه أثناء ابتهاله، ولذا نراه لا يكاد ينتهي من دعاء حتى يردفه بآخر مصدراً بنداء الله تعالى بصفة (الرَّب) وهي الصفة التي تحمل معاني الفضل بالتربية والملك والإصلاح، إلى جانب ما في تكرار النداء من الرغبة الملحّة في الإجابة التي يظهرها الاستعطاف في ثوب من التذلل وخالص الالتجاء إلى الله جل وعلا.

وقد لمح سيد قطب مغزى آخر يعلل سبب لهجان لسان سيدنا إبراهيم بذكر الربوبية وتكريرها مفاده أن الألوهية قلما كانت موضع جدل أو إنكار في معظم الجاهليات ومنها العربية، وأن قضية الربوبية هي التي كانت دائماً موضع نقاش وجدال، قضية الدينونة للخالق في واقع الحياة الأرضية "فإما أن يدين الناس لله فيكون ربهم، وإما أن يدينوا لغير الله فيكون غيره ربهم "[5] ولهذا الغرض نجد القرآن الكريم يهيّج في العرب هذه القضية مركزاً على الربوبية والدينونة، ليلفت انتباههم إلى مخالفتهم الواضحة لمدلول دعاء خليل الرحمن.

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 38

[3] سورة إبراهيم: الآية 40

[4] سورة إبراهيم: الآية 40

[5] سورة إبراهيم: الآية 41

[1] سيد قطب، في ظلال القرآن: 2111/4

وفي ما ورد في معرض سوق الأدلة على عظمة الخالق وعظيم مَنِّهِ وفضله على عباده نجد مثالاً آخر للتكرار في السورة عند قوله عز وجل:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ

وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ

وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32)

وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ

وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)[1]

فقد آثر البيان الإلهي تكرير الفعل (سخر) أربع مرات في جمل مستقلة، دون أن يجعل متعلقاتها معطوفات عطف المفرد لغرض إبراز هذه الأدلة والنعم في جملة مستقلة بأركانها وعناصرها، تنويهاً لشأنها، وتنبيهاً على رفعة مكانها، وتنصيصاً على أن كلّ دليل منها مستحق للنظر والتأمل، وكل نعمة منها جليلة مستوجبة للشكر[2].

4- الاحتراس (التكميل)

وهو لغة التحفّظ، يقال: احترس بمعنى أي تحفظ منه[3]، ويعرف في اصطلاح أهل البيان بأن يأتي المتكلم بمعنى يوهم خلاف المقصود، أو يتوجه عليه فيه دخل، فيتنبه له ويأتي بما يخلصه من ذلك[4]، وقد سماه الخطيب القزويني تكميلاً وعرفه بقوله: "أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه"[5] وهو في التنزيل كثير مثاله ما

---

[2] سورة إبراهيم: الآيتان 32، 33

[3] ينظر: أبو حيان، البحر المحيط في التفسير: 439/6، والألوسي، روح المعاني: 212/7

[4] ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس، مادة (حرس)

[5] ينظر: ابن معصوم، أنوار الربيع في أنواع البديع: 503

[6] ينظر: شروح التلخص: 231/3

جاء في قوله تعالى: (اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ)[1] فقد جيء بعبارة (من غير سوء) احتراساً من وهم قد يدخل على السامع فيظن أن البياض سببه مرض كالبهق والبرص فيفسد المعنى المراد، وكما في قوله تعالى: (قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)[2] فلما كان التحطيم مظنة الظلم احترس البيان الإلهي في نسبة الظلم إلى سيدنا سليمان وجيشه بعبارة (وهم لا يشعرون)[3]

ونستشهد له من سورة إبراهيم بما جاء في قوله تعالى: (الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ **بِإِذْنِ رَبِّهِمْ** إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)[4] قال المفسرون[5]: إن قوله (**بإذن ربهم**) أي بتوفيقه وتيسيره، وأن الإخراج من الظلمات إلى النور رهن بإقبالهم على الحق كما صرح به في قوله: (وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أنابَ)[6] والذي يراه الباحث أن الإسناد إلى النبي صلى الله عليه وسلم في موضوع إخراج الناس من الظلم إلى النور قد ينشأ عنه توهم عند السامع أن الهداية بيد النبي وبمشيئته، وهذا التصور -لا شك- مفسد للمعنى المراد بالآية، لذا جاء قوله تعالى: (بإذن ربهم) تكميلاً للمعنى، واحتراساً لدفع هذا التصور المتشكل في الذهن، والتأكيد على أن

---

[2] سورة القصص: الآية 32

[3] سورة النمل: الآية 18

[4] ينظر: ابن حجة الحموي، خزانة الأدب: 486/2، وابن معصوم، أنوار الربيع في أنواع البديع: 503

[5] سورة إبراهيم: الآية 1

[6] ينظر: الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن: 588/13، والثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن: 305/5، والزمخشري، الكشاف: 537/2، ابن عطية، المحرر الوجيز: 321/3، البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 192/3، والنسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 161/2

[7] سورة الرعد: الآية 27

نقل الناس من حال إلى حال إنما يكون بإرادة الله تعالى ومشيئته، وما الرسول في ذلك إلا مبلغ فقط، أما الهداية فمن الله تعالى وحده.[1]

ومنه قوله تعالى: (يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ)[2] فتكالب أسباب الموت وإحاطتها بالكافر في النار المعبر عنها بقوله تعالى: (وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ) قد توحي للسامع بتوهم قرب انتهاء شقاء الكافر، واحتمال ظفره بالموت الذي يعد راحة من التعذيب في مفهوم أهل الدنيا، لكن الباري عز وجل احترس لهذا الفهم الخاطئ واستبعد هذا التصور عن ذهن المتلقي بقوله: (وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ) مؤكداً أن عذاب الكافرين في جهنم مستمر لا انقطاع له بالموت ولا بغيره.

5- التتميم

هو تفعيل من قولهم: تم الشيء يتِمُّ تَماماً وتَمَّمَهُ الله تَتْمِيماً وتَتِمَّةً، وتَتِمَّةُ كلّ شيء ما يكون تمام غايته[3]، وفي اصطلاح البلاغيين: أن يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة [4] تفيد نكتة[5] أو كما قال العلوي: "هو تقييد الكلام بفضلة"[6] ويأتي التتميم لتأدية أغراض بلاغية تُكمل المعنى المراد من الكلام وتكسبه حسناً وجمالاً

---

[2] ينظر: طنطاوي، التفسير الوسيط: 511/7

[3] سورة إبراهيم: الآية 17

[4] الأزهري، تهذيب اللغة، مادة (تمَّ)

[5] قال التفتازاني موضحاً معنى الفضلة في التعريف: مثل مفعول أو حال أو نحو ذلك مما ليس بجملة مستقلة ولا ركن كلام، وقال المغربي: هو ما ليس أحد المسندين من الفضلات المعلومة كالمفعول والحال والمجرور والتمييز والتوابع. ينظر: مختصر المعاني، ومواهب الفتاح شرح تلخيص الفتاح (ضمن شروح التلخيص): 235/3

[6] ينظر: القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة (ضمن شروح التلخيص): 235/3

[7] العلوين الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: 57/3

منها: المبالغة نحو قوله تعالى: (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ **عَلَىٰ حُبِّهِ** مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا)[1] فقوله (على حبه) تتميم جيء به للمبالغة في إفادة المعنى على اعتبار الضمير عائداً على الطعام، لأن تنازل الإنسان عما في يده من الطعام لغيره مع اشتهائه وتعلقه به سبب أقوى في نيل الأجر والثواب.

ومن أمثلته في السورة قوله تعالى حكاية عن مناجاة إبراهيم ربه شاكراً: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي **عَلَى الْكِبَرِ** إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ)[2] فقوله: (على الكبر) جاء فضلة من الكلام يستغني عنها أصل الكلام ويتم معناه دون أن يوهم خلاف المقصود، غير أن دواعي بلاغية أخرى قد بررت هذه الزيادة، بل استدعتها ليفيد الكلام معها معنى أبلغ وآكد فتكون دلالة الكلام أقوى، تأمل معي المعنى لو أسقطنا من الكلام هذه الفضلة، أتراه كان ينال حينها كل هذا الاهتمام من سيدنا إبراهيم، وهل كان سيحظى بالذكر ويخلَّد، أليس إنجاب البنين والبنات حدثاً مألوفاً عند الناس ونعمة من الله لمعظم عباده، ولكن الذي منح النعمة ميزة وخصوصية، وجعلها حدثاً يخلد وحديثاً يتلى هو المعنى الذي حملته تلك الفضلة من الكلام (على الكبر)، فتوقيت الإنجاب بالنسبة لإبراهيم عليه السلام كان آية، كونه قد جاوز المائة وبلغ من العمر عتياً، وهو السن التي يفقد معه الإنسان الرجاء في الإنجاب، وحين حصل لإبراهيم كانت المنة أعظم لما في الظفر بالحاجة من الحلاوة إذا كان بعد اليأس منها[3].

ومن شواهد التتميم كذلك ما جاء في قوله تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ **فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ** لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ)[4] فقوله:

---

[2] سورة الإنسان: الآية 8

[3] سورة إبراهيم: الآية 39

[4] ينظر: الزمخشري، الكشاف: 561/2

[1] سورة إبراهيم: الآية 18

(في يوم عاصف) جاء تتميماً لمعنى الكلام وتقوية له على سبيل المبالغة في وصف الريح الشديدة الهبوب وأثرها في تشتيت ذلك الرماد وتسفيهه، وجلي أن كلمة (الريح) وحدها كانت كافية في إفادة المعنى المراد، غير أن وصفها بالعصف وهو اشتداد الريح زاد المعنى قوة وتمكيناً إذ كلما اشتدت الريح هبوباً كان أثرها في تطيير الرماد أبلغ وكانت الصورة البلاغية المنشودة بهذا التشبيه أوضح.

ومنه أيضاً قوله تعالى: (وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ)[1] فإن قوله: (بإذن ربهم) فيه تتميم للمعنى وزيادة تحسين تبث في مشهد مصير المؤمنين رضاء الله تعالى ولطفه وعنايته، وسواء تعلقت هذه الزيادة بقوله: (وأُدخل) أو بقوله: (تحيتهم فيها) فإن في إقحامها غرضاً بلاغياً لطيفاً، إذ لمَّا كانت الإقامة لا تطيب إلا بإذن المالك قال تعالى: (بِإِذْنِ رَبِّهِمْ) أي الذي أذن لهم بتربيته وإحسانه في الخروج من الظلمات إلى النور[2]، وفيها إشارة إلى العناية والاهتمام بهؤلاء المؤمنين "وهو إذن أخص من أمر القضاء العام"[3].

6- الاعتراض:

وهو الدخول بين الشيئين بحيث يكون الداخل فاصلاً بينهما، ويسمى عارضاً أي: حائلاً ومانعاً بينهما. واصطلاحاً: أن يؤتى في أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين في المعنى بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب لنكتة بلاغية غير دفع الإيهام[4].

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 23

[3] ينظر: البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 409/10

[4] ابن عاشور، التحرير والتنوير: 222/13

[5] من الأغراض البلاغية للاعتراض:

- التنزيه والتعظيم
- الدعاء

وهو مما يكسب الكلام حسناً وبهاءً، ووجه ذلك أنه يغتنم الفرصة المواتية للإفادة والبيان فيأتي بما يجول في النفس ويخطر بالبال دون انتظار، ومن غير ترقب فيفاجئ المتلقي بما يزيد الكلام إيضاحاً، فيكون كالشيء السار الذي يظهر للإنسان من حيث لا يحتسب[1].

نقف من أمثلة هذا النوع من الإطناب في قوله تعالى: (وَقَالَ الشَّيْطَانُ **لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ** إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ)[2] وموضع الاعتراض هو جملة (**لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ**)[3] وتعني: حين تعَّين دخول قوم النار، ودخول قوم آخر الجنة[4]، وامتاز أصحاب الجنة عن أهل النار. وقد جاءت لبيان أمر مفصلي ومهم هو أن خطاب إبليس قد جاء متأخراً في وقت لا يفيد الندم ولا تنفع التوبة ولا تجدي الشفاعة. فالمحاكمة قد انتهت والحكم قد انبتَّ وفصل بين العباد، فهو بكلامه هذا لا يزيد أصحابه إلا قنوطاً ويأساً ولا يزيد جراحهم إلا عمقاً وتقيحاً.

ومما يمثل هذا النوع من الإطناب أيضاً مجي جملة النداء (ربنا) معترضة على لسان سيدنا إبراهيم مرتين في قوله تعالى حكاية عنه: (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ)[5]، وقوله تعالى: (رَبِّ اجْعَلْنِي

- التنبيه على أمر
- التبرك
- التقرير في نفس السامع
- التصريح بما هو المقصود
- انتهاز الفرصة المواتية والمبادرة لبيان أمر ذي أهمية

ينظر: القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 215/3، والهاشمي، جواهر البلاغة: 204

[2] ينظر: عبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 81/2

[3] سورة إبراهيم: الآية 22

[4] ينظر: عبد الرحيم صافي، الجدول في إعراب القرآن: 180/13

[5] ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: 333/3

[6] سورة إبراهيم: الآية 37

مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ)[1] وكذلك جملة النداء (ربِّ) في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)[2] فجملة الدعاء في المواضع الثلاثة لا محل لها من الإعراب جاءت لداعي بلاغي هو الاستعطاف والاسترحام[3] واستجداء الإجابة للدعاء.

7- التذييل:

وهو لغة: جعل الشيء ذيلاً لشيء آخر، وذيل فلان ثوبه تذييلا، إذا طوله[4]. واصطلاحاً: هو تعقيب الجملة التامة نظماً كانت أو نثراً بجملة تشتمل على معناها لتوكيد منطوقها أو مفهومها، ليظهر المعنى لمن لم يفهمه، ويتقرّر عند من فهمه[5].

والفرق بينه وبين التكميل أن الثاني يرد في كلام ناقص غير مكتمل يحتاج إلى إتمام وبيان، أما التذييل فلا يفيد سوى تحقيق الكلام الأول وتوكيده[6]. قال أبو هلال العسكري مبيناً مواطن استحسانه: "وينبغي أن يستعمل في المواطن الجامعة، والمواقف الحافلة؛ لأن تلك المواطن تجمع البطيء الفهم، والبعيد الذهن، والثاقب القريحة، والجيد الخاطر، فإذا تكررت الألفاظ على المعنى الواحد تأكد عند الذهن اللقن، وصح للكليل البليد"[7]

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 40

[3] سورة إبراهيم: الآية 35، 36

[4] ينظر: عبد الرحيم صافي، الجدول في إعراب القرآن الكريم: 197/13

[5] الأزهري، تهذيب اللغة، مادة (ذيل)

[6] ينظر: أسامة بن منقذ الشيرازي، البديع في نقد الشعر: 125، النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب: 140/7، ابن معصوم، أنوار الربيع في أنواع البديع: 176

[7] ينظر: ابن حجة الحموي، خزانة الأدب: 242/1

[8] أبو هلال العسكري، الصناعتين: الكتابة والشعر: 373

والتذييل قسمان:

الأول – تذييل جار مجرى المثل

ويكون مستقلاً بمعناه شائعاً في استعماله نمثل له من السورة الكريمة بقوله تعالى: (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ **وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ**)[1] فجملة: (ويفعل الله ما يشاء) تذييل جاء تأكيداً لمفهوم الكلام الذي سبقه من تثبيت الله تعالى للمؤمنين وخذلانه للظالمين، فلا راد لحكمه تعالى ولا اعتراض على أمره[2]، ورغم أن التذييل قد اشتمل بعمومه على معنى ذلك الكلام فإنه مستقل في إفادة معناه، غير مفتقر لما سبقه، جار مجرى المثل. فلله تعالى الأمر كله وإليه يرجع الأمر كله، يفعل بقدرته ما يشاء لا يسال عما يفعل، ومما تتعلق به مشيئته تثبيت المؤمنين على قول الحق وإضلال الكافرين حسبما تقتضيه مشيئته التابعة للحكم البالغة المقتضية لذلك، ولا يخفى ما لإظهار اسم الجلالة في الموضعين من أثر في تربية الفخامة والمهابة في النفوس[3].

ومن شواهد التذييل الجاري مجرى المثل في السورة قوله تعالى: (رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)[4] من مناجاة سيدنا إبراهيم ربه، وللمفسرين في قوله: (وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ..) اتجاهان[5]؛ الأول: أنه من كلام الله تعالى تصديقاً لكلام سيدنا إبراهيم نحو قوله: (وكذلك يفعلون) بعد قول الملكة بلقيس: (قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 27

[3] ينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 199/3، والمنتخب في تفسير القرآن الكريم: 368

[4] ينظر: الألوسي، روح المعاني: 205/7

[5] سورة إبراهيم: الآية 38

[6] ينظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 105/19

وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ)[1]. والثاني: أنه من تتمة كلام سيدنا إبراهيم على سبيل التذييل، وهو الأقرب لاكتناف ما قبله وما بعده بكلام سيدنا إبراهيم، ويعني: ما يخفى على الذي هو عالم الغيب من شيء في كل مكان، ولفظ "من" للاستغراق، كأنه قال: وما يخفى عليه شيء ما، وإنما ذكر السماوات والأرض لأنهما المشاهدتان للعباد[2]. وقد أكد إبراهيم عليه السلام بهذا التذييل منطوق ما سبق من كلامه: (رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ) وضمنه تعميماً بعد التخصيص، فبعد أن جعل علم الله تعالى متعلقاً بحاله في السر والعلن، علل ذلك بأن علمه جل وعلا محيط بكل ما هو داخل في العالم، وكل ما هو خارج عنه لا تخفى عليه خافية، وقد أُظهر لفظ الجلالة في جملة التذييل لتكون مستقلة بنفسها بمنزلة المثل والكلام الجامع[3].

ومن أمثلة هذا القسم كذلك ما ورد في قوله تعالى: (لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)[4] إذ جعل ابن عاشور قوله: (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)[5] متعلقاً بقوله: (سريع الحساب) وجعل السر في تقدمه "الاهتمام بوصف ما يحصل فيه، وتشويق السامع إلى معرفة ما فيه من الأهوال[6]، فلما ذكر أن الله تعالى محاسب كل نفس مؤمنة أو عاصية على ما قدمت وعملت من خير أو شر، وأن ذلك الحساب سيكون لهم جميعاً في يوم واحد ووقت واحد، ولما كان ذلك خارجاً عن مألوف تصور البشر وسنن الحياة الدنيا، جاء النظم الحكيم بجملة (إن الله سريع الحساب) تذييلاً لذلك الكلام مشتملاً على معناه على سبيل التقرير والتأكيد، أي: لا يشغله حساب نفس عن حساب أخرى، ولا يلهيه

---

[2] سورة النمل: الآية 34

[3] ينظر: صديق حسن، فتح البيان في مقاصد القرآن: 127/7

[4] ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: 243/13

[5] سورة إبراهيم: الآية 51

[6] سورة إبراهيم: الآية 48

[1] ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير:252/13

شأن عن إنجاز آخر. والجملة رغم تأكيدها لمفهوم ما سبقها من الكلام تفيد معناها بمفردها وتجري مجرى المثل.

الثاني - تذييل غير جار مجرى المثل

وهو ما لم يخرج مخرج المثل، لعدم استقلاله بإفادة المعنى المراد، وتوقفه في ذلك على ما قبله، فهو جملة مشتملة على معنى الكلام السابق عليها ومرتبطة به، بحيث تفقد معناها إذا انفصلت عنه. وله شواهد عدة في سورة إبراهيم منها ما جاء في قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[1] وموضع الشاهد في الآية جملة (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) جاءت تذييلاً للكلام على سبيل التأكيد والتقرير، فبعد أن ذكر الله تعالى الحكمة من إرسال الرسل متلبسين بلغات أقوامهم، وذكر ما يترتب عليه من إيمان بعض وكفر بعض، ذيل ذلك بصفتين من صفاته العلية تحققان ما سبق هما[2] العزيز: وتعني القوي الذي لا يغالب في ملكه، ويجري كل شيء فيه على وفق مشيئته، والحكيم: الذي يضع الأشياء في مواضعها، فهو لا يفعل شيئاً من الإضلال والهداية إلا لحكمة بالغة، يقول ابن عاشور تعليقاً على ذلك: " وجملة وهو العزيز الحكيم تذييل لأن العزيز قوي لا ينفلت شيء من قدرته ولا يخرج عما خلق له، والحكيم يضع الأشياء مواضعها، فموضع الإرسال والتبيين أتي على أكمل وجه من الإرشاد"[3]

ومنه أيضاً ما ورد في قوله تعالى: (مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ)[4] فبعد أن مثَّل الباري عز وجل لمصير أعمال الكافرين يوم القيامة مبيناً عدم انتفاعهم

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 4

[3] ينظر: الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن: 517/16، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 477/4

[4] الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 188/13

[5] سورة إبراهيم: الآية 18

بها وذهابها هدراً أدراج الرياح، عاد ليؤكد هذا المعنى ويختم المشهد به قائلاً: (ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ) أي: ما سبق ودل عليه التمثيل دلالة واضحة من ضلالهم وخسرانهم مع حسبانهم أنهم على شيء وانتظارهم ثواب تلك الأعمال (ذلك) هو الخسران الذي تعمق فيه صاحبه وبالغ حتى ابتعد عن لاحب النجاة[1] وفقد كلَّ أمل بإدراك طريق الحق، وهو كما ترى تذييل جامع لخلاصة حالهم[2] وزبدة المعنى الممثَّل له، جيء به لغرض التأكيد والتقرير، ولكنه مع ذلك لا يستقل بإفادة معناه لتعلقه بما سبق.

ومن شواهد هذا القسم قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (19) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ)[3] فبعد أن بين الله تعالى كمال قدرته وتمام استغنائه عن كل خلقه، وهدد بإفناء الموجودين وإيجاد المعدومين وإهلاك العصاة والإتيان بمن يطيعه، أكَّد هذا الكلام بجملة مشتملة على معناه[4] على سبيل التذييل فقال: (وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ) وتعني: أن إهلاك الناس والاستبدال بهم غيرهم أمر هيّن عند الله وغير متعذر ولا ممتنع عليه لأنه القادر الذي لا يصعب عليه شيء، ولا تختص قوته بمقدور دون مقدور. فهو تذييل مؤكد لمفهوم الكلام السابق عليه ومرتبط به بقوله: (وَمَا ذَٰلِكَ) وهو غير مستقل بإفادة معناه فلا يجري مجرى المثل.

---

[2] ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: 332/3

[3] ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: 213/13

[4] سورة إبراهيم: الآيتان 19، 20

[1] ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: 215/13

المبحث الثالث: البلاغة القرآنية في الفصل والوصل بين الجمل

لا شك أن العلم بمواقع الجمل ونوع الصلات والمناسبات التي تربط بينها فن عظيم الفائدة وجليل النفع يعتمد عليه في بناء الكلام من حيث عطف الجمل على بعضها أو تركه، والتخير بين أدوات العطف وإيقاعها سليمة في مواقعها، ولذا فهو علم دقيق المسلك عظيم الخطر لا يوفق للصواب فيه إلا متضلع في فنون اللغة عالم بأسرارها، حتى إن بعض أهل العلم جعله حداً للبلاغة، فقال حين سئل عن البلاغة: هي معرفة الفصل والوصل[1].

ولعبد القاهر الجرجاني كلامٌ دقيق في منزلة الفصل والوصل من البلاغة، وقصر تمام معرفته على الخواص إذ يقول: "اعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض، أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة، تستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة، ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخلَّص، وإلَّا قوم طبعوا على البلاغة، وأوتوا فنَّاً من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد"[2]

أولاً - تعريف الفصل والوصل

الفصل والوصل عموماً هو "العلم بمواضع العطف والاستئناف، والتهدّي إلى كيفيّة إيقاع حروف العطف في مواقعها"[3] أو تركها عند عدم الحاجة إليها. والعلم بهذه الكيفية متاح وسانح لا وعورة فيه ولا صعوبة إذا تعلق الأمر باستخدام حروف

---

[2] ينظر: أبو هلال العسكري، الصناعتين الكتابة والشعر: 438، وعبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: 222

[3] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: 222

[1] ينظر: النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب: 71/7

العطف في الربط بين الجمل استناداً إلى ما تؤديه من معنى إلا حرف الواو واستعماله في العطف بين الجمل فقد عدَّ مشكلاً وغامضاً كونه يفيد التشريك بين الجمل في الحكم أي العطف لا غير، دون أن يساعد على فهم سائر الصلات والمناسبات الأخرى التي تربط بين الجمل، بخلاف أخوته حروف العطف الأخرى فإن لكل واحد منها مع دلالته على العطف معنى آخر يؤديه، فالفاء مثلاً تدل على الترتيب مع التعقيب، و(ثم) تفيد الترتيب مع التراخي، و(أو) للتخيير أو الشك، و(بل) للإضراب، وهكذا..

ولذلك كان العطف بالواو موضع دراسة أهل البيان ومحط اهتمامهم، وكان المراد بالفصل والوصل عند إطلاقهم، فقد عرفوا الوصل بأنه: عطف جملة فأكثر على جملة أخرى بالواو خاصة لصلة بينهما في المبنى والمعنى، أو دفعاً للبس قد يحصل. والفصل بأنه ترك هذا العطف إما لأن الجملتين متحدتان مبنى ومعنى أو بمنزلة المتحدتين، وإما لأنه لا صلة بينهما في المبنى أو المعنى[1].

ومن التعريف نعلم أن للوصل بين الجمل بالواو مواضع وأسباب، وأن للفصل مثل ذلك أيضاً، وسيحاول البحث في الصفحات الآتية تسليط الضوء على دواعي كل من الفصل والوصل موضحاً ذلك بأمثلة وشواهد من حقل دراستنا سورة إبراهيم.

ثانياً - دواعي الفصل

يقدم أهل البلاغة ذكر الفصل على الوصل لأنه الأصل والوصل طارئ عليه، ويعللون ذلك بقولهم: إن الفصل - وهو ترك العطف - لا يفتقر إلى زيادة حرف كما

---

[2] ينظر: القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 97/3، العلوي، الطراز لأسرار البلاغة: 169/3، والنويري، نهاية الأرب في فنون الأدب: 70/7، وعيسى العاكوب، المفصل في علوم البلاغة: 297، والهاشمي، جواهر البلاغة: 179

هو الأمر في الوصل الذي يوجب زيادة حرف، وما يفتقر إلى زيادة فرع لما لا يفتقر لها. وقد أوجبوا ترك العطف بين الجمل في المواطن الآتية:

1- كمال الاتصال:

ونعني به اتحاد الجملة المعطوفة مع الجملة المعطوفة عليها اتحاداً تاماً يجعلهما بمثابة الجملة الواحدة التي لا تحتاج إلى عطف بين أجزائها، لأن الوصل بينهما بالواو يعني المغايرة بين المعطوفين[1]، وتكون الجملتان متصلتان كمال الاتصال حين تكون الثانية بدلاً للأولى أو بياناً أو تأكيداً[2]. وقد تضمنت السورة الكريمة شواهد كثيرة من هذا القبيل منها قوله تعالى: (وَوَيْلٌ **لِّلْكَافِرِينَ** مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (2) **الَّذِينَ** يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)[3] فقد فصلت جملة (وَوَيْلٌ **لِّلْكَافِرِينَ** ..) عن جملة (**الَّذِينَ** يَسْتَحِبُّونَ ..) لكون الثانية بياناً وتفصيلاً للأولى، فبعد أن توعد الباري عز وجل الكافرين بالعذاب الشديد عاد ليبين كلمة (الكافرين) ويفصل القول في صفاتهم التي تلبسوا منها، فمنعتهم عن قبول الحق، وتركتهم في أودية الشر فكانت سبب هلاكهم، فالجملتان بمنزلة الجملة الواحدة لكمال الاتصال بينهما.

ومن أمثلته كذلك قوله جل وعلا: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ) جاء مفصولاً عن قوله تعالى: (جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)[4] والداعي للفصل كمال الاتصال بين الجملتين إذ إن جملة (جاءتهم ..)

---

[2] ينظر: التفتازاني، مختصر المعاني (ضمن شروح التلخيص): 22/3

[3] ينظر: المغربي، مواهب الفتاح شرح تلخيص المفتاح (ضمن شروح التلخيص): 31/3، وحامد عوني، المنهاج الواضح للبلاغة: 118/2

[4] سورة إبراهيم: الآيتان 2، 3

[5] سورة إبراهيم: الآية 9

جاءت بياناً وتفسيراً لنبأ أقوام نوح وعاد وثمود ومن خلفهم المذكور على سبيل الإجمال في الجملة الأولى، لذا لو وصل بين الجملتين بالواو لكان مفسداً للمعنى لدلالة الواو على المغايرة في حين أن الجملتين متصلتان معنى.

ومنه الفصل بين جملتي الآية في قوله تعالى: (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)[1] إذ وقعت جملة (إنما يؤخرهم ..) موقع تعليل للجملة المتضمنة للنهي في قوله تعالى: (ولا تحسبن الله ..)[2] أي دم على ما أنت عليه من عدم حسبانك الله تعالى غافلاً عن أعمال الكافرين وأفعالهم، ولا تحزن بتأخر ما تستدعيه أفعالهم هذه من العذاب الشديد وما تستوجبه من الإهلاك؛ فإن تأخيره للتغليظ عليهم كي يتمادوا في طغيانهم حتى ذلك اليوم الذي ترتفع فيه أبصار أهل الموقف وتبقى مفتوحة عصية أجفانها على الحركة من هول ما ترى وفظاعة ما تعاين، فالجملتان تشكلان كلاً متصلاً.

ومن أمثلة كمال الاتصال بسبب وقوع الجملة الثانية مؤكدة للأولى وحاملة لمضمونها قوله تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ **لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ** ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ)[3] حيث فصل بين جملة التشبيه وقوله: (لا يقدرون مما ..) لاحتواء الثانية المعنى المراد من الأولى على سبيل التأكيد، فبعد أن عبر البيان الإلهي عن حرمان الكافر من ثواب أعماله بضرب المثل أولاً في الجملة الأولى، عاد ليؤكد المعنى المراد بصريح القول، فكانت الجملتان بمنزلة الجملة الواحدة.

ومما جاءت فيه الجملة الثانية مؤكدة لمضمون الأولى واقتضى الفصل بين الجملتين قوله تعالى: (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ **مَا لَهَا**

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 42

[3] ينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 55/5

[4] سورة إبراهيم: الآية 18

مِن قَرَارٍ)[1] (مَا لَهَا مِن قَرَارٍ) أي ما لها من استقرار ولا ثبات ولا جذور ضاربة في عمق الأرض. وقد تضمنت الآية الكريمة وصف كلمة الكفر بأنها كالشجرة الخبيثة التي لا يطيب ثمرها ولا يستحسن منظرها، فكان مصيرها للفأس الذي استأصلها واقتلعها من أصلها آخذاً جثتها بالكلية[2]، لقرب جذورها من السطح وعدم استعصائها على القلع، وهو حال كلمة الكفر الباطلة التي لا بقاء لها ولا استقرار وإن علت حيناً من الدهر، لأن حجتها داحضة وجندها منهزم. ثم جاء قوله تعالى: (مَا لَهَا مِن قَرَارٍ) تأكيداً لمعنى الاجتثاث، لأن الاجتثاث من انعدام القرار[3]، فشكلت الجملتان بذلك كمالاً في الاتصال أوجب الفصل ومنع الوصل.

2- شبه كمال الاتصال:

ويكون ذلك حينما تكون الجملة الثانية جواباً عن سؤال ينشأ في ذهن المخاطب عن الجملة الأولى، وعندها ينبغي الفصل بين الجملتين كما هو الحال في فصل جملة السؤال عن جملة الجواب، ويكون الجواب عندئذ استئنافاً[4]. كالسؤال الناشئ عن جملة (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي)[5] في قوله تعالى على لسان امرأة العزيز أو يوسف على خلاف بين أهل العلم، فكأن سائلاً يستفسر حين ترامى إلى سمعه مضمون هذا العبارة قائلاً: ولم لا تبرّئُ نفسك؟ فجاءت الجملة الثانية جواباً[6] (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي)[7].

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 26

[3] ينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل: 198/3

[4] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 225/13

[5] ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم: 252، الإيضاح في علوم البلاغة: 119/3

[6] سورة يوسف: الآية 53

[7] ينظر: الصعيدي، بغية الإيضاح: 295/2

[8] سورة يوسف: الآية 53

ومن شواهد شبه كمال الاتصال ما ورد في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35) **رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ** كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ)[1] فإن البيان الإلهي فصل جملة (**رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ** ..) عن الجملة السابقة عليها، والداعي لذلك أن قوله تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم: (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ) قد أثار في ذهن السامع تساؤلاً عن سبب القلق الذي اعترى سيدنا إبراهيم خشية الوقوع في شرك عبادة الأصنام، وجعله يلوذ برحمة الله ويطلب منه الوقاية والحفظ، وكأن سائلاً يسأل: ولم طلب إبراهيم من ربه أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام؟ فكان الجواب في الجملة التالية لها: (**رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ** كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ) أي لما تسببت به هذه الأصنام من إغراء وإغواء لكثير من الناس، هاموا بها وفتنوا، فتراموا في أحضانها وكانوا من الهالكين. فالجملة كما ترى تعليل لدعاء إبراهيم لربه، ولذا حسن الفصل بينها وبين سابقتها لشبه كمال الاتصال بينهما.

قال عبد القاهر الجرجاني: " واعلم أن الذي تراه في التنزيل من لفظ "قال" مفصولا غير معطوف، هذا هو التقدير فيه"[2] يعني بذلك أن ما كثر وروده في القرآن الكريم من فصل جملة "قال" عن سابقاتها إنما الداعي إليه هو تقديرها جواباً للسؤال الناشئ عن الجملة الأولى. ثم ضرب الجرجاني لذلك مثلاً الفصل في قوله تعالى: (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (24) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ **فَقَالُوا** سَلَامًا ۖ **قَالَ** سَلَامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ (25) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (26) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (27) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ)[3] جاء على ما يقع في أنفس المخاطبين من السؤال، فالعادة بين الناس إذا قيل لهم: دخل قوم على فلان فقالوا له: كذا، أن يقع في أنفسهم سؤال ينتظرون جوابه هو: فماذا كان ردّه؟ فكذلك سلك القرآن الكريم

---

[2] سورة إبراهيم: الآيتان 35، 36

[3] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: 230

[4] سورة الذاريات: الآيات من 24 إلى 28

طريقة العرب وسار على عرفهم في الكلام فجاء بالقول متضمناً الجواب ومفصولاً عن الجملة المنشئة للتساؤل، (قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ)[1].

ومن أمثلة هذا النمط في السورة الكريمة جواب الرسل للكافرين المعاندين من أقوامهم حين بالغوا في التكبر على دعوة الحق قائلين: (إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)[2] فأثار قولهم هذا تساؤلاً وتشوفاً في نفس السامع إلى معرفة ما سيجيب به الرسل عن هذا الكلام[3]، وكأن المخاطب يسأل: فماذا كان رد الرسل على قولهم؟ فجاءت الجملة التالية حاملة جواب الرسل على سبيل الاستئناف (قَالَتْ رُسُلُهُمْ) متعجبين منكرين عليهم مقالتهم الرعناء (أَفِي اللَّهِ شَكٌّ) وهو "استفهام للتقريع والتوبيخ والإنكار"[4] يفيد التعنيف لأصحاب تلك المقولة، أي كيف تشكون في وحدانية الله وهي من الوضوح والجلاء ما لا يخفى على أحد، ثم ذكروا شواهد ذلك بقولهم: (فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)[5]. وهنا ألقى جواب الرسل بتساؤل آخر في نفس السامع دفعه إلى انتظار رد الكافرين، فجاءه ردّهم في جملة القول الاستئنافية: (قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) وهذه الجملة هي الأخرى نشأ عنها سؤال مقدر أجابت عنه الآية التالية عليها (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)[6]. وهكذا يستمر تسلسل الجملة الاستئنافية مفصولة عن بعضها تحمل كل واحدة منها جواباً عن سؤال مقدر

---

[2] ينظر: المرجع السابق، الموضع نفسه.

[3] سورة إبراهيم: الآية 9

[4] ينظر: صديق حسن خان، فتح البيان في مقاصد القرآن: 92/7

[5] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 198/13، صديق حسن خان، فتح البيان في مقاصد القرآن: 92/7

[6] سورة إبراهيم: الآية 10

[7] سورة إبراهيم: الآية 11

ينشأ عن التي تسبقها، وهذا الكلام ينطبق على كل الحوارات المذكورة في القرآن الكريم، حيث نجده يفصل بين جمل المتحاورين ولا يعطفها، وما ذاك إلا للغرض البلاغي الذي أوضحناه هنا.

ومن شواهده في السورة أيضاً الحوار الذي جرى بين أهل النار يوم الحساب: التابعين منهم والمتبوعين، حين بدأ الضعفاء المغرر بهم يستغيثون بأسيادهم الذين أضلوهم قائلين: (إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ)[1]، فشكلت استغاثتهم لهفة عند المتلقي إلى معرفة جواب المستغاث به ودفعته للتساؤل: وماذا أجاب المستنجَد به؟ فجيء بجملة استئنافية تحمل الجواب (قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ).

3- كمال الانقطاع:

والمراد به أن تكون الجملتان متباينتين تمام المباينة، وهو ما يوجب الفصل بينهما لعدم الجهة الجامعة بين الجملتين المستدعية للوصل، وتكون الجملتان منقطعتين تماماً في حالتين هما[2]:

- **الحالة الأولى**: أن تختلف الجملتان خبراً وإنشاء في اللفظ والمعنى، أو في المعنى وحده، ويمثل أهل البلاغة[3] لذلك بقول الشاعر:

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 21

[3] ينظر: السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: 496/1، وعبد الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة: 284/2، وكذا: فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني): 418

[4] ينظر: الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 105/3، عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح: 284/2

وقالَ رائدُهمْ: أَرْسُوا نُزَاوِلُها فَحَتْفُ كلِّ امرئٍ يَجْرِي بِمِقدارِ[1]

فصل الشاعر بين جملتي "أرسوا" و "نزاولها" لما بينهما من كمال الانقطاع وتمام الاختلاف فالأولى جملة إنشائية والثانية خبرية، وهو سبب موجب للفصل مانع من العطف.

ومن أمثلة هذا الموجب للفصل في السورة ما ورد في قوله تعالى حكاية عن قول إبليس لأتباعه: (فَلَا تَلُومُونِي **وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ** وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ)[2] نلاحظ أن البيان الإلهي بعد أن عطف جملة الأمر (**لومُوا أَنْفُسَكُمْ**) على جملة النهي (فَلَا تَلُومُونِي) لاتفاقهما إنشاء، وكذلك جملة (مَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ) على (**مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ**) لاتفاقهما خبراً، عاد ليفصل بين جملتي الإنشاء (فَلَا تَلُومُونِي **وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ**) من جهة، وجملتي الخبر (**مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ** وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ) من جهة أخرى لما بينهما من كمال الانقطاع الذي أوجبه اختلافهما خبراً وإنشاء.

وللسبب نفسه كان للفصل في قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)[3] حين أمر تعالى نبيه موسى عليه السلام بتنبيه قومه وتذكيرهم بنعماء الله عليه وآلائه، أو تخويفهم من بلائه وعقابه[4]، فجاء بالجملة الإنشائية المتضمنة فعل الأمر (وَذَكِّرْهُم)، ثم ذيل الآية بجملة خبرية مفصولة عما قبلها فقال: (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) أي في التذكير بأيام الله أو في الأيام نفسها لشواهد عظيمة وكثيرة

---

[2] رائدهم: الرائد هو الذي يتقدم القوم ليطلب الماء والكلأ، والمراد به هنا زعيم القوم، وقوله: أرسوا: أي أقيموا ولا تتزحزحوا، نزاولها: نزاول الحرب. البيت للأخطل، ذكره سيبويه في "الكتاب": 96/3، وابن يعيش في شرح المفصل: 278/4، والبغدادي في خزانة الأدب: 87/9

[3] سورة إبراهيم: الآية 22

[4] سورة إبراهيم: الآية 5

[5] ينظر: أبو حيان، البحر المحيط في التفسير: 410/6

دالة على وحدانية الله وكمال قدرته وحكمته. ينتفع بها من تحلى بالصبر واتصف بالشكور.

ومنه ما ورد في قوله تعالى: (فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)[1] حيث فصل الجملة الإنشائية المتضمنة للنهي (فَلَا تَحْسَبَنَّ ..) عن الجملة الخبرية التالية لها (إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ) والموجب للفصل اختلاف الجملتين خبراً وإنشاء.

- **الحالة الثانية لكمال الانقطاع** وتكون حين تتفق الجملتان خبراً وإنشاء، ولكن دون أن يكون بينهما جهة جامعة أو رابط مشترك، وعندها أيضاً يتوجب الفصل ويمتنع الوصل. وإن انعدام الرابط أو المناسبة المقتضية للعطف لا يعني انعدام المناسبة المعنوية أو التسلسل الذهني الذي قرن بينهما[2].

ونجد شواهد هذه الصورة في قوله تعالى: (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ **مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ** (26) **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ** آَمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ)[3] فصل البيان الإلهي بين جملتي (**مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ**) و (**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ**..) رغم اتفاقهما في الخبرية، وذلك لانعدام موجب الوصل بينهما، ولاختلاف الغرض الذي سيقت له كل منهما، إذ الأولى بيان لكلمة الكفر وتمثيل لها بالشجرة الخبيثة في عدم استقرارها وسطحية جذورها وسهولة اقتلاعها واجتثاثها. وأما الجملة الثانية فبيان لتمكين الله تعالى المؤمنين على

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 47

[3] ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم: 252، ودراز، صباح عبيد، أسرار الفصل والوصل في البلاغة القرآنية، مطبعة الأمانة، الطبعة الأولى، 1406هـ، 1986م، 99

[4] سورة إبراهيم: الآيتان 26، 27

الإيمان وتقويتهم في وجه الفتن، "فلا يزالون عنه إذا افتتنوا في دينهم كزكريا ويحيى وجرجيس والذين فتنهم أصحاب الأخدود" [1].

ورغم عدم الرابط الموجب للعطف بين الجملتين فإننا لا نعدم المناسبة الموجبة لاقترانهما ببعض، فبعد ذكر مثالي الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة حصل التعجب ممن يترك ممثول الأول ويفعل ممثول الثاني، فوقع التنبيه على أن ذلك إنما يتم بمشيئة الله تعالى وفعله، فهو الذي يثبت من سلك طريق الحق والتزمه من الذين آمنوا؛ أي أوجدوا هذه الحقيقة ولو على أقل درجاتها، ويضل في مقابل ذلك من حاد عن سبيل الحق من الظالمين العريقين في الظلم[2].

ومن شواهد هذا النوع كذلك الفصل بين الجملة في قوله تعالى حكاية عن قول إبليس: (مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ)[3] والجملة التالية لها (إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ)، فالجملتان خبريتان وردتا في سياق تبرؤ إبليس من أتباعه، ولكن لما فقد الجامع الداعي للعطف بينهما من مثل المناسبة الخاصة أو الغرض المشترك عُدَّتا منقطعتين كمال الانقطاع، ففي الجملة الأولى ينفي إبليس لأشياعه أي احتمال لتخليصه لهم قاطعاً بذلك كل مطمع لهم في أي إغاثة من جهته. أما موضوع الجملة الثانية فمحاولة من إبليس " للتنصل من تبعات عبادتهم إياه يقصد منه دفع زيادة العذاب عنه بإظهار الخضوع لله تعالى "[4]. ونعود مرة أخرى لنقول: رغم اختلاف غرض الجملتين فإن بينهما مناسبة عامة تستدعي تجاورهما وهي أنهما تأتيان في سياق واحد وهو نكوث الشيطان بوعده بنصرة أتباعه وتبرؤه وتملصه منهم.

---

[2] ينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 44/5

[3] ينظر: البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 414/10

[4] سورة إبراهيم: الآية 22

[5] ينظر: الطاهر بين عاشور، التحرير والتنوير: 221/13

ومنه الفصل بين قوله تعالى: (لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)[1] والآية التالية: (هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُواْ الْأَلْبَابِ)[2] فجملة (إن الله سريع الحساب) وكذا جملة (هذا بلاغ للناس ..) متفقتان في الخبرية، ولكنهما منفصلتان رغم تجاورهما، لاختلاف موضوعهما وعدم المناسبة الخاصة حيث إن الحديث في الأولى تتمة للكلام عن مجريات يوم الحساب وحال الكافرين حينئذ، وقدرة الله تعالى وسرعته في حساب الخلق، في حين أن الجملة الثانية انطوت على تذكير وتنبيه على أن القرآن الكريم أو ما حملته السورة من قصص وأحداث هو موعظة كافية لأولي النهى. ومع ذلك نلمح تناسباً عاماً بينها وبين ما سبقها من آيات فلمّا اشتملت السورة الكريمة ومنها الآيات الأخيرة على ما قرع سمع المخاطب من المواعظ والأمثال ترجمها الباري بما يصلح عنواناً لجميع القرآن فقال: هذا – أي ما سبق – بلاغ "كافٍ غاية الكفاية في الإيصال (للناس) ليصلوا به إلى الله "[3].

4- شبه كمال الانقطاع:

ويسميه السكاكي القطع للاحتياط[4]، وهو أن تأتي جملة عقب جملتين يصح عطفها على الأولى دون الثانية، فيترك العطف بالمرة دفعاً لفساد المعنى بتوهم عطفها على الثانية، ويمثل العلماء لموجب الفصل هذا بقول الشاعر[5]:

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 51

[3] سورة إبراهيم: الآية 52

[4] البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 441/4، وينظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن: 57/17، النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 181/2،

[5] ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم: 261

[6] ينظر: الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 117/3، والسبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: 484/1، السيوطي، منظومة "عقود الجمان في علم المعاني والبيان" البيت (456): ص65، أحمد مطلوب الصيادي، أساليب بلاغية: 193

وتَظنُّ سَلْمى أنَّنِي أَبْغِي بها بَدَلًا أُرَاها في الضَّلالِ تَهِيمُ[1]

فإن جملة (أراها) قد سبقت بجملتي (تظن سلمى) و(أنني أبغي بها) فترك الشاعر عطف (أراها) كي لا يحسب السامع أن العطف على مظنونات سلمى في حق الشاعر (أنني أبغي بها) فيفسد المعنى، رغم سلامة العطف إن أريد به العطف على الجملة الأولى (وتظن سلمى)[2]. وهذا النوع من موجبات الفصل لم أعثر له على شواهد في السورة الكريمة.

ثالثاً - دواعي الوصل

لما كان الفصل بين الجمل سببه كمال الاتصال أو كمال الانقطاع أو شبههما بين الجمل، فهذا يعني أن التوسط بين الكمالين يستوجب الوصل، وذلك أن العطف بالواو يقتضي أمرين: التغاير والتشريك[3]، فإذا كان بين الجملتين تغاير أي اختلاف بحيث لا تعد الثانية بدلاً عن الأولى أو تأكيداً أو بياناً، واشتركتا في أداء المعنى بأن جمعت بينهما مناسبة لفظية ومعنوية أو معنوية فقط وجب عندها الوصل بينهما. وينطبق ما ذكرنا على الصورتين الآتيتين:

الصورة الأولى

حين لا يكون للجملة المعطوف عليها محل من الإعراب كأن[4]:

---

[2] البيت لا يعرف صاحبه، وقد استشهد به السكاكي في المفتاح: 261، والقزويني في الإيضاح: 117/3، وهو في معاهد التنصيص على شواهد التلخيص: 279/1

[3] ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم: 261

[4] ينظر: ابن مالك، شرح تسهيل الفوائد: 348/3، والمرادي، الجنى الداني في حروف المعاني:158، وفضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني): 424

[5] ينظر: الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 127/3، وعبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 591/1

- **تتحد الجملتان في الخبرية والإنشائية** لفظاً ومعنى، أو معنى فقط، وليس هناك سببٌ يقتضي الفصل بينهما، وكانت بينهما مناسبة تامة في المعنى، الاتحاد في الخبرية نحو (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (13) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ)[1]، وفي الإنشائية نحو (فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)[2].

ونذكر من شواهد هذا الداعي في السورة الكريمة قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[3] حيث عطف البيان الإلهي بين جملة (فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ) وجملة (يَهْدِي مَن يَشَاءُ) لكون الأولى المعطوف عليها استئنافية لا محل لها من الإعراب، وقد اتفقت مع الجملة الثانية في الخبرية لفظاً ومعنى، كما اتحدتا في المسند إليه وهو الله تعالى وكذا في زمن الفعل إذ إن الفعل في كلا الجملتين فعل مضارع، مع عدم وجود المانع من العطف لأجل المغايرة الحاصلة بين فعلي الجملتين (يهدي، يضل) المانعة أن يكون أحدهما توكيداً للآخر أو بدلاً عنه أو بياناً له. وبذلك توسطت الجملتان بين كمال الاتصال وكمال الانقطاع. مع ملاحظة الجامع القوي في المعنى الذي يشدهما إلى بعض ويوجب العطف بينهما وهو التضاد بين (يهدي) و(يضل)، "فالضد أقرب خطوراً بالبال عن ذكر الضد من النظير إلى النظير"[4].

ونظيره ما جاء في قوله تعالى: (**يُثَبِّتُ اللَّهُ** الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ **وَيُضِلُّ اللَّهُ** الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ)[5] حيث نجد عطف جملة (**يُضِلُّ اللَّهُ** الظَّالِمِينَ) على الجملة الاستئنافية (**يُثَبِّتُ اللَّهُ** الَّذِينَ آمَنُوا)، والموجب لهذا الوصل

---

[2] سورة الانفطار: الآية 14

[3] سورة الشورى: الآية 15

[4] سورة إبراهيم: الآية 4

[5] ينظر: عبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 591/1

[1] سورة إبراهيم: الآية 27

هو ما سبق وذكرنا من اتحاد الجملتين في الخبرية واشتراكهما في المسند إليه واتفاقهما في زمن الفعل مع وجود مناسبة التضاد بين فعلي الجملتين (يثبت)، (يضل) وانعدام المانع من الوصل، وهذه الشروط بتكاملها جعلت الجملتين في حالة التوسط بين كمالي الاتصال والانقطاع واستوجبت الوصل بينهما بالواو.

ومن أمثلة الوصل بين الجمل لموجب التوسط بين الكمالين كذلك ما نجد في الآيتين الآتيتين من تعاطف الجمل وتراصفها في قوله تعالى: (**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ** السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ **وَأَنْزَلَ** مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ **وَسَخَّرَ** لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ **وَسَخَّرَ** لَكُمُ الْأَنْهَارَ)[1] إذ لا يخفى وجه المناسبة وجامع المعنى بين هذه الجمل المتعاطفة، فالجمل الخبرية التي بدأت بالأفعال (خلق ، أنزل، سخر) جاءت صلة لخبر المبتدأ (الله) لغرض التذكير بآلاء الله تعالى وعظيم مَنِّهِ وجزيل فضله على عباده، ورغم تباينها وتغايرها فيما تؤديه من معنى إذ الخلق غير الإنزال وهو غير التسخير فإن مناسبة تربط بينها وتجمعها في خانة النعم الدالة على قدرة الخالق. إضافة إلى اتفاقها في المسند إليه وكذا الفعلية وزمن الفعل.

ويقال مثل ما سبق في الوصل بين جمل قوله تعالى: (الَّذِينَ **يَسْتَحِبُّونَ** الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآَخِرَةِ **وَيَصُدُّونَ** عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ **وَيَبْغُونَهَا** عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)[2] فهي جمل خبرية وقعت صلة لموصول وصف الكافرين المستحقين للعذاب الأليم، فجاء الموصول بثلاث جمل صلة يجمعها أنها بيان للأفعال التي جلبت للكافرين الويل والثبور وهي (**يَسْتَحِبُّونَ** ..)، و(**يَصُدُّونَ** ..)، و(**يَبْغُونَهَا** ..) فهؤلاء الكفار قد فضلوا الدنيا وآثروها على الآخرة، ومنعوا الناس من اعتناق الدين الحق، بل وأرادوا لسبيل الله أن تنحرف وتوافق أهواءهم. وقد جاءت الجمل فعلية بأفعال مضارعة مسندة إلى

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 32

[1] سورة إبراهيم: الآية 3

الفئة نفسها من الكفار مما جعلها على نسق واحد وأوجب لها العطف بالواو لوجود المناسبة في المعنى إضافة إلى اتحادها في الخبرية.

- **أن تختلف الجملتان خبراً وإنشاء** غير أن الفصل بينهما يوهم خلاف المعنى المراد، مما يستوجب عطفاً بالواو يدفع التوهم الحاصل. مثاله ما روي أن رجلاً مرّ بأبي بكر ومعه ثوب، فقال: أتبيع الثوب؟ فقال: لا عافاك الله. فقال أبو بكر رضي الله عنه: لقد علّمتم لو كنتم تعلمون. قل: لا، وعافاك الله[1]. وهذا النوع لا تتوفر له شواهد في القرآن الكريم والحسن فيه محدود[2].

الصورة الثانية

حين يكون للجملة المعطوف عليها محل من الإعراب وقصد تشريك الجملة الثانية لها في الإعراب حيث لا مانع كأن تكون الأولى في محل خبر لمبتدأ نحو: محمد يقول ويفعل، أو في محل حال أو صفة أو غير ذلك.

وفيما يلي أمثلة تطبيقية من السورة على هذه الصورة:

في قوله تعالى: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۚ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)[3] جملة (إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ) في محل نصب مقول الكفار الذين جعلوا أيديهم في أفواههم ليعضوا أناملهم غيضاً من الرسل على تسفيههم لأحلامهم، وتكذيباً بالبينات والبراهين. وقد عطف بينها وبين الجملة التالية لها (وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ) بحرف الواو، ووصل بينهما لقصد إشراك الثانية للأولى في المحل الإعرابي وهو النصب

---

[2] ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين: 219/1

[3] ينظر: صباح عبيد، أسرار الفصل والوصل في البلاغة القرآنية: 123

[1] سورة إبراهيم: الآية 9

مقولاً للقول، لكون كلا الجملتين من مقول الكافرين. هذا مع انعدام أي مانع من الوصل بين الجملتين كالبدلية أو التأكيد أو البيان.

ومما جاء فيه الوصل كذلك لداعي إشراك الجمل المعطوفة في المحل الإعرابي للجملة المعطوف عليها قوله تعالى: (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ **إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ** مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ **اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى** مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ **وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ** بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ **وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ** الْمُؤْمِنُونَ)[1] حيث تضمنت الآية جواب الرسل للمعاندين من أقوامهم رداً على اعتراضهم (إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ)[2] ولما كانت الجمل الأربعة (**إِنْ نَحْنُ إِلَّا** ..) (لَكِنَّ **اللَّهَ يَمُنُّ** ..) (**مَا كَانَ لَنَا** ..) (**عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ** ..) من مقول الرسل ولم يكن هناك ما يمنع الوصل بينها، كان لابدَّ من وصلها لتكون تابعة لجملة مقول القول ومشتركة معها في المحل الإعرابي وإلا لأدى فصلها إلى فساد المعنى.

ومن شواهد هذه الصورة أيضاً ما ورد في قوله تعالى: (وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (15) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (16) **يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ**)[3] حيث يصور لنا البيان الإلهي مشهداً عظيماً ومخيفاً من مشاهد يوم الحساب وطرفاً من عذاب أهل النار. ونرى في الآية تواصل الجمل المكونة للمشهد بتعاقبها معطوفة على جملة (يتجرعه) الواقعة صفة للماء الصديد[4] الذي يسقى منه الجبار العنيد، وذلك لغرض إشراكها لجملة الصفة في الحكم، والجمل هي (**وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ**)، (**يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ**)، (**مِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ**) ولا يخفى على أحد الوجه القوي للمناسبة بينها

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 11

[3] سورة إبراهيم: الآية 10

[4] سورة إبراهيم: الآيات 15، 16، 17

[5] ينظر: صافي، الجدول في إعراب القرآن الكريم: 171/13

فهي بمجموعها تصور حال الكافر وعذابه عندما تحيط به أسباب الموت كلها دون أن يحظى براحة الموت أو انتهاء محنة العذاب، فكان الوصل رباطاً مطلوباً يشدها إلى بعض لتؤدي المعنى المراد بتعاطفها وتعاقبها.

ومنه كذلك العطف على جملة خبر كان في قوله تعالى ردّاً على استجداء أهل النار تأخير العذاب: (أَوَلَمْ تَكُونُوا **أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ** مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (44) **وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ** الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ)[1] فجملة (أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ..) وقعت في محل نصب خبر (كان) ولما أراد البيان الإلهي إشراك جملة (سكنتم في مساكن ..) مع جملة (أقسمتم) في محل الإعراب جاء بها معطوفة، فوصل بين الجملتين لما بينهما من جامع في المعنى. ورغم تغاير فعليهما (أقسم) و(سكن) فإن المسند إليه فيهما واحد وهو من استحق العذاب وطلب الإمهال، وقد اشتركت الجملتان في إفادة معنى التوبيخ والتقريع في قالب الاستفهام التقريري، فالمستحقون للعذاب قد أخلدوا إلى ملذات الحياة الفانية متناسين زوالها وانتهاءها، وكأنهم أقسموا بلسان حالهم على عدم تحول حالهم، ولم تكن قصص هلاك الأمم الماضية لتوقظ فيهم الشعور بالخوف والوجل ولا الاتعاظ رغم استيطانهم مساكنهم ومرورهم بمنازلهم ووقوفهم على أطلالهم.

---

[1] سورة إبراهيم: الآيتان 44، 45

الفصل الخامس: البلاغة القرآنية في نسج الصورة البيانية

استقر علماء البلاغة على تقسيم البلاغة على ثلاثة فنون: المعاني، والبيان، والبديع. فالمعاني هو ما تكلمنا عنه في الفصول السابقة من دراستنا، ويعني مطابقة الكلام لمقتضى حال المخاطب وملائمته للغرض الذي سيق له، فالبليغ يؤلف بين مفردات جملته بحيث يحقق التطابق بين المعنى الذي يجول في نفسه والكلام الذي يتفوه به، وبما يتفق وأوضاع الذين يوجه كلامه لهم، فيؤكد إن بدت على السامع أمارات الإنكار، ويتركه إن لم يجد فيه الداعي لذلك، وربما ينزّل الموافق منزلة المنكر إن لاحظ فيه غفلة أو إهمالاً مرجحاً الخروج عن مقتضى الظاهر لموافقة الحال، بل تراه يقدم الفاعل أو يقدم المفعول ويغير في ترتيب عناصر الجملة استجابة لمقام الكلام، وقد يرى من الحكمة أن يطيل كلامه بالشرح والبيان أو يوجز ويقصر، كما قد يجد من المناسب استخدام أسلوب القصر ويفاضل فيه بين طرقه وأدواته، أو يجد نفسه ملزماً للفصل بين جمل الكلام أو الوصل وكل ذلك استجابة لمقام الكلام وحال المخاطب. إذ لكل مقام مقال يناسبه وتحقيق هذا الغرض هو لب البلاغة وثمرتها.

والبليغ يستعين في إنجاز ما سبق في علم المعاني بالأوضاع اللغوية[1] للألفاظ والتراكيب ولكن كثيراً ما تضيق كلمات اللغة ودلالاتها عن استيعاب المعاني التي يريد المتكلم التعبير عنها، إذ إن الكلمات والتراكيب اللغوية محدودة ومتناهية على خلاف الأفكار والتصورات الغير متناهية، وهنا يجد البليغ نفسه مضطراً للبحث عن قوالب تتسع لخياله وتستوعبُ أفكاره وانفعالاته ووجدانياته، فيلجأ إلى سلوك طرق أخرى محتالاً على الأوضاع اللغوية ودلالاتها المباشرة للتعبير عما يريد بيانه من معان ذهنية ومشاعر نفسية من خلال إحدى الطرق الآتية[2]:

---

[2] نعني بالأوضاع اللغوية العلاقات التي تقوم بين الألفاظ والمعاني بحيث يرتبط كل لفظ بمعنى خاص ارتباطاً يجعلنا كلما سمعنا اللفظ تبادر إلى أذهاننا تصور هذا المعنى.

[1] ينظر: عبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 124/2

- طريق التشبيه والتمثيل، ودلالة النظير على النظير.
- طريق استخدام لفظ مكان لفظ آخر صالح لأن يدل على معناه لعلاقة بينهما، وهذا ما يسمى بالمجاز.
- استخدام اللوازم الفكرية، بذكر الألفاظ مشيراً بها إلى لوازمها الذهنية، كطول الثوب الذي يستدعي باللزوم الذهني طول لابسه، وكرؤية النجوم رؤية واضحة التي تستدعي باللزوم الذهني كون هذه الرؤية حاصلة في الليل، وهذا ما يسمى بالكناية

وهذه الطرق الثلاثة هي ما يعرف عند أهل العلم بـ (البيان) وهو يبرز مهارات المتكلمين في الإبانة عما يعتلج في صدورهم، ويدور في أذهانهم من المشاعر والأفكار في صور جمالية تلقي بظلالها الوارفة على نفس المخاطب بما تحققه له من متعة الفهم ورياضة الذهن.

معنى البيان

يدور المعنى اللغوي لكلمة البيان في فلك الوضوح والظهور وكشف الغامض المستور، فبيان الشي وضوحه وظهوره للعيان[1]، قال ابن منظور: "البيان إظهار المقصود بأبلغ لفظ، وهو من الفهم وذكاء القلب مع اللسان، وأصله الكشف والظهور"[2] وقد تكرر ورود اللفظ ومشتقاته في مواطن كثيرة من القرآن الكريم منها ثلاثة في سورة إبراهيم هي: (وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ)[3] وقوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ)[4] وقوله: (فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ)[5].

---

[2] ابن حماد الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، مادة (بين)

[3] لسان العرب، مادة (بين)

[4] سورة إبراهيم: الآية 45

[5] سورة إبراهيم: الآية 4

[6] سورة إبراهيم: الآية 10

ولم يبتعد معناه الاصطلاحي عند البلاغيين عن مضمون تعريفه اللغوي إذ عرفوه بأنه: "علم يعرف به إيراد المعنى الواحد في طرق وتراكيب مختلفة في وضوح الدلالة عليه"[1] وزاد السكاكي: "ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه"[2] ومعنى هذا الكلام أن التراكيب ليست على درجة واحدة في وضوح دلالتها على المعنى الواحد المراد التعبير عنه، وإنما تتفاوت فيما بينها وضوحاً وغموضاً أو قرباً وبعداً. فإذا نظرنا في التراكيب الآتية:

زيد كالأسد في الشجاعة

زيد كالأسد

زيد أسد

وجدناها متفاوتة في وضوح دلالتها على إثبات صفة الشجاعة لزيد رغم أنها كلها لا تخرج عن أسلوب التشبيه، ومع ذلك فأوضحها للسامع الأول لاشتماله على أداة التشبيه ووجه الشبه، ويليه الثاني ثم الثالث.

ويروى أن جريراً والفرزدق والأخطل اجتمعوا عند عبد الملك فأحضر بين يديه كيساً فيه خمس مائة دينار وقال لهم: ليقل كل منكم بيتاً في مدح نفسه فأيكم غلب فله الكيس. فبادر الفرزدق فقال:

أنا القطران والشعراء جربى وفي القطران للجربى شفاء[3]

فقال الأخطل:

---

[2] التفتازاني، مختصر المعاني (ضمن شروح التلخيص): 258/3، وينظر كذا: العلوي، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: 10/1، والسبكي، عروس الأفراح شرح تلخيص المفتاح: 5/2

[3] السكاكي، مفتاح العلوم: 162/1

[4] البيت للقطران العشمي كما ورد عند ابن منظور في لسان العرب مادة (قطر)، وابن فارس في مقاييس اللغة مادة (جرب)، وابن سيده في المخصص: 220/2، وذكر بلا نسبة في تاج العروس مادة (كحل).

فإن تك زق زاملة فإني أنا الطاعون ليس له دواء[1]

فقال جرير:

أنا الموت الذي آتي عليكم فليس لهارب مني نجاء[2]

فقال: خذ الكيس فلعمري إن الموت يأتي على كل شيء.[3]

فرغم اتحاد المعنى المطلوب التعبير عنه (مدح النفس) اختلفت طرق الشعراء الثلاثة في التعبير عنه، وأورد كل واحد منهم المعنى في ثوب مختلف وصورة مختلفة من حيث وضوح دلالتها على المعنى المراد. والعلم الذي يهدي المتكلم البليغ ويرشده إلى تعلم هذه الطرق وأصول استخداماتها يطلق عليه في اصطلاح أهل العلم (البيان).

ويضم علم البيان ثلاثة مباحث أساسية هي:

- التشبيه
- المجاز
- الكناية

ويحاول الباحث فيما يأتي البحث عن تطبيقات هذه المباحث في السورة الكريمة مستهدياً في ذلك بما ورد في كتب البلاغة والتفاسير.

---

[2] زق: وعاء من جلد للشراب ونحوه، الزاملة: الناقة والدابة التي توضع عليها الأمتعة في السفر، البيت في ديوان الأخطل: 19، وينظر كذا: ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، مادة (زقق)، والزمخشري، أساس البلاغة، مادة (زمل)، وعلي بن ظافر الخزرجي، بدائع البدائه: 11

[3] البيت في ديوان جرير، دار بيروت للطباعة، طبعة 1406هـ،1986م، ص14

[1] ينظر: ابن يعقوب شيخو، يوسف بن عبد المسيح، مجاني الأدب في حدائق العرب، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت 1913م، 162/3، وعيسى العاكوب، المفصل في علوم البلاغة: 350

المبحث الأول: التشبيه

التشبيه فن عظيم من فنون البلاغة لما له من شأن رفيع وأثر جلي في إدناء القصي وإذلال العصي، فهو يكسب المعاني قوة ويكسوها فخامة ونبلاً ويبرزها من مخبئها إلى معرض الحس والعيان.

أولاً - معنى التشبيه

التشبيه لغة: التمثيل، يقال "أَشْبَهَ فلاناً وشَابَهَه"[1]، قال تعالى: (وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ)[2] وتقول العرب: شبَّهَهُ بِه تَشبيهاً، أي مثَّله[3]. وأما اصطلاحاً فقد عرّفه القزويني بأنه: "الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى"[4] وقد أضاف إليه المتأخرون قيوداً أخرى فاستقر على أنه: الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى بإحدى أدوات التشبيه لفظاً أو تقديراً، لغرض يقصده المتكلم[5]. مثاله قولنا: زيد كالأسد في الشجاعة والإقدام، ويتكون أسلوب التشبيه من أربعة أركان نوضحها من خلال المثال السابق: المشبه وهو الأمر الذي يراد مشاركته لغيره في معنى أو صفة وهو هنا (زيد)، والمشبه به هو الأمر الذي يشاركه المشبه في صفته وهو في مثالنا (الأسد)، والمشبه والمشبه به هما عنصران أساسيان لا يستغني عنهما التشبيه وإلا خرج عن كونه تشبيهاً.

---

[2] الرازي، مختار الصحاح، والزبيدي، تاج العروس، مادة (شبه)

[3] سورة النساء، الآية 57

[4] المعجم الوسيط، مادة (شبه)

[5] الخطيب القزويني، مختصر المعاني (ضمن شروح التلخيص): 292/3

[1] ينظر: عيسى العاكوب، المفصل في علوم البلاغة: 355، والمراغي، علوم البلاغة والبيان: 213، وحامد عوني، المنهاج الواضح للبلاغة: 12/5

وأما العنصر الثالث فهو أداة التشبيه وهي اللفظ الذي يدل على التشبيه كحرف الكاف أو كأن أو غيرهما. أما العنصر الرابع فهو وجه الشبه ويراد به الوصف المشترك بين الطرفين (المشبه والمشبه به) ويكون في المشبه به أقوى منه في المشبه، وهو صفة (الشجاعة) في مثالنا.

وقد أكثر أهل البيان من تقسيمات التشبيه وأنواعه من حيثيات مختلفة واعتبارات متعددة، فجعلوه خمسة أنواع من حيث ذكر عناصره وحذفها: مؤكد ومرسل ومفصل ومجمل وبليغ، وقسموه إلى حسي وعقلي وملفوف ومفرق وتسوية وجمع من حيث حسية أو تعدد طرفيه، وإلى تمثيلي وغير تمثيلي باعتبار وجه الشبه، وأكثروا بعد ذلك من التفصيلات والتقسيمات تحت كل نوع منها[1]، ولسنا بصدد إحصائها وبيانها إلا بقدر ما يتعلق بالأمثلة الواردة في السورة موضوع الدراسة.

ولمَّا كان الأهم من ذلك كله هو البحث عن غرض المتكلم من اختياره أسلوب التشبيه في التعبير عن مقصوده، والكشف عن سبب ترجيحه على دلالة المفردات الوضعية والأسلوب المباشر. فإن البحث سيركز على هذا الجانب في دراسته لصور التشبيه الواردة في الآيات.

ثانياً - شواهد التشبيه في سورة إبراهيم

بالعودة إلى سورة إبراهيم نجد أن ورود التشبيه لم يكن بالوفرة التي كان في غيرها من سور الذكر الحكيم إذ يمكن حصر أمثلته بالأنواع الآتية:

التشبيه المرسل المفصل:

---

[2] للاطلاع على أنواع التشبيه وتقسيماته عند أهل البيان مع التفصيل والأمثلة ينظر: السبكي، عروس الأفراح: 95/2- 113، والتفتازاني، المطول شرح تلخيص المفتاح: 552-562، الصعيدي، بغية الإيضاح: 424/3 - 450

ويراد بـ"المرسل" الذي ذكرت فيه أداة التشبيه وهو يقابل "المؤكد" الذي حذفت منه الأداة، ومعنى "المفصل" الذي صُرّح فيه بوجه الشبه وهو يقابل "المجمل" الذي حذف منه وجه الشبه[1]. ومثاله في السورة ما ورد في قوله تعالى على لسان الكفار من أقوام الرسل عند اعتراضهم دعوة للرسل ورسالتهم: (إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ)[2] غرضهم من ذلك نفي الرسالة عنهم بتسويتهم مع غيرهم من البشر. المشبه هو ضمير المخاطب المقصود به الرسل، والمشبه به هو ضمير المتكلم (نا) المشار به إلى المنكرين عليهم النبوة من أقوامهم، وأما أداة التشبيه فهي "مثل" التي تفيد العموم بقول الفيروزآبادي: "وقد يستعمل المِثْل عبارة عن المشابه لغيره في معنى من المعاني، أَيّ معنى كان. وهو أَعمّ الأَلفاظ الموضوعة للمشابهة؛ وذلك أَن النِدّ يقال فيما يشاركه في الجوهريّة فقط، والشكل يقال فيما يشاركه في القَدْر والمساحة، والشِبْه يقال فيما يشاركه في الكيفيّة فقط، والمساوي يقال فيما يشاركهُ في الكميّة فقط، والمِثْل عامّ في جميع ذلك"[3] ووجه الشبه هو صفة البشرية، فهو تشبيه مرسل مفصل استوفى أركانه الأربعة، وهو باعتبار طرفيه تشبيه حسي بحسي، لأن كلا المشبه والمشبه به محسوسان يدركان بإحدى الحواس الخمسة الظاهرة.

ويرى الباحث أن الداعي لاستعمال أداة التشبيه (مثل) هو إدخال جميع صفات البشرية في المماثلة: جوهراً وشكلاً وهيئة وصورة، أي أنتم مثلنا في كل صفات البشرية تأكلون كما نأكل وتشربون كما نشرب، وتجري عليكم كل العوارض التي تجري على البشر، يريدون من ذلك عدم تميز هؤلاء الرسل عنهم بشيء، وكأنهم يقولون لا فرق بيننا وبينكم ولا شيء يميزكم عنا فلِمَ اختصكم الله من دوننا بالرسالة

---

[2] ينظر: القزويني، تلخيص مفتاح العلوم، والسبكي، عروس الأفراح في تلخيص المفتاح: 112/2

[3] سورة إبراهيم: الآية 10

[1] الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: 481/4

والنبوة! وهنا يتجلى الغرض البلاغي من ترجيح أسلوب التشبيه، فالأسلوب المباشر في عبارة (أنتم بشر) قاصر عن إفادة مشاركتهم لهم في معاني البشرية، وهي – المشاركة في الصفات البشرية – أقوى ما يستدل به هؤلاء في اعتراضهم وإنكارهم.

إضافة إلى غرض هؤلاء المشركين في بيان حال الرسل من خلال إثبات مساواتهم لهم في كل خصال البشرية ليكون ذلك دليلاً على نفي نبوتهم، رغم أن الرسل أنفسهم لم يدعوا تجردهم من بشريتهم ولم يروا تناقضاً بين هذه وتلك، يشهد لذلك قولهم جواباً عن ذلك: (إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)[1] إذ تكرر أسلوب التشبيه على لسان الرسل بعناصره وأركانه ولكن لغرض مختلف هو بيان إمكان المشبه وإقناع الخصم بالفكرة محل النزاع، لكونه صادف إنكاراً ولقي تعجباً من الكفار أن يجمع الرسل إلى بشريتهم الاختصاص بالرسالة والمعجزات، فجاء قولهم (وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) ليبين أن الأمر ليس مستحيلاً ولا مستبعداً، وإنما هو فضل من الله تعالى وعطاء "فالاستدراك رفع لما توهموه من كون المماثلة في البشرية مقتضية الاستواء في كل خصلة"[2]

ثالثاً – التشبيه البليغ في السورة

ومن صور التشبيه الواردة في السورة التشبيه البليغ ويراد به التشبيه الذي حذفت منه الأداة ووجه الشبه[3] مثاله في قوله تعالى: (وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (15) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ)[4] شبه الله تعالى الماء المغلي الذي يقدم لأهل النار بالصديد، وهو ما يسيل من جلود أهل النار ولحومهم، واشتقاقه من الصَّدِّ لأنه

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 11

[3] الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 201/13

[4] ينظر: حبنكه، البلاغة العربية: 173/2

[5] سورة إبراهيم: الآيتان 15، 16

يصدُّ الناظرين عن رؤيته، وهو دم مختلط بقيح يسيل من جلد الكافر ولحمه[1]، وبتقدير أداة التشبيه ووجهه المحذوفين يكون الكلام: ماء يشبه الصديد في النتانة والقذارة. يقول الطاهر بن عاشور موضحاً الغرض من التشبيه هنا : "وجعل الصديد ماء على التشبيه البليغ في الإسقاء، لأن شأن الماء أن يسقى، والمعنى: ويسقى صديداً عوض الماء إن طلب الإسقاء، ولذلك جعل (صديداً) عطف بيان لـ (ماء)، وهذا من وجوه التشبيه البليغ"[2] فهذا الماء قد بلغ من شبهه للصديد حداً جعله كالصديد نفسه ولذا كان التعبير بالتشبيه البليغ من دون سائر أنواع التشبيه لاعتماده على المبالغة والإغراق في ادعاء أن المشبه هو المشبه به عينه فاستغني بذلك عن ذكر الأداة ووجه الشبه.

ومن البليغ كذلك التشبيه الوارد في وصف هيئة الكفار وحالهم وهم يبصرون أهوال يوم الحساب في هلع وخوف: (**مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ**)[3] وموضع الشاهد في الآية الكريمة قوله: (**وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ**)، والهواء الخلاء الذي لم تشغله الأجرام[4] قال ابن منظور: " كل فارغ هواء "[5]. والمراد بالأفئدة مواضع القلوب ومساكنها وهي الصدور[6]. قال أهل العلم[7] في تفسير هذه العبارة هي تشبيه حذف منه الأداة ووجه الشبه، شبّه فيه البيان الإلهي قلوب الكافرين على تلك الحال من فزع وذعر وتوجس السوء بالهواء، لأن الأفئدة إن لم تكن هواء حقيقة

---

[2] ينظر: الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن: 548/16، والسمرقندي، بحر العلوم: 238/2، ومحمد صديق خان، فتح البيان في مقاصد القرآن: 97/7

[3] ابن عاشور، التحرير والتنوير: 211/13

[4] سورة إبراهيم: الآية 43

[5] ينظر: الزمخشري، الكشاف: 563/2

[6] لسان العرب، مادة (هوا)

[7] ينظر: الماوردي، النكت والعيون: 141/3، الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد: 35/3

[8] ينظر: الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن: 713/13، والزمخشري، الكشاف: 563/2، وابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 344/3، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 247/13

- وليست كذلك – تعين أن يكون المقصود بالوصف التشبيه. ورغم وضوح معنى طرفي التشبيه وقرب دلالتهما فإن صعوبة تواجهنا في استخراج المعنى الجامع والصفة الرابطة بينهما أو ما يسمى بوجه الشبه، وهي الميزة التي تكسب البليغ من التشبيه الحُسنَ، وتكسوه حلة القبول وتجعله طيباً في عرف البلغاء، إذ كلّما كان وجه الشبه لطيفاً قليل الظهور مفتقراً إلى كدّ الذهن وشحذ الهمة وإعمال الفكر كان ذلك أوقع أثراً في النفس وأدعى إلى تأثرها واهتزازها " يفسر ذلك ما هو مركوز في الطبع، من أن الشيء إذا نيلَ بعد الطلب له، والاشتياق إليه، ومُعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى، وموقعه في النفس أجلّ وألطف، وكانت به أضنّ وأشغف "[1] وهذا الضرب من المعنى شبيه بالجوهر المخبوء في صدفه لا يبرز لك إلا بعد تشققه، وبالحبيب المحتجب لا يريك وجهه إلا بعد استئذان، وهذا ما جعل المفسرين يسبرون أغوار المعاني بحثاً عن وجه الشبه بين الطرفين وكان السبب في تعدد الأقوال والآراء، فابن الجوزي يسوق لنا منها أربعة[2]:

الأول: أن القلوب قد خرجت من صدورهم ونشبت في حلوقهم وتركت الصدور شاغرة لا شيء فيها.

الثاني: أن الصدور خربة لا شيء فيها من الخير.

الثالث: أن أفئدتهم منخرقة من الخوف لا تعي ولا تفهم شيئاً.

الرابع: أفئدتهم جوف لا عقول لها.

والذي يظهر لي أن المعنى المشترك يكمن في أحد الوجهين الآتين:

---

[2] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان: 106

[3] ينظر: ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير: 517/2

إما أن فراغ الأفئدة من الخير ورجاء الرحمة والطمع في النجاة، شبيه بالهواء في تفرّغه من الأجرام والأشياء وهو اختيار الطبري[1]. أو أن اضطراب قلوبهم وجيشانها في الصدور حين يتملكها الخوف والذعر فتنزاح إلى الحناجر حيناً وتقفل إلى الجوف حيناً آخر شبيه بحركة الهواء الدائمة في الاضطراب والهيجان. يستدل الزمخشري للأول بقول العرب للجبان: قلب فلان هواء أي لا قوة فيه ولا جرأة ولا ثبات، وكذلك يقال للأحمق يراد لا عقل فيه ولا فطنة[2]. ويورد ابن عطية من الشعر شواهد على اعتبار الوجهين قائلاً[3]: وعلى هاتين الجهتين يشبه قلب الجبان وقلب الرجل المضطرب في أموره بالهواء، من ذلك قول الشاعر:

ولا تَكُ مِن أخْدانِ كُلِّ يَراعَةٍ هَواءٍ كَسَقْبِ البانِ جَوْفًا مَكاسِرُهْ[4]

ومنه قول حسان:

ألّا أبْلِغْ أبا سُفْيانَ عَنِّي فَأنْتَ مُجَوَّفٌ نَخِبٌ هَواءُ[5]

وكذا قول زهير:

كَأنَّ الرَحْلَ مِنهُ فَوْقَ صَعْلٍ مِنَ الظِّلْمانِ جُؤْجُؤُهُ هَواءُ[6]

والمعنى أنه في غاية الخفة في إجفاله ونفرته.

---

[2] ينظر: الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن: 713/13

[3] ينظر: الزمخشري، الكشاف: 563/2

[4] ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: 345/3

[5] البيت لكعب بن سعد الملقب بـ (كعب الأمثال) استشهد به ابن منظور في لسان العرب مادة (يرع)، والزبيدي في تاج العروس مادة (هوا)

[6] البيت في ديوان حسان بن ثابت: 20، وقد ورد منسوباً له كذلك في تهذيب اللغة باب الهاء والميم: 260/6، وأساس البلاغة مادة (جوف) ولسان العرب مادة (جوف)

[1] الصعل: الصغير الرأس، الظلمان: جمع ظليم وهو ذكر النعام. جؤجؤه هواء: صدره خال. البيت في ديوان زهير بن أبي سلمى:15 ينظر: ابن فارس، مقاييس اللغة مادة (صعل)، ابن منظور، لسان العرب، مادة (ظلم)

وكذا يظهر الغرض البلاغي من إجراء هذا المعنى في قالب التشبيه البليغ في إلحاق المشبه بالمشبه به، وجعله مساوياً له في الاتصاف بالمعنى المشترك، لأن حذف الأداة ووجه الشبه والاكتفاء بذكر طرفي التشبيه يوهم اتحادهما وعدم التفاضل بينهما فكأن صدورهم قد ارتقت وتدرجت في تلبسها بصفة الفراغ حتى صارت الخلاء نفسه.

رابعاً - التشبيه التمثيلي في السورة

التشبيه التمثيلي أبلغ وأعلى شأناً من غيره لما في وجه الشبه فيه من التفصيل الذي يحتاج إلى استفراغ الجهد وإمعان الفكر وإدامة النظر، فأثره في المعاني أعظم وصولته أقوى، إذ يرفع قدرها ويجذب النفوس نحوها، فإن كان المعنى مدحاً كان به أوقع، وإن كان ذماً صار به أوجع، وإن كان برهاناً جعله أنصع وأسطع.

وجدير بالذكر أن أهل العلم في تفريقهم بين التشبيه والتمثيل ينظرون إلى وجه الشبه من حيث هو مفرد أو مركب، عقلي أو حسي، وينظرون إلى العقلي من حيث ظهور معناه أو خفائه واحتياجه إلى تأويل. وعلى هذا كان اختلاف السلف في تحديد معنى التمثيل وكانت لهم في ذلك مذاهب نرى من الحسن أن نذكرها باختصار، ونبدأ بمذهب عبد القاهر الجرجاني الذي اعتبر التمثيل أخص من التشبيه فجعل كل تمثيل تشبيهاً والعكس غير صحيح، ثم حصر التمثيل في التشبيه الذي يكون وجه الشبه فيه **عقلياً غير حقيقي** أي مفتقراً إلى التأويل بمعنى؛ يختلف وجوده في المشبه به عنه في المشبه، ويمثل لذلك بقولهم: كلامك كالعسل في الحلاوة، فإن المعنى المشترك بين اللفظ والعسل - وهو الحلاوة - إن كان موجوداً في العسل حقيقة فإن تحققه في الكلام يكون على سبيل التأويل لا الحقيقة أي من جهة حكم وأمر يقتضيه[1]، وهو ما يحدثه الكلام الطيب لدى الذائق من اللذة النفسية والراحة الوجدانية عند سماعه.

---

[2] ينظر: عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان: 75

ثم جاء السكاكي فاتفق مع الشيخ الجرجاني في قصر التمثيلي من التشبيه على ما كان وجه الشبه فيه **عقلياً** دون الحسي، ولكن خالفه حينما استبعد المفرد مشترطاً فيه أن يكون مركباً أي أن يكون وجه الشبه فيه **هيئة منتزعة من عدّة أمور**[1].

ولكن رأي جمهور البلاغيين استقر في النهاية على مذهب الخطيب القزويني[2] الذي لخلص مفتاح السكاكي وخالفه في بعض القضايا منها ما يخص حد التمثيلي، حيث وسّع من دائرته لتشمل الحسي مع العقلي وجعل العمدة في اعتبار التشبيه تمثيلياً كون الوصف المشترك (وجه الشبه) **صورة مركبة منتزعة من أشياء متعددة**.

وليستبين لك تفصيل ما ذكرناه مجملاً من مذاهب أهل البيان، ويتّضح لك الفرق بينها نقف معك بالتفصيل عند هذين المثالين من سورة إبراهيم:

المثال الأول

في قوله تعالى: (**مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ**)[3] يجسّد لنا الباري عز وجل في الآية مصير أعمال الكافرين وعاقبة آمالهم المعقودة عليها يوم الحساب، فيخلع عليها صورة حسية تزيد المشهد وضوحاً والمعنى المراد جلاء، وذلك من خلال التشبيه بضربه التمثيلي. فيشبّه خاتمة أعمال الكافرين في حبوطها وذهابها هباء

---

[2] ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم: 346

[3] ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة (ضمن شروح تلخيص المفتاح): 355/3، وعبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح: 430/3، وعبد الرحن حبنكة، البلاغة العربية: 127/2، وعيسى العاكوب، المفصل في علوم البلاغة: 385

[4] سورة إبراهيم: الآية 18

منثوراً لبنائها على غير أساس سليم من الإيمان بالله وابتغاء رضوانه يشبهها برماد طيرته ريح قوية شديدة ففرقته في كل جهة[1].

وهو من تشبيه المفرد بالمركب، المشبه هو أعمال الكافرين، والمشبه به هيئة الرماد المتناثر بفعل الريح العاصف، من تشبيه المعقول بالمحسوس[2]، وإلحاق المعنى بالصورة[3] لجامع مشترك بينهما. وأما وجه الشبه فهو صورة منتزعة من أمور متعددة (الرماد، والريح، يوم عاصف ..) اجتمعت على هيئة معينة فشكلت مشهداً لشيء ذي أجزاء صغيرة كثيرة تم تجميعها بعد مجهود كبير وتكديسها في مكان ما للانتفاع بها، فجاءها إعصار شتت جمعها وفرقها في مهب الريح.

هذه الهيئة متحققة في المشبه به وتعني عدم الانتفاع بالشيء الذي بذل في سبيله جهد وعُوِّل عليه. وهي كذلك تنطبق على المشبه وهو أعمال الكافر التي ظن فيها خيراً وحرص على جمعها، فصرف لأجلها المال والوقت والجهد، حتى إذا كان اليوم الذي توزن فيه الأعمال وتحصى الذرات؛ حبطت وأبطلت كما أخبر الله تعالى: (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا)[4]، فصارت أعمالهم كذلك الرماد المتطاير يجمع بينهما " الهيئة الحاصلة من اضمحلال شيء كثير بعد تجمعه، والهيئة المشبهة معقولة "[5].

---

[2] ينظر: الحكيم الترمذي، محمد بن علي بن الحسن بن بشر، الأمثال من الكتاب والسنة، دار ابن زيدون / دار أسامة - بيروت – دمشق، 27

[3] وهو إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة، أي التعبير عن المعاني المجردة بذوات الأجرام الخاضعة للحواس. ينظر: ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي، خزانة الأدب وغاية الأرب، دار ومكتبة الهلال- بيروت، دار البحار-بيروت، الطبعة: الطبعة الأخيرة، 2004م، 401/1

[4] ينظر: العلوي، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: 157/1

[5] سورة الفرقان: الآية 23

[1] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 212/13

وإذا عرضنا هذا الأسلوب من التشبيه على شروط المذاهب السالفة الذكر نجد له قبولاً في باب التشبيه التمثيلي، فوجه الشبه عقلي غير حقيقي في المشبه لأن أعمال الخير لا يمكن جمعها حقيقة إلا بضرب من التأويل، إذ الجمع يختص بالمادي المحسوس وأما الخيرات فمجردة، وهذا على شرط عبد القاهر الجرجاني. وأما بالنسبة للسكاكي فوجه الشبه هنا يحقق شرطيه معاً فهو عقلي من جهة ومركب من عدة عناصر من جهة أخرى، وهو ينسجم أيضاً مع تعريف القزويني وجمهور أهل البيان الذين لا يشترطون للتمثيل سوى أن تكون الصفة الجامعة بين المشبه والمشبه به صورة منتزعة من متعدد وهي كذلك هنا.

وقد حظي هذا النوع من التشبيه بثناء أبي هلال العسكري وابن سنان الخفاجي اللذين جعلاه من أجود صور التشبيه وأبلغه وأحسنه من حيث إنه تجسيم للغائب الخفي الذي لا يقع عليه الحس بالظاهر المحسوس المعتاد، فنال بذلك ميزة الإيضاح وبيان المراد حين مثل الشيء بما هو أعظم منه وأبلغ[1].

ويظهر الداعي للتمثيل واستخدام الأسلوب غير المباشر للتعبير عن المقصود في كونه أكثر تأثيراً وأبين إيقاعاً في النفوس من الأسلوب المباشر، وخاصة إذا كان موضوعه في الموعظة والإقناع كما في مثالنا حيث يركز البيان الإلهي فيه على إثارة محور الخوف والحذر[2] لدى المشركين بتنفيرهم من سوء المصير الذي ينتظرهم وأعمالهم، ويستنهض فيهم تدارك أعمالهم بتصحيح إيمانهم وتطهير سرائرهم من أجل بعث الروح فيها وإعادة الحياة إليها لتكون مقبولة يوم الحساب، ولا يخفى أن تهييج هذا المحور في نفس السامع يدفعه إلى الانصياع لما يلقى إليه، ويبعده بمحرض ذاتي عما يراد إبعاده عنه.

---

[2] ينظر: أبو هلال العسكري، الصناعتين، الكتابة والشعر: 240، وابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة: 246

[1] ينظر: عبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 169/2

بقي أن نشير إلى مظهر من مظاهر براعة البيان الإلهي في اصطفاء ألفاظه للتشبيه هنا حين اختار التمثيل بهيئة الرماد المجتمع تعريضاً بأفضل أعمال المشركين وهو الكرم المتمثل بالإطعام وقرى الضيف الذي اشتهروا به وتنافسوا فيه حتى صار يكنى عنه بكثرة الرماد، الأثر الدال على نار الطبخ حيث يعد طعام الضيف. فإذا حبط ثواب الكرم الذي هو غرة أعمالهم وأفضلها فبطلان سائرها أولى.

المثال الثاني

في قوله تعالى: (**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**)[1] معنى (ضرب الله مثلا): اعتمد مثلاً ووضعه، و(كلمة) بدل من مثلاً، وقيل: مفعول به منصوب بفعل محذوف أي: جعل كلمة طيبة، أو بتضمين ضرب معنى جعل فيكون مفعولاً به ثانياً، وقوله: (كشجرة) خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هي كشجرة طيبة[2]. قال الزمخشري: " وكلمة طيبة نصب بمضمر، أي: جعل كلمة طيبة كشجرة طيبة وهو تفسير لقوله ضرب الله مثلا كقولك: شرف الأمير زيداً: كساه حلة، وحمله على فرس"[3].

وقد توسع المفسرون[4] في معنى الكلمة الطيبة فجعلوها شاملة لكل كلمة يبتغي المسلم منها خير فينمي خيراً، ككلمة التوحيد وكلمة الدعوة إلى الله وكلمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والكلمة الحلوة التي يسر بها المسلم أخاه، والكلمة

---

[2] سورة إبراهيم: الآيتان 24، 25

[3] ينظر: محيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 186/5

[4] الزمخشري، الكشاف: 553/2

[5] ينظر: السمرقندي، بحر العلوم: 241/2، وابن عطية، المحرر الوجيز: 335/3، وأبو حيان، البحر المحيط في التفسير: 431/6

التعليمية وكذا الإرشادية التي يراد بها النصح، وقيل: هي المؤمن نفسه وقيل غير ذلك..

والشجرة الطيبة هي النخلة في قول أكثر المتأولين[1]، أو أية شجرة مباركة مثمرة تنطبق عليها الصفات الواردة في الآية.

وطرفا التشبيه في الآية هما: المشبه وهو الكلمة الطيبة، والمشبه به هو الشجرة الطيبة التي اتصفت بصفات أربعة هي[2]:

- الصفة الأولى: كونها طيبة وذلك يعني أنها طيبة المنظر والصورة والشكل، وطيبة الرائحة، ومستطابة الفاكهة لذيذة الثمرة.
- الصفة الثانية: أن أصلها ثابت راسخ باق آمن الانقطاع والاجتثاث والفناء، لأن الشيء الطيب يفقد منفعته وتذهب البهجة والفرحة التي يسببها إذا كان عرضة للزوال والانقراض.
- الصفة الثالثة: أن فرعها صاعد في السماء، ويلزم من هذه الصفة أمران، الأول: قوة أغصانها المتصاعدة استناداً إلى سلامة جذعها ورسوخ عروقها وعمق جذورها. والثاني: ارتفاعها وسموها على عفونات الأرض وصفاء ثمرتها عن قاذورات الأبنية.
- الصفة الرابعة: تؤتي ثمارها كل حين، فهي دائمة الخضرة مستمرة العطاء لا يثنيها عن البذل عارض، ولا يقصيها عن الجود مانع.

هذه هي الصفات التي أراد البيان الإلهي إلحاق المشبه بالمشبه به فيها، وجعلها معاني مشتركة بين الطرفين، وهي وإن زادت في المشبه به وبرزت بشكل أوضح فذلك لقيام الأخير بدور الموضح والمشخص، فكل صفة ذكرت في جانب المشبه

---

[2] ينظر: تفسير مجاهد: 411، والطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن: 568/16، والسمرقندي، بحر العلوم: 241/2، والبغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن: 37/3، وابن عطية، المحرر الوجيز: 335/3

[3] ينظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 89/19

به يريد البيان الإلهي أن يجعل لها نظيراً في المشبه، فإذا اعتبرنا أن المشبه هو كلمة الشهادة والتوحيد، فإن لهذه الكلمة طيباً ومنفعة ولذة لا تبلغها لذة، وهل من نشوة تسري في الإنسان كتلك التي تحصل من الفوز بنعمة الدنيا ونعيم الآخرة[1]، اللذين تحققهما هذه الكلمة بما لها من الفضل والتعظيم؛ فهي تشرح صدره وتطمئن قلبه، وتَقَرُّ بها عينُه، وهي ذروة المنفعة، وقمة المتعة، ولذا كان أول وصف للشجرة هو الوصف بكونها طيبة؛ لدلالة هذا اللفظ على جمال الظاهر وحلاوة الباطن، فينسجم وصف المشبه مع وصف المشبه به.

وأما الصفة الثانية: صفة الرسوخ والثبات فهي في معرفة الله تعالى أقوى وأكمل، وذلك لأن عروق كلمة التوحيد إذا ضربت بجذورها في النفس البشرية تأصلت في جوهره فاستعصت على الاجتثاث، وامتنعت عن الزوال والفناء، إن كلمة التوحيد " ثابتة سامقة مثمرة.. ثابتة لا تزعزعها الأعاصير، ولا تعصف بها رياح الباطل ولا تقوى عليها معاول الطغيان- وإن خيل للبعض أنها معرضة للخطر الماحق في بعض الأحيان- سامقة متعالية، تطل على الشر والظلم والطغيان من عل- وإن خيل إلى البعض أحياناً أن الشر يزاحمها في الفضاء-"[2]

وتمتد من هذه الجذور أفنان تزيد الشجرة بهجة وجمالاً وحسن منظر، وهذه الأغصان في جانب المشبه هي ما يتفرع عن أصل الإيمان أو كلمة التوحيد من عمل وبر وطاعات وقربات، وما يصاحب ذلك من تسبيح وتحميد وتلاوة قرآن[3]، إضافة إلى ما يترتب عليها من تجنب للخبائث وترفع عن المنكرات والسفاسف وهذه هي الصفة الثالثة، ثم يرتقي الحديث ويعلو مع ارتفاع الأغصان فتزهر أعمال الخير تلك

---

[2] ينظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 89/19

[3] سيد قطب، في ظلال القرآن: 2098/4

[1] ينظر: صلاح الدين محمد أحمد، من جمال النظم القرآني في سورة إبراهيم: 148

وتثمر كل حين ثواباً من عند الله جزيلاً مباركاً غير ممنون، تتضاعف فيه الحسنات بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف والله يضاعف لمن يشاء.

وبعد هذه التفصيل في الوجوه المشتركة بين المشبه والمشبه به نستطيع أن نجمل التمثيل الوارد في الآية بقولنا: هو تشبيه الهيئة الحاصلة من جمال الإيمان المستقر في القلب، والمتعة الحاصلة للنفس والسعادة المسيطرة على الحس، والمنافع المتتالية في كل حين بهيئة شجرة عظيمة راسخة الأصل جميلة المنظر عالية الفروع وفيرة الثمار. وعليه فإن طرفا التشبيه مركبان، وأما وجه التشبيه فهو الهيئة الحاصلة من وجود شيء عظيم مستقر ثابت بهيج الصورة ذي منافع متعددة ومتتالية، وهو كما ترى عقلي، وغير حقيقي لاحتياج تحققه في المشبه إلى تأويل، وهو مركب أيضاً لكونه صورة منتزعة من عناصر متعددة. فهو تمثيليٌ باتفاق المختلفين في تعريفه[1].

ويجري حديثنا السابق بتفاصيله على قوله تعالى: (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ)[2] فالتمثيل هنا مقابل للتمثيل هناك، إذ الكلمة الطيبة هناك يقابلها الكلمة الخبيثة هنا، والشجرة الطيبة يقابلها الشجرة الخبيثة، وثبات الأصل وتعالي الفروع في السماء يقابله هنا الاجتثاث من فوق الأرض وانعدام القرار.

والمراد بالكلمة الخبيثة كلمة الكفر أو الكافر نفسه أو الجهل بالله أو الشرك أو الكذب أو كل كلمة سوء لا يرضى عنها الله تعالى. وقد ذكر البيان الإلهي للشجرة المشبه بها ثلاثة أوصاف وجعل المشبه شريكاً لها في هذه الأوصاف وهي[3]:

---

[2] يقصد بهم عبد القاهر الجرجاني، والسكاكي، والخطيب القزويني وقد تقدم الكلام على تعاريفهم للتشبيه التمثيلي فيراجع.

[3] سورة إبراهيم: الآية 26

[1] ينظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 93/19

الوصف الأول: الخبث، وقد تعددت الأقوال في نوع الشجرة فقيل: هي الثوم، وقيل: إنها الكراث، وقيل: بل هي الحنظل لكثرة ما فيه من المضار، وقيل: هي شجرة الشوك.

الصفة الثانية: سطحيتها وعدم تجذرها، إذ لا أصل لها ولا عرق، استؤصلت من فوق الأرض.

الصفة الثالثة: وهي متممة للوصف السابق، والمعنى لا استقرار لها، أي لا ثبات ولا رسوخ لها،

كذلك هي الكلمة الخبيثة مؤذية وضارة كريهة وقبيحة، لا حجة ترفعها، ولا قوة منطق تساندها ولا سطوع برهان يعضدها، مبتورة النفع لا فائدة منها، ثم إنها كلمة مضطربة لا أصل لها في الصحة والاعتقاد، منبوذة تثير الاشمئزاز في النفس والسواد في الحس، مقطوعة الصلة بالعوامل القادرة على إمدادها بما ينميها، إذا خرجت من فم قائلها حصدت المودات وأهلكت الطاعات وأحبطت القربات، ومحقت البركات.

وقد أتت الآية على ذكر الغرض البلاغي من التمثيل صراحة في قوله تعالى: (ويَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثالَ لِلنّاسِ لَعَلَّهم يَتَذَكَّرُونَ)[1] حيث بينت الفائدة من إيراد المعنى بهذا الأسلوب وهو رجاء التذكر، " فإن في ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعاني "[2] من خلال إلباسها ثوب المحسوسات، ليحصل للمخاطب إحاطة تامة بها. فالملاحظ أنه لم يقل "لعلهم يتفكرون" مثلاً ولكن خص التذكير، لأنه استحضار لشيء غائب عقلي بواسطة شيء حاضر محسوس، فالمطلوب من السامع تحفيز الذاكرة فقط للوصول إلى المعنى المراد.

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 25

[1] الزمخشري، الكشاف: 553/2 وينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 198/3، والمراغي، تفسير المراغي:149/13

المبحث الثاني: المجاز

من عادة الذين يكتبون في البلاغة أن يشفعوا المجاز بالحقيقة ذكراً في هذا المبحث بل ربما عنونوا الباب بهما معاً رغم أن الحقيقة ليست من البيان في شيء، ولا شأن لهذا البحث بها سوى أنها تقابل المجاز والشيء بالشيء يذكر، ولهم أن يقولوا: إن تعريفها يسهل إدراك تعريف المجاز إذ بضدها تتميز الأشياء. ونحن في دراستنا هنا سنكتفي بتعريفها ثم نضرب صفحاً عن تفاصيلها.

الحقيقة لغة: الشيء الثابت يقيناً[1]، واصطلاحاً: هي اللفظ المستعمل فيما وضع له في اصطلاح التخاطب[2].

أما المجاز فهو طريق من طرق الإبداع البياني لدى البليغ، وتحايل على المفردات والتراكيب للتعبير عما في النفس من معان، والحق أن له قيمة بلاغية عظيمة تساهم في الارتقاء بالنصوص الأدبية عامة، وتبرز إعجاز القرآن بشكل خاص فهو يحقق أغراضاً جمة منها: المبالغة والتأكيد والتوضيح والإيجاز وإضافة صور جديدة تثري التراكيب الأدبية وتبث فيها الحركة والحياة.

أولاً - معنى المجاز

المجاز مشتق لغة من جاز الشيء يجوزه، إذا تعداه وعبره[3]، سمّي به اللفظ إذا نقل من معناه الأصلي، واستعمل ليدل على معنى آخر مناسب له، وهو في اصطلاح

---

[2] المعجم الوسيط، مادة (حقق)، وأبو البقاء الحنفي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية:362

[3] ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم: 359، والتفتازاني، المطول شرح تلخيص المفتاح: 567، وكذا: وعبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 127/2، وعبد العزيز عتيق، علم البيان: 136

[4] ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس، مادة (جوز)

أهل البيان: اللفظ المستعمل في غير ما وضع له في اصطلاح التخاطب لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الوضعي[1].

العلاقة: هي الصلة أو المناسبة التي تربط بين المعنى الأصلي والمعنى المنقول إليه.

والقرينة هي: الأمر الذي يجعله المتكلم دليلاً على أنه إنما أراد باللفظ غير المعنى الموضوع له[2].

نوضح ذلك من خلال المثالين الآتين[3]: الأول: لفظ الأسد المستعمل في الرجل المقدام في قولك: رأيت أسداً على فرس، الثاني: لفظ النبات المستعمل في الماء في قولك: أمطرت السماء نباتاً. فإن كلاً من لفظي (الأسد) (النبات) مجاز مفرد، لم يستعملا في المعنى الأصلي الموضوع له لغة، وإنما استعملا في معنيين آخرين نقلا إليهما لعلاقة بين المعنيين الحقيقي والمجازي، وهذه العلاقة في المثال الأول هي المشابهة بين الأسد والرجل في الشجاعة والقوة والإقدام، وفي المثال الثاني هي كون الماء سبباً للنبات، وأما القرينة المانعة من إرادة المعنى الحقيقي فهي قولك في المثال الأول "على فرس" وليس ذلك من شأن الحيوان المفترس، وفي المثال الثاني قولك: "أمطرت" والنبات لا يمطر حقيقة.

ثانياً - أنواع المجاز

ينقسم المجاز على نوعين: مجاز عقلي، ومجاز لغوي، أما العقلي فهو إسناد الفعل، أو ما يدل على معنى الفعل إلى غير ما حقه أن يسند إليه لعلاقة، مع قرينة

---

[2] ينظر: عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان: 249، والسبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: 126/2

[3] ينظر: فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها: 136/2

[4] ينظر: حامد عوني، المنهاج الواضح للبلاغة: 103/1

صارفة عن أن يكون الإسناد إلى ما هو له أي: على حقيقته.[1] وهذا النوع من المجاز لا شأن للغة به وإنما الحكم فيه للعقل فهو الذي يسند ويحكم. مثاله قولك: "بنى الوزير الجامعة"، فإن إسناد فعل البناء إلى شخص الوزير إنما جاء على سبيل المجاز لا الحقيقة لما هو معلوم أن الذي بنى المدرسة حقيقة وفعلاً ليس الوزير نفسه، بل خطط لها المهندسون وعمل فيها البناؤون والعمال، وإنما صدر من الوزير الأمر بالبناء لا غير.

والقسم الثاني: المجاز اللغوي الذي يعود إلى اللغة ويتعلق بالوضع اللغوي وهو ما سنفصل الحديث عنه مستشهدين بما في السورة الكريمة من أمثلة وشواهد عليه.

ثالثاً - المجاز اللغوي

يعرّف أهل العلم المجاز اللغوي بأنه: الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له في اصطلاح التخاطب، لعلاقة بين المعنى الأول (الوضعي) والمعنى الثاني (المجازي) مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأول. وقد قسّموه بالنظر إلى العلاقة الرابطة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي إلى:

- **استعارة**: عندما تكون العلاقة مشابهة نحو قولك: رأيت قمراً يسقي القوم، تريد حسناء وضاءة الوجه كالقمر جمالاً، فالعلاقة بين القمر والحسناء هنا المشابهة بجامع الوضاءة والجمال في كلّ.

- **مجاز مرسل**: وهو ما كانت العلاقة فيه غير المشابهة كما في قوله تعالى: (جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ)[2] فإنهم في الحقيقة لا يجعلون أصابعهم في آذانهم،

---

[2] ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم: 393، والخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 82/1، والصعيدي، بغية الإيضاح: 53/1، وحامد عوني، المنهاج الواضح للبلاغة: 100/1، والهاشمي، جواهر البلاغة: 255

[1] سورة نوح، الآية 7

ولكن القرآن أطلق الأصبع واراد الأنملة، لمناسبة بين الأصبع والأنملة ليست هي المشابهة، وإنما الكلية لأن الأنملة جزء من الأصبع.

1- الاستعارة

تقوم الاستعارة على معنى التشبيه، فهي تشبيه حذف أحد طرفيه وأداته ووجه الشبه، غير أنها أبلغ منه وأعمق دلالة على المعنى المعبر عنه، لأنك مهما بالغت في التشبيه بين أمرين لا بدّ أن تذكر طرفيه اعترافاً منك بتباينهما، ولتكشف للمخاطب بأن العلاقة بينهما لا تتجاوز التشابه والتداني الذي لا يصل إلى حد الاتحاد، فأنت تخصص لكل طرف اسماً يختلف عن الآخر تشير بذلك إلى عدم امتزاجهما، هذا في التشبيه، أما في الاستعارة فالأمر يتعدى التشبيه إلى ادعاء الاتحاد والامتزاج بين طرفي التشبيه، وكأن قوة الشبه بين المشبه والمشبه به قد جعلت منهما شيئاً واحداً يصدق عليهما لفظ واحد، ففي قولك: "جلست اليوم إلى موعظة بحر لا قعر له"، تشبيه للعالم بالبحر لاتساع علمه، ولكنك لما حذفت العالم واكتفيت بذكر البحر جعلتهما بمثابة الشيء الواحد، ولولا أنك أقمت القرينة على إرادة المعنى المجازي لما خطر ببال السامع غير المعنى الحقيقي للبحر.

وقد قسم أهل البيان الاستعارة تبعاً لذكر أحد طرفيها على:

- استعارة تصريحية
- استعارة مكنية

الاستعارة التصريحية

هي في اصطلاح البلاغيين الاستعارة التي يصرح فيها بذات اللفظ المستعار[1]، الذي هو في الأصل **المشبه به** حين كان الكلام تشبيها، قبل أن تحذف أركانه باستثناء

---

[2] ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم: 374، والتفتازاني، المطول شرح تلخيص المفتاح: 615، والبغدادي، خزانة الأدب: 257/9

المشبه به، وبعبارة أوضح: "هي لفظ المشبه به المستعار للمشبه"[1] مثالها الاستعارة الواردة في قول الشاعر:

حول أعشاشها على الأشجار قد سمعن «**القيان**» وهي تغني[2]

فالشاعر هنا شبه الطيور المغردة على الأشجار بـ (**القيان**) أي المغنيات، بجامع حسن الصوت في كل، ثم حذف المشبه (الطيور) واستعار لفظ المشبه به (**القيان**) له على سبيل الاستعارة التصريحية، ونصب قوله: " حول أعشاشها على الأشجار " قرينة على عدم إرادة المعنى الأصلي للمشبه به[3].

وأول ما يطالعنا من شواهد هذا النوع في السورة الكريمة قوله تعالى في الآية الأولى: (الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)[4] فقد تضمنت الآية ثلاث استعارات تصريحية: الظلمات، النور، الصراط. ولكل من هذه الاستعارات أركانها وإليك البيان:

في الاستعارة الأولى: المستعار هو لفظ المشبه به (الظلمات)، والمستعار له هو المشبه وهو (الكفر)، وأما المستعار منه فهو المعنى الذي وضع له لفظ (الظلمات) فنحن نستعير اللفظ من معناه الذي وضع له. وبيان الاستعارة أن الباري عز وجل قد شبه الكفر بالظلمات بجامع عدم الاهتداء في كلٍّ، وبعد تناسي التشبيه وادعاء الاتحاد بين المشبه والمشبه به، استعير لفظ المشبه به (الظلمات) للمشبه (الكفر) على سبيل الاستعارة التصريحية، ومبعث كونها تصريحية أن لفظ المشبه به (الظلمات) هو المستعار هنا للمشبه المحذوف.

---

[2] حامد عوني، المنهاج الواضح للبلاغة: 108/1، وينظر: حبنكه، البلاغة العربية: 242/2

[3] ذكره عبد العزيز عتيق في "علم البيان" دون أن ينسبه، ولم أجده.

[4] ينظر: عبد العزيز عتيق، علم البيان: 182

[1] سورة إبراهيم: الآية 1

في الاستعارة الثانية: لفظ (النور) هو المشبه به وهو المستعار، وأما المستعار له فهو (الإيمان) وهو نفسه المشبه، والمعنى الذي وضعت له كلمة (النور) يكون مستعاراً منه. وقد شبه البيان الإلهي (الإيمان) بـ (بالنور) بجامع الاهتداء في كلٍّ، وبعد التناسي والادعاء حذف لفظ المشبه (الإيمان) واستعار له لفظ المشبه به (النور) على سبيل الاستعارة التصريحية، وهي استعارة تصريحية كذلك للتصريح فيها بلفظ المشبه به المستعار للمشبه المحذوف.

وفي الثالثة تشبيه للدين الحق المراد به الإسلام بالصراط وهو الطريق بجامع الاستقامة والوصول إلى المطلوب في كلٍّ، ثم حذف لفظ المشبه (الإسلام) واستعير له لفظ المشبه له (الصراط) على سبيل الاستعارة التصريحية، فتكون أركان الاستعارة كالآتي:

المستعار (المشبه به): (الصراط)

المستعار له (المشبه): (الإسلام)

المستعار منه: المعنى الذي وضعته العرب للفظ (الصراط)

وبالتأمل في طبيعة لفظ المستعار في الاستعارات الثلاثة (الظلمات، النور، الصراط) نجد أنه (اسم جامد غير مشتق) وعندها تسمى **الاستعارة أصلية** لعدم بنائها على تشبيه تابع لتشبيه آخر معتبر[1].

ومن أمثلة الاستعارة التصريحية الأصلية في السورة كذلك الاستعارة الواردة في لفظ (سبيل) في قوله تعالى: (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآَخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)[2] حيث شبه الدين وحقائقه بالسبيل بجامع الوضوح في كل، فالسبيل هو الطريق بيّن المعالم الذي لا اعوجاج فيه وكذلك

---

[2] ينظر: الهاشمي، جواهر البلاغة: 264

[1] سورة إبراهيم: الآية 3

هو منهج الدين، وبعد تناسي التشبيه والادعاء باتحاد طرفي التشبيه، حذف المشبه (الدين) واستعير له لفظ المشبه به (السبيل) على سبيل الاستعارة التصريحية، وهي كذلك أصلية لكون الكلمة المستعارة (سبيل) اسم جنس جامد حقيقة.

ومن الاستعارة التصريحية الأصلية أيضاً لفظ (الموت) في قوله تعالى: (يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَما هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ)[1] إذ يشبه البيان الإلهي العذاب المحيط بالكافر في جهنم بالموت، فلفظ (الموت) في الآية لم يستعمل بمعناه الحقيقي الذي وضع له في أصل اللغة والمعروف بخروج الروح من الجسد، وإنما استعير للمشبه وهو العذاب المطبق بجامع الألم المتناهي في الشدة، والقرينة على امتناع المعنى الحقيقي قوله بعد ذلك: (وَما هُوَ بِمَيِّتٍ) "لأن المراد بذلك لو كان الموت الحقيقي لم يكن سبحانه ليقول : وَما هُوَ بِمَيِّتٍ ، وإنما المعنى أن غواشي الكروب، وحوازب الأمور تطرقه من كل مطرق ، وتطلع عليه من كل مطلع"[2] ولعل الغرض من وصف حال المعذب بالموت هو المبالغة في تصوير عظيم ما يغشاه، وأليم ما يلقاه حتى كأنه في غمرات الموت إذ قد يوصف المغموم بالكرب وكذا المحاط بالخطب بأنه يقاسي شدة الموت وآلامه.

ومن أمثلتها ما جاء في قوله تعالى: (وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)[3] حيث كشف البيان الإلهي طرفاً من أحوال الكافرين الماكرة في تبييت فعل السوء بدين الله وإضماره، ومحاولة صرف الغير عن الهدف المحمود بحيلة خادعة، والجملة حال إما من المخاطبين بقوله: (أولم تكونوا أقسمتم) وهم الظالمون، وإما من قريش قوم النبي صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى: (وأنذر الناس) أي يا محمد وقد مكر قومك مكرهم في إشارة إلى قوله: (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 17

[3] الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن، دار الأضواء، بيروت، 183/2

[4] سورة إبراهيم: الآية 46

كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)[1] وقد ذكر أهل العلم وجهين لقراءة قوله: (وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ):

الأول – للكسائي بفتح اللام الأولى وضم الثانية (لَتزولُ) وهي قراءة ابن عباس ومجاهد، وابن وثّاب[2]، وعليها تكون (إن) مخففة عن الثقيلة، ومعنى الآية تعظيم مكرهم وتهويله، فهو من القوة بحيث يزيل الجبال الراسخات من مستقراتها، ولكن الله تعالى أبطله ونصر أولياءه، ولا وجه لاستعارة الجبال على هذه القراءة بل هي باقية على حقيقتها على ما قاله ابن الأثير[3].

الثاني – قراءة الجمهور بكسر اللام الأولى وفتح الثانية (لِتزولَ)[4] وعلى هذه القراءة تكون (إنْ) نافية بمعنى (ما) والمراد تحقير مكرهم وتهوين أمره وأنه ما كان لتزول منه الجبال الراسخات. ولفظ الجبال على هذه القراءة[5] هو موضع الشاهد من ذكرنا للآية إذ انطوى على استعارة تصريحية بيانها: أن الآية استعارت لفظ (الجبال) للدلالة على أمر رسول الله وما جاء به من الآيات والمعجزات والشرائع بجامع الثبات والاستقرار والمنعة في كل، ثم طوى ذكر المستعار له واكتفى بذكر المستعار على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية[6]. فكان المعنى: وما كان مكرهم وخدعهم لتؤثر في معجزات النبي الباهرة الواضحة ولا في شرائع هذا الدين الشامخة كالجبال رسوخاً وثباتاً.

---

[2] سورة الأنفال: الآية 30

[3] ينظر: أبو بكر بن مجاهد البغدادي، السبعة في القراءات: 363

[4] ينظر: ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 77/2، العلوي، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: 111/1

[5] ينظر: أبو زرعة، عبد الرحمن بن محمد، حجة القراءات، دار الرسالة، 379

[6] ينظر: الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن: 184/2

[7] ينظر: ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 77/2

وكذا تظهر الاستعارة التصريحية في كلمة (البوار) من قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ)[1] ودار البوار هي جهنم كما قال ابن عطية لأن البوار هو الهلاك، وكونه في الآخرة يفسره قول الله تعالى في مطلع الآية التالية: (جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ الْقَرَارُ)[2][3]، والبوار من بار يبور بواراً بُوراً قال الشاعر:

فَلَمْ أرَ مِثْلَهم أبْطالَ حَرْبٍ غَداةَ الحَرْبِ إذْ خِيفَ البَوارُ[4]

وأصل البور كما قال الراغب[5] فرط الكساد، ولما كان فرط الكساد يؤدي إلى الفساد – كما يقال: كسد حتى فسد – عُبر به عنه الهلاك. جاء في المصباح المنير: "بار الشيء يبور بورا بالضم هلك، وبار الشيء بوارا كسد على الاستعارة؛ لأنه إذا ترك صار غير منتفع به فأشبه الهالك من هذا الوجه"[6]

ويذكر أهل البيان للاستعارة الأصلية مقابلاً يسمونه **الاستعارة التبعية**، ويعرفونها بأنها الاستعارة التي يكون اللفظ المستعار فيها تابعاً لاستعارة معنى يسبقه، أي فعلاً أو اسماً مشتقاً أو حرفاً[7]، وتسميتها بالتبعية نظراً لأن جريانها في الفعل والمشتقات والحروف يكون تبعاً لجريانها في المصادر. نحو الاستعارة في قوله تعالى: (أُولَٰئِكَ

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 28

[3] سورة إبراهيم: الآية 29

[4] ويحتمل أن يكون المراد بـ(البوار) الهلاك في الدنيا بالقتل والخزي، فتكون (دار) قليب بدر ونحوه، وخاصة أنه قد روى أن الآية نزلت في قتلى معركة بدر من المشركين. ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: 338/3

[5] البيت استشهد به الماوردي في "النكت والعيون": 136/3 دون أن يذكر قائله، وكذا أبو حيان في "البحر المحيط في التفسير":422/6 ولم أجده في غير التفاسير.

[6] ينظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن: 152

[7] الفيومي، أحمد بن محمد بن علي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية – بيروت، 65/1.

[8] أي هي الاستعارة التي يكون اللفظ المستعار فيها اسماً مشتقاً أو فعلاً.

الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)[1] فإن المراد هو : استبدلوا الضلالة بالهدى، لأن الضلالة لا تشترى كما نعلم، ولكنها يمكن أن تستبدل، غير أننا عند إجراء الاستعارة لا يمكن أن نقول: شبه (استبدلوا) بـ (اشتروا) لأنها فعلان وهما يتبعان المصدر، ولكن نقول: شبه (الاستبدال) بـ (الشراء) وحذف الاستبدال وأبقى على المشبه به وهو فعل الشراء، أو نقول إذا أردنا تناسي التشبيه: استعير الشراء للاستبدال ثم اشتق منه الفعل (اشتروا) بمعنى (استبدلوا) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

ومن شواهده في السورة الكريمة ما ورد على لسان إبليس متبرئاً من أتباعه: (إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)[2] ويظهر التبري في قوله: (إِنِّي كَفَرْتُ) التي تعني (إني تبرأت وأنكرت) إذ الكفر هنا مجاز عن التبري والتنصل نظير ما ورد في قوله تعالى: (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ)[3]، وموضع الشاهد في السورة الاستعارة التصريحية الواردة في الفعل: (أَشْرَكْتُمُونِ) حيث شبه (الطاعة) بـ (الإشراك) بجامع الخضوع والانقياد في كلّ، فالكفار كانوا يطيعون الشيطان في أعمال الشر كما يطاع الله في أعمال البر والخير، أو لأن الكفار حين أشركوا الأصنام ونحوها بإيعاز وتزيين من الشيطان صاروا كأنهم أشركوه باعتباره السبب في ذلك والمحرض عليه[4].

وبعد التناسي والادعاء باتحاد اللفظين في المعنى حذف المشبه (أطعتمون) المشتق من الطاعة، واستعير ليحل محله لفظ المشبه به (أشركتمون) المشتق من (الإشراك) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، ومعنى التبعية هنا أن الفعل

---

[2] سورة البقرة: الآية 16

[3] سورة إبراهيم: الآية 22

[4] سورة فاطر: الآية 14

[5] ينظر: الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 263/5، الألوسي، روح المعاني: 199/7

(أشركتمون) قد استعير من مصدره (الإشراك) إذ لا يمكن أن نقول: استعير (أشركتونِ) لـ (أطعتمون) والفعل يتبع المصدر.

ومن الاستعارة التبعية في السورة قوله تعالى: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ)[1] الأنداد هم الأشباه والأمثال؛ أي شركاء في الربوبية أو في التسمية، يعني: أشركوا بالله تعالى عن الشريك والند والشبيه علواً كبيراً. والمراد بهؤلاء الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار، وموضع الشاهد في الآية هو الاستعارة في قوله: (لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ) وبيانها:

أن هؤلاء الكفار جعلوا الآلهة أنداداً لله ولم يكن غرضهم من اتخاذ الأنداد الضلال ولا الإضلال ولكن البيان الإلهي عبر عن ذلك بلام التعليل والغاية في قوله: (لِّيُضِلُّوا) الذي قُرئ أيضاً بفتح الياء أي أنفسهم[2]، وأيا ما كانت القراءة فليس الضلال ولا الإضلال الغرضَ الحقيقي من اتخاذ الأنداد، إذاً فما معنى لام التعليل هنا؟

الجواب - كما يقول أهل العلم[3] - أن البيان الإلهي شبه اللام الدالة على الصيرورة والعاقبة بلام التعليل والغاية نظير ما جاء في قوله تعالى: (فالتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهم عَدُوًّا وحَزَنًا)[4] لأن الضلال والإضلال هما نتيجة للاتخاذ، كما أن الإكرام في قولنا: جئتك لتكرمني، نتيجة للمجي[5]، فلما كان ذلك نتيجة له شبه بالغرض والعلة الباعثة، واستخدم له حرفه على سبيل الاستعارة التبعية[6].

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 30

[3] وهي قراءة ابن كثير وأبو عمرو. ينظر: ابن عطية، المحرر المجيز: 338/3

[4] ينظر: الزمخشري، الكشاف: 555/2، وأبو حيان، البحر المحيط: 436/6 ، والألوسي، روح المعاني: 207/7، الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 265/5

[5] سورة يونس: الآية 90

[6] ينظر: الزمخشري، الكشاف: 555/2

وينظر كذلك: أبو حيان، البحر المحيط في التفسير: 436/6

[7] ينظر: الألوسي، روح المعاني: 207/7

وبعبارة أخرى يمكننا القول: إنهم وإن لم يقصدوا باتخاذهم الشركاء تضليل الناس، لكنهم قصدوا مقاصد هي مساوية للتضليل نفسه أو آيلة له لأنها أوقعت الناس في الضلال، ولذا عبر عن مساوي التضليل بالتضليل، والغرض من هذه الاستعارة التشنيع عليهم بعاقبة فعلهم وغايته، وهم ما أضلوا إلا وقد ضلّوا، فعلم أنهم ضلوا وأضلوا[1].

وقد جعل البلاغيون الاستعارة في الزمن إحدى صور الاستعارة التبعية، باعتبار أن الزمن أحد مدلولي الفعل، والاستعارة إذا وقعت في الفعل باعتبار حدثه أمكن أن تقع فيه باعتبار زمنه أيضاً، وصورتها أن يعبر بالماضي عن المستقبل لإفادة تحقق وقوعه، أو التعبير عن الماضي بالمضارع استحضاراً لهيئة وقوعه[2].

مثاله في السورة التعبير عن الحدث بالفعل الدال على الزمن الماضي رغم أنه حدث سيجري في المستقبل وذلك في قوله تعالى: (وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ)[3] فالأحداث المعبر عنها بالأفعال: (برزوا، فقال، قالوا) عبر البيان الإلهي عنها بالزمن الماضي رغم أنها لم تقع بعد تنبيهاً وتأكيداً على تحقق وقوعها على وجه اليقين، وأنها ستتحقق في يوم قادم لا ريب فيه كما لا شك في تحقق وقوع الماضي، والإتيان بالماضي هنا فيه من إيقاع الرهبة والخوف في النفوس ما فيه لأن الفعل كأنه قد تم، والقرآن يتحدث عنه[4]، وبيان الاستعارة أن القرآن الكريم شبه وقوع هذه الأفعال في المستقبل بوقوعها في الزمن الماضي بجامع التحقق وعدم

---

[2] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 230/13

[3] ينظر: السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: 287/1، والصحفي، دخيل الله بن محمد، سورة هود عليه السلام دراسة لخصائص نظمها وأسرارها البلاغية، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 254

[4] سورة إبراهيم: الآية 21

[5] ينظر: أحمد بدوي، من بلاغة القرآن: 90

الريبة في كلٍّ، ثم حذف الزمن الدال على المستقبل واستعار له الماضي. يقول الزمخشري: " وإنما جيء به بلفظ الماضي، لأنّ ما أخبر به عزّ وعلا لصدقه كأنه قد كان ووجد، ونحوه وَنادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ، وَنادى أَصْحابُ النَّارِ ونظائر له"[1] وهو من علم الله تعالى المسبق لما كان وما سيكون وما هو كائن.

الاستعارة المكنية

وهي الاستعارة التي حذف منها المستعار (المشبه به) ورمز إليه بما يدلّ عليه من صفاته، ولا بدّ فيها من ذكر المستعار له (المشبّه). نحو الاستعارة الواردة في قول الشاعر[2]:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كلّ تميمة لا تنفع[3]

فالشاعر قد شبه المنية بالسبع، المستعار منه هو السبع، والمستعار له المنية، والجامع بينهما هو الاغتيال، ونوع الاستعارة مكنية لأن الشاعر ذكر فقط المستعار له (المنية)، وحذف المستعار منه (السبع) مكنياً عنه بشيء من لوازمه والخصائص المتعلقة به والدالة عليه (الأظفار).

ومن أمثلتها في سورة إبراهيم موضوع البحث ما جاء في قوله تعالى: (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ)(4) حيث دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام لنفسه ووالديه وسائر المؤمنين، وقد خص الخليل رجاءه نيل المغفرة من الله تعالى

---

[2] الزمخشري، الكشاف: 548/2

[3] عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح: 520/3، محمد قاسم، محيي الدين ديب، علوم البلاغة: 198

[4] البيت لأبي ذؤيب الهذلي. ينظر: ديوانه: 49، والضبي، المفضل بن محمد بن يعلى بن سالم، المفضليات، دار المعارف – القاهرة، الطبعة: السادسة، 422، والأزهري، تهذيب اللغة، باب (ش ن ب)، والمُطَرِّزِيّ، ناصر بن عبد السيد أبى المكارم بن علي، المغرب في ترتيب المعرب، دار الكتاب العربي، مادة (تمم)

[5] سورة إبراهيم: الآية 41

بالموقف الذي لا ينفع الناس شيء مثلما تنفع رحمة الله ومغفرته (يوم يقوم الحساب) وقد اختلف المفسرون في تأويل هذه العبارة التي أسند فيها القيام وهو من لوازم الإنسان إلى الحساب فذكروا قولين[1]:

الأول – أن المراد (يقوم أهل الحساب) فالقيام مسند حقيقة إلى الأهل، ولكن حذف المضاف (أهل) وأسند ما له إلى المضاف إليه على سبيل المجاز لعلاقة المحلية نحو المجاز الوارد في قوله تعالى: (وأسأل القرية) إذ المراد: واسأل أهل القرية.

الثاني – أن في العبارة استعارة مكنية، إجراؤها كالتالي: شبه ثبوت الحساب وتحققه في ذلك الموقف وفق العدالة الإلهية بإنسان قائم قيام أهبة واستعداد على قدم وساق، إذ إنها أقوى أحوال الإنسان كونها انتصاب للعمل، ومنه قولهم: قامت الحرب على ساقٍ، إذا اشتدّت وقويت، وقولهم أيضاً: ترجَّلت الشمس، إذا سطعت أشعتها وقوي وهجها. ثم حذف المشبه به (المستعار) وهو الإنسان، وكني عنه بأحد لوازمه وخصائصه وهو القيام، أي استعير القيام من الإنسان لوصف الثّبوت في الحساب. لغرض تهويل الموقف وبيان صعوبته وشدته.

ومن الاستعارة المكنية أيضاً في السورة ما ورد كذلك في دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام لذريته بعد أن تركهم في المكان القفر وقفل راجعاً فتوجه إلى ربه مناجياً: (رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)[2] الأفئدة جمع فؤاد وهو القلب[3] وعبر به عن جميع البدن لأنه أشرف عضو فيه، وقيل: هو جمع

---

[2] ينظر: الزمخشري، الكشاف: 562/2، الفخر الرازي، مفاتيح الغيب:107/19، والنسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 177/2، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 245/13

[3] سورة إبراهيم: الآية 37

[4] الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، مادة (فأد)

وفد والأصل أوفده فكأنه قال: واجعل وفوداً (من الناس تهوي إليهم)[1]. والاستعارة تكمن في قوله: (تهوي إليهم) وإجراؤها: أن البيان الإلهي شبه نزوع القلوب وإسراعها بحنين وشوق إلى حيث أسكن الخليل ذريته بشيء يسقط من عل ويهوي بشدة دون إرادة بقوة (الجعل) الإلهي، والجامع بينهما سرعة الحركة في كلّ، ثم استعار معنى المشبه به للمشبه وحذف المشبه به تاركاً ما يدل عليه من لوازمه وهو فعل (تهوي) المستعمل للشيء الساقط من الأعلى وذلك على سبيل الاستعارة المكنية.

يقول الشريف الرضي تعليقاً على هذه الاستعارة: " وهذه من محاسن الاستعارة، وحقيقة الهوي النزول من علو إلى انخفاض كالهبوط، والمراد به هاهنا المبالغة في صفة الأفئدة بالنزوع إلى المقيمين بذلك المكان، ولو قال سبحانه: تحنّ إليهم، لم يكن فيه من الفائدة ما في قوله سبحانه: (تَهْوِي إِلَيْهِمْ)؛ لأن الحنين قد يوصف به من هو مقيم في مكانه، والهويّ يفيد انزعاج الهاوي من مستقرّة"[2]

وغرض الخليل من هذه الاستعارة إظهار تعلقه بهم وشدة خوفه وقلقه عليهم لبقائهم وحيدين في ذلك المكان الموحش الخالي من السكان، الأمر الذي تَطَلَّبَ منه طلب النجدة لهم على الفور، والتضرع إلى الله لإيصالها بأقصر وقت.

2- المجاز المرسل

سبق أن وضحنا أن المجاز هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له في اصطلاح التخاطب لعلاقة بين المعنيين الأصلي والمنقول له، بقرينة دالة على عدم إرادة المعنى الوضعي، وعرفنا حينها أن هذه العلاقة إما أن تكون المشابهة أو غير المشابهة، وأنها إذا كانت المشابهة تعين الأسلوب استعارة، وإن كانت غيرها فإن العلماء يطلقون عليه "المجاز المرسل".

---

[2] ينظر: الشوكاني، فتح القدير: 135/3

[1] الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن: 183/2

وقد جاء تعريف المجاز المرسل عند الخطيب القزويني بأنه: ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسة غير التشبيه، ومثَّل له باليد إذا استعملت في النّعمة، لأنّ من شأنها أن تصدر عن الجارحة، ومنها تصل الى المقصود بها، قال: ويشترط أن يكون في الكلام إشارة الى المولي لها، فلا تقول: اقتنيت يداً، كما يقال: اقتنيت نعمة، وإنّما تقول: كثرت أياديه لديّ[1]. ولعل تعريف المعاصرين أوضح وأبسط إذ عرفوه بأنه: "الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له لعلاقة غير المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي"[2]

وقد قيل في سبب تسميته بالمرسل أنه مطلق غير مقيد بعلاقة المشابهة، إذ الإرسال في اللغة الإطلاق[3]، وقيل: بل سمي بذلك لأنه لم يقيّد بعلاقة مخصوصة - كما هو شأن الاستعارة المقيدة بعلاقة التشبيه- بل ردّد بين علاقات كثيرة[4].

علاقات المجاز المرسل

تعقب أهل العلم التجوزات اللغوية في نطاق ما يسمى بالمجاز المرسل وتبينوا أن علاقات هذا الفن البياني مرسلة ومتعددة فأحصوا منها ما يربوا على عشرين علاقة[5]، كلها عبارة عن ملابسات وصلات بين المعنى الأصلي للفظ والمعنى المجازي، تبيح للمتكلم نقل اللفظ من المعنى الأول إلى الثاني. ولما كان مجال بحثنا محصوراً في

---

[2] ينظر: الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة (ضمن شروح التلخيص): 32/4

[3] ينظر: عيسى العاكوب، المفصل في علوم البلاغة: 500، ومحمد أحمد قاسم، محيي الدين ديب، علوم البلاغة: 215

[4] الزبيدي، تاج العروس، مادة (رسل)

[5] ينظر: محمد أحمد قاسم، محيي الدين ديب، علوم البلاغة: 216

[6] ينظر: القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، وابن يعقوب المغربي، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح (ضمن شروح التلخيص): 32/4 وما بعدها. والمراغي، علوم البلاغة: 250

نطاق سورة إبراهيم فإني سأقتصر على دراسة العلاقات التي وردت لها شواهد في السورة الكريمة وهي:

أولاً –الآلية[1]

حين يعبر بالآلة أو الأداة عن أثرها، أي يطلق اسم الألة ويراد به الأثر الناجم عنها، فيقتصر على ذكر الأداة التي بها يؤدى الفعل، بدلاً من ذكر الفعل نفسه، رغم أن الآلة هي السبب المؤدي إلى الفعل. ومثاله في السورة قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) حيث عبر البيان الإلهي عن اللغة باللسان الذي هو آلته، ومعلوم أن اللسان هو الآلة التي تؤدى بها اللغة، فالآية استخدمت المجاز المرسل في كلمة (لسان).

وبيانه: أن اللسان موضوع في أصل الوضع اللغوي للعضو المعروف من الإنسان، ولكنه نقل هنا إلى معنى آخر على سبيل المجاز وهو اللغة لما بين المعنيين من صلة؛ وهي أن الأول أداة للثاني، وأما القرينة الدالة على النقل والمانعة من إرادة المعنى الأصلي فهي الحالية. وقد سلك القرآن الكريم مسلك المجاز هنا لبيان أهمية اللسان في صدور اللغة عنه، فكلما ارتقى الرسول في سلم الإفصاح والبيان كان أنجح في تبليغ رسالته وأقدر على بيان حجته وشريعته وأقوى في إقناع قومه، وهو ما دعا سيدنا موسى يطلب من ربه أن يبعث معه أخاه هارون نبياً حين قال: (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي)[2].

ثانياً – العمومية:

---

[2] ينظر: عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح: 471/3

[3] سورة القصص: الآية 34

وتكون عند إطلاق اللفظ الدال على العموم وإرادة شيء من مشتملاته، أو مما يندرج تحته، نحو قوله تعالى: (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ)[1] فالآية لم تعن عموم الشعراء وإنما بعضهم بدليل استثنائها لبعضهم بعد ذلك في قوله تعالى (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ)[2].

ومثالها في السورة الكريمة قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ)[3] حيث ينقل لنا القرآن الكريم مقالة فئة من المتمردين المغالين في الكفر وهم يخيرون رسلهم بين أمرين: الكفر والشرك أو ترك ديارهم والخروج منها[4]. وقد أشكل على البعض معنى قوله: (أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا) التي تشير إلى أسبقية الكفر على الإيمان في حق الرسل وهو ما يتناقض مع الثابت من عصمتهم، وأجيب عن هذا الإشكال بوجهين[5]:

الأول: ما ذكره الزمخشري من أن العود هنا بمعنى الصيرورة وهو وارد في كلام العرب، بل وشاع لدرجة أنك لا تكاد تسمعهم يستعملون الفعل (صار)، وإنما يعبرون عن الصيرورة بالفعل (عاد) فيقولون: ما عدت أراه، ما عاد لفلان مال، عاد لا يكلمني..

الثاني: أن كلمة الرسل الواردة أريد بها الرسل مع أتباعهم الذين آمنوا فغلَّب الأتباع على الرسل في الخطاب.

ولكن إذا تأملنا سياق الآيات نلحظ أن البيان الإلهي قد غير أسلوب الحكاية، فأظهر (الذين كفروا) في موضع حقه الإضمار، في إشارة إلى أن الذين كفروا هنا غير

---

[2] سورة الشعراء: الآية 224

[3] سورة الشعراء: الآية 227

[4] سورة إبراهيم: الآية 13

[5] ينظر: الشوكاني، فتح القدير: 119/3

[6] ينظر: الزمخشري، الكشاف: 545/2، الخطيب الشربيني، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: 173/2

الذين تقدم ذكرهم بطريق الإضمار، وهذه بنظر الطاهر بن عاشور قرينة على وجود مجاز في هذا اللفظ وكذلك في لفظ (لرسلهم)، فيكون المقصود بالذين كفروا كفار قريش وبالرسل النبي محمد صلى الله عليه وسلم أجريت صيغة الجمع على وصفه ، نظير ما ورد في قوله تعالى: (لقَدْ أرْسَلْنا رُسُلَنا بِالبَيِّناتِ)[1] بدليل قوله: (وأنْزَلْنا الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ومَنافِعُ لِلنّاسِ ولِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ ورُسُلَهُ بِالغَيْبِ)[2] فإن المراد بالرسل في الموضعين النبي محمد صلى الله عليه وسلم، لأنه الرسول الذي أنزل معه الحديد وأذن له قتال الكافرين[3].

وإجراء المجاز على هذا الرأي يكون بأحد الوجهين الآتيين:

إما على سبيل الاستعارة، باستعارة صيغة الجمع للمفرد لعلاقة المشابهة بجامع القوة والعظمة في كل، والغرض من ذلك رفع قدر النبي صلى الله عليه وسلم وتعظيمه.

أو على سبيل المجاز المرسل، وبيانه: أن القرآن الكريم استعمل لفظ الجمع الدال على العموم في كل من (الذين كفروا) و (لرسلهم) وأراد به أفراداً مخصوصين هم كفار قريش في الأول والنبي صلى الله عليه وسلم في الثاني لعلاقة العمومية، فإن النبي صلى الله عليه وسلم فرد يندرج تحت عموم الرسل، وكذلك الأمر بالنسبة لكفار قريش. والداعي البلاغي لذلك التعمية[4] من أجل مشاكلة كفار قريش بمن سبقهم من الاقوام، والإيماء بمصير مشابه لمصيرهم.

ثالثاً – المستقبلية (اعتبار ما سوف يكون):

---

[2] سورة الحديد: الآية 25

[3] سورة الحديد: الآية 25

[4] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 205/13

[5] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 205/13

وتكون عند النظر إلى الشيء مما سيكون عليه في الزمن المستقبل، نحو قوله تعالى: (إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا)[1] فكلمة (خمراً) مجاز مرسل علاقته المستقبلية، لأن المراد في الآية ما كان عليه الخمر قبل العصر وهو (العنب)، وذكرت ما سيكون عليه بعد العصر (الخمر). وقد ورد مثال هذه العلاقة في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ)[2]

فقد اجتمع في كلمة (بلاء) مجازان مرسلان لعلاقتين مختلفتين[3] **الأولى**: السببية، وهي أن المعنى الحقيقي للبلاء هو التخلّق والترهل من "بلاء الثوب"[4] ولكنه استعمل في معنى "الاختبار" لعلاقة السببية بين المعنى الحقيقي والمجازي لما يسببه الاختبار للنفس من الضجر والتعب وكأنه يخلق النفس ويرهلها. **والمجاز الثاني**: في نقل البلاء من معنى الاختبار إلى معنى مجازي آخر هو المصيبة وشدة المكروه للعلاقة التي وضحها ابن عاشور بقوله: " البلاء هنا المصيبة بالشر، سمي باسم الاختبار لأنه اختبار لمقدار الصبر، فالبلاء مستعمل في شدة المكروه من تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه على طريقة المجاز المرسل"[5] فأصناف العذاب التي تعرض لها بنو إسرائيل على يد آل فرعون مصيبة عظيمة عبّر عنها القرآن الكريم بالبلاء الذي يعني الاختبار لما كان سيؤول إليه حالهم من تمحيص لهم وسبر لمقدار تحملهم وقوة إيمانهم.

وقيل: إنه أشار بالبلاء إلى الإنجاء، فالاختبار كما يكون بالمكروه يكون بالنعمة أيضاً يؤيده التعرض لوصف الربوبية[6] المتضمن لمعنى التربية والعطف والرحمة.

---

[2] سورة يوسف: الآية 36

[3] سورة إبراهيم: الآية 6

[4] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 493/1 و 192/13

[5] الرازي، مختار الصحاح، مادة (ب ل ا)

[6] الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير:192/13

[7] ينظر: أبو السعود العمادي، إرشاد العقل السليم: 34/5

وهو كذلك على سبيل المجاز المرسل لعلاقة المستقبلية لما ستشكله نعمة الإنجاء لهم من اختبار في المستقبل باستدعائها الشكر ومنافاتها الكفر. ويبدو لي أن الأول أقرب لأنه قد شاع إطلاق صيغة اسم المصدر (بلاء) بحيث يكاد لا يطلق إلا على المكروه. وما ورد منه مستعملاً في الخير فإنما ورد بصيغة الفعل[1] كقوله تعالى: (وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً)[2].

رابعاً – الجزئية

وتكون حين يرد اللفظ الدال على الجزء ويكون المراد به الكل نحو كلمة (رقبة) الواردة في قوله تعالى: (فَكُّ رَقَبَةٍ)[3] فالرقبة جزء من العبد الذي ندبت الآية المؤمنين إلى عتقه، وواضح أن الآية أرادت بلفظ الرقبة العبد كله لقرينة الحالية[4].

ومن السورة الكريمة يستشهد لهذه العلاقة بلفظ (كلمة) الوارد في قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ)[5] فالكلمة في الحقيقة قول مفرد مكون من حروف دال على معنى بالوضع[6]، ولكن البيان الإلهي أراد بها هنا معاني أخرى تشكل الكلمة جزءاً منها. فإن اخترنا من تلك المعاني جملة الشهادة[7] فهي لا شك (كلام) فتكون العلاقة التي تربط بين المعنى الأصلي والمجازي أن الأصلي (الكلمة) جزء من المجازي (الكلام)، وإن جنحنا إلى

---

[2] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 192/13

[3] سورة الأنبياء: الآية 35

[4] سورة البلد: الآية 13

[5] ينظر: السبكي، عروس الأفراح: 133/2، والصعيدي، بغية الإيضاح: 466/3

[6] سورة إبراهيم: الآية 24

[7] ينظر: الزمخشري، المفصل في صنعة الإعراب: 23

[8] ينظر: البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن: 37/3، وابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير: 510/2

معنى آخر قاله المفسرون[1] وهو (المؤمن) كانت العلاقة كذلك الجزئية، نظير إطلاق الكلمة على سيدنا عيسى عليه السلام في قوله تعالى: (إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ) وقوله: (إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ) إذ المقصود بالكلمة معنى مجازي هو قوله تعالى: (كُن فَيَكُونُ). وتبدو لي فائدة المجاز هنا في الإيجاز مع إرادة التعميم والشمول لكل خير ومعروف يؤدى بالكلام، وتنبيه المؤمن على عدم استصغار المعروف ولو كان مجرد كلمة واحدة.

ويمكننا الاستشهاد أيضاً من السورة الكريمة بالمجاز الوارد في كلمة (أفئدة) في قوله تعالى: (رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)[2] فإن المعنى الحقيقي لـ (أفئدة) هو القلوب، ولكن القرآن الكريم أراد بها الناس بأبدانهم وأرواحهم على سبيل المجاز المرسل لما بين المعنى الحقيقي والمجازي من العلاقة الجزئية، واختار الفؤاد للتعبير به عن الجسم لكونه أشرف عضو فيه فهو مركز الدفئ والحب والشوق وسائر المشاعر الوجدانية، وليكون إقبالهم على ذريته إقبال عطف وشفقة يوفر لهم الأنس والسكن ويعينهم على الاستمرار في ذلك المكان الموحش.

---

[2] ينظر: العز بن عبد السلام، تفسير القرآن الكريم: 163/2، أبو حيان، البحر المحيط في التفسير: 431/6

[1] سورة إبراهيم: الآية 37

المبحث الثالث: الكناية

أولاً - معنى الكناية

الكناية لغة مصدر لفعل (كنيت عن كذا بكذا) أكني وأكنو، أي تكلمت بما يستدل به عليه[1]. وهي عند ابن منظور: أن تتكلم بشيء وتريد غيره[2]، فهي تنطوي على إيماء إلى المعنى المراد وتلميح يخاطب بها ذكاء المتلقي. قال الشاعر:

وإنّي لأكنو عن قذور بغيرها وأعرب أحيانا بها وأصارح[3]

وأما في اصطلاح أهل البلاغة والبيان[4] فلعل أوضح تعريف لها هو ما استقر عليه المتأخرون حين عرفوها بأنها: " لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع قرينة غير مانعة من إرادة المعنى الحقيقي"[5] فمراد المتكلم ليس اللفظ عينه ولكن لازمه، مع ملاحظة إمكان إرادة المعنى الأصلي، أي أن المعنى الحقيقي وارد وإن كان مستبعداً من حيث

---

[2] ابن دريد، جمهرة اللغة، الزبيدي، تاج العروس، مادة (كني)

[3] ابن منظور، لسان العرب، مادة (كني)

[4] البيت عزاه للطوسي ابن السكيت في "إصلاح المنطق": 108، واستشهد به الأزهري في "تهذيب اللغة" مادة (كنا)

[5] الكناية عند الجرجاني هي: أن يريد المتكلّم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء الى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به إليه ويجعله دليلا عليه. وعرفها السكاكي بقوله: ترك التصريح بذكر الشيء الى ذكر ما هو ملزمه، لينتقل من المذكور الى المتروك، كما تقول: زيد طويل النّجاد، فينتقل منه الى ملزومه وهو طول القامة. والتعريفان كما ترى متقاربان، فحواهما انتقال المتكلم من المعنى الأصلي إلى لازمه، ولكن يؤخذ عليهما إغفال أهم قيد يميز الكناية عن المجاز وهو القرينة الدالة على إمكان المعنى الأصلي.

ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: 51، والسكاكي، مفتاح العلوم: 402

[1] ينظر: فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها (علم البيان والبديع): 247/2، وعيسى العاكوب، المفصل في علوم البلاغة: 535

قصد المتكلم. مثالها أن تريد إنشاء مدح لزيد بنسبة الكرم له فتتفادى التصريح بصفة الجود منتقلاً إلى الكناية عنها فتقول: زيد كثير الرماد، وتترك للمخاطب تتبع الوسائط للوصول إلى المعنى المتواري خلفها، فينتقل ذهن المخاطب من كثرة الرماد إلى كثرة إشعال النار ومن ذا إلى كثرة الطبخ ومنه إلى وفرة الطعام وهي تقود إلى كثرة عدد الزوار والضيوف، وكثرة الضيوف سمة أهل الكرم إذ لا يتزاحم الوافدون إلا على أبوابهم، وأنت ترى أنه لا مانع من ورود المعنى الحقيقي لوفرة الرماد وإن كان مستبعداً كأن يكون بيت زيد محاطاً بالرماد الكثير حقيقة.

وإذا تأملنا تعريف المجاز وقارناه مع القيود المذكورة في تعريف الكناية أدركنا الفرق بينهما بوضوح، فهما يشتركان في أن كلا منهما انتقال من المعنى الوضعي إلى آخر، ولكن لما كان هذا المعنى الأصلي غير مراد قطعاً في المجاز بدلالة القرينة الصارفة عنه، نجده ممكناً في الكناية التي تجوز فيها إرادة المعنى الوضعي مع إرادة لازمه كما ذكرنا في المثال السابق.

ثانياً – أقسام الكناية

قسم العلماء الكناية تبعاً لما تدل عليه على ثلاثة أقسام هي:

- الكناية عن صفة.
- الكناية عن موصوف.
- الكناية عن نسبة.

1- الكناية عن صفة

وهي التي تطلب بها الصفة، والمراد بالصفة هنا المعنوية[1] كالجود والشجاعة والعفة [2].. وتكون حين يصرح بالموصوف وبالنسبة إليه ولا يؤتى بالصفة المطلوبة نسبتها وإنما يذكر لازمها وينسب إلى الموصوف، نحو ما ورد في مثالنا السابق فإن (كثير الرماد) ليس صفة لزيد وإنما هي صفة لازمة لصفة الكرم التي يراد نسبتها لزيد حقيقة. ونذكر من شواهد هذا القسم من السورة الكريمة ما يلي:

في قوله تعالى: (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)[3] بيان للوصف الذي يستوجبه من استحب الحياة الدنيا على الأخرة وأراد لسبيل الله الزيغ والانحراف، وهو الضلال البعيد، ولكن البيان الإلهي أراد المبالغة في نسبة هذا الوصف له فاتخذ سبيل الكناية بجعل الضلال وعاء حاوياً له، وظرفاً محيطاً به من كل جانب، وكأنه صار مظروفاً بالضلال[4]، فلم يأتي بصفة (ضال) وإنما جاء بلازمها وهو قوله: (في ضلال) ومعلوم أن المظروف بالضلال لا يكون إلا ضالاً على وجه الثبوت واليقين، وكان الأصل أن يقول: أولئك ضالون ضلالاً بعيداً، غير أنه جنح إلى التعبير بالكناية (في ضلال بعيد) للدالة على المبالغة في ثبوت نسبة الضلال إليهم وتمكنهم فيه تمكن المظروف في الظرف، واشتماله عليهم اشتمال المحيط على المحيط.

---

[2] الصفة المعنوية هي التي تدل على معنى قائم بشيء، ولا تقوم بنفسها، سواء أكان اللفظ الدال عليها جامداً أو مشتقاً، فعلاً أو غير فعل، فالمراد بها ما يحتاج إلى غيره ليقوم به كالفعل ونحوه وليس المراد بها (الصفة النحوية) المسماة بالنعت. ينظر: الكرماني، تحقيق الفوائد الغياثية: 492/1

[3] ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم: 404

[4] سورة إبراهيم: الآية 3

[5] ينظر: الألوسي، روح المعاني: 176/7

ومنه الكناية الواردة في قوله تعالى: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ)[1] فإن قوله: (لا يعلمهم إلا الله) كناية عبر بها عن صفة الكثرة، إذ ذكر الموصوف أولاً وهو الموصول وصلته (والذين من بعدهم)، ثم كنى عن الصفة الحقيقية المقصودة (الكثرة) بصفة لازمة لها وهي قوله: (لا يعلمهم إلا الله)، وواضح من السياق أن المعنى المقصود من العبارة ليس اختصاص علم الله بهم، وإنما كثرتهم، أي بلغ عدد تلك الأمم من الكثرة حداً لا يحيط به إلا الله، فهي كثرة يستلزمها انتفاء علم الناس بها[2]، ويظهر الداعي البلاغي للكناية هنا في تقوية المعنى وتأكيده لأنه جاء مؤيداً بالدليل الذي يفيد عجز الناس عن الإحاطة بالعدد.

والذي جعل التركيب كناية جواز إرادة المعنى الأصلي أيضاً وهو ما فسر به ابن الأنباري[3] قائلاً: أي لا يحصي عددهم إلا هو، على أن الله تعالى أهلك أمما من العرب وغيرها، فانقطعت أخبارهم، وعفت آثارهم، فليس يعلمهم أحد إلا الله.[4] وقيل[5]: إن الكناية هنا عن الجهل بأحوالهم وتفاصيل حياتهم، والتقدير: لا يعلم كنه مقاديرهم إلا الله، لأن المذكور في القرآن مجمل، وأما ذكر العمر والعدد والكمية والكيفية فغير معلوم ولا حاصل لأحد من الخلق.

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 9

[3] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 196/13

[4] هو أبو بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، من أعلم أهل زمانه باللغة والأدب، ومن أكثر الناس حفظاً للأخبار والشعر، قيل: كان يحفظ ثلاثمائة ألف شاهد من القرآن الكريم. ولد في الأنبار وتوفي في بغداد سنة 328هـ، له مصنفات كثيرة منها: (الزاهر) في اللغة، و(عجائب علوم القرآن)، و(شرح الألفات). ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: 341/4، والزركلي، الأعلام: 334/6

[5] ينظر: ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير: 505/2

[6] ينظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 68/19

ومن صورها كذلك جملة (فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ) عبر بها البيان الإلهي عن ردّة فعل الذين كفروا تجاه رسلهم حين أظهروا لهم الأدلة والبراهين في قوله تعالى: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۚ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)[1]، وقد اختلف المفسرون في المراد من هذه العبارة وذهبت أقلامهم مذاهب شتى وتعددت حتى أوصلها الزمخشري إلى سبعة[2]، قال ابن عاشور: في بعضها بعد[3]. ولعل الظاهر كما رجح أبو حيان أن الأيدي هي الجوارح، والضمير في (أَيْدِيَهُمْ) وفي (أَفْوَاهِهِمْ) عائد على الأقوام الذين كفروا بالرسل[4]، وعليه تعني عبارة (رد الأيدي في الأفواه) أنهم وضعوا أصابعهم بين أسنانهم وعضوا عليها، كناية عن غيظهم وحنقهم مما جاءت به الرسل من البينات

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 9

[3] الأول: أنهم عضوا أصابعهم غيظا، قاله ابن مسعود، وابن زيد وهو ما اعتمدناه في دراستنا وبنينا عليه الكناية. والثاني: أنهم كانوا إذا جاءهم الرسول فقال: إني رسول، قالوا له: اسكت، وأشاروا بأصابعهم إلى أفواه أنفسهم، ردا عليه وتكذيبا، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أنهم لما سمعوا كتاب الله، رجعوا بأيديهم إلى أفواههم، ضحكاً واستهزاء كما يفعل من غلبه الضحك، والرابع: أنهم وضعوا أيديهم على أفواه الرسل يقولون: أطبقوا أفواهكم واسكتوا. والخامس: أنهم وضعوا أيديهم على أفواه الرسل يمنعونهم من الكلام. والسادس: أنهم أشاروا بأيديهم إلى أفواههم عند ردهم لدعوة الرسل يعنون بذلك: هذا جوابنا ليس عندنا غيره إقناطاً لهم من التصديق. والسابع: ردوا ما لو قبلوه لكان نعما وأيادي من الله، فتكون الأيدي بمعنى: الأيادي، و " في " بمعنى: الباء، والمعنى: ردوا الأيادي بأفواههم، ذكره الفراء، وقال: قد وجدنا من العرب من يجعل " في " موضع الباء، فيقول: أدخلك الله بالجنة، يريد: في الجنة، وأنشدني بعضهم :

وأرغب فيها عن لقيط ورهطه ولكنني عن سنبس لست أرغب

فقال: أرغب فيها، يعني: بنتا له، يريد: أرغب بها، وسنبس: قبيلة.

ينظر: الزمخشري، الكشاف: 542/2، الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 69/19، ابن الجزري، زاد المسير في علم التفسير: 506/2

[4] ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: 196/13

[5] ينظر: أبو حيان، البحر المحيط في التفسير: 412/6

والحق، وهو قول ابن مسعود، وقد ورد نظير ذلك مصرحاً بدلالته على الغيظ في موضع آخر من التنزيل في قوله تعالى: (عضُّوا عَلَيْكُمُ الأنامِلَ مِنَ الغَيْظِ) وهذه الكناية مشهورة في كلام العرب منها قول الشاعر[1]:

..... يَرُدُّونَ في فِيهِ عَشْرَ الحَسُودِ[2]

يريد الشاعر أنهم يغيظون الحسود حتى يعض على أصابعه العشر.

وقول آخر[3]:

قَدْ أفْنى أنامِلَهُ أزْمُهْ وأضْحى يَعَضُّ عَلَيَّ الوَظِيفا[4]

يعني قد أكل أصابعه حتى أفناها بالعض، فأضحى يعض عليّ وظيف الذراع.

وواضح الداعي لسلوك هذا الطريق في التعبير، لما بين التصريح بالغيظ وبين الكناية عنه بهذه الصورة من البون الشاسع في التأثير في نفس المتلقي، وترسيخ المعنى وبنائه على المبالغة، فأين كلمة (غيظ) من التعبير بـ (ردوا أيديهم في أفواههم) التي يظهر تأجج نار الحقد في نفوس هؤلاء القوم تجاه رسلهم، واستشاطة الغضب وامتلاء الصدور بالحنق والغيظ والحقد عليهم إلى الحد الذي جعله يخرج من غياهب الوجدان ويلقي بظلاله على ظاهرهم متخذاً لغة الجسد ومتمثلاً بحركات عفوية كالتهام الأصابع.

وكذلك نجد مثالاً للكناية عن الصفة في نسبة خلق السماوات والأرض لله تعالى أثناء الكلام على قدرته وعظمته، جاءت تمهيداً ومقدمة لبيان استغناء الله تعالى عن

---

[2] ينظر: الأزهري، تهذيب اللغة: 170/14

[3] لم أعثر على صدر البيت، وهذا الشطر ورد بلا نسبة في لسان العرب وتهذيب اللغة، مادة (يدي)

[4] ينظر: ابن منظور، لسان العرب: 424/15

[5] أزمه: من الأزم وهو العض، الوظيف: مستدق الذراع أي ما بين الرسغ إلى المرفق، تاج العروس، مادة (أزم) و(وظف). البيت لصخر الغي الهذلي في لسان العرب، وتهذيب اللغة مادة (يدي).

البشر واستعلائه عليهم، وتمكنه منهم تمكن إيجاد وإعدام فقال تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ)[1] حيث كنى البيان الإلهي عن صفة التمكن والقدرة والقوة وكذا حرية التصرف التام بالخلق كنى عن ذلك بقوله: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) إذ ذكر صاحب الوصف وهو الله تعالى ثم نسب إليه صفة خلق السموات والأرض التي يلزم من القدرة على خلقها على ما تتصف به السموات من ارتفاع وعظمة واتساع، والأرض من تباعد أقطارها ودقة انبساطها وتنوع مكنوناتها وتآلف عناصرها، يلزم من ذلك اتصافه بالقدرة التامة على كل شيء ومنه التحكم في مصير البشر.

وفي التعبير بهذه الكناية زيادة إيضاح وقوة بيان لا نجدها في التصريح بالصفة المكنى عنها، لما حمله المكنى به من أدلة وشواهد على إثبات نسبة المكنى عنه لله تعالى، فكان أن ظهرت الكناية بصورة الدعوى المشفوعة بدليلها.

ومن شواهد الكناية عن صفة كذلك ما ورد في قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم: (فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) حيث استعار الخليل الهوي - الذي يعني السقوط من الأعلى - للإسراع في المشي، ثم كنى بالإسراع عن محبة وشوق القاصدين إلى زيارة ذريته[2].

ومن شواهدها كذلك ما ورد على لسان الخليل عليه السلام وهو يثني على ربه ويحمده على نعمة الذرية بعد الكبر والعجز: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ)[3] وموضع الكناية هنا قوله: (لسميع الدعاء) أي مجيب الدعاء، متصف بالإجابة وصفاً ذاتياً، فالسميع مستعمل في إجابة المطلوب

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 19

[3] ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: 242/13

[4] سورة إبراهيم: الآية 39

كناية، وجاء على صيغة المبالغة أو الصفة المشبهة (فعيل) ليدل على كثرة ذلك منه حتى صار شأنه، وهو ما يعني أنها صفة ذاتية لله تعالى[1].

ومنه الكنايات الواردة في قوله تعالى: (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ) وبيانها: أن صيغة النهي في قوله: (ولا تحسبن) ظاهرها النهي عن حسبان ما ذكر، ولكن هذا النهي ليس على حقيقته، جيء به لإثبات ضده على سبيل الكناية، أي كني بالنهي عن تحقق ضد المنهي عنه وثبوته، في سياق حال يخشى أن يثير لدى الناس الظن بوقوع المنهي عنه لقوة الأسباب الداعية إليه وهي إمهال الله تعالى الكافرين وتأخير عقابهم الذي يشبه حال الغافل عن أعمالهم، فكان المعنى المراد بالكناية تحقق أن الله ليس بغافل. وفي عدم الغفلة كناية ثانية عن لازمها وهو المؤاخذة، فهي كناية بمرتبتين. ونفي الغفلة عن الله تعالى ليس جارياً على صريح معناه، وهو ظن لا يتلبَّس به مؤمن، فكان كناية عن النهي عن استعجال العذاب للظالمين[2].

ومنه الكناية الواردة في إبطاله تعالى لكيد الكافرين عند قوله: (وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)[3] فقوله: (عند الله مكرهم) كناية عن مجازاة الله تعالى لهم على مكرهم، وتفسر العبارة على وجهين[4]: الأول: أن المكر مضاف إلى الفاعل، والمعنى: ومكتوب عند الله مكرهم فهو يجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه.

الثاني: أن المكر مضاف إلى المفعول، والمعنى: وعند الله مكرهم الذي يمكر بهم، وهو عذابهم الذي يستحقونه. وفائدة الكناية هنا بيان أن الله تعالى محيط بما يحيكونه

---

[2] ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: 244/13

[3] ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: 246/13

[4] سورة إبراهيم: الآية 46

[5] ينظر: الزمخشري، الكشاف:565/2، وكذا: الرازي، مفاتيح الغيب: 110/19

من مكر ومطلع عليه عن قرب اطلاع المحرز للشيء على ما في حيازته، ولذا كان التعبير بالعندية الدالة على الحيازة والإحراز، ومن ثم فهو مبطل لما بيتوه من كيد ومكر ومعاقبهم عليه.

ومن شواهد هذا النوع من الكناية كذلك في سورتنا قوله تعالى على لسان الرسل في حوارهم مع المكذبين من أقوامهم: (وَما لَنا ألا نَتَوَكَّلَ عَلى اللهِ وقَدْ هَدانا سُبُلَنا)[1] قال أهل العلم: (ما) مستعملة في السؤال عن السبب والعذر، والمعنى: أيُّ عذر لنا في ترك التوكل على الله[2]، والغرض من الاستفهام النفي، أي نفي العذر والمبرر لترك الاعتماد على الله بعد أن علموا أنه الهادي والناصر لهم، وقد كنى أولئك الرسل بـ "السؤال" عن نفي العذر أو المانع من التوكل على الله، لأن السؤال يستلزم نفي المسؤول عنه. ولا ينكر ما في إيراد المكنى به في صيغة سؤال من قوة في المعنى، ومزيد من البيان والتأكيد على الاعتصام بالله والالتجاء إليه، مع تشنيع لضده المتمثل بالاعتماد على غيره، وتقريع للمقابل وتعريض له بمقابلة النعم بالكفر.

ومن الكناية التي تطلب بها الصفة أيضاً قوله تعالى على لسان كبراء أهل النار وزعمائهم الذين أضلوهم وغرروا بهم في الدنيا: (قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ)[3] في ردهم على طلب النجدة الصادر من أتباعهم وأشياعهم، وموضع الكناية هي قولهم (ما لنا من محيص) فأصل المحيص

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 12

[3] ينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل: 195/3، والشربيني، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: 173/2، والألوسي، روح المعاني:188/7، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 38/5، أبو العباس الأنجري، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 48/3

[4] سورة إبراهيم: الآية 21

من الحيص وهو العدول على جهة الفرار، يقال حاص فلان عن كذا، أي فرَّ وزاغ، يحيص حيصاً وحيوصاً وحيصاناً[1].

و(محيص) إما مصدر ميمي كمغيب ومشيب، أو اسم مكان نحو مبيت ومصيف[2]، والمعنى: ليس لنا محل نلوذ به فننجو فيه من العذاب، مرادهم الكناية بالمحيص عن صفة النجاة نفسها[3]، أي لا نجاة لنا في هذا اليوم ولا خلاص. وغرضهم من الكناية بالملجأ عن النجاة الإشارة لأشياعهم إلى حقيقة كانوا مغيبين عنها حتى تلك اللحظة مفادها أن السماوات والأرض وما فيهن ملك الله تعالى وأن لا ملجأ منه إلا إليه، وأنهم ظلموا أنفسهم لأنهم (مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)[4].

ومن صوره كذلك ما ورد مكنى به عن عظمة منافع إقامة الصلاة والإنفاق وأهميتهما إذا وقعتا في وقتهما المناسب، أي في دار الامتحان وهو الحياة الدنيا، وذلك في قوله تعالى: (قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ)[5] حيث كنى الباري عز وجل بنفي المعاوضة والخلة في قوله: (لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ) عن الانتفاع بما يقابلهما[6] وهو الانفاق في السر والعلن، وإقامة الصلاة لوجه الله تعالى لغرض حثِّ المخاطب عليهما، وكأنه يقول: ليقيموا الصلاة وينفقوا من قبل أن يأتي يوم ينتفع العاملون بما

---

[2] الرازي، مختار الصحاح، مادة (ح ي ص)

[3] ينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل: 197/3

[4] ينظر: الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 261/5

[5] سورة الزمر: الآية 67

[6] سورة إبراهيم: الآية 31

[7] ينظر: الألوسي، روح المعاني: 210/7، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 233/13

قدموه ويعض المقصرون على أصابعهم ندماً على التفريط، "إذ لا بيع يومئذٍ فيشترى الثواب، ولا خلال من شأنها الإرفاد والإسعاف"[1].

وقد عدل النظم الحكيم إلى هذا الأسلوب لإفادة الحصر بأن ما ذكر وحده ما ينتفع به يوم الجزاء، وليفيد كذلك المضادة بين ما ينتفع به المرء عاجلاً في الحياة الدنيا، وما ينفعه آجلا في الحياة الآخرة[2].

2- الكناية عن موصوف

وهي التي يطلب بها موصوف، وضابط هذا النوع من الكناية أنا نذكر الصفة والنسبة ولا نذكر الموصوف المكنى عنه[3]، وهنا يتجلى لك الفرق بين هذا القسم وبين الكناية عن صفة الذي سبق الحديث عنه، إذ إن الغرض من الكناية هنا التوصل بها إلى معرفة الموصوف المحذوف من خلال الصفة التي تكون مختصة به ودالة عليه، ولتوضيح ذلك تأمل معي قول الشاعر:

وَلــي بَيـنَ الضُلوعِ دَمٌ وَلَــحمٌ هُما الواهي الَّذي ثَكِلَ الشَبابا[4]

فقد ذكر الشاعر ما لا يصدق إلا على القلب من الصفات وهي كونه دم ولحم بين الضلوع، وكنى بها عنه، جاعلاً منها أدلة تقود المتلقي إلى المكنى عنه بيسر وسهولة[5]. ولعل غرض الشاعر من الكناية هنا بيان أن القلب على رأس الأعضاء التي يسهل تأثرها وانكسارها بسبب المواد المكونة له.

ومن شواهد هذا القسم في سورة إبراهيم نذكر:

---

[2] ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: 233/13

[3] ينظر: الألوسي، روح المعاني: 210/7

[4] ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم: 404، والهاشمي، جواهر البلاغة: 288، وعبد العزيز عتيق، علم البيان: 215

[5] البيت لأحمد شوقي من قصيدة "سلوا قلبي". ينظر: ديوان أحمد شوقي: 23

[6] ينظر: فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها: 254

قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)[1] فقد اختلف أهل العلم في المراد بـ (صبار شكور) على قولين:

القول الأول: أنهما صفتان جاءتا على صيغة المبالغة، تشعران أن المراد بـ (أيام الله) ابتلاءاته ونعماؤه، وينتفع بهما من اتصف بالصبر على البلاء والمحن، والشكر على العطايا والمنن، فإذا سمع بما أوقع الله من البلاء والنقم على الأمم، أو أسبغ عليهم من النعم اعتبر بها وتنبه إلى ما يجب عليه من الصبر والشكر[2].

الثاني: أن صفتي الصبور والشكور كناية عن المؤمن[3]، على سبيل الكناية البعيدة التي تجتمع فيها عدة معان وتتضافر مشكِّلةً واسطة توصل إلى الموصوف المكنى عنه نظير قولهم: (حي مستوي القامة بادي البشرة) في الكناية عن الإنسان[4]، فتكون (أيام الله) آيات ودلائل لكل مؤمن، وفائدة التعبير بهاتين الصفتين عن المؤمن الإشعار بأنهما صفتان قائمتان بالمؤمن سجية وطبعاً، قال ابن عطية: " فَأَخَذَ مِن صِفاتِ المُؤْمِنِ صِفَتَيْنِ تَجْمَعانِ أَكْثَرَ الخِصالِ، وتَعُمّانِ أَجْمَلَ الأَفْعالِ"[5] وهما عنوان المؤمن الدال على ما في باطنه، تختصان به وتلازمانه، ولذا كان التعبير بهما سبيلاً للانتقال بذهن المخاطب مباشرة من الصفة إلى الموصوف.

ومن أمثلته أيضاً ما جاء على لسان مكذبي الرسل من أقوام نوح وعاد وثمود: (وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)[6] حيث كنى

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 5

[3] ينظر: الزمخشري، الكشاف: 540/2، وأبو حيان، البحر المحيط في التفسير: 410/6

[4] ينظر: الألوسي، روح المعاني: 179/7

[5] ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم: 404، والألوسي، روح المعاني: 179/7

[6] ابن عطية، المحرر الوجيز: 324/3

[1] سورة إبراهيم: الآية 9

أولئك القوم بقولهم: (ما أرسلتم به) عن الشرائع التي كُلّف الرسل بتبليغها والبينات التي أيدهم الله بها من أدلة وبراهين، ومعجزات شاهدة على صدق دعواهم وحقيقة رسالتهم، ومعنى قولهم هو: إنا كفرنا بما زعمتم أن الله أرسلكم وبما تدَّعونها من بينات ومعجزات، وغرض القوم من هذه الكناية الاستخفاف بمعجزات الرسل والتحقير من شأنها من خلال الكناية عنها وعدم إجراء اسمها على ألسنتهم، وكأنها لا تستحق الذكر، ظناً منهم أن في ذكرها منسوبة للرسل نوع تسليم بها وإذعان، وهم في معرض إنكارها والكفر بها.

ومن الكناية التي يطلب بها الموصوف ما ورد في آخر آية من سورة إبراهيم في قوله تعالى مسدلاً الستار على السورة الكريمة: (هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) فكنى بـ (أولوا الألباب) عن "علماء الحقيقة وأساطين المعرفة وعشاق الحضرة وأمناء خزائن المملكة"[1] الإلهية، أي ذوي العقول المتفكرة والأفهام السليمة والبصائر النيرة، وإسناد التذكر والاعتبار والاتعاظ إلى هؤلاء والكناية عنهم بذوي الألباب إشعار بأنهم هم من يجدي فيهم التذكير وينفعهم الإنذار والتنبيه[2]، وقيل[3]: بل هي كناية عن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

3- الكناية عن نسبة

النسبة هي إثبات شيء لشيء أو نفيه عنه، وهنا نذكر الصفة والموصوف كليهما، ولكننا بدل أن نضيف الصفة لصاحبها، ننسبها لشيء آخر يتعلق به[4]، فتتوارى بذلك

---

[2] الألوسي، روح المعاني: 245/7

[3] ينظر: أبو حيان، البحر المحيط في التفسير: 460/6

[4] ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: 348/3، والعليمي، مجير الدين بن محمد المقدسي، فتح الرحمن في تفسير القرآن، دار النوادر (إصدَارات وزَارة الأوقاف والشُؤُون الإِسلامِيّة - إدَارَةُ الشُؤُونِ الإِسلاَمِيّة)، الطبعة: الأولى، 1430هـ - 2009م، 538/3

[5] ينظر: النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب: 60/7

النسبة الحقيقة خلف النسبة المذكورة. وما أدق بيان عبد القاهر الجرجاني لمعناها حين يقول: "إنهم يرومون وصف الرجل ومدحه، وإثبات معنى من المعاني الشريفة له، فيدعون التصريح بذلك، ويكنون عن جعلها فيه بجعلها في شيء يشتمل عليه ويتلبّس به "[1]

ومن الأمثلة المشهورة لهذا النوع في كتب البلاغة[2] بيت زياد الأعجم في مدح عبد الله بن الحشرج:

إِنَّ السَّماحَةَ وَالمُروءَةَ وَالنَّدى في قُبَّةٍ ضُرِبَت عَلى ابنِ الحَشرَجِ[3]

فإن الشاعر أراد إثبات السماحة والمروءة والندى خلالاً لممدوحه فعدل عن التصريح بنسبتها له إلى نسبتها إلى متلبس به وهو القبة المبنية على قبره، فوفق الشاعر بذلك إلى الجزل المحبوك من الكلام والفخامة في البيان، وأظهر المعنى المراد برشاقة بعيدة كل البعد عن التصريح الساذج.

ولم تخل السورة الكريمة من أمثلة لهذا النوع من الكناية، الذي نجده في قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (13) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ)[4] فاسم الإشارة (ذلك) يعود على المذكور آنفاً من إهلاك الظالمين واستبدال المؤمنين بهم بإسكانهم في ديارهم وعداً من الله تعالى، واللام في

---

[2] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: 199

[3] ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: 200، والعلوي، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: 93/1، والسبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح:214/2

[4] البيت في ديوان زياد الأعجم: 49، واستشهد به السكاكي في "مفتاح العلوم": 407، والعلوي في "الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز": 93/1

[5] سورة إبراهيم: الآيتان 13، 14

(لـمن) للملكية أي عطاء وتمليك له من الله، وتظهر الكناية في نسبة المقام إلى الله تعالى في قوله: (خاف مقامي) كشرط لاستحقاق المكافأة المذكورة، فقد كثرت تأويلات المفسرين لهذه العبارة وتنوعت[1] ومن أحسن ما قيل: أن المقام هو مكان القيام وهو مشتق من الفعل قام يقوم، ولما كان القيام غير وارد في حق الذات الإلهية أمكن تأويله بالقيمة العالية والقدر الكبير العظيم والمنزلة الرفيعة، وقد جاء هذا "اللفظ مقحماً لغرض المبالغة في تعلق الفعل بالمفعول"[2] على سبيل الكناية، نظير قوله تعالى في موضع آخر: (ولِمَن خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ) وبيان الكناية: أن النظم الحكيم لم يعلق الخوف بلفظ الجلالة مباشرة وبشكل صريح وإنما نسبه إلى (المقام) المتعلق به والمضاف إليه، وتأمل معي التعبير بـ(خاف مقامي) والرهبة التي ألقاها على المشهد مقارنة بما لو قال: (خافني) لأن المبالغة في الخوف من شيء يؤدي إلى الخوف من متعلقاته وما يتصل به، وهذا الأسلوب متعارف عليه بين العرب فهم يقولون: (فلان قصَّر في جانبي) لإضفاء مزيد من القوة والمبالغة على المعنى، والمهابة والسمو على المضاف إليه، وهو ما سار عليه القرآن في قوله تعالى: (أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ)[3]

---

[2] ذكر ابن الجوزي قولين، الأول: أن المراد بذلك قيام الإنسان بين يدي ربه عز وجل يوم الجزاء؛ لأن الناس يقومون فيه للحساب وتعرض أعمالهم على الثواب والعقاب، كما ورد في قوله تعالى: (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ) وعلل الشريف الرضي إضافة القيام الى الله تعالى بأن الحكم في ذلك اليوم يكون خالصاً لله تعالى لا يشاركه فيه حاكم، والثاني: أن القيام المقصود هو قيام الله على عبده بإحصاء ما اكتسب. وقيل: إن للمقام هنا معنى أخر، وهو ما تسميه العرب بالمقامات أو المقاوم، تعني به اجتماعهم في أسواقهم للتفاخر بمكارمهم وأعمالهم. وعليه يكون المراد بالمقام هنا الموضع الذي يقص فيه سبحانه على بريّته محاسن أعمالهم، ومقابح أفعالهم، لاستحقاق ثوابه وعقابه، واستيجاب رحمته وعذابه. ينظر: أبو عبيدة، معمر بن المثنى التيمى، مجاز القرآن، مكتبة الخانجى – القاهرة، الطبعة: 1381هـ، 337، والشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن: 182/2، وابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير: 213/4

[3] الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 208/13

[4] ينظر: المرجع السابق: الموضع نفسه.

ولعل الداعي البلاغي من الكناية بتعليق فعل الخوف بالمقام على أنه مفعول به هو الدلالة على هيمنة الباري عز وجل على يوم الجزاء، وبيان أن إجراء الحساب حينئذ يكون بإشراف كامل منه واطلاع تام شأن القاضي القائم والمشرف على إجراءات المحاكمة وتنفيذ الحكم، وهو معنى توحي به كلمة (مقام) التي من ظلالها الحضور والمراقبة والإشراف، وهذه الصفات وإن كانت ثابتة لله تعالى في كل وقت وحين فإنها تكون يوم الحساب جلية لكل الخلق لا مجال لإنكارها.

وبمزيد من التأمل والبحث في السورة الكريمة يظهر لنا مثال ثان للكناية عن نسبة في قوله تعالى يصف الجنة التي أعدت للذين آمنوا: (وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ)[1] حيث كنى بـ (تجري من تحتها الأنهار) عن المكانة العالية لتلك الجنات كونها مرتفعة عن الأنهار، ولما كانت الجنات مسكناً للمؤمنين الفائزين بنعيمها، كان التعبير بما سبق كناية عن نسبة الرفعة لمقامهم أيضاً، فقد عدل النظم الحكيم عن التصريح بسمو قدرهم وعلو منزلتهم إلى النكاية، فأثبت الشرف والسيادة لمتعلق بهم وهو محل إقامتهم بجعله مرتفعاً شامخاً، ليتنقل ذهن المخاطب بالوصف فينسبه لهم.

---

[1] سورة إبراهيم: الآية 23

الفصل السادس: البراعة القرآنية في توظيف المحسنات البديعية

وقع علماء البيان أثناء تصنيفهم لعلوم البلاغة على منثورات جمالية متفرقة لا تندرج تحت علم المعاني ولا علم البيان، تضفي على الكلام حسناً وتكسوه جمالاً وروعة شأنها في ذلك شأن ما تتزين به النساء من قرط وخلخال وسوار وأصباغ وألون وغيرها، فجمعوها تحت مسمى واحد أطلقوا عليه (البديع). وأحس أهل البلاغة أن المحسنات والجماليات هنا عرضية بخلاف التي في علمي المعاني والبيان فهي ذاتية.

وقد اشترطوا لهذه الزينة كي تؤدي دورها في تحسين الكلام أن تتقيد بشروط أهمها: الإتقان البالغ، والطبعية، والتلقائية، وإخفاء قصد التجميل والتزيين بها حتى تبدو عفوية بعيدة عن التكلف وتلقائية لا يشوبها التصنّع.

معنى البديع

البديع لغة لفظ يطلق على إحداث الشيء واختراعه، وكذا على الشيء الجديد أو الناشئ، يقول الزمخشري: "أبدع الشيء وابتدعه: اخترعه .. وسقاء بديع: جديد"[1]. وجاء في لسان العرب: بدع الشيء يبدعه بدعاً وابتدعه: أنشأه وبدأه.. والبديع الشيء الذي يكون أولاً"[2] ومنه (البديع) الوارد في الذكر الحكيم: (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ)[3] أي منشئهما على غير مثال سابق، فالمعنى اللغوي للكلمة يدور حول إيجاد الشيء واختراعه على غير مثال.

وأما اصطلاحاً فقد عرفه الخطيب القزويني بأنه: "علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة"[4]، فهو العلم الذي

---

[2] الزمخشري، أساس البلاغة: 50/1

[3] ابن منظور، لسان العرب: مادة (بدع)

[4] سورة البقرة: الآية 117

[5] الخطيب القزويني، تلخيص المفتاح (ضمن شروح التلخيص): 282/4

تعرف به الوجوه والمزايا التي تزيد الكلام حسنا وطلاوة، وتكسوه بهاءً ورونقاً، بعد مطابقته لمقتضى الحال مع وضوح دلالته على المراد لفظا ومعنى[1][2].

وبمقارنة المعنى اللغوي للكلمة بما اصطلح عليه لا نجد بينهما تناسباً أو قرابة إلا ربما من حيث معنى الولادة والظهور، لأن هذا اللفظ أطلق على لون من البلاغة وتفنن في القول وتزيين له ظهر في أشعار الشعراء المولدين من أمثال مسلم بن الوليد، وبشار وأبي تمام، استحدثوه واعتنوا بإبرازه في أشعارهم فكان بدعاً من القول وفناً جديداً مبتكراً.

ولمعرفة موقع هذا العلم من خريطة فنون البلاغة والوقوف على نسبته إلى علمي المعاني والبيان نعود فنقول: إن علمي المعاني والبيان يبحثان في صميم المعنى المراد، فعلم المعاني يدرس تكييف المعنى ليكون مطابقاً لمقتضى حال المخاطب والموقف الذي يجري له الكلام، بحيث يظفر المعنى بأقصى درجات الموافقة والمطابقة لذلك، ويسعى علم البيان إلى تقديم ذلك المعنى للمتلقي بصور مختلفة ومتفاوتة من حيث وضوح الدلالة، وأما علم البديع - موضوع هذا المبحث - فيوجه عنايته إلى اللفظ أو المعنى من حيث تزيينه وتجميله وبهرجته على نحو يهيج الحس الجمالي عند الإنسان فيثير به النفس المرهفة لتبتهج والعقل لينتعش من خلال إبراز جماليات الأداء أو الصياغة، ووجوه تحسين الكلام.

أنواع المحسنات البديعية

---

[2] ينظر: الهاشمي، جواهر البلاغة: 298

[3] وعرفه ابن خلدون في مقدمته بالنظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق: إما بسجع يفصله، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه، أو ترصيع يقطع أوزانه، أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه، لاشتراك اللفظ بينهما، أو طباق بالتقابل بين الأضداد وأمثال ذلك. ينظر: ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، 1408هـ - 1988م، 1066

درج علماء البلاغة على تقسيم المحسنات التي يزين بها الكلام على نوعين[1]:

- المحسنات المعنوية: وهي التي يكون التجميل فيها عائداً إلى المعنى أولاً ذاتاً، ويتبعه تحسين اللفظ ثانياً عرضاً.
- المحسنات اللفظية: وهي التي يكون وجه الحسن والجمال راجعاً فيها إلى اللفظ أولاً بالذات، ويتبعه تحسين المعنى ثانياً عرضاً.

وخير ضابط يعين على التفريق بين النوعين أن نستبدل باللفظ المستخدم مرادفه، فإن زال الحسن دلَّ على أن المحسن متعلق باللفظ فهو من النوع الثاني، وإن بقي المحسن على ما كان عليه قبل التغيير كان الحسن متحرراً عن اللفظ وراجعاً إلى المعنى[2].

ونحن سنسير في دراستنا هذه وفق التقسيم المذكور وفيما يلي تفصيل للمحسنات التي تندرج تحت كل قسم مع أمثلتها وشواهدها من السورة الكريمة.

المبحث الأول: المحسنات المعنوية

لما كانت المعاني أصلاً وجوهراً، والألفاظ أعراضاً وقوالب لها فقد آثرنا البدء بالبديع المتعلق بالمعنى:

الأول – الطباق:

ويطلق على هذا اللون من البديع أسماء أخرى هي التطبيق، والمطابقة، والتضاد.

---

[2] ينظر: الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، المغربي، ومواهب الفتاح شرح تلخيص المفتاح، والتفتازاني، مختصر المعاني (ضمن شروح التلخيص): 285/4

[3] ينظر: لاشين، عبد الفتاح، البديع في ضوء أساليب القرآن، دار الفكر العربي، مصر، القاهرة، 1419هـ، 1999م، 23

وهو مأخوذ لغة من قولهم: طابق البعير، إذا وضع رجله موضع يده، قال الخليل بن أحمد: طابقت بين الشيئين، إذا جمعت بينهما على حد واحد[1]. ومنه استلهم معناه الاصطلاحي وهو: "الجمع بين المتضادين أي معنيين متقابلين في الجملة"[2]، لأن في وضع اليد محل الرجل جمع بين مختلفين متقابلين في موطئ واحد كما هو الشأن في الجمع بين الشيء وضده.

والجمع بين المعنيين المتضادين قد يكون على سبيل الحقيقة أو المجاز، وشرط التطابق التقابل بين المعنيين فقط، ولا يضر اختلاف نوع اللفظين الحاملين للمعنى كأن يكون أحدهما فعلاً والآخر اسماً[3].

طباق الإيجاب[4]

وهو الجمع بين لفظين تضاد معناهما وكل منها مثبت، أي إن الكلمات تكون متضادة من حيث الوضع اللغوي لا بسبب الإيجاب والسلب. وهو يكون بين الاسمية والفعلية والحرفية[5]. ومن أمثلته في السورة الكريمة ما يلي:

---

[2] الكفوي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية: 844

[3] الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة (ضمن شروح التلخيص): 286/4، وينظر: وهبة، مجدي- المهندس، كامل، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، 1984هـ، 130

[4] ينظر: عبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 380/2

[5] ينظر: ابن أبي الإصبع، عبد العظيم بن الواحد بن ظافر العدواني، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، 112

[6] ينظر: جبر، مصطفى السيد، دراسات في علم البديع، دريم للطباعة، الطبعة الرابعة، 1428هـ، 2007م، 20

قوله تعالى: (فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[1] الطباق واقع بين لفظي (يضل) و(يهدي) فهما متضادان في المعنى، وقد جاء المعنيان بصيغة الفعل المثبت، قال الزمخشري: "فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء كقوله: فمنكم كافر ومنكم مؤمن، لأن الله لا يضل إلا من يعلم أنه لن يؤمن"[2] أي إن الله تعالى يضل من علم منه اختيار الضلالة، أو أن فعل المشيئة عائد على الإنسان فيكون المعنى أن الله يضل من يشاء الضلالة ويختارها من الناس[3]. ويبدو أثر الطباق في المعنى بما يصوره هذان المعنيان المتضادان من التفاوت في الحظوة بين من شملته عناية الباري وألطافه فنال الهداية وأفلح، ومن سار في طريق الكفر وعكف على الموبقات فخلق الله تعالى فيه الضلال لوجود أسبابه المؤدية. وتقديم الإضلال على الهداية إما لأن الإضلال بقاء على ما كان والهداية إنشاء ما لم يكن، أو للمبالغة في نفي تأثير تذكير الرسل وتبيينهم بالتأكيد على أن الأمر رهن مشيئة الله تعالى، وذلك بإيهام أن ترتب الضلالة على التذكير والتبيين أسرع من ترتب الاهتداء[4].

وكذلك الطباق بين فعلي (نخفي) و(نعلن) في قوله تعالى: (رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)[5] فإن بينهما تضاداً في المعنى إذ الإخفاء هو عكس الإعلان، وهو من طباق الإيجاب كون الفعل (نخفي) هو ضد للفعل (نعلن) في الوضع اللغوي لا باعتبار النفي والإثبات.

والعبارة حكاية عن قول سيدنا إبراهيم عليه السلام مناجياً ربه أن يلطف بذريته التي تركها خلفه في الواد غير ذي الزرع، والمراد بـ (ما نخفي وما نعلن) ما نكتمه وما

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 4

[3] الزمخشري، الكشاف: 539/2

[4] ينظر: عزت، دروزة محمد، التفسير الحديث، دار إحياء الكتب العربية – القاهرة 1383هـ، 462

[5] ينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 32/5

[6] سورة إبراهيم: الآية 38

نظهره، لأن الظاهر والمضمر بالنسبة إلى علم الله تعالى سيان لا تفاوت فيهما. وقد تعددت الأقوال في مراد الخليل من ذلك فقيل[1]: إنه قصد بالإخفاء حبه لإسماعيل وأمه، وبالإعلان ما يظهره لسارة من الجفاء لهما، وقيل: ما نخفي من الوجد لما وقع بيننا من الفراق، وما نعلن من البكاء والدعاء، وقيل: ما نخفي من الحزن على الفراق، وما نعلن من قولنا لهاجر عند الوداع نكلكم إلى الله. وفائدة التعبير بهذا المحسّن البديعي مع تقديم الإخفاء هي الدلالة على أنهما مستويان في علم الله عز وجل، فليس الظاهر بأقرب إليه من الباطن، بل ربما الغرض إفادة أسبقية تعلق علم الله تعالى بالسر على تعلقه بالعلن[2]، وبيان ذلك أن مرتبة السر والخفاء متقدمة على مرتبة العلن وسابقة عليها في الوجود، فما من أمر يعلنه الإنسان إلا ويمر بمرحلة السر قبل الإعلان، فإحاطة علم الله تعالى بحالته في الخفاء أقدم من تعلقه بحالته الثانية. هذا بالإضافة إلى غرض الشمول والعموم الذي حققه الطباق هنا إذ جعل علم الله تعالى شاملاً لكل شيء في الوجود لكونه متعلقاً بالمخفي والمعلن، بالظاهر والباطن، والموجودات لا تخرج عن أحد هذين الوصفين.

ومن أمثلة الطباق الموجب كذلك في السورة ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾[3] فإن هناك مقابلة خفية بين لفظي (لنخرجنكم) و(لتعودن) أو ما يعرف في اصطلاح أهل البلاغة **بالطباق الخفي وهو "أن تكون الضدية في الصورة متوهمة، أي خفية لتعلق أحد الركنين بما يقابل الآخر تعلق السببية أو اللزوم"**[4] فالإخراج وإن كان عكسه الإدخال لفظاً فإنه يقابل

---

[2] ينظر: السمرقندي، بحر العلوم: 246/2، الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 43/3، النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 200/4

[3] ينظر: الألوسي، روح المعاني: 227/7

[4] سورة إبراهيم: الآية 13

[1] عبد الفتاح لاشين، البديع في ضوء القرآن الكريم: 31، وينظر: ابن معصوم، أنوار الربيع في أنواع البديع: 91، علان، البديع في القرآن أنواعه ووظائفه: 226

العودة هنا لكون العودة سبباً للدخول في معتقد القوم، فهم قد خيروا الرسل وأتباعهم من المؤمنين بين الخروج من ديارهم، واعتناق معتقداتهم الباطلة، فاستخدموا لفظ (العودة) للتعبير عما يستلزمه من الدخول في دينهم، فيكون المعنى مقابلاً للوعيد المهدد به وهو (الإخراج)، وفي ذلك إخطار لهم بأن لا معبود في هذه الأرض سوى أصنامهم، وأن العودة - والمراد بها البقاء - تعني الرجوع عن دينهم الحق إلى ما كان يعبد هؤلاء القوم، فلا معتقد يعتنق إلا دينهم الباطل، وهم بالخيار إما الخروج من الديار أو الدخول معهم في عبادة الأصنام. فكان لفظ العودة مقابلاً للإخراج من حيث هو سبب للإدخال.

ومما جاء فيه **الطباق خفياً** أيضاً قوله تعالى: (وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ)[1] فإن هناك تقابلاً وتضاداً في المعنى بين (الضعفاء) و (الذين استكبروا) وإن كان عكس لفظ الضعفاء هو الأقوياء، فإن الاستكبار ناجم عن القوة ومسبَّب عنه، فلولا صولة هؤلاء الزعماء وسلطانهم لما رأيتهم يتكبرون في الأرض ولما خضع لهم أشياعهم وأتباعهم، وبذلك يكون بين المعنيين طباق وتضاد. ولا يخفى الدور الذي لعبه الطباق هنا في إظهار المعنى بعبارة موجزة أغنت عن ذكر ما كان عليه أولئك الرؤساء من القوة والجبروت، من خلال ما أوحى به لفظ (الضعفاء) من قوة المقابل وتسلطه.

وقد تضمنت الآية كذلك طباقاً موجباً بين فعلي (صبرنا) و (جزعنا) فالصبر ضد للجزع الذي يعني ما يصيب الإنسان من الاضطراب والقلق وضيق الصدر وعدم الاحتمال والصبر، وجاءت الهمزة مع أم للتأكيد على التسوية بين المتطابقين من حيث عدم الجدوى في التخليص والإنجاء.

---

[1] سورة إبراهيم: الآية 21

وفي الجمع بين المعنى وضده هنا دلالة على تمكن شعور اليأس والقنوط من نفوسهم فلا صبر ينفع ولا جزع يفيد، وهم بعبارتهم هذه يعلنون لأتباعهم العجز التام، ومن المعلوم أن اعتراف الرؤساء والسادة والمتبوعين بمثل هذا العجز والخزي والنكال يوجب لهم من الذلة والمهانة ما يجعله لوناً آخر من العذاب يضاف إلى عذابهم.

ومن الطباق الموجب أيضاً الطباق الواقع في الأسماء بين لفظي (الظلمات) و (النور) في قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)[1] فالظلمة يقابلها النور وهما معنيان متقابلان جمع النظم الحكيم بينهما في هذه الجملة مستخدماً مع الطباق الاستعارة تجسيداً لمعاني الكفر والضلال والجهل وما يقابلها من الإيمان والعلم والهداية، وإبرازاً لهما في ثوب الظلمة والنور بما تمثله الظلمة في نفس المخاطب من شر وتشاؤم، والنور من خير وتفاؤل، مما يجعل هذه المعاني أكثر وضوحاً وأنجع تأثيراً لغرض التنفير من الكفر والترغيب في الإيمان.

ومن شواهده أيضاً ما وقع بين لفظي (سراً) و (علانية) في قوله تعالى: (قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً)[2] فالسر ضد العلن وهما اسمان، والنصب في اللفظين المتطابقين على المصدرية أي إنفاق سر وعلانية، أو على الظرفية والمعنى في وقتي سر وعلانية، أو على الحالية أي ذوي سر وعلانية[3]، وعلى هذا الأخير يكون المراد تعميم الأحوال في طلب الإنفاق حتى لا يظنوا أن إعلان الصدقة يجر إلى الرياء كما كان الحال في الجاهلية، أو أن الإنفاق (سرا) يؤدي إلى إخفاء الغني نعمة الله؛ فيجر إلى كفران النعمة، فربما توخى المرء أحد الحالين

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 5

[3] سورة إبراهيم: الآية 31

[4] ينظر: الزمخشري، الكشاف: 556/2، البيضاوي، أنوار التنويل: 199/3، الزحيلي، التفسير المنير: 248/13

فأفضى إلى ترك الإنفاق في الحال الآخر فتعطل خير كثير، وثواب جزيل، فبين الله تعالى للناس أن الإنفاق بر كله لا يكدره ما يحف به من الأحوال، وإنما الأعمال بالنيات[1].

وقيل: أراد بالسر صدقة التطوع وبالعلن الفرض، وفي تقديم السر على الإعلان تنبيه على أن الأحب والأولى إخفاء المتطوع به من الصدقة وإعلان الصدقة الواجبة تفاديا خطر الرياء وصون كرامة المتصدق عليه في الأولى[2]، والحرص على إظهار الشكر للمنعم في الثانية.

ومنه كذلك الطباق بين السماء والأرض في قوله: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ)[3] وبين الشمس والقمر في قوله: (وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ)[4] وبين الليل والنهار كذلك في قوله تعالى: (وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)..

وبعد سرد هذه الأمثلة نستطيع تلمُّس مواطن الحسن في هذه اللون من البديع، وتبيّن جمالياته، متمثلة بالطلاوة التي يلقيها على الكلام، والبهاء والحلاوة التي يشيعها في جو العبارة، والدور الذي يؤديه في إثارة الذهن وتهييجه من أجل استيعاب الكلام بشكل أسرع وأعمق، إذ يلم شتات المتنافرات في موضع واحد، فيحث الذهن على تصور الشيء وإدراكه بذكر ضده، فيحصل للنفس نوع من الأنس والبهجة، "ويبدو أن المتباعدات في المعنى أقدر من غيرها على تنشيط الفعالية الإدراكية"[5]

---

[2] الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 233/13

[3] ينظر: محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 559/7

[4] سورة إبراهيم: الآية 32

[5] سورة إبراهيم: الآية 33

[6] عيسى العاكوب، المفصل في علوم البلاغة: 561

طباق السلب

عرفه القزويني في الإيضاح بأنه: "الجمع بين فعلي مصدر واحد مثبت ومنفي، أو أمر ونهي"[1] أي أن ترد في العبارة كلمتان إحداهما مثبتة والأخرى منفيه، ويدخل فيه مقابلة الأمر للنهي[2]. كما في التطابق الحاصل بين فعلي المصدر (علم) في قوله تعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)[3] فإن قوله: (يعلمون) مقابل لقوله: (لا يعلمون) من حيث إن الأول مثبت والآخر منفي.

ولم تكن شواهد هذا النوع من الطباق في السورة الكريمة بوفرتها من النوع الأول، فلم تقف الدراسة من أمثلته إلا على ثلاثة فقط هي:

في قوله تعالى حكاية عن قول إبليس لأتباعه: (فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ)[4] حيث اختلف فيه فعل اللوم إيجاباً وسلباً، أمراً ونهياً، فتحقق التقابل بين فعليه (فلا تلوموني) و (لوموا أنفسكم)، ويظهر الغرض البلاغي من الطباق هنا في تقوية المعنى وترسيخه، فالشيطان يؤكد من خلال اللفظين المتضادين نفي اللوم الموجه إليه من أشياعه، محاولاً إبعاد التهمة عنه نهائياً باستخدام ذات الفعل مرتين؛ الأولى بإيراده نهياً (فلا تلوموني) وفي الثانية أمراً موجهاً للأتباع (ولوموا أنفسكم) والمعنى: "فلا تلوموني بوسوستي، فإن من صرح بالعداوة لا يلام بأمثال ذلك، ولوموا أنفسكم حيث أطعتموني إذ دعوتكم ولم تطيعوا ربكم لما

---

[2] الخطيب القزويني، محمد بن عبد الرحمن، الإيضاح في علوم البلاغة، دار الجيل – بيروت، الطبعة الثالثة، 290/4

[3] ينظر: ابن أبي الأصبع، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر: 114، وعبد الفتاح لاشين، البديع في ضوء القرآن الكريم: 28

[4] سورة الزمر: الآية 9

[5] سورة إبراهيم: الآية 22

دعاكم"[1]، وفي هذا الأسلوب تأكيد للمعنى وتعزيز لا يتحصل إذا اقتصرنا على ذكر أحد طرفي الطباق.

ونجد المثال الثاني للطباق السلبي في المقابلة الواقعة بين (ويأتيه الموت) وقوله: (وما هو بميت) في قوله تعالى يصف حال الكافر وهو يقاسي العذاب يوم القيامة: (وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ)[2] فالعبارتان المتضادتان تحملان معنى: (يموت) و (لا يموت) في تصوير مشهد لا تجد عبارة أكثر دلالة وأوضح بياناً وأدق تعبيراً من المعنى الذي يؤديه اجتماع هذين المعنيين المتطابقين، فالكافر يقترب من الموت حتى كأن الموت يأتيه بمخالب أسبابه بما يلاقيه من التعذيب فلا يبقى عضو من أعضائه إلا وُكِّلَ به نوع من العذاب، "لو مات سبعين مرة لكان أهون عليه من نوع منها في فرد لحظة"[3].. لكن إرادة الله تعالى تمنع عنه الموت فلا يموت، ليستمر في تذوق العذاب المحيط به من كل جانب كما ورد صريحاً في موضع آخر في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ)[4]

وأما الشاهد الثالث فهو في قوله تعالى حكاية عن قول سيدنا إبراهيم: (رَبَّنَا إِنَّكَ **تَعْلَمُ مَا نُخْفِي** وَمَا نُعْلِنُ **وَمَا يَخْفَى** عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)[5]

---

[2] البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 197/3، صديق خان، فتح البيان في مقاصد القرآن: 105/7، الألوسي، روح المعاني: 197/7

[3] سورة إبراهيم: الآية 17

[4] القرطبي، محمد بن فرح، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة الثانية، 1384هـ - 1964 م، 352/9

[5] سورة النساء: الآية 56

[6] سورة إبراهيم: الآية 38

وموضع الشاهد التضاد بين كلمتي (ما نخفي) و (ما يخفى)[1] فـ (ما) الأولى موصولة بمعنى (الذي) والثانية نافية. وعليه يكون أحد المعنيين مثبتاً وهو (ما نخفي) والثاني منفياً وهو (ما يخفى).

المقابلة

وقد جعلها بعض أهل العلم نوعاً من البديع مستقلاً عن الطباق قائماً بنفسه، بينما عدها آخرون قسماً مندرجاً تحت الطباق، إذ لا فرق بينها وبين الطباق إلا من حيث عدد المعاني المتضادة[2]، ففي حين نرى في الطباق معنيين اثنين متقابلين نحو قوله تعالى: (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ)[3] نجد هذه المعاني المتقابلة تتكاثر في المقابلة لتصل إلى خمسة أو ستة أزواج أحياناً نحو قول الشاعر:

على رَأس عبدٍ تاجُ عِزٍّ يزينهُ وَفِي رِجْلِ حرّ قيد ذُلٍّ يَشينهُ[4]

---

[2] في الآية طباق إيجاب كذلك بين كلمتي (نعلن) و(نخفي) وقد سبق الحديث عنه في فقرة (طباق الإيجاب) فيراجع.

[3] ذكر ابن أبي الإصبع فرقاً آخر بين الطباق والمقابلة قائلاً: إن الطباق لا يكون إلا بالأضداد، والمقابلة تكون بالأضداد وبغيرها، ولكن الأضداد أعلى رتبة وأعظم موقعاً. ولكن السكاكي نفى هذا الفرق باشتراطه التضاد بين المعاني التي تجمعها المقابلة حيث قال: " ومنه المقابلة، وهي أن تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر وبين ضديهما. ثم إذا شرطت هنا شرطا شرطت هناك ضده" ثم استقر الأمر عند الخطيب القزويني الذي جعلها نوعاً من الطباق، وعلى هذا الأخير جرت الدراسة. ينظر: ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر: 179، والسكاكي، مفتاح العلوم: 424، والسبكي، عروس الأفراح: 231/2

[4] سورة الكهف: الآية 18

[5] البيت عزاه ابن حجة الحموي إلى الصاحب شرف الدين الأربلي، وكذا أبو الفتح العباسي. ينظر: خزانة الأدب: 132/1، ومعاهد التنصيص على شواهد التلخيص: 210/2

قال ابن رشيق: "فإذا جاوز الطباق ضدين كان مقابلة"[1] وكلما كثر عدد الألفاظ المتقابلة كانت أبلغ[2].

وقد ورد تعريفها عند الخطيب القزويني: " بأن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معانٍ متوافقة، ثم بما يقابلهما أو يقابلها على الترتيب "[3]

ولا يعدم المتأمل أمثلة بديعة للمقابلة في سورة إبراهيم منها ما وقفت عليه الدراسة ونعرضها بشيء من التفصيل فيما يأتي:

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن **شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ** وَلَئِن **كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**﴾[4] وهو حكاية عن قول سيدنا موسى لبني إسرائيل، عطفاً على قوله في الآية السابقة عليها: (نعمة الله) أي اذكروا نعمة الله عليكم بالإنجاء مما عدد من أنواع المحن والمصائب، واذكروا حين تأذن ربكم. وقد قابل بين (شكرتم) و(كفرتم) من جهة، وبين قوله: (لأزيدنكم) و (إن عذابي لشديد)، وهي جلية بين الشكر والكفر إذا عرفنا أن المراد بالكفر هنا إنكار النعمة وجحودها "لأن الكفر المذكور في مقابلة الشكر ليس إلا الكفران، والسبب فيه أن كفران النعمة لا يحصل إلا عند الجهل بكون تلك النعمة نعمة من الله، والجاهل بها جاهل بالله "[5]، وأما المقابلة الثانية فهي خفية في اللفظ متوارية خلف المعنى؛ لأن ضد الزيادة في الواقع هو النقصان، ومعنى (لأزيدنكم) أزيدكم نعمة إلى نعمة تفضلاً مني لقاء شكركم، أو لأزيدنكم من طاعتي أو من ثوابي، ولكن جاء المعنى المقابل له في قالب الوعيد والتهديد الذي تضمن معنى الإنقاص، وهل من مسه عذاب الله إلا في خسران ونقصان بعيد؟

---

[2] ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه: 15/2

[3] ينظر: ابن حجة الحموي، خزانة الأدب: 131/1، وابن معصوم، أنوار الربيع في أنواع البديع: 58

[4] القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة (ضمن شروح التلخيص): 297/4

[5] سورة إبراهيم: الآية 7

[1] الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 67/19

ويبدو لي الداعي البلاغي في التحول من المقابل اللفظي إلى معناه في أمرين: الأول أن الخطاب من أكرم الأكرمين، وعادة الكرام التصريح بالوعد والترفع عن التهديد المباشر بالتعريض عنه، والثاني: أن إفادة الوعيد بضرب من التعريض أوقع في النفس. أضف إلى ذلك أن ذكر لفظ (العذاب) أقوى في الدلالة على التهديد من لفظ (الإنقاص) العام الذي لا يناسب سياق الآية، وأضعف من أن يكون جزاء لجرم يعبر عنه بلفظ (كفرتم).

وشبيه هذه المقابلة جاءت على لسان سيدنا إبراهيم في قوله تعالى: (ربِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَن **تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي** ۖ وَمَنْ **عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**)[1] فقد قابل بين معنيين الأول في قوله: (فمن تبعني فإنه مني)، والثاني في قوله: (ومن عصاني فإنك غفور رحيم) فالاتباع ويعني الاقتداء والطاعة يقابل العصيان، وقوله: (فإنه مني) والذي يعني أنه بعض مني في عدم الانفكاك على التشبيه، أو أنه متصل بي لا ينفك عني في أمر الدين، تقابله عبارة (فإنك غفور رحيم) التي تحمل معنى أني بريء منه حتى يتوب إلى الله ويرجع عن عصيانه، وهي **مقابلة خفية** تعلق فيها أحد الطرفين بما يقابل الآخر تعلق السببية، بيان ذلك أن العصيان المقدر في مقابل (فإنه مني) بـ (ليس مني) مع طلب العفو هو السبب في نزول الرحمة ونيل المغفرة، جاء في البحر المحيط: " فإنه مني، جعله لفرط الاختصاص به وملابسته كقوله صلى الله عليه وسلم: (من غشنا فليس منا)[2] أي ليس بعض المؤمنين "[3]

ويبدو أن الذي منع الخليل من النطق بالبراءة ممن عصاه هو ما كان يأخذ به نفسه من القول الجميل والنطق الحسن وجميل الأدب نظير قول سيدنا عيسى عليه السلام:

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 36

[3] رواه مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً في كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم من غشنا فليس منا برقم: 102

[4] أبو حيان، البحر المحيط في التفسير: 445/6

(إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[1] وهذا هو شأن أنبياء الله بعثوا رحمة للعالمين ولم يبعثوا لعانين ولا طعانين.

ومن أمثلة المقابلة في السورة كذلك ما ورد في المثل الذي ضربه الله تعالى للكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة حين قال أولاً: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا **كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ**)[2] فذكر الكلمة الطيبة والشجرة الطيبة وثبات الأصل وتجذره في الأرض، وهي معان متوافقة متناسبة تمثل بمجموعها الخير والعطاء والبركة ورسوخ الحق، ثم جاء البيان الإلهي بما يقابل هذا المعاني على الترتيب فقال: (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ **خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ**)[3] فذكر الكلمة الخبيثة والشجرة الخبيثة وسطحية جذورها وسهولة اقتلاعها، وهي معان كذلك متوافقة يجمعها الدلالة على الشر والضلال والفساد الممحوق المبتور الذي لا يسنده دليل. فتحققت المقابلة بين ثلاث معان ومقابلاتها.

والنظم الحكيم بهذا الأسلوب البديع وما حمله من محّسن معنوي يبرز للمتلقي الفرق بين الكلمة الطيبة التي قصد بها كلمة الحق أو الشهادة وبين الكلمة الخبيثة المراد بها الكفر والضلال من خلال رسم صورتين متقابلتين ومتضادتين في الذهن تجلو كل واحدة منها الأخرى وتوضحها وتظهر معالمها، إذ بضدها تتميز الأشياء، والمعاني يستدعي بعضها بعضاً، بل ربما كان الضد أقرب خطوراً بالبال عند ذكر ضده من ذكر مثيله، وقد قيل: الضدُّ يُظهرُ حسنَه الضدُّ، وقد وفَّر ورود المعاني الثلاثة الأولى تباعاً جهداً كبيراً على الذهن، وجعله يتأهب لتلقي مقابلاتها ويتهيأ لإدراكها وتصورها ملتذاً ومبتهجاً بالنتائج السريعة التي يستخرجها من الشريط المعروض أمامه. فتشبيه الكلمة الطيبة بالشجرة، والدخول في تفاصيل صفاتها على النحو الذي

---

[2] سورة المائدة: الآية 118

[3] سورة إبراهيم: الآية 24

[1] سورة إبراهيم: الآية 26

رأينا يحتم على الذهن انتظار مقابلها (الكلمة الخبيثة)، والانشغال بالبحث عن صفاتها، وتوقع مثالها، وكل ذلك بالاستناد على ما تم تقديمه من معان في ركن المقابلة الأول.

ونقف على مثال آخر للمقابلة بين المعاني في الآية التالية لهذه الآيات في قوله تعالى: (**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ**)[1] فقد جاءت متممة لسابقاتها ومبينة لها، أجابت عن سؤال مقدّر في ذهن المخاطب ناتج عن تعجبٍ "مِمَّن يترك ممثول الأول ويفعل ممثول الثاني، فوقع التنبيه على أن ذلك بفعل القاهر"[2] فهو الذي يثبت وهو الذي يضل، وفيها كذلك بيان لأثر الثابت المشبه به (أصلها ثابت) في الحالة المشبهة، فقررت الآية أن " ذلك الثبات ظهر في قلوب أصحاب الحالة المشبهة، وهم الذين آمنوا، إذ ثبتوا على الدين ولم يتزعزعوا فيه؛ لأنهم استثمروا من شجرة أصلها ثابت"[3] فجاءت المقابلة بين فعلي (**يثبت**) و (**يضل**) من جهة، وبين (**الذين آمنوا**) و(**الظالمين**) من جهة أخرى، إذ المقصود بالظالمين الذين كفروا " بدليل أنه عادل بهم المؤمنين، وعادل التثبيت بالإضلال "[4]وجاء التعبير عنهم بالظالمين إشارة إلى أن الظلم هو الذي كان السبب في تخلي عناية الله عنهم وضلالهم عن طريق الحق.

وقد أدت المقابلة إلى عقد مقارنة بين فئتين، فئة تمسكت بالكلمة الطيبة واعتصمت بها فثبتت على الحق وصمدت في وجه المغريات والفتن بفضل توفيق الله لها ورحمته بها، وفئة ظلمت نفسها وغيرها؛ بكفرها وغطرستها وتعاليها على الحق فتنكبت الصراط وأضلها الله. فظهر بذلك حجم التفاوت بين مصير الفريقين، الأمر

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 27

[3] البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 414/10

[4] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 226/13

[1] ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 337/3

الذي أكَّد المعنى المراد وزاده بروزاً ووضوحاً، فليست المقابلة بالضرورة ترفاً لفظياً وزينة فحسب؛ بل عنصر فعال في أداء المعنى وتحقيق الغرض المقصود من الكلام.

الثاني – مراعاة النظير

ويطلق عليه أيضاً: التوافق، والائتلاف، والتناسب، والمؤاخاة. وهذا المحسن البديعي قريب من الطباق من حيث هو جمع بين معان وألفاظ بينها ائتلاف وتناسب ولكنه يفترق عن الطباق والمقابلة باستبعاد التضاد – الذي هو قوام الطباق – من المناسبات التي تربط بين تلك المعاني.

ويعرف هذا البديع بأنه: الجمع في العبارة الواحدة بين المعاني التي بينها ائتلاف وتوافق وتناسب، لا على سبيل التضاد والتناقض[1]، ليخرج بهذا القيد الطباق، ويكون هذا التناسب بين معنيين فأكثر، فإن ناسب أول الكلام آخره سمي "تشابه الأطراف"[2]. كالتناسب الواقع بين الظل والشجر، والقوس والوتر، والليل والسمر، والوعل والجبل، والظمأ والسراب، والعلم والكتاب وغير ذلك ..

ومن أمثلته في السورة قوله تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)[3] حيث جمع البيان الإلهي بين (السماء والماء والثمرات والرزق) وهي معاني متآلفة متوافقة تنتمي إلى بيئة واحدة، فالماء ينزل من السماء ويكون سبباً لخروج الثمار التي جعلها الباري رزقاً للعباد، وكذلك الجمع بين (الفلك و البحر والأنهار) فإن علته ظاهرة، ومنه مجاورة الشمس للقمر، فإن توخي المناسبة في الجمع بين

---

[2] وعرفه الخطيب القزويني بأنه "جمع أمر وما يناسبه لا بالتضاد" ينظر: التفتازاني، المطول شرح تلخيص المفتاح: 644، وكذا: ابن حجة الحموي، خزانة الأدب:293/1

[3] عبد الرحمن بن حبنكة، البلاغة العربية:382/2

[4] سورة إبراهيم: الآيتان 32، 33

المعاني أمر محبب للنفس؛ لأنه يبقي الذهن في منطقة واحدة من مناطق المفردات، ويكفيه مشقة التنقل بين الألفاظ المتباعدة المتنافرة.

ومن مراعاة النظير في السورة ما جاء في قوله تعالى: (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)[1] إذ نلاحظ التناسب بين الفعل (أسكنت) و (بيتك المحرم)، فالبيت مكان للسكنى، ورغم أنهم لن يسكنوا في البيت فإن الخليل يومئ بذلك إلى أنه قد أدخلهم في أمان هذا البيت كما لو كانوا من ساكنيه، وجعلهم في ذمة صاحبه وجواره ملتجئاً إليه في حفظهم ورعايتهم.

وكذلك نلمس مواخاة بين لفظي (ذريتي) و(أفئدة) فإن الثاني يتعلق بالأول فطرياً، لذا كان في اختيار الخليل للفظ (أفئدة) تلميحاً إلى مدى الحب الذي يحمله في قلبه لمن تركهم في الوادي القفر، وخوفه وقلقه عليهم، وتعبيراً عن احتياجهم إلى أفئدة تتقد عليهم حناناً وعطفاً فتنوب عنه في غيابه.

وأما "**تشابه الأطراف**"[2] الذي جعله البلاغيون قسماً من هذا البديع فنقف من أمثلته في السورة على الشواهد الآتية:

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 37

[3] ينقسم تشابه الأطراف على قسمين: معنوي، ولفظي، أما المعنوي فهو أن يختم المتكلم كلامه بما يناسب ما ابتدأ به في **المعنى**، نحو قول الشاعر: **ألذّ** من السحر الحلال حديثهُ وأعذب من ماء الغمامة **ريقُهُ** فإن ثمة مناسبة بين خاتمة البيت (**ريقه**) وأوله (**ألذ**)، وأما القسم الثاني وهو اللفظي فينقسم كذلك على نوعين: الأول ويعني أن يبدأ الناظم أو الناثر المصراع الثاني أو الجملة الثانية من البيت باللفظة التي اختتم بها المصراع الأول أو الجملة الأولى، نحو قوله تعالى: (مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا **مِصْبَاحٌ** ۖ **الْمِصْبَاحُ** فِي زُجَاجَةٍ ۖ **الزُّجَاجَةُ** كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ) (النور: 35)، الثاني: أن يعيد الناظم لفظة القافية من كل بيت في أول البيت الذي يليه، نحو قول الشاعر:

رمتني وستر الله بيني وبينها عشية آرام الكناس **رميمُ**

في قوله تعالى: (**لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**)[1] حيث عبر البيان الإلهي عن سرعة البت في الحكم، فإن إجراء الحساب الذي ذكر أخيراً ناسب قوله: (**ليجزي**) لما بين اللفظين من تقارب في المعنى وتكامل؛ لأن إجراء الحساب يسبق الحكم بالجزاء، ثواباً كان الجزاء أو عقاباً، وقد جاء لفظ الجزاء متقدماً على الحساب ليؤكد على سرعة سير المحاكمة والحساب فالصحائف معدّة والأعمال معروضة ولا يسع أحداً إنكار أو اعتراض لأن الجوارح شاهدة (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)[2].

ومنه ما جاء في قوله تعالى: (وَقَالَ مُوسَى **إِنْ تَكْفُرُوا** أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ **لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ**)[3] فإن وصف الله تعالى في ختام الآية بالغني والحميد مناسب تمام المناسبة لما جاء في صدرها في قوله: (إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) أي فما كان كفر الخلق كلهم لو اجتمعوا على إنكار نعمة الله تعالى ما كان ليضره تعالى شيئاً، بل الضرر عائد عليهم أنفسهم بحرمانهم منها ومن مزيد من الإنعام، وبتعريضهم للعذاب، فالله تعالى بغنى عن شكر العباد مستوجب للحمد والثناء لذاته لكثرة إنعامه، ومحمود على نعمه من غير الناس فما من حي ولا جماد في الكون إلا ويلهج بتسبيحه وتحميده.

ومنه كذلك ما ورد في قوله تعالى تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتثبتاً: (**فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ**)[4] حيث أراد بوعد الله تعالى - على ما

رميمُ التي قالت لجيران بيتها ضـــمنت لكم ألا يزال يهيمُ. ينظر: ابن حجة الحموي، خزانة الأدب: 225/1، والســـيوطي، عقود الجمان في علم المعاني والبيان: البيت 749، والصـــعيدي، بغية الإيضاح: 584/4، والهاشمي، جواهر البلاغة: 321

[2] سورة إبراهيم: الآية 51

[3] سورة يس: الآية 65

[4] سورة إبراهيم: الآية 8

[5] سورة إبراهيم: الآية 47

قاله الزمخشري[1]- قوله: (إنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا) وقوله: (كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أنا ورُسُلِي)، ثم ختم الكلام بما يناسب أوله فقال: (**إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ**) تعليلاً للنهي عن حسبانه مخلف الوعد، فالعزيز: القوي القادر، "والمعنى: أن موجب إخلاف الوعد منتف عن الله تعالى؛ لأن إخلاف الوعد يكون إما عن عجز وإما عن عدم اعتياد الموعود به، فالعزة تنفي الأول، وكونه صاحب انتقام ينفي الثاني "[2]

الثالث - الجمع

ويعرف بأنه الجمع بين شيئين مختلفين أو أكثر في حكم واحد[3]، أو هو أن يجمع بين متعدد في حكم واحد[4]، كالجمع بين المال والبنين في كونهما زينة للحياة الدنيا في قوله تعالى: (الْمالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا)[5]، وكذا الحكم على الكفار من أهل الكتاب والمشركين بالنار في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نارِ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها)[6].

ومن أمثلة هذا التحسين المعنوي في السورة قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ)[7] حيث جمع الحق تبارك وتعالى بين ألوان متعددة من العذاب كان بنو إسرائيل ينالونها على يد آل فرعون، سوء العذاب، وذبح الأبناء، واستحياء البنات لغرض إهانتهن واستخدامهن،

---

[2] ينظر: الزمخشري، الكشاف: 566/2

[3] الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 252/13

[4] ينظر: ابن مالك، المصباح في المعاني والبيان والبديع: 247، والعلوي، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: 78/3

[5] ينظر: عتيق، عبد العزيز، علم البديع، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، 155

[6] سورة الكهف: الآية 46

[7] سورة إبراهيم: الآية 6

[8] سورة إبراهيم: الآية 6

ورغم تنوع طرق التعذيب هذه واختلافها؛ فقد حكم عليها بحكم واحد، وأدرجها تحت وصف واحد هو البلاء، الذي يعني الاختبار والامتحان، وذلك على القول بأن اسم الإشارة في قوله: (وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ) عائد على أفعال آل فرعون الفظيعة.[1] أو على بني إسرائيل فلا أجدر بالاعتبار والاتعاظ من أحداث الزمان ممن يعطى النعمة بعد النقمة[2].

ومن الجمع كذلك ما ورد في قوله تعالى: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ)[3] حيث عدد البيان الإلهي أسماء بعض الأقوام فقال: قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، وهم بلا شك أقوام عاشوا في أزمنة مختلفة وأمكنة مختلفة، لكل قوم أحواله وظروفه وخصوصياته وعاداته وحضارته، وقد بعث الله تعالى إلى كل منهم برسول لتبليغ رسالته، ولكن لما تشابهت ردود أفعالهم تجاه رسلهم جمعهم القرآن الكريم في خانة واحدة، وتعامل معهم كما لو كانوا قوماً واحداً، فساق خبرهم بقوله: (فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ..) يقول سيد قطب: " فها هنا تتجمع الأجيال من لدن نوح، وتتجمع الرسل، ويتلاشى الزمان والمكان، وتبرز الحقيقة الكبرى: حقيقة الرسالة وهي واحدة، واعتراضات الجاهليين عليها وهي واحدة"[4]

---

[2] الزمخشري، الكشاف: 541/2

[3] ينظر: مصطفى المراغي، تفسير المراغي: 54/9

[4] سورة إبراهيم: الآية 9

[5] سيد قطب، في ظلال القرآن: 2079/4

الرابع - التفريق

وهو ضد الاجتماع، واصطلاحاً: أن يأتي المتكلم أو الناظم إلى شيئين من نوع واحد، فيوقع بينهما تبايناً وتفريقاً، بفرق يفيد زيادة وترجيحاً فيما هو بصدده من ذم أو مدح أو غيره من الأغراض الأدبية[1]. ويمثل له أهل البيان[2] بقول الشاعر:

ما نَوالُ الغَمامِ وقتَ ربيعٍ كنوَالِ الأميرِ يومَ سَخاءِ
فنوالُ الأمـــيرِ بَـــدْرَةُ عَـــينٍ ونوالُ الغَمامِ قَطرةُ ماءِ[3]

فالأمران هما "النوالان" وقد اندرجا تحت جنس واحد، وهو "العطاء" غير أن الشاعر فرق بينهما في المنزلة حين جعل نوال الأمير فوق نوال الغمام.

ومن الصور التي نجدها لهذا البديع في السورة الكريمة ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[4] فقد ذكر الله تعالى الحكمة من بعث الرسل إلى أقوامهم باللسان الذي يتكلم به هؤلاء الأقوام ويفهمونه، ثم فرق بين الناس المتلقين للرسالة، فبيّن أن منهم قسماً لا يستجيب لدعوة الرسل ويختار الضلالة على الهدى فيضله الله بعد إقامة الحجة عليه ويَلقى ما يستحق، ومنهم من يصدق ويؤمن فينال الهداية من الله. وبذلك يكون البيان الإلهي قد فرق في الحكم بين أبناء القوم الواحد حين جعلهم فريقين؛ ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾[5].

---

[2] ينظر: ابن حجة الحموي، خزانة الأدب: 378/1

[3] ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم: 425

[4] البيتان ينسبان إلى رشيد الدين الوطواط. ينظر: السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: 251/2، أبو الفتح العباسي، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص: 300/2

[5] سورة إبراهيم: الآية 4

[6] سورة الأعراف: الآية 30

الخامس - حسن التقسيم

وهو أن يذكر البليغ متعدداً، ثم يضيف إلى كل من آحاده ما يخصه على التعيين، وبهذا القيد يفترق عن اللف والنشر إذ لا تعيين فيه، بل هو موكول للأفهام[1]. وقيل: هو استيفاء أقسام الشيء[2]، نحو قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا)[3] فالناس عند رؤية البرق فريقان: خائف وطامع لا ثالث لهما[4].

ونجد حسن التقسيم بمفهومه الأول في قوله تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ **السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ** وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ)[5] إذ جمع النظم بين متعدد هما **السماوات والأرض**، ثم فصل وقسَّم فأضاف ما لكل إليه على التعيين، فذكر أولا ما يتعلق السماوات من إنزال الغيث فقال: (**وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِه..**)، ثم ثنى بذكر ما يعود إلى الأرض ويتعلق بها فقال: (**وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ..**).

وأما صورة التقسيم بمفهومه الثاني فنجدها في قوله تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ **شَكَرْتُمْ** لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ **كَفَرْتُمْ** إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)[6] فموقف العباد من نعمة الله تعالى لا يخرج عن أحد أمرين لا ثالث لهما: إما شكر المنعم الذي يقابله الزيادة، أو كفر النعمة وإنكارها فيقابله العذاب.

---

[2] ينظر: النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب: 153/7، وحامد عوني، المنهاج الواضح للبلاغة: 171/1

[3] ينظر: ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه: 20/2، وأبو هلال العسكري، الصناعتين الكتابة والشعر: 341

[4] سورة الرعد: الآية 12

[5] ينظر: ابن منقذ الشيرازي، البديع في نقد الشعر: 61

[6] سورة إبراهيم: الآية 32

[7] سورة إبراهيم: الآية 7

السادس – الإرصاد (التسهيم)

ويطلق في الأصل اللغوي على الإعداد والتهيئة، فيقال: أرصدت كذا لكذا أي؛ أعددته له وهيئته[1]. وأما اصطلاحاً فهو نوع من المحسنات البديعية يراد به جعل ما قبل الفاصلة من الفقرة (أو القافية من البيت) دالاً عليها اعتماداً على حرف الروي[2]، ويسميه البعض (التوشيح)[3] والبعض الآخر (التسهيم) من وضع صورة السهم، إشارة به إلى المكان المقصود، وكأن البليغ يضع في كلامه سهماً يدلل به على ما سيرد في آخره[4]. وقد أجاد السيوطي بيانه في منظومته حين قال[5]:

وَمِنْهُ الِارْصَادُ وَذَا أَنْ تَجْعَلا مِنْ قَبْلِ عَجْزِ الْبَيْتِ مَا دَلَّ عَلَى

تَمَامِـــهِ إِذَا الـــــرَّوِيُّ عُــرِفَا وَالْبَعْضُ بِالتَّسْهِيمِ هَذَا وَصَـفَا

ومن مشهور أمثلته في كتب البلاغة قوله تعالى: (**فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**)[6] قال أهل البيان[7]: إن الفاصلة دل عليه ما سبقها، مع ملاحظة رويها، فلو أن القارئ وقف عند قوله: (**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن**

---

[2] ابن دريد، جمهرة اللغة، مادة (رصد)

[3] ينظر: الخفاجي، سر الفصاحة: 160، وابن منقذ، البديع في نقد الشعر: 127، وابن أبي الإصبع العدواني، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر: 263، والنويري، نهاية الأرب في فنون الأدب: 142/7

[4] ينظر: ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه: 34/2

[5] ينظر: حبنكة الميداني، البلاغة العربية: 385/2

[6] السيوطي، عقود الجمان في علم المعاني والبيان، البيتان (750، 751)

[7] سورة العنكبوت: الآية 40

[8] ينظر: أبو هلال العسكري، الصناعتين الكتابة والشعر: 383، وابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 207/3، والصعيدي، بغية الإيضاح لشرح تلخيص المفتاح: 587/4

كَانُوا أَنفُسَهُمْ..) لتمكن السامع من إتمام الآية مهتديا بروي الفاصلة وبما سبق الفاصلة من نفي الظلم عن الله تعالى.

وإذا تتبعنا هذا البديع في السورة نقف على شواهد كثيرة له نذكر منها على سبيل المثال:

قوله تعالى: (وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)[1] فإن السامع لو وقف على قوله: (وسخر لكم الليل) بعد ما تقدم من الحديث عن تسخير الشمس والقمر، لعرف فاصلة الآية وعلم أن الآية تنتهي بـ (النهار) وذلك بمعونة روي الفاصلة السابقة عليها في قوله تعالى: (وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ)[2].

ومنها قوله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ)[3] فإن البيان الإلهي قد أرصد في ثنايا الآية الكريمة ما يشي للمخاطب باللفظ الذي تنتهي به الآية، حتى لو أن القارئ توقف من الآية عند قوله: (إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ) لجاء السامع بتتمتها (الدعاء) مستعيناً بمعنى الآية أولاً فسيدنا إبراهيم عليه السلام يحمد ربه على الذرية بعد التقدم في السن، ثم يثني عليه بأنسب لفظ لفاصلة الآية وهو (سميع). وثانياً بروي الفاصلة السابقة على الآية في قوله: (..وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)[4] وكذا اللاحقة عليها في قوله: (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ)[5]

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 33

[3] سورة إبراهيم: الآية 32

[4] سورة إبراهيم: الآية 39

[5] سورة إبراهيم: الآية 38

[6] سورة إبراهيم: الآية 40

ومن أمثلة هذه البديع أيضاً ما ورد في قوله تعالى: (هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُواْ الْأَلْبَابِ)[1] فإن تآخياً وتآلفاً يجمع الفاصلة (الألباب) بما سبقها من ألفاظ، فالبلاغ والإنذار والتذكر لا يخص إلا ذوي العقول المفكرة الواعية، المعبر عنهم بالفاصلة (أولوا الألباب)، ونلحظ في مجيئها تمهيداً وتهيئة لذهن السامع تشحذه لمعرفة ما يليها، فإذا قرع سمعه قوله تعالى: (هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ) ثم وقف عند (وَلِيَذَّكَّرَ أُولُواْ) كان في وسعه إتمام الآية بقوله: (الألباب) لدلالة ما سبق وبقرينة الروي قريب العهد بذهنه في قوله: (إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)[2].

ومما جعل أول الكلام موطئاً لآخره ودالاً عليه في السورة الكريمة كذلك ما ورد في قوله تعالى: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ)[3] بعد ذكر جهنم مصيراً وقراراً للكافرين في الآية السابقة عليها في قوله: (جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ)[4] فإن أول الكلام مع قافيته ورويه ليجعل بعضه دالاً على بعض، ويقدح في ذهن المتلقي تمامه قبل نطق المتكلم به، فلو وقف القارئ على قوله: (قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ) لعلم السامع نوع العقاب المعد لهؤلاء الكافرين وأكمل الآية بقوله: (إلى النار) موافقة لروي الفاصلة (القرار، النار)، ولأن النظم الحكيم قد صرح باسم مكان العذاب الذي سيكون لهم قراراً، ومعلوم لدى المخاطب أن التعذيب فيه لا يكون إلا بالنار.

وتظهر جمالية هذا البديع وحسنه في كونه يمنح المخاطب فرصة لتوقع الآتي بما يمليه عليه من مقدمات ومعطيات في صدر الكلام، وبما يثبته في أول الكلام من

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 52

[3] سورة إبراهيم: الآية 51

[4] سورة إبراهيم: الآية 30

[5] سورة إبراهيم: الآية 29

مؤشرات دلالية تومئ له بالمقصود، الأمر الذي يحفز الذهن على التفكير والتوقع مستعيناً بالتمهيد والقافية، فإذا ما صح توقعه وتحقق حدسه "أدركته لا محالة حال من الرضا والبهجة، هي حال من توقع فأصاب، وتفرس فصح تفرسه"[1] ولعل هذا هو الذي دعا ابن نباتة السعدي للافتخار قائلاً[2]:

خُذها إذا أنشدتْ في القوم من طربٍ صدورُها عُلِمَـــتْ فيها قوافيـــها

ينسى لها الراكبُ العــجلانُ حاجتَـــه ويصبحُ الحاسدُ الغضبانُ يطريها[3]

السابع - الاستقصاء

وهو أن يتناول المتكلم معنى بالبيان، فيستوعب كل جوانبه بالشرح والإيضاح، آتيا بجميع عوارضه، ولوازمه، بعد أن يستوفي بالبيان كل أوصافه الذاتية، بحيث لا يترك لمن يتناوله بعده ما يزيد عليه[4]. ومن بديع صوره ما ورد في السورة الكريمة من شرح وبيان واف استوعب تفاصيل حال الكافر ودقائق عذابه يوم القيامة في قوله تعالى: (واسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (15) مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (16) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ)[5] فلو أن البيان الإلهي اقتصر على ذكر جهنم لكان كافياً لما توحي به هذه الكلمة من صنوف العذاب وألوانه، ولكنه تجاوز ذلك إلى التفصيل على سبيل

---

[2] ينظر: عيسى العاكوب، المفصل في علوم البلاغة: 567

[3] ينظر: ابن الأثير، نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، المحقق: مصطفى جواد، مطبعة المجمع العلمي، 1375هـ، 238

[4] البيتان لابن نباتة السعدي في ديوانه: 475/1

[5] ينظر: ابن أبي الإصبع العدواني، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن: 540

[1] سورة إبراهيم: الآيات 15، 16، 17

الاستقصاء فذكر الماء الصديد، ثم وضح الطريقة التي يسقى بها مستخدماً كلمة: (يتجرعه) بصيغتها التي احتملت معاني جعلت العلماء في تفسيرها مذاهب؛ فمن قائل أنها على معنى مطاوع (جرَّعته) بالتشديد نحو علمته فتعلم، إلى قائل أنها للتكلّف، أي يتكلف جرعه، إلى قائل: أنها دالة على المهلة نحو تفهمته، أي يتناوله شيئا فشيئا بالجرع كما يتفهم شيئا فشيئا بالتفهيم.

ثم زاد هيئة الشرب قتامة بإدخال فعل المقاربة (وَلا يَكادُ يُسِيغُهُ) مبالغة في نفي استساغة ذلك الصديد، فهو لا يقارب أن يسيغه فكيف تكون الإساغة. ثم جعل أسباب الموت كالموت في الإحاطة به من كل جهة. وختم المشهد بوصف العذاب بالغلظة كناية عن قوته واتصاله "لأن الغلظة تستوجب القوة وتستدعي أن يكون متصلا تتصل به الأزمنة كلها فلا انفصال بينها"[1].

الثامن – الإدماج

وزنه إفعال مصدر الفعل أدمج، من قولهم: أدمج حديثه إذا أدخل بعضه في بعض، وأصل الدمج الدخول، "(دَمَجَ) الشَّيْءُ دَخَلَ فِي غَيْرِهِ وَاسْتَحْكَمَ فِيهِ"[2]. وهو في مصطلح أهل البيان "أن يضمن كلاماً سيق لمعنى معنى آخر"[3] ومرادهم أن يدمج المتكلم غرضاً له في ضمن معنى قد نحاه من جملة المعاني ليوهم السامع أنه لم يقصده، وإنما عرض في كلامه لتتمة معناه الذي أراد[4]. "بشرط أن لا يصرح به، ولا يشعر في كلامه بأنه مسوق لأجله"[5]

---

[2] محيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 171/5

[3] الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، والرازي، مختار الصحاح، والفيروز آبادي، القاموس المحيط: مادة (دمج)

[4] الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة (ضمن شروح التلخيص): 398/4

[5] ينظر: النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب: 164/7، علان، البديع في القرآن أنواعه ووظائفه: 259

[6] ابن معصوم، أنوار الربيع في أنواع البديع: 501

وقد ذكر ابن عاشور مثالين للإدماج في سورة إبراهيم [1]:

الأول: في قوله تعالى: (الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (1) اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)[2] فالآية مسوقة لبيان وظيفة القرآن الكريم في انتشال الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وإرشادهم إلى سبيل الله المتفرد بملكه لما حوته السماوات والأرض خلقاً وملكاً وعبيداً، ولكن البيان الإلهي ضمن هذا الكلام معنيين آخرين على سبيل الإدماج الأول: أن غير صراط الله من طرق آلهة المشركين ليس بواصل إلى المقصود لما يعتري أصحابه من نقصان وقصور، والثاني: تعريض بالمشركين الذين عبدوا ما ليس له السماوات والأرض.

المثال الثاني: في قوله تعالى: (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ)[3] فموضوع الآية مع ما سبق في قوله تعالى: (قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكم إلى النّارِ)[4] هو تهديد للظالمين، ووعيد بعقابهم، وبيان أن السبب في تأخير العذاب عنهم إنما هو الإمهال مع نفي الإهمال والغفلة عن الله تعالى، وكذا إنذار لهم بعدم الاغترار بطول السلامة والأمن، تنبيهاً لهم بأن ذلك متاع زائل.

ولكن المتأمل يلمح بين ثنايا الآية معنى آخر حرص البيان الإلهي على إدماجه وإخفائه ضمن المعاني المصرح بها حتى ينساب إلى ذهن المخاطب بلطف، ويتسلل إليه في غفلة عن رقابة السبب المانع من الصدح به. هذا المعنى هو تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على ما يتطاول به هؤلاء المشركون من الدعة وما

---

[2] ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: 182/13 - 245

[3] سورة إبراهيم: الآيتان 1، 2

[4] سورة إبراهيم: الآيتان 42، 43

[5] سورة إبراهيم: الآية 30

يتقلبون فيه من النعم، يدل عليها التفريع في قوله تعالى: (فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وعْدِهِ رُسُلَهُ)[1].

التاسع - الاستتباع (التعليق)[2]

وقد تنوع تعريفه واختلف بين أهل البيان فمنهم من قال: "هو المدح بشيء على وجه يستتبع مدحاً آخر"[3] ومنهم من عرفه بأنه "الوصف بشيء يستتبع وصفاً آخر مدحاً أو ذماً"[4] ولعل أوسع تعريف له ما ذكره ابن أبي الإصبع الذي سماه (التعليق) بقوله: " هو أن يأتي المتكلم بمعنى في غرض من أغراض الشعر، ثم يعلق به معنى آخر من ذلك الغرض يقتضي زيادة معنى من معاني ذلك الفن"[5] وهذا التعريف الأخير هو ما نعتمده، ونقف من أمثلته في السورة الكريمة على ما يأتي:

في قوله تعالى: (رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)[6] فالخليل عليه السلام بعد أن أثنى على الله تعالى بمعرفته ما يدور في السر والعلن استتبع هذا الوصف بمعنى آخر متولد عنه ومتعلق به، هو إحاطته تعالى بكل شيء علماً، في الأرض كان أو في السماء، وعدم خفاء شيء عليه مهما صغر أو تناهى في البعد. فجاء بمعنيين بينهما ارتباط وثيق إذ لولا المعنى الأول لما أمكن تصور المعنى الثاني، كونه مبني ومترتب عليه منطقياً على سبيل التوطئة والتمهيد. فعلم الله تعالى بكوامن النفس وخباياها دليل على اتصافه بالكمال الذي يستدعي العلم بكل شيء.

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 47

[3] سماه ابن أبي الإصبع (التعليق)

[4] القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة (ضمن شروح التلخيص): 397/4

[5] السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: 273/2

[6] ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير: 443

[7] سورة إبراهيم: الآية 38

ومنه كذلك ما جاء في قوله تعالى في ذم الكلمة الخبيثة وتشبيهها بالشجرة الخبيثة: (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ)[1] فإن الباري عز وجل استتبع اجتثاث الشجرة الخبيثة بصفة أخرى متولدة عنها ومعللة لها هي قوله: (ما لها من قرار) أي استقرار أو ثبات لعدم انبثاقها من أصل ثابت ضارب وجذور متعمقة في الأرض، وجلي وجه الارتباط بين المعنيين إذ لولا المعنى الثاني لما كان الأول، أي لولا سطحية جذور الشجرة لما سهل استئصالها واجتثاثها. فالذم بالاجتثاث استُتْبِعَ بالذم بعدم القرار.

وكذا يمكن الاستشهاد للاستتباع من السورة بوعيده تعالى للكافرين بالإهلاك والمستتبع بالوعد للمؤمنين باستخلافهم في ديارهم في قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ **لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (13) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ**)[2] فإسكان المؤمنين في أرض أعدائهم لا يكون إلا بعد إخلائها من سكانها الظالمين المجترئين على الرسل وأتباعهم، لأنه لا يعقل اجتماعهم في الديار نفسها وتعايشهم بعد التهديد الذي صدر من هؤلاء المشركين بقولهم: (لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا) ولذا كان بين المعنيين تعاقباً وتلازماً، فالإسكان في الأرض جاء متولداً عن نصر الله تعالى المؤمنين وتمكنهم من عدوهم بإهلاكه على يدهم.

ومن الاستتباع أيضاً ما جاء في قوله تعالى: (وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ)[3] فقد ذكر علم المخاطبين وتبينهم ما فعل الله تعالى بالظالمين من إهلاك وعقاب، الحاصل من مشاهدة آثار العذاب من الخسف والفناء بالاستئصال، ثم استتبع ذلك بذكر حجة ثانية عليهم تتمثل

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 26

[3] سورة إبراهيم: الآيتان 13، 14

[4] سورة إبراهيم: الآية 45

بضرب الأمثال المراد به المواعظ الجارية على ألسنة الرسل والتي تصف أحوال الأقوام البائدة ونوع العقاب الذي حل بها. فالبيان الإلهي أقام على المخاطبين حجتين ذكرهما على سبيل التتابع إذ جاء أولا بدلائل الآثار والأطلال المعلومة بالمشاهدة ثم استتبعها بدلائل الموعظة الصادرة عن الرسل والأنبياء[1].

العاشر - الاطراد

ذكره ابن رشيق في العمدة فقال: " ومن حسن الصنعة أن تطرد الأسماء من غير كلفة، ولا حشو فارغ؛ فإنها إذا أطردت دلت على قوة طبع الشاعر"[2] وعرفه في التلخيص بأن "تأتي بأسماء الممدوح أو غيره وأسماء آبائه على ترتيب الولادة من غير تكلف"[3] والذي يفهم من التعريفين أن قوام هذا الفن اطراد أسماء يوردها البليغ حسب ترتيبها الزمني من غير أن يفصل بينها ما يوجب التكلف ويقطع النسق، إذ تأتي متتابعة مطردة اطراد الماء وانسيابه.

ومن أمثلته في السورة الكريمة ما ورد في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾[4] حيث جاء القرآن الكريم بأسماء الأقوام متسلسلة حسب توالي أحداثها وترتيبها التاريخي.

وكذلك الأمر الاطراد الوارد في ذكر أبناء سيدنا إبراهيم في قوله تعالى على لسانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[5] فإن إسماعيل يسبق إسحاق في الترتيب الزمني لأنه ولد لسيدنا إبراهيم من زوجته هاجر

---

[2] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 249/13

[3] ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه: 82/2

[4] الخطيب القزويني، تلخيص المفتاح (مع شرحه عروس الأفراح للسبكي): 280/2

[5] سورة إبراهيم: الآية 9

[1] سورة إبراهيم: الآية 39

التي تزوجها بعد زوجته الأولى سارة التي ظلت فترة من الزمن لا تنجب ثم رزقت بإسحاق.

وهكذا فإن الاطراد يكون بالإتيان بأسماء مرتبة ومطردة تصاعدياً أو تنازلياً حسب ترتيب زمني أو تاريخي، والبديع في هذا الأسلوب يبدو في ترتيبها في النص لتظهر مستقرة غير قلقة، مما يدل على قدرة المبدع على الترتيب الجميل والمنطقي في آن واحد، وهذا من أدوات تحسين المعنى العام في النص.

الحادي عشر - الاستدراج

وهو نوع لطيف من البديع جاء عند أهل البلاغة بأسماء متعددة كالتلطف وحسن المطلب وبراعة الطلب[1]، ويعنون به استمالة الخصم إلى الإذعان والاستسلام باستخدام لين الكلام وطيب المفردات مع أسلوب لطيف يدخل القلب دون استئذان ويؤثر فيه بالإقناع.

قال العلوي في الطراز معرفاً: "وهو ما يكون موضوعاً لتقريب المخاطب والتلطف به، والاحتيال عليه بالإذعان إلى المقصود منه، ومساعدته له بالقول الرقيق والعبارة الرشيقة، كما يحتال على خصمه عند الجدال والمناظرة بأنواع الإلزامات والانتماء إليه بفنون الإفحامات، ليكون مسرعا إلى قبول المسألة والعمل عليها "[2]

مثاله في السورة ما ورد على لسان الرسل عليهم السلام في قوله تعالى: (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)[3] إذ اعتمدوا أسلوب الاستدراج بترغيب الخصم في المغفرة حال انصياعه للحق وإيمانه بالله تعالى، فإن الإسلام يجب ما قبله، والله تعالى

---

[2] ينظر: ابن الأثير، المثل السائر: 205/2، وعلان، البديع في القرآن، أنواعه ووظائفه: 274

[3] العلوي، الطراز لأسرار البلاغة وحقائق علوم الإعجاز: 148/2، وابن الأثير، المثل السائر: 205/2

[4] سورة إبراهيم: الآية 10

يقبل التوبة عن عباده ويعفو عما سلف، وجلي أثر التلويح بالعفو والمغفرة في استمالة قلب الخصم وتليينه، مع ملاحظة ظلال اللطف والرحمة التي ألقاها على المشهد التعبيرُ بالفعل (يدعو) مع إسناده إلى الله تعالى، والدعوة أصلاً دعوة إلى الإيمان، والإيمان هو الذي يؤدي إلى المغفرة. "ولكن السياق يجعل الدعوة مباشرة للمغفرة"[1]، زيادة في ترغيب المخاطب وحثه على الاستجابة، ولتتجلى نعمة الله ومنته.

---

[1] سيد قطب، في ظلال القرآن: 2090/4

المبحث الثاني: المحسنات اللفظية

وهي جماليات تتعلق باللفظ، وتظهر من خلال علاقات خاصة مرسومة بدقة بين جرس الكلمة وما تصدره من صوت أثناء بناء الكلام وتركيبه، تؤدي دوراً فعالاً في تحقيق الاستجابة الفنية المنشودة عند المخاطب، ولا يخلو منها أي كلام بليغ، ولذا يسهل الوقوف على أمثلة وفيرة لها في البيان الإلهي الذي لا يعلوه في البلاغة والفصاحة كلام.

ولما كان استغلال هذا النوع من البديع عرضة للوقوع في التكلف وتصنع الزخرفة الزائفة المودية بوضوح المعنى في سبيل التزيين وضع له عبد القاهر الجرجاني معياراً دقيقاً[1] يتمثل بترك المعاني على طبيعتها وسجيتها تختار من الألفاظ ما يوائمها ومن التراكيب ما يناسبها، ثقة بأنها لا تكتسي من المعاني إلا ما يليق بها ولا تلبس إلا ما يزينها، فإن تكلف المتكلم تحسين الكلام بشيء من المحسنات، ورام تجميل حديثه بها فقد قهر المعاني وأجبرها على ارتداء ما لا تريد وصدق فيه قول المتنبي:

إذا لم تُشاهِدْ غيرَ حُسنِ شياتِها وأعضائِها فالحُسنُ عنكَ مغيَّبُ[2]

وقد كان القرآن الكريم غاية الاعتدال في التعامل مع البديع، حين استعمله خادماً للمعنى وعوناً على إبرازه وتجليته للمتلقي لفهم مقصود الكلام وغرضه، فكان بذلك ردءاً لعلمي المعاني والبيان إضافة إلى طبيعته التزيينية وما تحدثه في نفس المتلقي من تذوق ونشوة عند سماع أصوات وأجراس متآلفة متقاربة تثير فيه مواطن الجمال الموسيقي وروعته.

---

[2] ينظر: عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة: 21

[1] البيت في ديوان المتنبي: 467، واستشهد به القيرواني في "زهر الآداب وثمر الألباب"368/2، وابن رشيق في "العمدة في محاسن الشعر وآدابه": 229/1

ولمزيد من البيان تعرض الدراسة فيما يلي تفصيلاً مشفوعاً بأمثلة من السورة موضوع الدراسة لأنواع المحسنات التي عدها أهل البلاغة لفظية.

الأول - الجناس

ويطلق عليه أيضاً (التجنيس)، وهو مأخوذ لغة من الفعل (جانس) في قولهم: هذا يجانس هذا أي يشاكله، ويطابقه في الجنس[1].

وأما تعريفه في اصطلاح البلاغيين فقد ورد عند السكاكي بأنه "تشابه الكلمتين في اللفظ"[2] وهو كذلك عند الخطيب القزويني[3]، وعرفه أبو هلال العسكري بقوله: " هو أن يورد المتكلّم- في الكلام القصير نحو البيت من الشعر، والجزء من الرسالة او الخطبة- كلمتين تجانس كلّ واحدة منهما صاحبتها في تأليف حروفها"[4] ويبدو أن تعريف المحدثين أكثر دقة وأقرب إلى ما استقر عليه مفهوم الجناس وهو قولهم " أن يتشابه اللفظان نطقا ويختلفا معنى"[5] وهم يعنون بالتشابه هنا اتفاق اللفظين في أربعة أشياء: نوع الحروف، وعددها، وهيئتها، وترتيبها.

والجناس نوعان تام وغير تام، أما التام فهو ما كان التشابه بين اللفظين شاملاً للأوجه الأربعة السابقة، ولم يرد منه في القرآن الكريم سوى مثال واحد هو قوله تعالى: (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ)[6] فإن لفظة ساعة قد

---

[2] ابن منظور، لسان العرب، مادة (جنس)، ورينهارت بيتر آن دُوزِي، تكملة المعاجم العربية، مادة (جنس).

[3] السكاكي، مفتاح العلوم: 429

[4] ينظر: القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة (ضمن شروح التلخيص): 312/4

[5] أبو هلال العسكري، الصناعتين الكتابة والشعر: 321

[6] ينظر: عبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 485/2، وعلوم البلاغة، محمد قاسم، محيي الدين ديب: 114

[7] سورة الروم: الآية 55

تكررت مرتين بنفس اللفظ ولكن بمعنيين مختلفين الأول: يوم القيامة، والثاني: الساعة الزمنية[1].

وأما النوع الثاني وهو الجناس غير التام فيكون عندما تختلف الكلمتان في أحد تلك الوجوه وفيما يأتي بيان للأنواع التي توفرت لها أمثلة في السورة الكريمة.

الجناس المضارع

ويكون حينما يختلف اللفظان في نوع حرفين مع قرب مخرجيهما أو اتفاقهما في المخرج. ومثاله ما ورد في قوله تعالى: (ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي **وَخَافَ** وَعِيدِ (14) وَاسْتَفْتَحُوا **وَخَابَ** كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)[2] فإن هناك جناساً غير تام بين لفظتي (خاف) و(خاب)، إذ اشتركت الكلمتان في عدد الحروف، وكذا في حركاتها وترتيبها، ولكنهما اختلفتا في نوع الحرف الأخير الذي جاء في الكلمة الأولى فاء وفي الثانية باء، ولما كان الحرفان المختلفان (الباء والفاء) شفويين متفقين في المخرج وهو الشفة كان الجناس مضارعاً.

فاللفظان متجانسان صوتاً وجرساً ولكن اختلاف الحرف الأخير جعلهما متغايرين معنى، الأول (خاف) من الخوف وهو شعور يتمالك الإنسان ويهيمن عليه حينما يتهدده خطر، وهو هنا عذاب الله تعالى المعبر عنه بالوعيد، أو أن المراد بقوله: (وخاف وعيد)؛ خشي وعيدي بالعذاب[3]. والثاني (خاب) بمعنى خسر[4].

الجناس اللاحق

---

[2] ينظر: فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها: 300، وعبد الفتاح لاشين، البديع في ضوء أساليب القرآن الكريم: 158

[3] سورة إبراهيم: الآيتان 14، 15

[4] ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب: 77/19

[5] ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: 330/3، والنسفي، مدارك التنزيل: 167/2، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 484/4

ويسمى الجناس (**لاحقاً**) إذا كان اللفظان مختلفين في حرفين متباعدين في المخرج، ولنا أن نمثل له بالتشابه القائم بين جزء كلمة (يَسُومُونَكُمْ) وكلمة (سُوءَ) الواردتين في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ **يَسُومُونَكُمْ سُوءَ** الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ)[1] إذ يبدو للسامع منهما نوع تطابق في النطق وجناس غير تام من حيث اشتراكهما في حرفي السين والواو مرتبين وبالهيئة نفسها، مع اختلاف في نوع الحرف الأخير الذي جاء ميماً في (سوم) وهمزة في (سوء) ولما كانا من مخرجين متباعدين الميم شفوي، الهمزة من أقصى الحلق كان الجناس لاحقاً.

ويظهر وجه حسن هذين النوعين من الجناس في أن اللفظ الثاني إذا طرق سمع المتلقي ظن للوهلة الأولى - قبل أن يرد عليه الحرف الأخير – أنه اللفظ الأول، وتوهم تكريره لغرض التأكيد، فإذا اكتملت الكلمة في سمعه انقشع عنه ذلك الوهم ووعى الغرض المقصود منه، قال الجرجاني: "وفي هذا حصول للفائدة بعد مخالطة اليأس منها"[2].

الجناس المطرف

وهو من أنواع الجناس الناقص الذي يراد به ما كان الاختلاف بين اللفظين في عدد الحروف بأن يزيد أحدهما على الآخر بحرف أو حرفين، ويكون مطرفاً حين تكون الزيادة في أول اللفظ[3]، مثاله في السورة ما جاء في قوله تعالى: (وَسَخَّرَ لَكُمُ

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 6

[3] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان: 24

[4] فإذا جاءت الزيادة في وسط اللفظ سمي مكتنفاً، وإذا كانت الزيادة في آخر اللفظ سمي مذيلاً، وبذلك يكون للجناس الناقص ثلاثة أنواع بحسب موقع الحرف الزائد من الكلمة. ينظر: ابن حجة الحموي، خزانة الأدب: 84/1، وحامد عوني، المنهاج الواضح في البلاغة: 183/1

الْأَنْهَارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)[1] إذ نلحظ جناساً من نوع الناقص المطرف بين كلمتي (الأنهار) و(النهار) حيث اتفق اللفظان في نوع الحروف وهيئاتها وترتيبها فيما تخلف شرط واحد هو العدد، لما جاءت كلمة (أنهار) زائدة على كلمة (نهار) بحرف الألف الذي زِيْدَ في أولها.

الجناس المحرف

وهو الجناس غير التام الذي تخلف عن شروطه التشابه في الهيئة، بأن حقق اللفظان سائر الشروط وتماثلا كذلك في الحروف ولكن **تغايرا في الحركات**[2]، من شواهده في السورة التجانس اللفظي الحاصل بين (مِن) و(مَن) في قوله تعالى: (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)[3] فإن اللفظان قد اشتركا في نوع الحروف وعددها وترتيبها، لكنهما اختلفا في حركة الميم، فإن (مِن) الأولى حرف جر ميمه مكسورة الحركة، بينما (مَن) الثانية اسم شرط جازم مفتوح الميم.

جناس الاشتقاق والجناس المطلق

وهناك نوعان آخران خارجان عن هذه الضوابط والشروط ألحقهما الخطيب القزويني بالجناس، حكم فيهما بالتجانس بين اللفظين لمطلق الشبه بينهما دون تقيد

---

[2] سورة إبراهيم: الآيتان 32، 33

[3] يقسم البلاغيون الجناس الغير تام الذي يعود النقص فيه إلى الاختلاف في شرط هيئة الحروف إلى قسمين الأول: محرف وقد ذكرنا تعريفه، والثاني: مصحف ويكون حين يختلف اللفظان في نقط الحروف نحو قوله تعالى: (وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) (الشعراء: الآيتان 79، 80) فإن الاختلاف بين (يشفين) و(يسقين) سببه النقط المرسومة على حروف الشين والقاف والفاء. ينظر: ابن حجة الحموي، خزانة الأدب: 86/1، ومصطفى السيد جبر، دراسات في علم البديع: 126

[4] سورة إبراهيم: الآية 36

بكل الشروط المتعلقة بنوع الحروف وعددها وترتيبها وهيئتها، وأطلق على الأول **جناس الاشتقاق**، والثاني **الجناس المطلق**.

جناس الاشتقاق

والمرد به "توافق الكلمتين في الحروف الأصول مع الاتفاق في أصل المعنى"[1] أي أن يكونا متفقين في أصل الاشتقاق، ومن أمثلة هذا النوع في السورة الكريمة ما ورد في قوله تعالى: (وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ)[2] فإن بين لفظي (سَكَنْتُمْ) و(مَسَاكِنِ) تجانساً من حيث الاشتقاق، فالأول فعل ماض والثاني جمع (مسكن) اسم مكان مشتق من الفعل (سكن)، وقد تماثلا في الحروف الأصلية المشكلة للكلمة وهي السين والكاف والنون، وكذا في أصل المعنى وهو الاستيطان والتبوؤ، من قولهم سكن الدار أي استوطنها واستقر فيها، أو هو الاطمئنان[3]، ولا مانع عندي من حمل اللفظ على كلا المعنيين ليكون المقصود أنكم استوطنتم ديار الظالمين واطمأننتم فيها سائرين سيرتهم في الظلم والكفر.

ومن أمثلة جناس الاشتقاق كذلك في السورة ما هو حاصل بين لفظي (يُثَبِّت) و(ثابت) في قوله تعالى: (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ)[4] إذ إنهما متفقان في الحروف الأصول: الثاء والباء والتاء، وكذا في المعنى، إضافة إلى كونها مشتقين من الفعل نفسه (ثبت)، فالأول فعل مضارع له والثاني اسم فاعل.

---

[2] الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 430/4

[3] سورة إبراهيم: الآية 45

[4] ينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل: 203/3، والآلوسي، روح المعاني: 234/7

[5] سورة إبراهيم: الآية 27

ومنه أيضاً الجناس بين (أرسلنا) و(رسول) في قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ)[1] وكذا بين لفظي (فليتوكل) و(المتوكلون) في قوله: (وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)[2] وبين (مكروا) و(مكرهم) في قوله: (وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ)[3] والجناس في المثالين الأخيرين إضافة إلى كونه اشتقاقياً فهو مزدوج أيضاً في عرف أهل البيان لتوالي اللفظين المتجانسين، ويدعى أيضاً الجناس المكرر أو المردَّد، عرفه النويري بقوله: "هو أن يأتي في أواخر الأسجاع وقوافي الأبيات بلفظتين متجانستين إحداهما نميمة الأخرى وبعضها، كقولهم: الشراب بغير النّغم غمّ، وبغير الدّسم سمّ"[4]

الجناس المطلق

وأما **الجناس المطلق** وهو الملحق الثاني بأنواع الجناس، ويسمى جناس المشابهة أيضاً فالمراد به اجتماع اللفظين المتجانسين في المشابهة فقط دون أن يشتركا في أصل الاشتقاق، أي أن يتشابها في **نوع الحروف** من غير أن يجمعهما أصل واحد[5]، وهما بذلك مختلفان في المعنى.

يمثّل له من السورة بالتشابه الواقع بين لفظي (الحساب) و(تَحْسَبَنَّ) الواردين في قوله تعالى: (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (41) وَلَا تَحْسَبَنَّ

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 4

[3] سورة إبراهيم: الآية 12

[4] سورة إبراهيم: الآية 46

[5] النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب: 93/7، وينظر أيضاً: عبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 496/2، وأبو ستيت، الشحات محمد، دراسات منهجية في علم البديع، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، الطبعة الأولى: 1414هـ، 1999م، 213

[6] ينظر: الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 431/4، وأبو ستيت، دراسات منهجية في علم البديع: 215

اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ)[1] فإنهما متجانسان من حيث نوع الحروف المشتركة بينهما: الحاء والسين والباء، وكذا ترتيبها، ولكن اللفظين لا يرجعان إلى أصل واحد في الاشتقاق، إذ الأول مصدرٌ جذرُهُ الفعل (حسَبَ) بفتح السين ومعناه العدّ والإحصاء، ويوم الحساب هو يوم القيامة أضيف إلى الحساب لأنه الوقت الذي يحسب الله تعالى أعمال العباد ويحصيها عليهم ثم يجازيهم بمقتضاها. واللفظ الثاني فعل مضارع جذرُه (حسِبَ) من الحسبان وهو الظن والخاطر والتوقع[2].

ومما سبق نستطيع تلخيص القيمة البلاغية للجناس في أمرين[3]:

الأول: إفادة معاني متعددة باستخدام ألفاظ متشابهة في النطق وجرس الحروف وموسيقاها، الأمر الذي يعزز ويعلي من القيمة الفنية والجمالية للنص.

الثاني: إن ما يحققه الجناس من الانسجام والتوازن في الكلام والقوة في الأداء الصوتي ينعكس بالضرورة على المعنى المعبر عنه قوة وبياناً ووضوحاً، فضلاً عن الإشارات والدلالات المرتبطة بمقام الجناس.

الثاني: السجع (الفواصل في السورة الكريمة)

أصل السَّجَعِ منَ الفعْل سَجَعَ يَسجَع سَجعًا: أي: استوى واستقام، وأشبه بعضه بعضا[4]. والسَّجع: الكلام المقفى[5]، قال ابن دريد: السجع هو موالاة الكلام على روي واحد[6]. يقال سجع أي تكلم بِكَلَام لَهُ فواصل كفواصل الشّعْر، من غير وزن،

---

[2] سورة إبراهيم: الآيتان 41، 42

[3] ابن دريد، محمد بن الحسن، جمهرة اللغة، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الأولى، 1987م ، مادة (حسب)

[4] ينظر: شادي، نظرات في المحسنات البديعية: 113

[5] ابن منظور، لسان العرب، الزبيدي، تاج العروس، مادة (سجع)

[6] الرازي، مختار الصحاح، مادة (سجع)

[7] ابن دريد، جمهرة اللغة، مادة (سجع)

وَهُوَ من الاسْتوَاء والاستقامة والاشتباه، كَأَن كل كلمة تشبه صاحبتها[1] .وسجعت الحمامة إذا رددت صوتها على وجه واحد وفى المثل: لا آتيك ما سَجَع الحمامُ؛ يريد الأَبَدَ[2].

وأما اصطلاحاً فقد عرّفه البلاغيون فقالوا: "هو أن تتواطأ الفاصلتان في النثر على حرف واحد "[3] أي: أن تتوافق الفاصلتان في الحرف الأخير في الكلام المنثور[4]. جاء في الإتقان: "السجع هو حروف متماثلة في مقاطع الفواصل"[5]، **والفاصلة** هي آخر كلمة من جملة مقارنة لجملة أخرى، وهي تقابل من النثر القافية في الشعر. وقد اصطلح على تسمية كل من الجملتين "**قرينة**" أو "**فقرة**".

أقوال أهل العلم في جواز إطلاق السجع على فواصل القرآن الكريم

جرى خلاف بين أهل العلم على جواز إطلاق السجع على فواصل القرآن الكريم، وانقسموا حيال ذلك فريقين[6]؛ فريق يجيز ذلك؛ ويعُدّه فصاحة وبلاغة ولوناً من الإعجاز، لكنه ينزهه عن سجع الكهان وغيرهم، فهو أعلى مما يستطيعه الناس أو

---

[2] ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، وابن منظور، لسان العرب: مادة (سجع)

[3] ينظر: ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: باب (سجع): 297/1

[4] ينظر: ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 210/1، الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح: 653/4، وكذا: المراغي، علوم البلاغة: 360

[5] ينظر: الجرجاني، التعريفات: 117، ونكري، عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد، دستور العلماء (جامع العلوم في اصطلاحات الفنون)، دار الكتب العلمية - لبنان / بيروت، الطبعة: الأولى، 1421هـ - 2000م، 118/2

[6] السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 337/3

[7] ينظر: عبد الفتاح لاشين، الفاصلة القرآنية: 9 وما بعدها

يزاولونه[1]. من هؤلاء العلماء أبو هلال العسكري[2] وابن سنان الخفاجي[3] وكذا ضياء الدين ابن الأثير[4].

---

[2] وقد استدل المجيزون بأدلة منها:

- ✓ نصوص القرآن الكريم التي ثبت فيها أن الفواصل المتحدة في الحروف كثيرة، مثل: قوله تعالى: (فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ، وَإِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ) (الانشراح: 7، 8)، (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ)(الضحى: 9، 10)، (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكى وَأَنَّهُ هُوَ أَماتَ وَأَحْيا)(النجم: 43، 44) وكذلك جميع ما في القرآن مما يجرى على التسجيع والازدواج وهو مخالف في تمكين المعنى، وصفاء اللفظ، وتضمّن الطّلاوة لما يجرى على ألسنة الكهنة وغيره من كلام الخلق.
- ✓ اتفقت كلمة العلماء على أفضليه نبي الله موسى على هارون عليهما الصلاة والسلام، ولكن لما كان السجع جاء في أحد مواضع القرآن (هارون وموسى)، ولما اختلفت الفواصل في موضع آخر فكانت بالواو والنون جاء البيان الإلهي (موسى وهارون). فالقرآن قد راعى الفواصل وما ذاك إلا سجعاً.
- ✓ إن السجع من محسنات القول في كلام العرب وليس عيباً، بل هو مما يتبين فيه فضل الكلام، وهو من الأجناس التي يقع بها التفاضل في البيان والفصاحة كالتجنيس والالتفات ونحوها.
- ✓ نزل القرآن بلغة العرب وسار على نهجهم في التعبير، وأساليبهم في البيان غير أنه فاقهم في ذلك، وقد وقع السجع كثيراً في كلام العرب الجيد، فكان موضع استحسان، ولم يكن دائماً من صنيع الكهان، بل كان من بلغاء العرب من استعمل السجع البليغ، فقد روي عن أبي طالب عمّ النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لسيف بن ذي يزن: "أنبتك الله منبتًا طابت أرومته، وعزت جرثومته، وثبت أصله، وبسق فرعه، ونبت زرعه في أكرم موطن، وأطيب معدن"

(ينظر: أبو هلال العسكري، الصناعتين الكتابة والشعر: 260/1، الزركشي، والبرهان في علوم القرآن: 55/1، ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 210/1-211)

[3] الصناعتين الكتابة والشعر لأبي هلال العسكري: 260

[4] ينظر: الخفاجي، سر الفصاحة: 173

[5] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير: 210/1

وفريق ينكر وجود سجع في القرآن الكريم ويتحرج من تسمية فواصله سجعاً ويعد ذلك نقيصة وعيباً لما في ذلك من تشبيه له بسجع الكهان[1]، ويأتي في طليعة هؤلاء

---

[2] وقد احتج أصحاب هذا الرأي بجملة من الأدلة منها:

- ✓ لو كان القرآن سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلامهم، ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز. ولو جاز أن يقال هو سجع معجز لجاز لهم أن يقولوا شعر معجز.
- ✓ إن كل ما توهموا أنه سجع ليس كذلك، لأن مجيئه على صورة السجع لا يعني أنه منه، وفرق كبير بين السجع ونظم القرآن. فالمعنى في سجع الكلام يتبع اللفظ بخلاف فواصل القرآن فإن اللفظ هو الذي يتبع المعنى.
- ✓ ما روي عن أبي هُرَيْرَةَ، قَالَ: اقْتَتَلَتِ امْرَأَتَانِ مِنْ هُذَيْلٍ، فَرَمَتْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى بِحَجَرٍ، فَقَتَلَتْهَا وَمَا فِي بَطْنِهَا، فَاخْتَصَمُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَضَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ دِيَةَ جَنِينِهَا غُرَّةٌ عَبْدٌ أَوْ وَلِيدَةٌ، وَقَضَى بِدِيَةِ الْمَرْأَةِ عَلَى عَاقِلَتِهَا، وَوَرَّثَهَا وَلَدَهَا وَمَنْ مَعَهُمْ، فَقَالَ حَمَلُ بْنُ النَّابِغَةِ الْهُذَلِيُّ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ أَغْرَمُ مَنْ لَا شَرِبَ وَلَا أَكَلَ، وَلَا نَطَقَ وَلَا اسْتَهَلَّ، فَمِثْلُ ذَلِكَ يُطَلُّ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا هَذَا مِنْ إِخْوَانِ الْكُهَّانِ»، مِنْ أَجْلِ سَجْعِهِ الَّذِي سَجَعَ) وفي بعض الروايات أسجاعة كسجاعة الجاهلية؟ وفي بعضها: " أسجعاً كسجع الكهان؟ فالنبي صلى الله عليه وسلم ذم السجع ونسبه للجاهلية وللكهنة فكيف يسوغ حمل الفواصل في القرآن عليه؟!
- ✓ لو كان الكلام الذي هو في صورة السجع منه لما تحير العرب فيه، ولكانت الطباع تدعوا إلى المعارضة، ولأمكنهم معارضته لأنه في عادتهم فأين يكون الإعجاز إذن؟

(ينظر: الباقلاني، إعجاز القرآن الكريم: 72، الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 54/1)

والحديث أخرجه البخاري في كتاب الطب، باب الكهانة، برقم: 5758

هذه أشهر أدلة المنكرين لوجود السجع في القرآن الكريم وهي لم تسلم من المناقشة حيث ردها المجيزون بما يأتي:

- ✓ أما استشهادهم بقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّمَا هَذَا مِنْ إِخْوَانِ الْكُهَّانِ)، أو قوله: (أسجعاً كسجع الكهان) فلا دلالة فيه على ما ذهبوا فالنبي صلى الله عليه وسلم إنما قال ذلك لظهور التكلف والتعسف فيما جاء به حمل بن النابغة من السجع حتى أشبه ما كانت تجريه الكهنة على ألسنتها، ولم يرد السجع على عمومه ولو أراد ذلك لقال: أسجعاً وما زاد عليه، ولكن إضافته السجع للكهان يؤيد ما ذكرنا.

ويجاب عن هذا الدليل من وجه آخر وهو: أننا إذا اعتبرنا أن حَمَل بن النابغة قد أجاد في سجعه فكان كلامه سالماً من التكلف بريئاً من التعسف، فإن نهي النبي صلى الله عليه وسلم

الإمام الأشعري ثم الرماني الذي حكم بأن القرآن الكريم فيه فواصل ليست من السجع، وبذلك يعلو - في نظره - عن أن يكون سجعاً، فالفواصل بلاغة والسجع عيب، ويقاربه في ذلك الرأي أو يوافقه الإمام أبو بكر الباقلاني[1].

والذي أميل إليه أن لا مشاحة في قولنا إن في القرآن سجعاً، ولكن ليس كسجع الكهان، سجع معجز في إحكامه، وتركيبه، ومبناه، في انسجام لفظه، ومعناه، سجع لا يبارى، ولا يطاول، ولا يضاهى. سجع بعيد كل البعد عن سجع الكهنة، سجع بمنأى عن التكلف الممقوت والتصنع المذموم، والتستر خلف الألفاظ دون اعتبار للمعنى. سجع هو المثل الأسمى والنموذج الأمثل للبلاغة. أليس في القرآن مجاز؟!

وإنكاره كان موجهاً لما تضمنه كلام حمل من حكم الكهنة في هذه المسألة، لأن الكهان كانوا عادة ما يلبسون أحكامهم أثواباً من السجع لتجد مكاناً لها في نفوس الناس، فالسجع إذن ليس بمنهي عنه، وإنما المنهي عنه هو الحكم المتبوع في قول الكاهن، فكان التقدير: أحُكماً كحكم الكهان!

- ✓ وأما قول المنكرين بأن السجع يجعل المعنى تابعاً للفظ فقد أجيب عنه: بأن الذي دفع بهم إلى هذا القول هو تشبيههم النثر بالشعر، فالشعر تقصد فيه القوافي والمقاطع المتحدة في الألفاظ، ثم تكيف المعاني على الألفاظ ليستقيم المقطع، وتستقيم القافية، وإذا كان الشعر منفيًا في القرآن بالاتفاق، فكذلك السجع الذي ينهج منهجه، ويتبع طريقته، غير أن سجع القرآن يختلف عن ذلك إذ هو من نوع لا يدانيه قول بشر لأن المعاني فيه هي المقصد الأول ثم تأتي الألفاظ بجمالها وإشراقها وحسن نغمها، ورنة موسيقاها، تابعة لذلك، وقد يكون اتحاد المقاطع في الحروف من مظاهر الجمال وحسن النغم، وانسجام الموسيقي، وفي ذلك قوة التأثير، بما لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله.

(ينظر: ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 211/1، وأبو زهرة، المعجزة الكبرى القرآن: 217، وبنت الشاطئ، عائشة محمد علي عبد الرحمن، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، دار المعارف، الطبعة: الثالثة، 263)

(2) ينظر: الباقلاني، محمد بن الطيب، إعجاز القرآن للباقلاني، دار المعارف – مصر، الطبعة: الخامسة، 1997م، 72 البرهان في علوم القرآن للزركشي: 54/1

أليس في القرآن طباق؟! أليس في القرآن جناس؟! وغير ذلك من ألوان المعاني والبيان والبديع والبيان.

لماذا لا يثور أولئك الذي يظهرون غيرة على كتاب الله ويعترضون على إطلاق لفظ السجع على بعض فواصلة، لماذا لا يثورون ضد المجاز والطباق والجناس وغيرها الموجودة في القرآن؟ أليست هي أيضاً تقع في كلام الكهان؟

والذي يظهر لي أن ما ذكرت في ترجيحي محل اتفاق يجمع طرفي الخلاف ويقلص الهوة بينهما، بل ويحسر الخلاف في الاصطلاح دون الجوهر، فما ذكره المجيزون لسجع القرآن الكريم من صفات يكاد يخرجه من كونه سجعاً ويقربه مما اصطلح عليه النافون له بقولهم هي فواصل.

بلاغة السجع القرآني مع أمثلة من سورة إبراهيم.

ذكر أهل العلم شروطاً للسجع حتى يكون مقبولاً[1] أهمها تبعية اللفظ للمعنى المراد باعتباره وعاء له وخادماً، وهو ما تميزت به الفواصل القرآنية عن السجع المألوف عند العرب، لأنهم يخضعون كلامهم لقوانينه مما يضطرهم لجعل المعنى منقاداً للفظ، وهو ما سلم منه البيان الإلهي الذي جاء بسجع غير مقيد بضوابطهم يسير فيه المعنى على سجيته فيختار له من الألفاظ ما يناسبه دون أن يفرض عليه قبول

---

[2] قال أهل البيان: لا يحسن السجع كل الحسن إلا إذا استوفى جملة من الشروط هي:

- أن تنقاد الألفاظ للمعاني بحيث تحدد الصورة المعنوية ما يلائمها من الصورة اللفظية فلا يكون السجع مجرد زيادة في لفظ أو نقصان فيه.
- أن تتحلى المفردات بالرشاقة وروعة الجرس والخفة على السمع.
- أن لا يكون معنى الكلام المكون مع السجع مما اجتلب مراعاة للسجع.
- أن تتناسب القرينتان في الطول حتى يتم التناغم والتوافق لدى السامع.
- أن يكون لكل من القرينتين (الفقرتين) معنى مغايراً للأخرى، حتى لا يكون السجع مجرد تكرار بلا فائدة.

(ينظر: المراغي، علوم البلاغة: 360، عيسى العاكوب، المفصل في علوم البلاغة: 648)

لفظ لأجل التسجيع، فجاءت الفاصلة القرآنية منسجمة تمام الانسجام مع مضمون الآية التي انتهت بها. وفي سورة إبراهيم من الشواهد والأمثلة ما يؤيد كلامنا نذكر منها على سبيل المثال.

تماثل فواصل الآيات الثلاثة الأولى من سورة إبراهيم في قوله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ **الْحَمِيدِ** (1) اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ **شَدِيدٍ** (2) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (3)﴾[1] حيث جاءت متوافقة على سبيل "**السجع المتوازي**" **الذي يعني اتفاق الفاصلتين في الوزن والروي**[2] ، وهو ما نجده في توافق (حميد، شديد، بعيد) في الوزن والروي، إذ تشترك في وزن (فعيل) وكذا في الحرف الأخير وهو حرف الدال. ومع جمالية هذا اللون من السجع وما يجلبه للسمع من توازن في الجرس وتآلف في الصوت وتناغم في الموسيقى، فإن ما يزيده بهاء وتمكناً استقرار كل فاصلة في موضعها وتجانسها مع معاني الآية التي وضعت علامة على نهايتها؛ لأن المعنى في سجع القرآن الكريم هو الذي يلح في طلب اللفظ وينتقيه، فلا تقف من فواصله على حيف على المعنى أو نشوز عن المراد، وهو إلى جانب ذلك يأخذ بالاعتبار انجذاب السمع لسجع الالفاظ، ويلاحظ الجانب الفني في ربط الفقرات، فيوالي بين السجعات ويصطفي لها من الألفاظ ما يطرب لها سمع المتلقي وتنتشي لها نفسه.

ويتجلى لنا هذا الترابط العضوي بين الفاصلة وآيتها من خلال استعراض معاني الفواصل ومقدار انسجامها مع مواضعها.

---

[2] سورة إبراهيم: الآيات 1، 2، 3

[3] ينظر: ابن معصوم، أنوار الربيع في أنواع البديع: 493، والصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح: 654/4، الهاشمي، جواهر البلاغة: 331

ونبدأ بالآية الأولى التي ختمت بقوله: (إلى صراط العزيز الحميد)، قال أهل العلم: العزيز إشارة إلى كمال القدرة والقوة، والحميد إشارة إلى كونه مستحقاً للحمد والثناء على كل أفعاله. وقد اختيرت هاتان الصفتان من بين صفات الله تعالى العلا لمزيد مناسبتها للمقام[1]، فالكلام في الآية على إنزال الكتاب برهاناً على صدق ما جاء به النبيون، وآية على أحقية ما فرضه الله على خلقه، فهو به غالب للمخالفين مقيم عليهم الحجة، وهذا المعنى يناسبه التذييل بوصف العزيز الذي يعني القاهر الذي لا يغلب. ولما كان إنزال الكتاب هداية للناس أكبر نعمة أنعمها الله على عبادة كان الاختتام بوصف الحميد غاية المناسبة لمعنى الآية، لاستحقاقه تعالى الحمد والثناء على نعمة انتشال الخلق من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان والهداية. قال ابن عاشور معلقاً على الفاصلة: "وبذلك استوعب الوصفان الإشارة إلى الفريقين؛ من كل منساق إلى الاهتداء من أول وهلة، ومن مجادل صائر إلى الاهتداء بعد قيام الحجة ونفاد الحيلة"[2]

ولم تكن فاصلة الآية الثانية كذلك غريبة عن معنى آيتها إذ ليس من وصف أنسب للعذاب من الشدة التي تعني: التجمع والكثافة التي يصعب معها التفكيك[3]، فهؤلاء يصلون عذاباً كثيفاً متواصلاً لا يجدون من دونه سوى الولولة قائلين: يا ويلاه، نظير

---

[2] وقد ذكر المفسرون دواعي متعددة ومتنوعة لاختيار هذه الفاصلة منها: التنبيه على أنه لا يذل سالك صراط الله ولا يخيب سابله. وقال أبو السعود: تخصيص الوصفين بالذكر للترغيب في سلوك هذا الصراط، ببيان ما فيه من الأمن، والعاقبة الحميدة. ومنها: أن هذين الوصفين لا يتحققان إلا فيمن كان عالماً بكل شيء مستغنياً عن كل شيء، مستحكماً في كل شيء، فإذا أضيف الصراط إلى متصف بهما نال الشرف والرفعة واستحق السلوك فيه. ينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل: 192/3، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 58/19، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 30/5

[3] ابن عاشور، التحرير والتنوير: 181/13، وينظر كذا: ابن عطية، المحرر الوجيز: 322/3، وأبو حيان، البحر المحيط في التفسير: 406/6

[4] ينظر: البقاعي، نظم الدرر: 373/10

ما ورد في قوله تعالى: (دَعَوْا هُنالِكَ ثُبُورًا)[1] وذلك على اعتبار أن قوله (من عذاب شديد) متعلق بـ (ويل) وهو مصدر أصله منصوب (ويلاً) رُفع لإفادة الثبوت، ويعني الهلاك نقيض (الوأل) الذي يعني النجاة[2]. وثمة اتصال وثيق في المعنى بين الآية الأولى والثانية قال الزمخشري: "ولما ذكر الخارجين من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان توعد الكافرين بالويل"[3] وعليه يأتي لفظ (شديد) صفة للعذاب ليوضح للمتلقي سبب صياح أهل النار وعلو ضجيجهم وولولتهم، إضافة إلى تناغمه مع الفاصلة السابقة عليه واللاحقة.

وأما الفاصلة الثالثة (بَعِيدٍ) فيظهر وجه تناسبها لموضعها في الداعي البلاغي الباعث على انتقائها من دون سائر مرادفاتها في المعنى لتكون صفة لـ (الضلال) وهو بدون شك ليس لأجل مواطأة جاراتها من فواصل الآيات الأخرى فحسب، وإلا جاء الكلام ركيكاً متكلفاً ممجوجاً. وقد ذكر الفخر الرازي ثلاثة أوجه استوجبت هذه الفاصلة هي[4]:

الأول: المبالغة في وصف هؤلاء القوم بالضلال والانحراف عن الحق والصواب، وأنهم بلغوا أقصى مراتب الضلال.

الثاني: أن البعد هو في الحقيقة وصف لاحتمال عودتهم عن غيهم إلى رشدهم، لأنه قد استقر في قلوبهم وتمكن في نفوسهم.

---

[2] سورة الفرقان: الآية 13

[3] ينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل: 192/2، وابن عطية، المحرر الوجيز: 322/3، الألوسي، روح المعاني: 174/7، ودرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 144/5، أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3983/8

[4] الزمخشري، الكشاف: 537/2

[1] ينظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 61/19، والخازن، لباب التأويل: 28/3، وحسن صديق خان، فتح البيان في مقاصد القرآن: 81/7

الثالث: أن المراد بالبعد هنا امتداد العذاب وزوال انقطاعه، على تقدير الضلال بمعنى الهلاك، فيكون المعنى: أولئك في هلاك يطول عليهم ويستمر دون انتهاء.

ويظهر للباحث قوة الوجه الأول، لأن البيان الإلهي قد مهد لوصف الضلال بالبعد حين ذكر الأفعال والموبقات التي تلبّس بها هؤلاء الكفار وكانت سبباً في ضلالهم وهلاكهم، وهي من الفظاعة والعظم ما يبعد بصاحبها كثيراً عن صراط الحق، وهل بعد الصد عن سبيل الله تعالى ومعاداته من جرم، أم ماذا يتوقع ممن رمى دين الله بالزيغ وتربص بصراطه الدوائر، هل يعقل أن يكون هؤلاء قد ضلوا جادة الصواب وجنحوا عن الحق فحسب! أم أنهم قد بالغوا في زيغهم وأوغلوا في غيهم إلى الحد الذي لا يرجى لهم معه أي أمل بالرجوع والهداية، لا شك أن الموبقات الثلاثة المذكورة في الآية هي من استوجبت وصف الضلال بالبعد.

ونستشهد بمثال آخر من السورة الكريمة على سلامة السجع القرآني عن العيوب التي شاعت وانتشرت في سجع الأدباء وظهرت في تصنعهم للتراكيب من خلال إخضاع المعاني للألفاظ فكان ممقوتاً متكلفاً، وهو الأمر الذي تترفع عنه الفواصل في البيان الإلهي إذ تجعل وضوح المعنى هدفا وغاية، ثم تنساق الألفاظ لخدمة هذا الهدف طواعية مشكلة سجعاً يتميز بالعفوية والسلاسة والتبعية للمعنى. ففي قوله تعالى: (وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (14) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (15) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ)[1] نلحظ توالي ثلاث فواصل مشكلة سجعاً من نوع (المتوازي) الذي سبق التعريف به في المثال السابق، حيث اتفقت فواصل الآيات الثلاثة (وعيد، عنيد، صديد) في وزنها (فعيل) وفي رويها وهو انتهاؤها كلها بحرف الدال. وما نود التدليل عليه في هذا

---

[2] سورة إبراهيم: الآيات 14، 15، 16

المقام هو براءة الفواصل في هذه الآيات الثلاثة من أن يكون مجرد التسجيع هو الغاية الوحيدة التي استوجبت اختيارها، دون ملاحظة تناسبها مع معنى الآيات.

ونبدأ بالفاصلة الأولى قوله تعالى: (وَخَافَ وَعِيدِ) التي عُطفت على جملة (خاف مقامي)[1] ورغم تقاربهما في المعنى فإن الثانية لم تغن عن الأولى، وجاءت مشفوعة بها. فهل جيء بقوله: (وَخَافَ وَعِيدِ) زيادة على المعنى المراد لمجرد مراعاة الفاصلة؟

خير ما نستعين به على الجواب هنا مقارنة هذه الآية بمثيلتها في سورة البينة (ذَٰلِكَ لِمَن خَشِيَ رَبَّهُ)[2] فإن الخشية تعلقت بالله تعالى مباشرة، ولم يجمع بينها وبين الخوف من الوعيد أو المقام. ولعل السر وراء ذلك أن الحديث فيها عن نعيم المؤمنين خاصة[3]، أما هنا في سورة إبراهيم فإن السياق - الذي جاء في صريحه ثناء على المخاطبين الموعودين باستخلاف الكافرين في ديارهم بعد إهلاكهم - قد تضمن في ثناياه تعريضاً بالمشركين بأنهم لم يعبؤوا بوعيد الله وحسبوه عبثاً كما حكى عنهم بيان الله تعالى: (ويَسْتَعْجِلُونَكَ بِالعَذابِ)[4] فاستدعى ذلك الإتيان بالفاصلة (وعيد) مع تكرير فعل الخوف[5].

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 14

[3] سورة البينة: الآية 8

[4] سياق الآية هو (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (7) جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) (البينة: 7، 8)

[5] سورة الحج: الآية 47

[6] ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: 208/13

وقد اتفق المفسرون[1] على أن الوعيد المذكور مضاف إلى الله تعالى فهو وعيده لا غير، وقد قرأ الجمهور (وعيد) بدون ياء وصلاً ووقفاً، في حين أثبتت قراءة ورش عن نافع ياء المتكلم وصلاً دون الوقف، وفي قراءة يعقوب إثبات الياء وصلاً ووقفاً[2]، قال ابن عاشور: " وكل ذلك جائز في ياء المتكلم الواقعة مضافا إليها في غير النداء"[3] ولعل البيان الإلهي قد راعى حسن تناغم الفاصلة مع تالياتها فحذف ياء المتكلم مراعاة لذلك قال درويش: " وعيد: مفعول به منصوب وعلامة نصبه الفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة لمراعاة الفواصل"[4] ولا ضير في ذلك إذ ربما غير البليغ في بعض أوضاع الكلمة طلباً للتوازن الإيقاعي بين القرينتين نحو ما وقع في قوله صلى الله عليه وسلم لنساء ينتظرن تشييع الجنازة: (فَارْجِعْنَ مَأْزُورَاتٍ غَيْرَ مَأْجُورَاتٍ)، فإن الأصل في اللغة أن يقال: موزورات، أخذاً من الوزر، لكنه غير وجاء به مهموزاً قصداً للتوازن وصحة التسجيع، ولتكون مناسبة تماماً لـ (مأجورات)[5].

---

[2] ينظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن: 542/16، والنسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 166/2، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 484/4، والصابوني، محمد علي، صفوة التفاسير، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة، الطبعة: الأولى، 1417هـ - 1997م، 86/2

[3] ينظر: أبو بكر بن مهران، المبسوط في القراءات العشر: 257، وأبو عمرو الداني، عثمان بن سعيد بن عثمان بن، التيسير في القراءات السبع، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثانية، 1404هـ، 1984م، 135

[4] ابن عاشور، التحرير والتنوير: 209/13

[5] درويش، إعراب القرآن وبيانه: 168/5

[6] ومن أمثلة التغيير طلباً للمناسبة اللفظية في القرآن الكريم ما جاء في قوله تعالى: (وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ) (الفجر: الآيتان 4، 5) وقوله: (وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ) (الفجر: الآية 9) فإن الأصل إثبات الياء في كل من (يسري) و(الوادي) لانتفاء موجب حذفها، لكنها حذفت مراعاة للفاصلة، كذلك قوله صلى الله عليه وسلم وهو يرقي سبطيه الحسن والحسين: (أُعيذكما بكلمات الله التامة، من الهَامة والسامة، والعين اللامة) فإن أصل (لامة) هو ملمّة من الفعل (ألمَّ) عبر عنها بما سبق لأجل الموافقة بينها وبين الفواصل التي سبقتها. ينظر: ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة: 173- 177، وشهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب: 159/7

وكذلك هي الفاصلة التالية في قوله تعالى: (وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)[1] فإن كلمة (عنيد) جاءت مستقرة في مكانها مؤدية لمعنى أصيل في الآية بغض النظر عن التوازن اللفظي التي حققه توافقها مع الفواصل المجاورة لها، أي وبعبارة أخرى: إن استكمال المعنى المراد بالآية هو الذي استجلب هذا اللفظ وليس وزنه أو حرف رويه. برهان ذلك أن الآية تحكم بالخسران والخيبة والهلاك على كل من اتصف بالتجبّر والعِناد، فالجبار هو المتكبر الذي لا يرى لأحد عليه حقاً، أو المدعي لنفسه منزلة عالية لا يستحقها، والعنيد هو المعاند للحق المجانب له، مشتق من (العِنْد) وهو الناحية، أي إنه ينأى بنفسه عن الحق والعدل معرضاً ويأخذها في ناحية[2]. ورغم ما بين الصفتين من التشابه والتداخل في المعنى فإن إحداهما لا تحل محل الأخرى ولا تغني عنها في الكلام الإلهي المتناهي في الدقة والبلاغة، ولكن لنا أن نقول إن هذين اللفظين قد تضافرا في بيان المعنى المقصود إذ إن صفة (جبار) التي جاءت أولاً أشارت إلى خلُق يسكن نفس الإنسان ويعشش داخله، وأما سمة (عنيد) فيشار بها إلى الأثر الجسماني الصادر عن ذلك الخلق النفساني[3]، ويرى الباحث في الجمع بين هاتين الصفتين إشارة إلى عدم المؤاخذة وعدم ترتب الجزاء على الفكرة الكامنة في النفس ما لم تترجم إلى أثر سلوكي خارجي.

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 15

[3] ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 349/9، والسمرقندي، بحر العلوم: 238/2، والشوكاني، فتح القدير: 120/3

[4] ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب: 79/19، والألوسي، روح المعاني: 190/7، والطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 210/13

وأما الفاصلة الثالثة في قوله تعالى: (مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ)[1] فقد اختلف المفسرون في تقدير الكلام في قوله: (ماء صديد) على قولين - بعد اتفاقهم على أن المراد بالصديد ما يسيل من أجساد أهل النار من القيح المختلط بالدم-[2]:

الأول: أن (صديد) عطف بيان على (ماء) تقديره: أنه لما قال: (ويسقى من ماء) كأنه قيل: وما ذاك الماء؟ قال: (صديد). وإطلاق الماء على ذلك ليس بحقيقة وإنما أطلق عليه باعتبار أنه بدل ينوب عنه.

الثاني: أنه نعت تقدير الكلام معه: ويسقى من ماء كالصديد أي مثل الصديد، وعلى هذا فإن إطلاق الماء عليه حقيقة، ولكن لما كان ذاك الماء من النتانة والغلظة والبشاعة إلى الحد الذي يشبه الصديد قرن به.

ولعل الثاني أقرب لدلالة الفعل (يسقى) عليه إذ إنه يأتي تلبية لطلب أهل النار السقيا والارتواء من ظمأ بهم كما ورد قوله تعالى: (وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ)[3]، وقوله: (وإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ)[4]، فيجاب طلبهم بماء ولكن على صفة تناسب مقامهم، وهل من لفظ أقوى تعبيراً وأكثر بياناً من (صديد) المشتق من الصد الذي يصدّ الناظرين عن رؤيته، يمكن أن ينوب عنه في وصف السائل الذي يسقى به أهل النار، وهو الذي ما إن ذكر اسمه حتى تقلبت معدة الإنسان غثياناً وتغيرت نفسه إعياء، لما يتصف به من الزناخة والقذارة التي لا يدانيه فيها أي سائل آخر.

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 16

[3] ينظر: الزمخشري، الكشاف: 546/2، وابن عطية، المحرر الوجيز: 331/3، وابن عادل الحنبلي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: 79/7

[4] سورة الأعراف: الآية 50

[5] سورة الكهف: الآية 29

وإضافة إلى تناسب الفاصلة مع معنى آيتها نلحظ كذلك تناسب روي الفاصلة مع المعنى العام للمقطع، حيث اختتمت الآيات الثلاثة بفواصل منتهية بحرف الدال، وهو يمثل النبرة العالية في الخطاب من حيث إنه جهري، إذ تضمنت الآيات وعيداً موجهاً للكفار بالهلاك، وكذا يوحي الجهر بالتأكيد على إنجاز وعد الله للمؤمنين بإسكانهم في ديار أعدائهم، وبصفة الشدة يمثل حرف الروي العنف والقسوة وشدة العذاب الذي ينتظر أولئك المتجبرين المعاندين في جهنم، وهي المعاني التي حملتها آيات المقطع، ولا ننسى الصفة الأهم التي تميز الدال وتمنحه القوة عند مجيئه ساكناً وهي قابليته للقلقلة التي تعني: " شدة اضطراب الشيء وتحركه "[1]، فتعبر بحركتها وخفقانها في فم القارئ عن زلزال ينفجر سخطاً ويحمل غضباً فيزيد في معنى التهديد الذي اصطبغت به آيات المقطع.

ما تتميز به الفاصلة القرآنية

ومن أهم سمات الاستخدام القرآني لنظام الفواصل الخروج على رتابة الإيقاع أو ما يسمى بكسر الإيقاع، فرغم سير النظم القرآني في معظمه على نمط صوتي قائم على تكرير القالب الصوتي ترديداً وتنغيماً، فإن هذا التكرير لا ينتهي به إلى رتابة الإيقاع المتمثل في تكرار الفواصل المتماثلة أو المتوافقة بحيث ينتج عنه تكرير زائد يبعث السامع على الملل والسآمة بسبب تعود الأذن نمطا مألوفاً من الإيقاع الموسيقي الأمر الذي يودي بحسن النص ويفقده انجذاب السامع ومتعته[2]، ولكننا على العكس من ذلك نراه يخرج على هذه الرتابة فينوع في الفواصل ليريح أذن السامع عند انتقاله من مقطع صوتي إلى آخر، ويفصل بينهما بفاصلة مختلفة في النغمة الموسيقية عن

---

[2] ابن منظور، لسان العرب، مادة (قلل)

[3] ينظر: المرسي، كمال الدين عبد الغني، فواصل الآيات القرآنية، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، الطبعة الأولى: 1420هـ، 1999م، 184

سابقاتها ولاحقاتها، وهو ما ينبه القارئ إلى تجدد الخطاب أو اختلاف الموضوع، ويبقيه متيقظاً ومشدوداً إلى القراءة.

فمثلاً بعد توالي فواصل الآيات التالية:

(إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

(وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)[1]

(أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)[2]

(وهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[3]

وهي كما ترى متفقة إما وزناً ورورياً أو وزناً فقط، نجد البيان الإلهي يكسر الرتابة الصوتية بعدها فيجيء بقوله تعالى:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)[4]

إذ إن فاصلة الآية (شكور) مختلفة كما ترى عن سابقاتها في الوزن وحرف الروي، بل لا تكاد تقف على مشترك بينها. إن اتفاق بعض الفواصل في الوزن والروي إذا كان من شأنه أن يمنح المقطع ثراء موسيقياً، فإن الاحتفاظ بالوزن والتخلي عن الروي أحياناً أخرى يكون له من الحسن مثل سابقه إذا حدثت المراوحة بينهما، لأن اعتياد الأذن على نهاية صوتية واحدة لكل قرينة قد يفقدها عنصر المفاجأة التي توقظ النفس وتنبه الذهن[5].

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 2

[3] سورة إبراهيم: الآية 3

[4] سورة إبراهيم: الآية 4

[5] سورة إبراهيم: الآية 5

[6] ينظر: كمال الدين المرسي، فواصل الآيات القرآنية: 188

ولعل في ذلك أيضاً إيذاناً للسامع بانتهاء المقطع الأول الذي تناول الحديث عن أهمية القرآن الكريم والغاية من إنزاله، وانتقال البيان الإلهي إلى مقطع آخر موضوعه مهمة سيدنا موسى عليه والسلام وحواره مع قومه، وفيها عاد الإيقاع إلى سابق عهده وتوالت الفواصل المتوافقة:

(وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)[1]

(وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)[2]

(فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ)[3]

ونظير ذلك نجده كذلك في توالي الفواصل المتشابهة عند تهديد الكافرين المتنكرين لنعمة الله تعالى المتمثلة بالبعثة النبوية حيث جاء كالآتي:

وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ[4]

وَبِئْسَ الْقَرَارُ[5]

فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ[6]

وهو من "**سجع المطرف**" الذي يعرف عند أهل البيان[7] بالذي **اتفقت فيه أعجاز القرائن في الروي فقط**. ثم أتى البيان الإلهي بفاصلة مغايرة لمقطع شكَّلَ تمهيداً للانتقال إلى الحديث عن موضوع آخر، فقال تعالى يأمر المؤمنين بالمبادرة إلى فعل

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 6

[3] سورة إبراهيم: الآية 7

[4] سورة إبراهيم: الآية 8

[5] سورة إبراهيم: الآية 28

[6] سورة إبراهيم: الآية 29

[7] سورة إبراهيم: الآية 30

[8] ينظر: العلوي، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: 14/3

الطاعات كإقام الصلاة والإكثار من التصدق والإنفاق في سبيل الله قبل مجيء يوم الحساب حيث لا ينفع مال ولا صديق: (قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ)[1] وهنا نلاحظ انتهاء الآية بفاصلة مختلفة عن سابقاتها من حيث الروي لاختلاف موضوع المقطع، وتنبيهاً للقارئ إلى انتهاء مقطع وابتداء آخر، ثم شرع في الحديث عن الأدلة على وجود الله تعالى والمتضمنة في الوقت نفسه نعمه وآلاءه على عباده، فشكل المقطع وحدة متكاملة مع فواصلها المتجانسة التي جاءت كالآتي:

وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ[2]

وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ[3]

إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ[4]

وفي ذلك دليل على أن ثمة ارتباطاً وثيقاً بين موضوع المقطع وتوائم فواصله، وكأن الفاصلة الموحدة قد جعلت عنواناً صوتياً وسمة إيقاعية للمقطع.

الثالث - لزوم ما لا يلزم

وهو فن بديع من فنون الشعر والنثر، يلتزم فيه الشاعر أو الناثر قبل حرف الروي في النظم، أو قبل الحرف الأخير من الفاصلة في النثر ما لا يلزم، بحث تتم التقفية

---

[2] سورة إبراهيم: الآية 31

[3] سورة إبراهيم: الآية 32

[4] سورة إبراهيم: الآية 33

[5] سورة إبراهيم: الآية 34

بدونه، كأن يلتزم حرفاً أو حركة واحدة في جميع السجعات أو الأبيات، أو ربما حرفين[1]. نحو قول الشاعر:

أصالةُ الرأي صانتْنِي عن الخَطَلِ وحِليةُ الفضلِ زانتني لدَى العَطَلِ[2]

فالشاعر التزم في التقفية حرف الطاء وحركته معاً غير حرف الروي اللام، ومعلوم أن النظم كان يتم دون ما التزمه الشاعر. وأمثلته في القرآن الكريم كثيرة نحو قوله تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ)[3] فإن الفاصلة القرآنية سبقت حرف الروي (القاف) بحرف مشترك آخر هو اللام المفتوحة. وهذا اللون من البديع وإن سمي بغير اللازم فإن في التزامه روعةً وحسناً يزيدان قرائن الكلام توازناً وجمالاً، قال ابن الأثير: "وهو من أشق هذه الصناعة مذهبًا، وأبعدها مسلكًا، وذاك لأنَّ مؤلفه يلتزم ما لا يلزمه، فإن اللازم في هذا الموضع وما جرى مجراه، إنما هو السجع الذي هو تساوي أجزاء الفواصل من الكلام المنثور في قوافيها، وهذا فيه زيادة على ذلك، وهو أن تكون الحروف التي قبل الفاصلة حرفًا واحدًا"[4]

ومثاله في السورة الكريمة قوله تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)[5] إذ نلحظ اشتراك الفاصلتين (الأنهار) (النَّهار) في حرفي الهاء والألف إضافة

---

[2] ينظر: ابن الأثير، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، مطبعة المجمع العلمي، 1375م، 266، والسبكي، عروس الأفراح: 307/2، العلوي، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: 209/2

[3] البيت لمؤيد الدين الطغرائي افتتح به لاميته المشهورة بـ "لامية العجم" وهو في ديوانه: 301، واستشهد به ابن حجة الحموي في خزانة الأدب: 423/2

[4] سورة العلق: الآيتان 1، 2

[5] ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 281/1

[1] سورة إبراهيم: الآيتان 32، 33

إلى حرف الروي (الراء)، ورغم أن معظم ما يقع في شعر الشعراء وسجع الأدباء لا يسلم من التكلف فإن هذا اللون من البديع جاء في القرآن الكريم محموداً غير مقصود لذاته ولا متعمداً، وإنما مطلوباً للمقام مستدعياً للمناسبة، فالآية الأولى دلت بمعناها وموضوعها على الفاصلة بل طلبتها لإتمام المعنى، فماذا ينقص الآية بعد الحديث عن تسخير الفلك والبحر، وماذا يجانسها ويناسبها غير تسخير الأنهار، وهب أن الآية انتهت بكلمة أخرى غير الأنهار، أما كان سيكون نشوزاً عن موضوع الآية وخروجاً عن المقصود مما يصان عنه البيان الإلهي، كما لو فرضنا محل الفاصلة كلمة "الجبال" مثلاً، فأي مناسبة تجمع الجبال بالفلك الجارية في البحر!

وتأمل معي فاصلة الآية التالية (الليل والنهار) ومدى استقرارها في مكانها ومناسبتها لمعنى الآية، إذ إنها جاءت متممة للحديث عن نعمتي الشمس والقمر ولا يخفى ما بينها من العلاقة والارتباط الوثيق.

الرابع - رد العجز على الصدر[1]

ويسميه بعضهم "التصدير"، ويكون في الكلام المنثور أو المنظوم حين يشاكل آخر الكلام أوله بوجه من الوجوه[2]، أي أن يأتي البليغ بأحد اللفظين المكررين[3] أو المتجانسين[4] أو الملحق بهما[5] في أول الفقرة أو في تضاعيفها، ويأتي بالآخر في

---

[2] هو نوع من البديع أول من ذكره ابن المعتز حين فصل القول فيه مبيناً أقسامه، وأكثر من شواهده، ثم سار على نهجه أبو هلال العسكري وابن رشيق. ينظر: ابن المعتز، البديع: 140، وأبو هلال العسكري، الصناعتين: 385، وابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه: 3/2

[3] ينظر: ابن حجة الحموي، خزانة الأدب: 255/1، وعلان، البديع في القرآن أنواعه ووظائفه: 144

[4] نحو قوله تعالى: (وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ) (الأحزاب: 37)

[5] المراد بالمتجانسين المتشابهان في اللفظ دون المعنى نحو قولهم: سائل اللئيم يرجع ودمعه سائل.

[6] وهما اللفظان اللذان يجمعهما الاشتقاق أو شبهه، مثال الأول: قوله تعالى: (استغفروا ربكم إنه كان غفارا) (نوح:10) ومثال الثاني قوله تعالى: (قال إني لعملكم من القالين) (الشعراء: 168). ينظر: ابن معصوم، أنوار الربيع في أنواع البديع: 188

نهايتها[1]. نحو قوله تعالى: (وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ)[2] حيث تطابق أول الفقرة مع آخرها، من خلال رد آخر الكلام (تخشاه)على أوله (تخشى).

وقد وقع الباحث على مثال واحد لهذا النوع في السورة الكريمة وهو ما ورد في قوله تعالى: (وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)[3] حكاية لقول الرسل في مواجهة أعدائهم من الذين كفروا، مظهرين التمسك بالله والاعتصام بحبله وصدق التوكل عليه. وقد أورد النظم الحكيم لفظ التوكل فعلاً في صدر الآية الكريمة (نتوكل) ثم عاد ليختمها بلفظ مشتق من التوكل يحمل المعنى نفسه وهو (المتوكلون). فاللفظان ملحقان بالمتجانسين يجمعهما الاشتقاق.

وتتجلى أهمية هذا الأسلوب في تأكيد معنى اللفظ المكرر وترسيخ دوره في الكلام من خلال إيلائه قدراً أعظم بذكره أولاً ثم الرجوع إليه مرة أخرى، علاوة على كونه يزيد الكلام وحدة وتماسكاً حين يصل الناظم أو الكاتب أول الكلام بآخره ويؤاخي بين أقسامه، ويربط بين وشائجها مما يجعل الكلام دالاً بعضه على بعض فيسهل على السامع تنبؤ الفاصلة، ويكسب الفقرة التي يكون فيها أبهة، ويكسوها رونقاً وديباجة ويزيدها حسناً وطلاوة.

---

[2] ينظر: الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة (ضمن شروح التلخيص): 433/4، والسبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: 293/2، وبدر الدين بن مالك، المصباح في علوم البلاغة: 165

[3] سورة الأحزاب: الآية 37

[4] سورة إبراهيم: الآية 12

الخامس – المشاكلة

ويسميها الرماني (تجانس المزاوجة)[1] وابن الأثير (مقابلة المفرد)[2]، وقد عرفها الخطيب القزويني بقوله[3]: "هي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديراً"[4] نحو قوله تعالى: (فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)[5] فقوله: (فاعتدوا) وارد على سبيل المشاكلة، إذ لا يعقل أن يصدر الأمر الإلهي للمسلمين بالاعتداء، ولكن سمي القصاص الذي هو جزاء الاعتداء "اعتداء" مشاكلة لقوله: (اعتدى) المذكور في الكلام[6].

ونظيره في السورة الكريمة هو ما جاء في قوله: (وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)[7] وهم قوم النبي محمد صلى الله عليه وسلم[8]، أفرغوا جهدهم ووسعهم وبذلوا كل طاقتهم في مكرهم سعياً منهم إلى لجم

---

[2] ينظر: الرماني، النكت في إعجاز القرآن الكريم: 99

[3] ينظر: ابن الأثير، المثل السائر: 281/2

[4] وهي عند محمد الجرجاني: ذكر الشيء بغير لفظه اعتمادا على معموله أو عامله. ينظر: الجرجاني، محمد بن علي بن محمد، الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، مكتبة الآداب، طبعة جديدة مزيدة ومنقحة 1481هـ، 1997م، 242

[5] الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة (ضمن شروح التلخيص): 309/4، وينظر: عبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 438/2

[6] سورة البقرة: الآية 194

[7] ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم: 424، وابن أبي الإصبع، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر: 102

[8] سورة إبراهيم: الآية 46

[9] للعلماء في المشار إليهم في الآية أربعة أقوال ذكرها ابن الجوزي: الأول: أن المراد بهم نمرود في محاجته سيدنا إبراهيم، والثاني: أنه بخت نصر، والثالث: أنهم الأمم المتقدمة ومكرهم هو شركهم، وأما القول الرابع فهو ما اعتمدناه. ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: 346/3، وابن الجوزي، زاد المسير: 519/2، والرازي، مفاتيح الغيب: 110/19،

الحق ونصرة الباطل، حين هموا بقتل النبي صلى الله عليه وسلم أو نفيه أو حبسه[1] كما ورد في قوله تعالى: (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)[2]، ولكن الله تعالى مطلع على مكرهم ومحيط به ومهيمن عليه ومبطل له كما قال: (وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ) ولأهل العلم في تفسير هذه الآية قولان:

الأول: إن قوله: (وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ) أي عنده علم مكرهم الذي يهلكهم به.

الثاني: أن المراد بذلك أن عند الله جزاء مكرهم الذي فعلوه وعقابه، وعليه يكون المراد بالمكر الذي عند الله الجزاء، وهنا موضع شاهد المشاكلة، إذ إن البيان الإلهي قد سمى العقاب المعدَّ من الله تعالى لهؤلاء الكافرين (مكراً) على سبيل المشاكلة للمكر الذي نسب إليهم[3]، وذلك لوقوع الجزاء في صحبته[4].

---

[2] من عجائب ما ورد عن المفسرين في المراد بالآية (وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ) قول بعضهم: إن المراد من هذا المكر ما نقل أن نمرود حاول الصعود إلى السماء فاتخذ لنفسه تابوتا، وربط قوائمه الأربع بأربعة نسور، وكان قد جوعها ورفع فوق الجوانب الأربعة من التابوت عصيا أربعاً، وعلق على كل واحدة منهن قطعة لحم، ثم إنه جلس مع حاجبه في ذلك التابوت فلما أبصرت النسور تلك اللحوم تصاعدت في جو الهواء ثلاثة أيام، وغابت الدنيا عن عين نمرود، ورأى السماء بحالها فنكس تلك العصي التي علق عليها اللحم فسفلت النسور وهبطت إلى الأرض، والأعجب من ذلك أن الفخر الرازي قد جعله أحد أقوال ثلاثة قيلت في المسألة، ولا شك أن هذا التأويل مما لا يقول به عاقل، ولا يصدقه ذو منطق سليم، والغريب كذلك ما نسب إلى القاضي الباقلاني في رده هذا القول: "وهذا بعيد جداً لأن الخطر فيه عظيم، ولا يكاد العاقل يقدم عليه، وما جاء فيه خبر صحيح معتمد ولا حجة في تأويل الآية البتة" إذ إن في كلامه ما يوهم إمكانية هذا الأمر، وتوقفه على شجاعة المقدم عليه، وهو ما يمجه العقل ويلفظه المنطق السليم.
ينظر: الطبري، جامع البيان: 39/17، والرازي، مفاتيح الغيب: 110/19، وابن عادل الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب:411/11، والشوكاني، فتح القدير: 140/3

[3] سورة الأنفال: الآية 30

[4] ينظر: مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، التفسير الوسيط للقرآن الكريم: 511/5

[8] وقيل: لكون الجزاء في صورة المكر لوقوعه بهم من حيث لا يشعرون. ينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم:58/5

ولا يخفى على المتأمل جمال هذا الأسلوب وخلابته، لما يثيره لدى العقل من نشاط وانتباه، واستدعاء للتدبر والتفكر، فمجيء المكر منسوباً إلى الله تعالى يثير دهشة السامع للوهلة الأولى ويوقعه في حيرة فسيدعي من العقل التفكر والتدبر سعياً لإدراك المعنى المراد، لورود اللفظ في رداء غير مألوف ولباس غير معتاد.

الخاتمة

بعد رحلة طويلة ومشوار ممتع في أجواء البيان الإلهي في سورة إبراهيم، وبعد سبر لأغوار السورة وغوص للبحث عن دقائقها وكشف أسرارها البلاغية يستطيع الباحث أن يجمل ما توصل إليه من نتائج فيما يأتي:

- تهدف السورة الكريمة إلى ترسيخ أسس العقيدة الإسلامية من خلال الاستدلال على أصول الدين كالإيمان بالله تعالى والرسل والبعث والنشور والحساب والجزاء. وتدور موضوعاتها في فلك حقيقتين أساسيين: الرسل والرسالة، ونعم الله تعالى على البشر.

- اتخذ الباحث من موضوع إعجاز القرآن الكريم مدخلاً لأطروحته فساق أقوال العلماء في سعيهم لتحديد الوجه المراد بإعجاز القرآن الكريم أمثال الخطابي والرماني الباقلاني ومن بعدهم عبد القاهر الجرجاني ثم القرطبي والفيروزآبادي وانتهاء بالمعاصرين نحو الرافعي وسيد قطب وأبو زهرة وانتهى به البحث إلى أن ما ذكروه من وجوه لا يعدو عن كونه خصائص امتاز بها البيان الإلهي، فوجه عنايته بعدها نحو تحديد الوجه الذي تحدى القرآن به العرب وأظهر عجزهم، وظهر له أن القرآن الكريم إنما تحدى العرب ببلاغته وبيانه لا غير.

- انتقل الباحث بعدها إلى عرض أقوال أهل البيان في تحديد المراد بالوجه البلاغي المعجز للقرآن الكريم فكانوا فريقين: فريق يتنصر للمفردة القرآنية ويراها معجزة في نفسها، وآخر ينكر لها هذه الميزة ويرى الإعجاز في النظم والتأليف.

- ظهر للباحث بعد مناقشة أقوال أهل العلم أن عناصر متعددة تتضافر وتشترك في نسج البلاغة القرآنية وأن للكلمة القرآنية دوراً محورياً في ذلك بما تلقيه من ظلال وتبثه من أخيلة في جو الجملة.

- يعود سبب عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن الكريم إلى سببين يتجلى فيهما العجز البشري، الأول: ضيق اللغة أمام غزارة المعاني، الثاني: قصور الحافظة

البشرية عن الإحاطة بكل مفردات اللغة وتراكيبها، وكلاهما منتفٍ في حق الباري عز وجل.

- درس الباحث مفردات سورة إبراهيم على ضوء من المعايير التي وضعها علماء البيان لفصاحة الكلمة فتوصل إلى النتائج الآتية:

- خلو السورة الكريمة من المفردات الغريبة التي عدها أهل اللغة وحشية قبيحة، وإن ما يطلق عليه غريب من مفردات القرآن الكريم هو في معظمه لهجات فصيحة لقبائل عربية، وإن سمو المفردة القرآنية عن المبتذل والسفسف من كلام العامة لا يدخلها في خانة الغريب ولا يكدر صفوها.

- هناك مفردات صنعها القرآن الكريم لم تكن تجري على لسان العرب، وأخرى كانت موجودة أضفى عليها دلالات أخرى.

- لما كان قصر جذر الكلمة علَمَاً على فصاحتها؛ أحصى الباحث الأفعال والأسماء الواردة في سورة إبراهيم (عينة الدراسة) وقام بدراستها صرفياً فوجد أنها كلها من الثلاثي المجرد ومزيده، وما زاد على الثلاثي من الأسماء إلا بعض أسماء الأنبياء الأعجمية. مما يعني أن القرآن الكريم حين ينتقي كلماته يتوخى فيها الخفة، فكلما كانت اللفظة أقصر كانت أسهل على النطق وأطيب على السمع.

- ظهر للباحث تناغم وانسجام بين مخارج حروف المفردة القرآنية، من خلال عينة شملت 43 فعلاً من سورة إبراهيم تبين أنها مؤلفة من حروف مخارجها متجافية يكون الانتقال بينها وفق أكثر وجوه تأليف المفردة فصاحة وشيوعاً في اللغة.

- درس الباحث أثر الحركة في تليين الكلمة من خلال عينات اختارها من مفردات سورة إبراهيم، فظهر له أن حركات المفردة القرآنية تشكل بتناغمها وانسجامها موجة موسيقية تريح اللسان عند النطق وتطرب الأذن، لما لتوالي الحركات الخفيفة من دور في تسهيل نطق الكلمة، إضافة إلى دور السكون في تقطيع المفردة الطويلة إلى مقاطع صوتية تجعلها بمنزلة تعدد الكلمات، وتساعد أعضاء النطق في أداء وضيفتها دون كَدٍّ وإجهاد.

- نزل القرآن الكريم بلغة العرب واستعمل مفردات كلامهم ولكنه أعطاهم دروساً في اصطفاء المفردة، وعلمهم الدقة في انتقائها والحذاقة في استخدامها، والمهارة في توظيفها لتكون مطابقة للمعنى في النظم مؤدية ما يطلب منها بجرسها وإيحائها وصفات حروفها وحركاتها، بحيث لا يمكن الاستعاضة عنها بمرادفاتها مهما دق الفرق بينها وصغر، وقد ساق الباحث شواهد لذلك من سورة إبراهيم.

- انتقل الباحث بعد ذلك إلى دراسة هيئة اللفظة القرآنية في السورة، فحاول جاهداً تفهم هيئة المفردة في سورة إبراهيم، وعمل على استنباط الأسرار البلاغية التي حققتها، فأورد تعريف اللفظ بأنواعه كالضمير الذي خدم غرض التعظيم بـ (نا) في خطاب الباري عز وجل، وغرض تصوير الحالة النفسية التي تخيم على الكافرين وأتباعهم في النار، وكذا التكريم وغيره، والتعريف باسم الإشارة وباللام بنوعيه العهد الخارجي، والجنس، ثم الإضافة التي جاءت بغرض التشريف والتكريم في إضافة العباد إلى الله، وغرض التعظيم في إضافة البيت الحرام والنعمة إلى الله تعالى، وداعي الاستعطاف في استغاثة أهل النار ربهم بـ(ربنا) وكذا التحقير والتوبيخ التذكير، وأما التعريف بالعلمية فأكثر ما تمثل باسم الجلالة (الله) الذي ورد 33 مرة وفي كل مرة كان يضفي على المشهد مهابة ويكسبه إجلالاً، ولفظ (الشيطان) بما يوحيه اشتقاقه من بعد عن الخير وتوعد بالهلاك، ومثله لفظ جهنم في دلالته اللغوية قبل نقله للعلمية. ثم جاء التعريف باسم الموصول فكان اظهر أغراضه في السورة بيان عِلّيّة الصلة لبناء الحكم في الجملة، إضافة إلى التفخيم والتعظيم والاستهجان والتحقير.

- ثم انتقل الباحث إلى هيئة التنكير فظهر له تعدد أسرارها البلاغية، فوقف منها عند التعظيم والتفخيم الواردين في وصف القرآن الكريم بـ (كتاب)، والدلالة على النوعية الخاصة في نحو كلمة (يوم) المراد بها يوم القيامة، والتحقير في وصف الكافرين الرسل بـ (بشرٌ)، وكذلك التكثير والرغبة في عدم تعيين المتحدث عنه.

- وفيما يتعلق بهيئة الإفراد والجمع لفت انتباه الباحث أن البيان الإلهي يستعمل بعض المفردات بصيغة الجمع دوماً ويتحاشى مفردها مثالها في سورة إبراهيم لفظة

(لب) التي وردت مجموعة (وَلِيَذَّكَّرَ أُولُواْ الْأَلْبَابِ)، في حين يورد بعضها الآخر بصيغة المفرد فقط دون الجمع نحو كلمة (الأرض) التي لا تقف على جمع لها في القرآن الكريم.

- تطرق البحث إلى المعاني البلاغية للمفردة الواحدة حال ورودها بصيغة المفرد وبصيغة الجمع نحو كلمة (السماء) فحيث كان الحديث عن العدد جيء بها مجموعة للدلالة على سعة عظمة الخالق، وجيء بها مفردة حيث كان المراد الجهة.

- وقف الباحث على موضعين في السورة عبر فيهما البيان الإلهي عن المفرد بالجمع وكلاهما يخص النبي صلى الله عليه وسلم تفخيماً لشأنه وتعظيماً ومراعاة لتشبيه الواحد بالجامعة، الأول في قوله تعالى: (وقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ)، والثاني: (فَلا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وعْدِهِ رُسُلَهُ)

- تكرر ورود الظلمات جمعاً والنور مفرداً مرتين في السورة وهو أمر يطرد في القرآن الكريم وسره البلاغي أنهما استعارتان للضلال الذي تتعدد سبله والإيمان ذي السبيل الواحد. وقريب منه جمع لفظ (الجنات) وإفراد (النار) للدلالة على تعدد الجنات واختصاص كل مؤمن بجنة، وتكدس أهل الشقاء جمعهم في نار واحدة.

- لوحظ خروج البيان الإلهي على مقتضى الظاهر في إيراد الاسم الظاهر موضع الضمير ليحقق بذلك أغراضاً بلاغية متنوعة أبرزها إظهار مقام الامتنان والإنعام بشكل جلي من خلال التصريح بصفات الله تعالى (العزيز الحميد)، والتنبيه على العلة الموجبة للحكم في إظهار الكافرين ونعتهم بـ(الظالمين) مرة وبـ (الذين ظلموا) أخرى، ولإزالة اللبس وغير ذلك..

- أجاد البيان الإلهي في توظيف اسم الجلالة (الله) بجرسه وإيحاءاته حين أظهره في مواضع تقتضي الإضمار وكرر ذكره على مسمع المخاطب ملقياً في نفسه الرهبة والمهابة.

- وقف البحث على أغراض متنوعة للتقديم على نية التأخير في السورة الكريمة أبرزها الاختصاص والحصر الذي ظهر على لسان الرسل معتصمين بالله تعالى وحده

وكيلاً وناصراً (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)، (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)، إضافة إلى التقديم لغرض الاهتمام والعناية بشأن المتقدم، وكذا التشريف وتشويف السامع لمعرفة المتأخر، ومناسبة الكلام لما بعده ورعاية الشكل الخارجي والإيقاع الموسيقي للآيات.

- وكذلك تنوعت الدواعي البلاغية للتأخير لا على نية التأخير فكان منها التقديم للعلة والسببية كما في تقديم (العزيز) على (الحكيم) في قوله تعالى: (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)، ولداعي السبق في الوجود تقدَّم ذكر إسماعيل على إسحاق، وكذا الترتيب في (قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ)، ولتشريف المعلوم واختصاصه بالله تعالى تقدم (مَا نُخْفِي) في قوله تعالى: (رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ).

- وفيما يتعلق بأسلوب الخبر في السورة فقد كثر خروج الخبر على غرضيه الأساسيين: فائدة الخبر ولازم الفائدة، ليواكب أحداث السورة فجاء لغرض الامتنان والتفضل في مشهد إنزال الكتاب هدى للناس، وعند تعداد نعم الله تعالى على البشر، وحين تحول الحديث إلى الذي استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وصدوا عن سبيل الله تحول معه الخبر إلى غرض التنبيه والتحذير والتهديد والوعيد، ونلحظ ميل الخبر لغرض الاستعطاف وإظهار الضعف على لسان سيدنا إبراهيم في مناجاته ربه جل وعلا، وعندما وقف إبليس خطيباً في أتباعه في النار خيَّمت على الخبر سحابة من التيئيس والتنديم، وبه ظهر للباحث تلون الخبر بلون المشهد الذي يرويه.

- أكثر ما ورود الخبر في السورة موشحاً بثوبه الإنكاري، وهو- بحسب رأي الباحث – أمر طبيعي اقتضته ضرورة مجيء الكلام مطابقاً لمقتضى الحال ومناسبته لجو السورة العام من حيث الموضوعات والحقائق التي ما برحت تؤكدها وتسعى لترسيخها، ولما كانت هذه الحقائق موضوع إنكار وجحود، ومحور جدل طويل مع المشركين، استدعت البلاغة إلقاء الخبر الحامل لها مؤكداً بالضرب الإنكاري ليناسب حال المخاطب ومقام الكلام.

- تناول الباحث من أساليب الإنشاء ما توفرت له شواهد في السورة الكريمة، فبحث عن الدلالات البلاغية لكل أسلوب، وبدأ بالاستفهام الذي ورد في تسع مواضع ممثلاً من أدواته بالهمزة وهل وكيف، ومحققاً أغراضاً مجازية بعيدة عن معناه الحقيقي في طلب الفهم، وهو يكاد لا يخرج في السورة عن أحد أغراض ثلاثة: تقرير معلوم عند المخاطب، أو إنكار عليه في أمر، أو توبيخ وتقريع وتبكيت.

- خرج أسلوب الأمر كذلك عن حقيقته في طلب الفعل على سبيل الاستعلاء فحمل معاني بلاغية كشف عنها سياق الآيات، فجاء للتهديد والوعيد في قوله تعالى مخاطباً الكافرين: (تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ)، وحينما تعلق الأمر بالمؤمنين خرج الأمر إلى معنى التحفيز تشجيعاً لهم على المواظبة على ما هم متمسكون به أصلاً، إضافة إلى دواعي أخرى كالدعاء في مناجاة سيدنا إبراهيم لربه (رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ..) (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ..) والتمني في حديث أهل النار (رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ..) وغيرها..

- كان حضور النهي في السورة ضعيفاً نظراً لطبيعة الموضوعات التي عالجتها، حيث غلب عليها السرد القصصي للأحداث والمجريات شأن السور المكية، واقتصر ظهوره على ثلاث مناسبات فقط؛ مرتين مع فعل الحسبان (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ)، (فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ) لغرض طلب الثبات والدوام من النبي صلى الله عليه وسلم على ما هو حاصل منه، ومرة على لسان إبليس مخاطباً أتباعه (فَلَا تَلُومُونِي) غرضه منه التأنيب والتوبيخ والتقريع.

- تجلى أسلوب النداء في السورة في مشهدين اثنين الأول: نداء الخليل إبراهيم ربه وقد ارتدى حلة الدعاء والتضرع والرجاء واصطبغ بمشاعر القرب ولذة المناجاة، والثاني: في نداء أهل النار واستغاثتهم وتوسلهم الذي بدا صرخة من يائس أقرب إلى التمني منها إلى الرجاء والدعاء في جو تسوده الخيبة وتظله الحسرة والندامة.

- انتقل الباحث بعد ذلك إلى أسلوب القصر وبلاغته في السورة فظهر له تنوع طرقه وأدواته حيث ورد القصر بـ (إنما) مرتين حمل من خلالها للنص قوة في التصوير

وإيجازاً في المعنى وتوكيداً عليه، وقد جرت (إنما) على أصلها وحقيقتها في الموضع الأول فقررت الأمر الجلي الذي لا خلاف فيه، وخرجت على ظاهرها في الثاني فأنزلت المنكر منزلة المذعن.

- لما كان القصر بالنفي والاستثناء يختص بالمقامات العنيفة حيث الرفض والجدال الذي يستدعي مزيداً من التوكيد والتقرير مع نبرة عالية في الخطاب ورد في السورة ست مرات مرتقياً إلى مستوى جو السورة الذي طغى عليها جدال الفرقاء واحتدت فيها حواراتهم ومناقشاتهم وعلت فيها الأصوات.

- حاولت الدراسة تسليط الضوء على طريقة عرض القرآن الكريم للأفكار والقضايا فظهر للباحث تنوع أسلوبه بين الإيجاز حيناً والإطناب أحياناً أخرى، حسب ما يقتضيه الموضوع ويستدعيه الحال والمقام وهو يسير في ذلك وفق سنن العربية فيوجز بالحذف وبالقصر، وقد وقف الباحث على أمثلة للحذف تنوعت بين الاقتطاع الاكتفاء والتضمين والاحتباك والاختزال وكان الغرض الأهم من هذا الأسلوب الاستثمار الأمثل لأقل ما يمكن من المفردات في أداء أكثر ما يمكن من المعاني والأفكار، وتجلى للباحث في أمثلة الإيجاز بالقِصر تمكن البيان الإلهي من ناصية المفردات والتراكيب العربية من خلال انتقائه لكلياتها وتوظيفها في أداء المعاني الغزيرة.

- وعلى الجهة الأخرى وقفت الدراسة على أمثلة كثيرة ومتنوعة للإطناب بنوعيه: بالبسط والزيادة، وظهر للباحث أن لكل زيادة في القرآن الكريم فائدة بلاغية لا يستغنى عنها في أداء المعنى، وأن ما يطلق عليه زائد ما هو إلا مصطلح يستخدم في الصناعة النحوية، وحسب القارئ دليلاً على ذلك أن يتصفح الأمثلة التي ساقها الباحث للإطناب بالزيادة وخدمت أسراراً بلاغية كثيرة كالإيضاح بعد الإبهام، وذكر العام بعد الخاص وعكسه، والتكرير، والاحتراس، والتتميم، والاعتراض، والتذليل..

- انتقلت الدراسة بعد ذلك إلى ميدان لا يثبت فيه إلا عالم ذو قدم راسخة في أسرار العربية ولا يوفق للصواب فيه إلا متضلع في فنونها محيط بعلومها، ألا وهو

الفصل والوصل، وقد حاول الباحث التحلي بقدر من الشجاعة عند الولوج فيه وسبر أغواره وكشف أسراره فعرض دواعي كل من الفصل والوصل وبحث عن أمثلة لهما من السورة الكريمة علّه يوضح للقارئ الصورة ويزيل عن المشهد الغمة، وقد توصل إلى أن لهذا الفن اتصالاً وثيقاً بفن المناسبة بين الآيات وتكاملاً يجعل كلاً منها مفضياً للآخر ومعيناً على فهمه وتصوره، لأن الأصل في الفصل أو الوصل بين الجمل يعود في نهاية الأمر إلى درجة القرابة ومدى التناسب بينهما.

- دأب البيان الإلهي على مخاطبة كل الناس على اختلاف مستوياتهم في الفهم والإدراك فاستخدم لذلك أساليب شتى وأورد الكلام في قوالب متنوعة، وساق المعاني في صور متفاوتة من حيث وضوح الدلالة، ولما كان علم البيان يكشف هذه الأساليب ودواعيها البلاغية فقد تناولت الدراسة شواهد علم البيان في السورة الكريمة بالتحليل والتفصيل بدءاً من أسلوب التشبيه ومروراً بالمجاز وانتهاء بالكناية، وقد ظهر للباحث أن البيان الإلهي قد تغلب على ضيق كلمات اللغة ودلالاتها عن استيعاب الأفكار والانفعالات والوجدانيات بواسطة الصورة البيانية التي ما فتئ يضيئها في ذهن المخاطب ويلقي بظلالها في مخيلته مستعيناً على ذلك بمحسوسات مستوحاة من بيئة المخاطبين وقريبة من أذهانهم تسهم في رسم تفاصيل الصورة ونفخ الروح فيها.

- اشتملت سورة إبراهيم على مشهدين أبدع البيان الإلهي في رسم تفاصيلهما وانتقاء عناصرهما على سبيل التشبيه التمثيلي، صَوَّرَ في الأول خيبة الكفار في أعمالهم وذهابها سدى، وأبرز مزايا الكلمة الطيبة ومنافعها في المشهد الثاني، وقد لاحظ البيان الإلهي في هذين المشهدين فضيلة ضرب المثل في زيادة الإفهام، ودور التجسيم في البيان والإيضاح، فقرن المجرد الغائب الخفي بالمحسوس الظاهر المألوف لتبدو الصورة أكثر وضوحاً في ذهن المخاطب ويحصل له إحاطة تامة بالمعنى المراد.

- رغم اتسام موضوعات السورة بالجد واتصاف أساليبها بالرصانة والقوة فإن ذلك لم يغيب شيئاً من ملامح المظهر الجمالي والمحسنات الشكلية التي يصطبغ بها البيان الإلهي عادة، وقد لاحظ الباحث الدور الكبير الذي نهض به ما يسمى عند أهل الفن بالبديع في تقريب المعاني بعد أن جعل البيان الإلهي منه بنوعيه المحسنات المعنوية واللفظية وسائل إيضاح وبيان رديفة لعلمي المعاني والبديع، إلى جانب وظيفتها في إبراز جماليات الأداء والصياغة بما تثيره في نفس المخاطب من متعة وانتعاش.

- ابتعد البيان الإلهي في عرضه للمحسنات البديعية عن التكلف والتصنع وتجنب إغراق النص وإثقاله بها نظير ما يقع فيه كثير من الشعراء والأدباء، فاستعملها بقدر الحاجة وبما يخدم بيان النص وإظهار حسنه، مع تنويع بينها، وقد ساق الباحث أمثلة لكل لون منها.

وفي ختام هذه الدراسة يوصي الباحث بجمع الأبحاث والدراسات المتعلقة بالبلاغة القرآنية وعرضها على لجنة متخصصة محكمة لتنقيحها وتحقيقها والعمل على توحيد منهجها وطريقة عرضها تمهيداً لجعلها موسوعة شاملة تصلح مرجعاً لطلبة العلم والراغبين بالاطلاع على هذا الجانب العظيم من إعجاز القرآن الكريم.

ويود الباحث الإشارة إلى أنه قد أفرغ الوسع في استنباط ما تراءى له من وجوه البلاغة في آيات سورة إبراهيم موضوع الدراسة ولم يأل جهداً في سبيل الوقوف على أسرارها وخباياها وكنوزها البيانية، ولكن ذلك لا يصونه من الخطأ ولا يكلؤه من الوهم، عذره في ذلك أن القصور لا يفارق المجهود البشري مهما بلغ من الدقة والشمول لا سيما عندما يتعلق الأمر بالقرآن الكريم وبيانه إذ هيهات هيهات أن يحيط به بحث، أو تستقصي نكته وأسراره دراسة.

المصادر والمراجع

- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، 1394هـ/ 1974 م، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب،

- الزمخشري، محمود بن عمرو بن أحمد، 1419 هـ - 1998م، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى،

- الرافعي، مصطفى صادق، 1425 هـ - 2005 م، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثامنة

- البيضاوي، ناصر الدين عبد الله بن عمر الشيرازي، 1418 هـ، أنوار التنزيل واسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى -

- القزويني، محمد بن عبد الرحمن بن عمر الشافعي، الإيضاح في علوم اللغة، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل – بيروت، الطبعة الثالثة.

- بالخطابي، حمد بن الخطاب البستي، 1976م، بيان إعجاز القرآن، (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) المحقق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة.

- بالجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب، 1423هـ، البيان والتبيين، ، الشهير ، دار ومكتبة الهلال، بيروت.

- الزَّبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية.

- ابن الهائم، أحمد بن محمد بن عماد الدين بن علي، 1423هـ ، التبيان في تفسير غريب القرآن، المحقق: د ضاحي عبد الباقي محمد، دار الغرب الإسلامي – بيروت الطبعة الأولى

- ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد، 1984هـ، التحرير والتنوير، ، الدار التونسية للنشر – تونس
- الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف، 1403هـ -1983م، التعريفات، دار الكتب العلمية بيروت -لبنان، الطبعة الأولى
- الشعراوي، محمد متولي، الخواطر، ، مطابع أخبار اليوم.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر، 1420هـ - 1999م، تفسير القرآن العظيم، المحقق: سامي بن محمد، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية
- الشريف الرضى، تلخيص البيان في مجازات القرآن، دار الأضواء ـ بيروت
- الأزهري، محمد بن أحمد بن الهروي، 2001م، تهذيب اللغة، أبو منصور، المحقق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى،
- القرطبي، عبد الله محمد بن فرح الأنصاري الخزرجي، 1384هـ - 1964م، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة الثانية
- ابن دريد، محمد بن الحسن الأزدي، 1987م، جمهرة اللغة، المحقق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الأولى
- الهاشمي، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت.
- ابن جني، عثمان الموصلي، الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الرابعة.
- الألوسي، محمود بن عبد الله، 1415 هـ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المحقق: علي عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى
- ابن سنان، محمد الخفاجي الحلبي 1402هـ_1982م، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى.

- الخضيري، محمد بن عبد العزيز بن أحمد، 1429 هـ - 2008 م، السراج في بيان غريب القرآن، مكتبة الملك فهد الوطنية، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى.

- سنن ابن ماجة، ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي.

- الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن الضحاك، 1395 هـ، سنن الترمذي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة الثانية، 1975م

- الرضي، حسن بن شرف شاه الحسيني، 1425 هـ- 2004م، شرح شافية ابن الحاجب، المحقق: د. عبد المقصود محمد عبد المقصود (رسالة الدكتوراه)، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولي

- الفارابي، إسماعيل بن حماد الجوهري، 1407 هـ - 1987م، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الرابعة.

- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، 1419هـ، الصناعتين، المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية - بيروت

- العلويّ، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، 1423هـ، الطراز لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز، المكتبة العنصرية – بيروت، الطبعة الأولى،

- السمين الحلبي، أحمد بن يوسف عمدة، 1417هـ - 1996م، الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، المحقق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى.

- الفراهيدي، الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم، العين، المحقق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

- غريب الحديث، أبو سليمان حمد بن محمد البستي المعروف بالخطابي، المحقق: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، دار الفكر – دمشق، 1402 هـ - 1982 م

- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، 1398 هـ - 1978م، غريب القرآن، المحقق: أحمد صقر، دار الكتب العلمية،

- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله، 1414هـ، فتح القدير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة الأولى

- قطب، سيد إبراهيم حسين الشاربي، 1412هـ، في ظلال القرآن، دار الشروق - بيروت- القاهرة، الطبعة السابعة عشر.

- سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر، 1408 هـ - 1988م، الكتاب، المحقق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة.

- الخازن، علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر، 1415هـ، لباب التأويل في معاني التنزيل، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى

- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، 1414هـ ، لسان العرب، أبو الفضل، جمال الدين ، دار صادر – بيروت، الطبعة الثالثة.

- السامري، عبد الله بن الحسين بن حسنون، 1365 هـ - 1946 م، اللغات في القرآن الكريم، حققه ونشره: صلاح الدين المنجد، مطبعة الرسالة، القاهرة، الطبعة الأولى.

- ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، المحقق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ـ القاهرة.

- ابن عطية، عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام الأندلسي، 1422 هـ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى.

- ابن سيده، علي بن إسماعيل المرسي، 1417هـ 1996م، المخصص، المحقق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى.

- النسفي، عبد الله بن أحمد، 1419 هـ - 1998 م، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة الأولى.
- الحاكم، محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم، 1411 – 1990م، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى،
- ابن حنبل، أحمد بن محمد بن هلال بن أسد، 1421 هـ - 2001م، مسند الإمام أحمد بن حنبل، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى.
- جبل، محمد حسن حسن، 2010م، المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى.
- ابن فارس، أحمد بن زكريا القزويني الرازي، 1399هـ - 1979م، معجم مقاييس اللغة، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر.
- الجواليقي، موهوب بن أحمد بن منصور، 1410هـ، 1990م، المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى.
- الرازي، محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين، 1420هـ، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثالثة.
- الراغب، الحسين بن محمد المعروف الأصفهانى، 1412هـ، المفردات في غريب القرآن، المحقق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق بيروت، الطبعة الأولى.
- بالماوردي، علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري، النكت والعيون، المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان
- الرازي، محمد بن عمر بن الحسن، 1424هـ، 2004م، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.

- أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

- الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

- القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق، 1418هـ، محاسن التأويل، محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى.

- النسائي، عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، 1406 – 1986م، المجتبى من السنن = السنن الصغرى، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، الطبعة الثانية.

- المناوي، محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي، الفتح السماوي بتخريج أحاديث القاضي البيضاوي، أحمد مجتبى، دار العاصمة – الرياض.

- الثعلبي، أحمد بن محمد بن إبراهيم، 1422هـ - 2002م، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى.

- ابن الجوزي، جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد، 1386 هـ - 1966م، الموضوعات، ضبط وتقديم وتحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، محمد عبد المحسن صاحب المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، الطبعة: الأولى

- الشربيني، محمد بن أحمد الخطيب، 1285هـ، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، مطبعة بولاق (الأميرية) – القاهرة.

- البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: 794هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، 1376 هـ - 1957 م، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه

- ابن الزبير، أحمد بن إبراهيم الثقفي الغرناطي، 1410 هـ - 1990م، البرهان في تناسب سور القرآن، تحقيق: محمد شعباني، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ المغرب.

- الزُّرْقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة: الطبعة الثالثة.

- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، أسرار ترتيب القرآن، دار الفضيلة للنشر والتوزيع.

- العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، 1379هـ، فتح الباري شرح صحيح البخاري، أبو الفضل الشافعي، دار المعرفة – بيروت.

- أبو العلاء، عادل بن محمد، السنة 37 - 1425هـ، مصابيح الدرر في تناسب آيات القرآن الكريم والسور، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة: العدد 129

- البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

- مسلم، مصطفى، 1426هـ - 2005م، مباحث في التفسير الموضوعي، دار القلم، الطبعة: الرابعة.

- الرماني، علي بن عيسى بن علي بن عبد الله، 1976م، النكت في إعجاز القرآن، مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، المحقق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، الطبعة: الثالثة.

- الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب، 1997م، إعجاز القرآن، المحقق: السيد أحمد صقر، دار المعارف – مصر، الطبعة: الخامسة.

- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، 1413هـ - 1992م، دلائل الإعجاز في علم المعاني، المحقق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة.

- أبو الفضل، عياض بن موسى بن عياض، 1407هـ، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، دار الفيحاء – عمان، الطبعة: الثانية.

- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، 1408هـ - 1988م، معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسمَّى (إعجاز القرآن ومعترك الأقران)، دار الكتب العلمية - بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى.

- بالجاحظ، عمرو بن بحر، 1424هـ، الحيوان، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الثانية.

- أبو زهرة، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد، المعجزة الكبرى القرآن، دار الفكر العربي.

- الراغب الأصفهانى، أبو القاسم الحسين بن محمد، 1420 هـ - 1999م، تفسير الراغب الأصفهاني، تحقيق ودراسة: د. محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب - جامعة طنطا، الطبعة الأولى:

- البوطي، محّمد سَعيد رَمضان، 1420هـ - 1999م، من روائع القرآن - تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل، مؤسسة الرسالة – بيروت.

- السكاكي، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي الخوارزمي، 1407هـ - 1987م، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية.

- المصطاوي، عبد الرحمن، 1425 هـ - 2004 م، ديوان امرِئ القيس، دار المعرفة – بيروت، الطبعة: الثانية.

- الآمدي، الحسن بن بشر، 1994م، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف - الطبعة الرابعة، مكتبة الخانجي - الطبعة الأولى.

- الطرابيشي، مطاع، 1405هـ- 1985م، ديوان عمر بن معدي كرب الزبيدي، الطبعة الثانية.

- الأصمعي، عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع، 1993م، الأصمعيات اختيار الأصمعي، احمد محمد شاكر - عبد السلام محمد هارون، دار المعارف – مصر، الطبعة: السابعة.

- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري، 1418هـ، عيون الأخبار، دار الكتب العلمية -بيروت.

- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد ابن حبيب ابن حدير بن سالم، 1404هـ، العقد الفريد، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى.

- ابن عباد ، إسماعيل بن عباد بن العباس، 1385هـ - 1965م، الكشف عن مساوي شعر المتنبي، المحقق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، مكتبة النهضة، بغداد، الطبعة: الأولى.

- الأبشيهي، محمد بن أحمد بن منصور، 1419هـ، المستطرف في كل فن مستطرف، عالم الكتب – بيروت، الطبعة: الأولى.

- الفارابي، أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم بن الحسين، 1424هـ - 2003م، معجم ديوان الأدب، تحقيق: دكتور أحمد مختار عمر، مراجعة: دكتور إبراهيم أنيس، مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة.

- القالي، إسماعيل بن القاسم بن عيذون، 1344هـ - 1926م، الأمالي أو شذور الأمالي أو النوادر، عني بوضعها وترتيبها: محمد عبد الجواد الأصمعي، دار الكتب المصرية، الطبعة: الثانية.

- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، 1386هـ - 1966م، شرح شواهد المغني، مذيل وتعليقات: الشيخ محمد محمود ابن التلاميد التركزي الشنقيطي، لجنة التراث العربي.

- بالجاحظ، عمرو بن بحر، 1419هـ، البخلاء، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة: الثانية.

- العَوْتبي، سَلَمة بن مُسْلِم الصُحاري، 1420هـ - 1999م، الإبانة في اللغة العربية، المحقق: د. عبد الكريم خليفة - د. نصرت عبد الرحمن - د. صلاح جرار - د. محمد حسن عواد - د. جاسر أبو صفية، وزارة التراث القومي والثقافة - مسقط - سلطنة عمان، الطبعة: الأولى

- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد، 1422هـ، زاد المسير في علم التفسير، المحقق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الأولى.

- أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف، 1420هـ، البحر المحيط في التفسير، المحقق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت.

- العكبري، عبد الله بن الحسين بن عبد الله، شرح ديوان المتنبي، المحقق: مصطفى السقا/إبراهيم الأبياري/عبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة – بيروت.

- النويري، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم، 1423هـ، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة: الأولى.

- السبكي، أحمد بن علي بن عبد الكافي، 1423هـ - 2003م، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، المحقق: الدكتور عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى.

- المغربي، ابن يعقوب، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، ، (ضمن شروح تلخيص المفتاح)، نشر أدب الحوزة، تصوير: دار الكتب العلمية، لبنان -بيروت.

- ابن أبي طالب، مكي حَمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني، 1429هـ - 2008م، الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة، الطبعة: الأولى.

- الغلاييني، مصطفى بن محمد، 1414 هـ - 1993م، سليم جامع الدروس العربية، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، الطبعة: الثامنة والعشرون.

- الأخضري، عبد الرحمن، الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون، تحقيق: د. محمد عبد العزيز نصيف، مركز البصائر للبحث العلمي.
- الدمنهوري، أحمد، حلية اللب المصون على الجوهر المكنون.
- يعقوب، أميل بديع، ديوان عمرو بن كلثوم، 1411هـ- 1991م، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان.
- الزَّوْزَني، حسين بن أحمد بن حسين، 1423هـ - 2002 م، شرح المعلقات السبع، دار احياء التراث العربي، الطبعة: الأولى
- المراغي، أحمد بن مصطفى، علوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع».
- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، عبد المتعال الصعيدي (المتوفى: 1391هـ)، مكتبة الآداب، الطبعة: السابعة عشر: 1426هـ-2005م
- التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر، المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، لبنان بيروت، الطبعة الثالثة.
- حَبَنَّكَة، عبد الرحمن بن حسن الميداني، 1416هـ - 1996م، البلاغة العربية، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة: الأولى.
- عوني، حامد، المنهاج الواضح للبلاغة، المكتبة الأزهرية للتراث.
- البغوي، الحسين بن مسعود، 1417هـ - 1997م، معالم التنزيل في تفسير القرآن المحقق: حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة.
- المراغي، أحمد بن مصطفى، 1365هـ - 1946م، تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولى.
- الهرري، محمد الأمين بن عبد الله الأرمي، 1421هـ - 2001م، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي، دار طوق النجاة، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى.

- الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، 1422هـ - 2001م، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى.

- الخلوتي، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي، روح البيان، دار الفكر – بيروت.

- الماتريدي، محمد بن محمد بن محمود، 1426هـ - 2005م، تأويلات أهل السنة، المحقق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى.

- جماعة من علماء التفسير، 1436هـ، المختصر في تفسير القرآن الكريم، إشراف: مركز تفسير للدراسات القرآنية، الطبعة: الثالثة.

- الجزائري، جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر، 1424هـ/2003م، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الخامسة.

- ابن الناظم، بدر الدين بن مالك، المصباح في المعاني والبيان والبديع، المحقق: حسني عبد الجليل يوسف، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز.

- جديد الثلاثة الفنون في شرح الجوهر المكنون، نوريم علال.

- قاسم، محمد أحمد، ديب، محيي الدين، 2003م، علوم البلاغة «البديع والبيان والمعاني»، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس - لبنان، الطبعة: الأولى.

- الأنباري، محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، 1412هـ -1992م، الزاهر في معاني كلمات الناس، المحقق: د. حاتم صالح الضامن، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى.

- الكجراتي، جمال الدين، محمد طاهر بن علي الصديقي الهندي الفَتَّنِي، 1387هـ - 1967م، مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، الطبعة: الثالثة.

- السلطي، عبد الحفيظ، ديوان أمية بن الصلت، جامعة دمشق.

- بن مقلد، مجد الدين أسامة بن مرشد بن علي بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي، البديع في نقد الشعر، تحقيق: الدكتور أحمد أحمد بدوي، الدكتور حامد عبد المجيد، الجمهورية العربية المتحدة - وزارة الثقافة والإرشاد القومي - الإقليم الجنوبي - الإدارة العامة للثقافة.

- عبد الساتر، عباس، 1416هـ- 1996م، ديوان النابغة الذبياني، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة.

- كراع النمل، علي بن الحسن الهُنائي الأزدي، 1409هـ - 1989م، المنتخب من غريب كلام العرب، المحقق: د محمد بن أحمد العمري، جامعة أم القرى (معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي)، الطبعة: الأولى.

- ابن يعيش، يعيش بن علي ابن أبي السرايا محمد بن علي، 1422 هـ - 2001م، شرح المفصل للزمخشري، قدم له: الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى.

- ابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي، 1400هـ - 1980م، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث - القاهرة، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه، الطبعة: العشرون.

- ابن مِهْران، أحمد بن الحسين النيسابوري، 1981م، المبسوط في القراءات العشر، تحقيق: سبيع حمزة حاكيمي، مجمع اللغة العربية – دمشق.

- ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف، النشر في القراءات العشر، المحقق: علي محمد الضباع (المتوفى 1380 هـ)، المطبعة التجارية الكبرى [تصوير دار الكتاب العلمية].

- السمين الحلبي، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.

- العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله، التبيان في إعراب القرآن، المحقق: علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، 1410هـ، تفسير القرآن الكريم، المحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، دار ومكتبة الهلال – بيروت، الطبعة: الأولى.
- الطيبي، شرف الدين، لطائف التبيان في علم المعاني والبيان، تحقيق: عبد الحميد هنداوي.
- الدعاس، أحمد عبيد، حميدان، أحمد محمد، القاسم، إسماعيل، 1425 هـ، إعراب القرآن الكريم، دار المنير ودار الفارابي – دمشق، الطبعة: الأولى.
- الخراط، أحمد بن محمد، 1426هـ، المجتبى من مشكل إعراب القرآن، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة.
- أبو البقاء الحنفي، أيوب بن موسى، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية المحقق: عدنان درويش - محمد المصري، مؤسسة الرسالة – بيروت.
- ابن سعيد الأندلسي، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، المحقق: الدكتور نصرت عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عمان – الأردن.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز، 1413هـ - 1993م، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، المحقق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الثانية.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري، 1408هـ - 1988م، البداية والنهاية، المحقق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين، بدائع الفوائد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد، 1412هـ - 1992م، نتائج الفكر في النَّحو، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى.

- ابن جني، أبو الفتح عثمان الموصلي، 1421هـ- 2000م، سر صناعة الإعراب، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى.

- المبرد، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالى الأزدي، المقتضب، المحقق: محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب – بيروت.

- عضيمة، محمد عبد الخالق، دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، تصدير: محمود محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة.

- السمعاني، أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي، 1418هـ- 1997م، تفسير القرآن، المحقق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض – السعودية، الطبعة: الأولى.

- السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم، بحر العلوم، تحقيق: محمد علي العوض، عادل عبد الموجود، زكريا النوتي، دار الكتب العلمية، لبنان – بيروت.

- العثيمين، محمد بن صالح بن محمد، لقاء الباب المفتوح، [لقاءات كان يعقدها الشيخ بمنزله كل خميس. بدأت في أواخر شوال 1412هـ وانتهت في الخميس 14 صفر، عام 1421هـ]

- صديق خان، أبو الطيب محمد بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري، 1412هـ - 1992م، فتحُ البيان في مقاصد القرآن، عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه: خادم العلم عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا – بَيروت.

- أبو موسى، محمد محمد، خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، مكتبة وهبة، الطبعة: السابعة.

- الصيادي، أحمد مطلوب أحمد الناصري الرفاعي، 1980م، أساليب بلاغية، الفصاحة - البلاغة – المعاني، وكالة المطبوعات – الكويت، الطبعة: الأولى.

- ابن السراج، أبو بكر محمد بن السري بن سهل النحوي، الأصول في النحو، المحقق: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، لبنان – بيروت

- المتنبي، أحمدُ بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي أبو الطيب الكندي، 1403هـ، 1983م، ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر.

- ابن مجاهد، أحمد بن موسى بن العباس التميمي، 1400هـ، السبعة في القراءات، المحقق: شوقي ضيف، دار المعارف – مصر، الطبعة: الثانية.

- ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف، 1421هـ - 2000م، تحبير التيسير في القراءات العشر، المحقق: د. أحمد محمد مفلح القضاة، دار الفرقان - الأردن، عمان، الطبعة: الأولى.

- التبريزي، يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ، 1352 هـ، شرح القصائِد العشر، عنيت بتصحيحها وضبطها والتعليق عليها للمرة الثانية: إدارة الطباعة المنيرية، عام النشر.

- العاكوب، عيسى علي، 1421هـ، 2000م، المفصل في علوم البلاغة العربية (المعاني – البيان - البديع)، منشورات جامعة حلب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية.

- دراز، صبَّاح عبيد، 1406هـ، 1986م، الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، مطبعة الأمانة، الطبعة الأولى.

- النيسابوري، محمود بن أبى الحسن بن الحسين أبو القاسم، 1415هـ، إيجاز البيان عن معاني القرآن، المحقق: الدكتور حنيف بن حسن القاسمي، دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى.

- بيان الحق، محمود بن أبي الحسن (علي) بن الحسين النيسابوريّ الغزنوي، 1419هـ - 1998م، باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن، المحقق (رسالة علمية): سعاد بنت صالح بن سعيد بابقي، جامعة أم القرى - مكة المكرمة حرسها الله تعالى.

- الحميري، نشوان بن سعيد اليمني، 1420هـ - 1999م، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، المحقق: د حسين بن عبد الله العمري - مطهر بن علي الإرياني - د يوسف محمد عبد الله، دار الفكر المعاصر (بيروت - لبنان)، دار الفكر (دمشق - سورية)، الطبعة: الأولى.

- الإيجي، محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الحسني الحسيني، 1424هـ - 2004م، جامع البيان في تفسير القرآن، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى.

- الزحيلي، وهبة بن مصطفى، 1418هـ، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر – دمشق، الطبعة: الثانية.

- طنطاوي، محمد سيد، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة: الأولى

- الجارم، علي، وأمين، مصطفى، 1431هـ، 2010م، البلاغة الواضحة، مكتبة البشرى، كراتشي- باكستان.

- عتيق، عبد العزيز، 1430هـ - 2009م، علم المعاني، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى.

- درويش، محيي الدين بن أحمد مصطفى، 1415هـ، إعراب القرآن وبيانه، دار الإرشاد للشئون الجامعية - حمص - سورية ، (دار اليمامة - دمشق - بيروت) ، (دار ابن كثير - دمشق - بيروت)، الطبعة : الرابعة.

- الصافي، محمود بن عبد الرحيم، 1418هـ، الجدول في إعراب القرآن الكريم، دار الرشيد، دمشق - مؤسسة الإيمان، بيروت، الطبعة: الرابعة.

- ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل،1421هـ - 2000م، المحكم والمحيط الأعظم، المحقق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى.

- ابن فارس، أحمد بن زكرياء القزويني الرازي، 1418هـ-1997م، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، محمد علي بيضون، الطبعة: الطبعة الأولى.

- مجمع اللغة العربية، 1409هـ، 1989م، معجم ألفاظ القرآن الكريم، الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث.

- الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي، 1418 هـ - 1997م، المحصول، دراسة وتحقيق: الدكتور طه جابر فياض العلواني: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة.

- الإسنوي، عبد الرحيم بن الحسن، 1420هـ- 1999م، نهاية السول شرح منهاج الوصول، دار الكتب العلمية -بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى.

- العثيمين، محمد بن صالح بن محمد، 1430 هـ - 2009 م، الأصول من علم الأصول، دار ابن الجوزي، الطبعة: الرابعة.

- الحجازي، محمد محمود، 1413هـ، التفسير الواضح، دار الجيل الجديد – بيروت، الطبعة: العاشرة.

- الأنصاري، يوسف عبد الله، 1410هـ، 1990م، أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية.

- الباقولي، علي بن الحسين بن علي، أبو الحسن، 1420 هـ، إعراب القرآن المنسوب للزجاج، تحقيق ودراسة: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري - القاهرة ودار الكتب اللبنانية - بيروت - القاهرة / بيروت، الطبعة: الرابعة.

- ابن هشام، عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، المحقق: عبد الغني الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع – سوريا

- أبو زهرة، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد، زهرة التفاسير، دار النشر: دار الفكر العربي.

- ابن هشام، عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، المحقق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

- دراز، صبَّاح عبيد، 1406هـ، 1986م، أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية، مطبعة الأمانة، الطبعة الأولى.

- الكرماني، محمد بن يوسف بن علي بن سعيد، 1424هـ، تحقيق الفوائد الغياثية، تحقيق ودراسة: د. علي بن دخيل الله بن عجيان العوفي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى.

- صلاح الدين محمد أحمد، 1410هـ، 1989م، من جمال النظم القرآني في سورة إبراهيم، دار الطباعة المحمدية، الطبعة الأولى.

- الخفاجي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر المصري الحنفي، حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي، دار صادر – بيروت

- الكواري، كاملة بنت محمد بن جاسم بن علي آل جهام، 2008م، تفسير غريب القرآن، دار بن حزم، الطبعة: الأولى.

- الأبياري، إبراهيم بن إسماعيل، 1405هـ الموسوعة القرآنية، مؤسسة سجل العرب.

- ضيف، شوقي، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، الطبعة التاسعة.

- قراينو، فاطمة، 1431هـ، 2010م، من أسرار الإيجاز في القرآن الكريم – دراسة بلاغية- رسالة ماجستير، كلية العلوم الإسلامية، قسم اللغة، جامعة الجزائر.

- عبد الحميد، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، 1401هـ - 1981م، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، المحقق: محمد محيي الدين، دار الجيل، الطبعة: الخامسة.

- البدوي، أحمد أحمد عبد الله البيلي، 2005م، من بلاغة القرآن، نهضه مصر – القاهرة.

- المطعني، عبد العظيم إبراهيم محمد، 1413هـ - 1992م، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى.

- ابن معصوم، صدر الدين المدني، علي بن أحمد بن محمد معصوم الحسني الحسيني، أنوار الربيع في أنواع البديع.

- فاضل، محمد نديم، 1426هـ - 2005م، التضمين النحوي في القرآن الكريم، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه من جامعة القرآن الكريم بالخرطوم، دار الزمان، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى.

- القيعي، محمد عبد المنعم، 1417هـ - 1996م، الأصلان في علوم القرآن، الطبعة: الرابعة مزيدة ومنقحة.

- النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي، 1416هـ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، المحقق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى.

- فاعور، على حسن، 1408هـ، 1988م، ديوان زهير بن أبي سلمى، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى.

- أبو الخطاب، أبو زيد محمد بن القرشي، جمهرة أشعار العرب، حققه وضبطه وزاد في شرحه: علي محمد البجادي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

- النهرواني، أبو الفرج المعافى بن زكريا بن يحيى الجريري،1426هـ - 2005م، الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، المحقق: عبد الكريم سامي الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى

- الرويني، عادل، تأملات في سورة إبراهيم، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، وحدة البحوث والدراسات.

- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين،1433 هـ - 2012 م، عُقُودُ الجُمَانْ في عِلْمِ الْمَعَانِي وَالْبَيَانْ، تحقيق وضبط: عبد الحميد ضحا، دار الإمام مسلم للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة: الأولى.

- المبرد، محمد بن يزيد، أبو العباس، 1417 هـ - 1997م، الكامل في اللغة والأدب، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي – القاهرة، الطبعة: الطبعة الثالثة.

- أبو شادي، مصطفى عبد السلام، الحذف البلاغي في القرآن الكريم، مكتبة القرآن، القاهرة.

- العز بن عبد السلام، الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز.

- عبد الرزاق، أبو بكر بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني، 1403هـ المصنف، المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي، المجلس العلمي- الهند، المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الثانية.

- النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، 1406هـ - 1986م، السنن الصغرى، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، الطبعة: الثانية.

- ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد، 1430 هـ - 2009م، سنن ابن ماجه، القزويني (المتوفى: 273هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد - محمَّد كامل قره بللي - عَبد اللّطيف حرز الله، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى.

- أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني، سنن أبي داود، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.

- الحاكم، محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع،1411هـ – 1990م، المستدرك على

الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى.

- الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي، النيسابوري، الشافعي، 1430هـ، التَّفْسِيرُ البَسِيْط، المحقق، عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى.

- دراز، صباح عبيد، 1406هـ، 1986م. أسرار الفصل والوصل في البلاغة القرآنية، مطبعة الأمانة، الطبعة الأولى.

- أبو الفتح، عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد، العباسي، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب – بيروت.

- بن يعقوب شيخو، يوسف بن عبد المسيح ، 1913م، مجاني الأدب في حدائق العرب، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت.

- الحكيم الترمذي، محمد بن علي بن الحسن بن بشر، أبو عبد الله، الأمثال من الكتاب والسنة، المحقق: د. السيد الجميلي، دار ابن زيدون / دار أسامة - بيروت – دمشق.

- ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي الأزراري، 2004م، خزانة الأدب وغاية الأرب، المحقق: عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال- بيروت، دار البحار-بيروت، الطبعة: الطبعة الأخيرة.

- أبو زرعة، عبد الرحمن بن محمد، ابن زنجلة، حجة القراءات، محقق الكتاب ومعلق حواشيه: سعيد الأفغاني، دار الرسالة.

- الفيومي، أحمد بن محمد بن علي ثم الحموي، أبو العباس، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية – بيروت.

- الصحفي، دخيل الله بن محمد، سورة هود عليه السلام دراسة لخصائص نظمها وأسرارها البلاغية، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

- الشال، أحمد خليل، 1435هـ، 2014م، ديوان أبي ذؤيب الهذلي، مركز الدراسات والبحوث الإسلامية، بور سعيد، مص، الطبعة الأولى.

- الضبي، المفضل بن محمد بن يعلى بن سالم، المفضليات، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف – القاهرة، الطبعة: السادسة.

- المُطَرِّزِىّ، ناصر بن عبد السيد أبى المكارم ابن على، أبو الفتح، برهان الدين الخوارزمي، المغرب في ترتيب المعرب، دار الكتاب العربي.

- ابن السكيت، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق 1423هـ، 2002م، إصلاح المنطق، المحقق: محمد مرعب، دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى.

- العليمي، مجير الدين بن محمد المقدسي الحنبلي، 1430هـ - 2009م، فتح الرحمن في تفسير القرآن، اعتنى به تحقيقا وضبطا وتخريجا: نور الدين طالب، دار النوادر (إصدَارات وزَارة الأوقاف والشُؤُون الإِسلامِيّة - إدَارَةُ الشُؤُونِ الإِسلاَمِيّةِ)، الطبعة: الأولى.

- بكار، يوسف حسين، 1403هـ، 1983م، ديوان زيد الأعجم، دار المسيرة، الطبعة الأولى.

- أبو عبيدة، معمر بن المثنى التيمى البصري 1381هـ ، مجاز القرآن، المحقق: محمد فواد سزگين، مكتبة الخانجى – القاهرة.

- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، 1408هـ - 1988م، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر المحقق: خليل شحادة، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية.

- لاشين، عبد الفتاح، 1419هـ، 1999م، البديع في ضوء أساليب القرآن، دار الفكر العربي، مصر، القاهرة.

- وهبة، مجدي- المهندس، كامل، 1984هـ، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية.

- ابن أبي الإصبع، عبد العظيم بن الواحد بن ظافر العدواني، البغدادي ثم المصري، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي.

- جبر، مصطفى السيد، 1428هـ، 2007م، دراسات في علم البديع، دريم للطباعة، الطبعة الرابعة.

- علان، إبراهيم محمود، 2002م، البديع في القرآن أنواعه ووظائفه، إصدارات دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة، الطبعة الأولى.

- عتيق، عبد العزيز، علم البديع، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان

- ابن الأثير، نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الجزري، أبو الفتح، 1375هـ، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، المحقق: مصطفى جواد، مطبعة المجمع العلمي.

- الطائي، عبد الأمير مهدي حبيب، ديوان ابن نباتة السعدي.

- القيرواني، إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري، أبو إسحاق الحُصري، زهر الآداب وثمر الألباب، دار الجيل، بيروت.

- أبو ستيت، الشحات محمد، 1414هـ، دراسات منهجية في علم البديع، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، الطبعة الأولى.

- نكري، عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد، 1421هـ - 2000م، دستور العلماء = جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية - لبنان / بيروت، الطبعة: الأولى.

- البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي، 1422هـ، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح

البخاري، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى.

- بنت الشاطئ، عائشة محمد علي عبد الرحمن، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، دار المعارف، الطبعة: الثالثة.

- الصابوني، محمد علي، 1417هـ - 1997م، صفوة التفاسير، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة، الطبعة: الأولى.

- أبو عمرو الداني، عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر، 1404هـ، 1984م، التيسير في القراءات السبع، المحقق: اوتو تريزل، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثانية.

- المرسي، كمال الدين عبد الغني، 1420هـ، 1999م، فواصل الآيات القرآنية، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، الطبعة الأولى.

- الجرجاني، محمد بن علي بن محمد، 1481هـ، 1997م، الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، تحقيق: د.عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، طبعة جديدة مزيدة ومنقحة.

- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر ، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية - لبنان / صيدا.

- القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، 1406هـ، 1982م، إنباه الرواة على أنباه النحاة، دار الفكر العربي، بيروت، الطبعة الأولى.

- بن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم، 1992م، المعارف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة: الثانية.

- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الرومي، 1414هـ - 1993م، معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى.

- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، 1418هـ 1998م، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى.

- الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، 2002م، الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر.

- كحالة، عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى - بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت.

- التبريزي، يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ، شرح ديوان الحماسة (ديوان الحماسة: اختاره أبو تمام حبيب بن أوس، دار القلم – بيروت

- العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر، 1390هـ /1971م، لسان الميزان، المحقق: دائرة المعرف النظامية – الهند، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان الطبعة: الثانية.

- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز، 1427هـ-2006م، سير أعلام النبلاء، دار الحديث- القاهرة.

- المرادي، أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ، 1413هـ - 1992م، الجنى الداني في حروف المعاني، المحقق: د فخر الدين قباوة -الأستاذ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان الطبعة: الأولى.

- ابن مالك، محمد بن عبد الله، الطائي الجياني، أبو عبد الله، 1410هـ - 1990م، شرح تسهيل الفوائد، المحقق: د. عبد الرحمن السيد، د. محمد بدوي المختون، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى

الكتاب في أصله دراسة أكاديمية نال بها المؤلف درجة الدكتوراه من معهد العلوم الاجتماعية في جامعة يالوفا في تركيا . سلّط الضوء من خلالها على الخصائص والسمات التي منحت القرآن الكريم هذا التميز في المفردات والأسلوب والنظم، وجعلته يسمو على كلام البشر، واتخذ من سورة إبراهيم حقلاً للدراسة، حيث تناول كلاً من الكلمة والنظم القرآني فعرض خصائص اللفظ القرآني من حيث صفائه وفصاحته ومنهج البيان الإلهي في اختياره، إضافة إلى الدواعي البلاغية المؤثرة في هيئة المفردة معرفة كانت أو نكرة، في هيئة الإفراد أو الجمع أو غيرها، ثم فصل القول في بلاغة أسلوبي الخبر والإنشاء، وأظهر براعة البيان الإلهي في نظم الجمل ورصف المعاني وحسن استثماره لأساليب القصر، والإيجاز والإطناب، والفصل والوصل. ثم انتقل بعد ذلك إلى الحديث عن البلاغة القرآنية في صياغة الصور البيانية في التشبيه والمجاز والكناية مبيناً الأغراض البلاغية لاستخدامها والدقة في انتقاء عناصرها ومركزا على مواضع الجمال الفني في حياكتها . واختتم الدراسة بتقصي أنواع المحسنات البديعية الواردة في السورة؛ المعنوية منها واللفظية موضحاً دورها في تقوية المعنى وجلائه إضافة إلى وظيفتها في تجميل النص وتحسينه